



الرقم الترتيبي: 42/2023

مركز دراسات الدكتوراه: الآداب والعلوم الإنسانية والفنون وعلوم التربية
تكوين الدكتوراه: التاريخ والتراث والعلوم الدينية والاجتماعية
الحقل المعرفي: الدراسات التاريخية
التخصص: التاريخ
المختبر: المغرب: التاريخ والعلوم الشرعية واللغات

أطروحة لنيل الدكتوراه

جوانب من تاريخ صحراء الملثمين خلال العهد المرابطي

تحت إشراف:
د. الحاج موسى عوني

وعده الطالبة الباحثة:
الفرحة المكي

تاريخ المناقشة: 2023/02/23

أعضاء لجنة المناقشة:

الصفة	مؤسسة الانتماء	الإطار	أعضاء لجنة المناقشة
رئيسا	كلية الآداب سايس فاس	أ.ت.ع	الدكتور محمد حاتي
عضوا	كلية الآداب سايس فاس	أ.ت.ع	الدكتورة فاطمة نافع
عضوة	كلية الآداب مكناس	أ.ت.ع	الدكتور محمد البركة
مشرفا	كلية الآداب سايس فاس	أ.ت.ع	الدكتور الحاج موسى عوني

السنة الجامعية: 2023/2022



مقتضب عن الأطروحة

تعالج الأطروحة موضوع مدن الصحراء خلال العصر المرابطي وما طرأ عليها من تحولات على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والعمراني. فقد أضى المجال الصحراوي الممتد الذي شكل منطلق الدعوة المرابطية، فضاء هاما بالنظر لدوره في تجارة القوافل وفي توثيق العلاقات الاجتماعية والثقافية والفكرية بين الشمال الإفريقي وبلاد جنوب الصحراء. ازدهرت وقتذاك العديد من المدن الصحراوية مثل: آوداغست وكومي صالح بل إن أزوكي اختيرت مقرا للدولة الناشئة، فضلا عن هذه المدن الكبرى - التي اندثرت مع مرور الزمن - ظلت مدن أخرى تقوم بأدوارها المختلفة ووظائفها المتعددة وهي المسماة بالمدن الحية مثل (ولاته، ودان، تيشيت، شقيط). وقد أسهمت المعطيات التي حصلنا عليها من الوثائق والمصادر المختلفة والأبحاث الأثرية والرواية الشفوية من رسم لوحة تقريبية عن مدن الصحراء زمن المرابطين وظيفيا وعمرانيا.

الكلمات المفتاح:

العصر المرابطي، صحراء الملثمين، الطرق التجارية، المدن المندثرة، المدن الحية.

الإهداء

إلى كل:

القراء المهتمين بصيانة التراث كمهنة، وبإنقاذه كفكرة.

أقول لهم:

لقد جمعت لكم لبنات من تراث غامض، أسست عليها هذه الدراسة،
ويتوجب عليكم كشف الغموض لإكمال البنية الدراسية كي تعم الفائدة.
رجائي بذل مجهود مشهود كي لا تجتر الأفكار وينتفي المقصود.

كلمة شكر

أشكر الله تبارك وتعالى على ما أسدى إلي من نعمه التي لا تحصى، وعلى ما خصني به من نعمة العقل والفهم والدراية،
النعم التي مكنتني من معرفة حجم ما أحاطني به أستاذي

الفاضل: الدكتور: الحاج موسى عوني

من حسن المعاملة، وما تحمل من زلاتي وهفواتي، وما قدم لي من نصح وتوجيه وإرشاد، كان له الأثر البالغ في إخراج هذا العمل إلى ساحة المعارف المؤهلة للنقاش.

فله مني كامل العرفان بالجميل.

كما أشكر أهلي في العاصمة العلمية للمملكة المغربية: فاس،
على حسن الضيافة والعشرة والطيبة.



الرقم الترتيبي: 42/2023

مركز دراسات الدكتوراه: الآداب والعلوم الإنسانية والفنون وعلوم التربية
تكوين الدكتوراه: التاريخ والتراث والعلوم الدينية والاجتماعية
الحقل المعرفي: الدراسات التاريخية
التخصص: التاريخ
المختبر: المغرب : التاريخ والعلوم الشرعية واللغات

تقرير أطروحة لنيل الدكتوراه

جوانب من تاريخ صحراء الملثمين خلال العهد المرابطي

تحت إشراف:
د. الحاج موسى عوني

أعدت الطالبة الباحثة:
الفرحة المكي

تاريخ المناقشة: 2023/02/23

السنة الجامعية: 2023/2022

تقرير عن أطروحة الدكتوراه

أهداف وأهمية البحث

لقد ساعد موقع صحراء الملثمين على عبور القوافل التجارية بين منطقة افريقيا الشمالية والجنوبية، مما أدى إلى تكوين مراكز تجارية أو مدن ساهمت في نشاط الحركة التجارية عبر الفترات التاريخية. وقد اتخذت الحركة المرابطية من هذا المجال الصحراوي منطلقا لنشأتها وبسط نفوذها وتوسعها فيما بعد عن طريق الفتوحات الجهادية التي شملت المنطقة مما مكنها من ترسيخ دعائم المذهب المالكي ونشره وفقا لما يتطلبه من تطبيقات، وشمل ذلك جميع السكان من بدو وحضر وكان للمدن الصحراوية الوسيطة النصيب الأوفر من ذلك، حيث شيدت المساجد وعمرت بالمصلين، واتخذت الروابط لنشر العلوم الشرعية عن طريق التدريس، مما مكن المدن الوسيطة (ازوكي، اوداغست، كومي صالحي) من التطور والازدهار خلال الفترة المرابطية، الشيء الذي لم تشاركها فيه المدن الأخرى (ولاتة، وادان، تيشيت، شنقيط) التي استمرت في نشاطها فيما بعد رغم اشتراكهما مرحلة الفتح المرابطي.

مما جعل هذه الدراسة تهدف الى ابراز جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية التي شهدتها صحراء الملثمين خلال العهد المرابطي.

أهمية الموضوع

أدى الفراغ السياسي الذي خلفته الدولة المرابطية في منطقة الصحراء الى الصراعات الداخلية في المدن الصحراوية الوسيطة بالإضافة الى موجات القحط والجفاف الذي تسبب فيها المناخ مما فرض على السكان الانزياح الى الارياف والبادي تاركين خلفهم موروثة حضاريا قيما يؤرخ لحقبة تاريخية شهدتها المنطقة. وتكمن أهمية هذا البحث في الاسهام في تدوين تاريخ المنطقة الصحراوية أولا ثم في تسليط الضوء عليها وعلى ما وصلت له من أحوال تستدعي التدخل للحفاظ على تراث عمراني وتاريخي يوشك على الضياع.

إشكالية الدراسة

قد طرحت صياغة الأطروحة إشكاليات تتطلب الإجابة عليها الغوص في أعماق الموضوع بالتحليل والتمحيص والمحافظة على حدود الإشكالية (الزمانية والمكانية) ليتحدد السؤال الجوهرى المحوري في هذه الدراسة ب:

"ما هي التحولات التاريخية في صحراء الملثمين ابان العهد المرابطي؟"

منهجية الدراسة

لقد اقتضت الدراسة تناول الموضوع بشكل مفصل حسب منهجية محددة وموحدة، وقد تم اختيار المنهج التاريخي "الذي يعتمد الوصف والاستقراء ثم التحليل والتفسير والاستنتاج".

وقد تم الاعتماد في إنجاز الدراسة على ما قدمته المادة المصدريّة والمرجعية من معلومات مفيدة ومتنوعة. وتم جمع ما قدمته المصادر الوسيطة العربية والدراسات الأجنبية، من معلومات متنوعة والتي شكلت الركيزة الأساسية في إنجازه.

أما المصادر المحلية (المخطوطات) فعلى الرغم من تأخرها عن الفترة المشمولة بالدراسة لكون جلها كتبت في القرن (12هـ، 18م) فقد تم الاستفادة منها هي الأخرى.

وكان للأبحاث الأثرية التي شهدتها المنطقة في خمسينيات القرن العشرين والتي حظيت بها بعض المناطق الأثرية، مساهمة كبيرة في مد البحث بمعلومات أركيولوجية هامة دعمت جانب المدن منه.

بنية البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث تقسيمه إلى مقدمة وبابين كل منهما يضم أربعة فصول ثم خاتمة، وتفصيلها كالآتي:

مقدمة:

الباب الأول: وقد انفرد بدراسة المدن الصحراوية الوسيطة المندثرة من خلال أربعة فصول، تحدث الفصل الأول منها عن المجال الصحراوي عموماً، كما تم الحديث في الفصول (الثاني والثالث

والرابع) من الباب الأول عن مدن أزوكي وأوداغست وكمبي صالح (غانه)، عن نشأتها وتطورها وإطارها الجغرافي والتاريخي وكذا الأبحاث الأثرية التي أنجزت فيها، وأدوارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والفكرية.

الباب الثاني: وقد اختص بدراسة المدن الصحراوية الوسيطة الحية (ولاته، وادان، تيشيت، شنقيط)، وتمت معالجته من خلال منهجية موحدة في أربعة فصول اختص كل واحد منها بدراسة إحدى المدن.

أما الخاتمة فكانت استنتاجات لما ورد في الدراسة من أفكار وحوصلة لأهم الأجوبة على الأسئلة المثارة.

أهم النتائج المتوصل إليها

فيما يلي عرض لأهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث.

- عرفت صحراء الملثمين في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي تحولات تاريخية شملت الجوانب الاقتصادية والثقافية والعمرانية والاجتماعية
- من الناحية العلمية والثقافية، كانت صحراء الملثمين بمثابة حاضنة للرباطات العلمية، أما من الناحية الاجتماعية، فقد أصبحت مدن الصحراء مستقرا للوافدين من مختلف الجهات. فيما يخص الناحية الاقتصادية، كانت المدن الصحراوية معبرا للقوافل التجارية، مشكلة بذلك منطقة وصل اقتصادية ربطت الشمال الافريقي بجنوبه.
- أثرت العمارة المغربية والسودانية على المدن الصحراوية الوسيطة في العهد المرابطي عن طريق انتقال الجاليات التجارية واستقرارها في تلك المدن.
- مع أنها فتحت من طرف المرابطين في فترات متقاربة، لم تعرف المدن الصحراوية الازدهار في نفس العهد، فبينما ازدهرت أزوكي وأوداغست وكومبي صالح مع بلوغ الدولة المرابطية أوج ازدهارها، لم تشهد باقي المدن تغيرا يذكر الا في قرون لاحقة.
- كان التراجع ثم الاندثار قدرا محتما خضعت له تلك المدن ساهمت فيه عوامل سياسية واقتصادية وطبيعية وأخرى بشرية.

مقدمة

لقد ساعدت المبادلات التجارية بين الشمال الإفريقي والسودان الجنوبي، على تأسيس المدن وازدهارها، ولم تكن صحراء الملثمين بمنأى عن هذه الظاهرة، بل برزت بها مراكز تجارية هامة خلال العصر الوسيط، حيث عرفت آوداغست وكومبي صالح بنشاطهما التجاري المتميز في المنطقة، وفي منتصف القرن (5هـ / 11م) شهد مجال الصحراء تحولات دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية وعمرانية بفعل الوجود المرابطي بمنطقة جبل لمتونة أو ما يعرف اليوم (بسلسلة جبال آدرار في الشمال الموريتاني)، كخطوة أولى للتحصن بمدينة "آزوكي" القاعدة العسكرية لانطلاقة الفتوحات، فاتجه المرابطون في المرحلة الأولى إلى مدينة آوداغست سنة 1054م، وسيطروا على المدينة واتجهت جيوشهم منها إلى سجلماسة وسيطرت عليها سنة 1055م، وبعد السيطرة على منافذ التجارة، واصل المرابطون فتوحاتهم للوصول إلى أهدافهم المنشودة، مما نتج عنه تأمين المسالك التجارية القائمة في تلك الفترة، و ساعد الجاليات التجارية للتنقل والاستقرار في تلك المدن الصحراوية، حاملة معها المؤثرات الحضارية من بلاد الفاتحين.

لقد كشفت نتائج الأبحاث الأثرية التي أجريت في منطقة الصحراء في خمسينيات القرن العشرين عما حملته تلك المؤثرات من موروث حضاري وقيمي كان له الأثر البالغ في تغيير نمط الحياة لسكان المنطقة، وبعد عودة الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء، وما صاحب ذلك من فتوحات جهادية، سيطر المرابطون على مدن آدرار: آبير (شنقيط الأولى) ووادان، كما فتحوا غانه (كومبي صالح) سنة 1076م، وسيطروا عليها و أصبحت أيضا مدينة ولاته في حوزتهم بحكم وقوعها تحت سيطرة مملكة غانه في تلك الفترة، وقد دخلوا واحات تيشيت للسيطرة على تلك المنطقة و كان لهم ذلك، حيث استتب لهم الحكم في بلاد الصحراء، ونالت المدن الصحراوية قسطها من التحولات التي جرت على باقي المجال الصحراوي إبان الحكم المرابطي، انتشر المذهب المالكي فيها وتم ترسيخه وفقا لما يتطلبه من تطبيقات،

وشمل ذلك جميع سكان الصحراء من بدو وحضر حيث شيدت المساجد وعمرت بالمصلين واتخذت الرباطات لنشر العلوم الشرعية عن طريق التدريس، وكانت مدينة أزوكي عاصمة المرابطين في الصحراء مثالا على ذلك، ومن شواهد وجود ضريح الإمام الحضرمي المعروف بقاضي أزوكي بها، ولم تحظ الصحراء باهتمام الدارسين في تلك الفترة ولا بعدها، خاصة أن الفراغ الذي خلفته وفاة الأمير أبي بكر بن عمر خيم على منطقة الصحراء الجنوبية كلها مما ولد عدم الاهتمام بالمنطقة من طرف الكتاب وغيرهم وساعد في إحجام المصادر عن الحديث عنها إلا ما ندر، وقد علل البعض ذلك الإحجام بازدهار الدولة بالشمال بقيادة يوسف بن تاشفين وما صاحب ذلك من انتصارات شغلت جل الكتاب عن التدوين حول الصحراء، مما نتج عنه ضياع الكثير من الأخبار حول تاريخ هذا الجزء من الدولة المرابطية.

وقد نشأت المدن في العصر الوسيط وازدهرت خلاله واندثرت أخرى نتيجة عوامل مختلفة سيتم الخوض فيها خلال هذه الدراسة، أما المدن الوسيطة الحية فما تزال قائمة وتحفظ بمصطلح "المدن القديمة" كاسم محلي مفخرة، وقد احتضنت هذه المدن الإرث الثقافي والمادي للبلاد وحافظت على الدور الحضاري الذي لعبته المنطقة رغم ما صاحب ذلك من غموض في فترات زمنية معينة حال دون الكشف بدقة عن تاريخ تأسيسها ومراحل نشأتها وتطورها، مما فرض علينا الاعتماد على الروايات الشفهية المتداولة مع ما تحمله تلك الروايات من تناقض وما يوجه إليها من عدم الدقة وما يقدر فيها به من عدم المصادقية، الشيء الذي يخضعها للشك والتريث والتحري، وقد عزز غياب التدوين والصراعات الداخلية التي عاشتها المدن وموجات القحط والجفاف التي تسببت في نزوح الكثير من السكان وانتقالهم من مرحلة التمدن إلى البداوة في هجرة معاكسة الاعتماد على الروايات الشفهية نظرا للانعكاسات السلبية للترحال على المكتبات وما يسببه من تلف للمخطوطات وما يولده من عدم الاهتمام بالتأليف، الشيء الذي أدى إلى ضياع جوانب كثيرة من تراث المنطقة

وإهمال دراسة بعض العلوم المهمة والانكباب على دراسة العلوم الشرعية (القرآن وعلومه، وعلوم اللغة، والأدب وما إلى ذلك).

وقد انعكس ذلك على الكثير من المجالات العلمية الأخرى، ونال علم التاريخ النصيب الأوفر من ذلك الإهمال، حتى أصبحت البلاد الصحراوية تعاني من بعض الحلقات المفقودة حسب تعبير بعض الباحثين المحليين، مما عاق ويعيق عمل الباحث نظرا لما لهذا المجال الصحراوي من أهمية تاريخية وجغرافية تمثلت في المكانة التي تبوأتها في منطقة الغرب الإسلامي في ظل الدولة المرابطية آنذاك، وما نجم عن ذلك من نتائج، نالتها المراكز التجارية الصحراوية أو المدن التي وقعت تحت السيطرة المرابطية، وما أضافته تلك الدولة على المستوى الديني والثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والأمني، حيث أمنت المدن والطرق التجارية في المنطقة، وساعدت المدن في تأدية أدوارها في جميع المجالات ومع ذلك أهمل هذا الحيز الجغرافي من قبل الدارسين خاصة في الحدود الزمنية المدروسة (القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي)، ولعل ذلك يعود إلى فقر المادة المصدريّة المرتبطة بها، مما سبب الإهمال والعزوف عن دراسة تلك المدن في الفترة المرابطية وهو ما نبع منه اختياري لموضوع الدراسة، خاصة وأني قد درست الدولة المرابطية بالصحراء في بحث سابق مما خول لي الاطلاع على الكثير من الدراسات حول هذه الدولة، لكن الرغبة ظلت جامحة في مواصلة البحث، مما ولد عندي اختيار الموضوع وبقيت رهينة المجال حتى تمت صياغة الموضوع على النحو التالي: "جوانب من تاريخ صحراء الملثمين خلال العهد المرابطي".

ويقصد بصحراء الملثمين المجال الممتد من مدينة اغدامس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ومن نهر النيجر في السودان جنوبا إلى جبال درن بالمغرب شمالا، وهو المجال الذي انتشرت به قبائل الملثمين. أما الفترة الزمنية للدراسة فهي تبدأ مع 448 هـ / 1056م التي تؤرخ لقيام دولة المرابطين وتمتد إلى سنة 541 هـ / 1147م. وسنسعى في هذا العمل إلى

دراسة جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية التي شهدتها المجال المذكور خلال فترة حكم المرابطين.

ولم يكن اختيار هذا الموضوع محض صدفة، بل نتاج تفكير عميق نابع من انتمائي كباحثة لهذا الحيز الجغرافي، وما يتولد عن ذلك الانتماء من رغبة في دراسة هذا الحيز (الوطن) ومعرفة كنهه وتاريخه والحضارات المتعاقبة والأمم الماضية وغيرها.

وقد عرضت صياغة الأطروحة إشكاليات تتطلب الإجابة عنها، الغوص في أعماق الموضوع بالتحليل والتمحيص والمحافظة على حدود الإشكالية (الزمانية والمكانية) ليتحدد السؤال الجوهرى المحوري في هذه الدراسة ب:

"ما هي التحولات التاريخية في صحراء الملثمين ابان العهد المرابطي؟"

ويكون تفريع هذا السؤال الجوهرى إلى جزئيات البحث لإجلاء الغموض وإثارة الاشكاليات الجزئية في الأسئلة التالية.

- كيف كان تعامل المرابطين مع المدن الصحراوية الوسيطة ؟
- ماهي الأدوار التي قامت بها مدن صحراء الملثمين في العصر الوسيط؟
- ما مدى تأثير العمارة المغربية والسودانية على العمارة الصحراوية؟
- ما مدى الازدهار الذي حققته هذه المدن؟
- وكيف تم التراجع والاندثار للمدن الوسيطة المندثرة؟
- وكيف حافظت المدن الوسيطة الحية على استمراريتها؟

وقد اقتضت الدراسة تناول الموضوع بشكل مفصل حسب منهجية محددة وموحدة، وقد اخترت لذلك المنهج التاريخي "الذي يعتمد الوصف والاستقراء ثم التحليل والتفسير والاستنتاج"، واعتمدت في ذلك على حشد المعطيات المصدريّة والمرجعية والدراسات الأثرية مع مراعاة لتقييمها واستخلاص الموقف الشخصي كلما دعت الحاجة إلى ذلك، كما راعيت

المعلومات المختلفة وآراء الدارسين والمهتمين وانطلقت من صحة كل الفرضيات قبل تحليلها وتمحيصها واستخلاص الحكم أو الترجيح بين الآراء المتضاربة في حالة غياب الأدلة الكافية والحجج المقدمة لإعمال المنطق في ذلك ومن البديهي أن نعتمد في إنجاز الدراسة على ما قدمته المادة المصدرية والمرجعية من معلومات مفيدة ومتنوعة بقدر ما لامسته من جوانب للموضوع كما تفاوتت حسب أهميتها والفترات الزمنية لإبراز الحقبة الزمنية الغامضة من تاريخ هذا الجزء من الصحراء لعدم اهتمام الباحثين به، خاصة في جزئه المتعلق بالتمدن، نظرا لقلّة المعلومات المتعلقة به.

وقد قادتني دراسة هذا الموضوع إلى جمع ما قدمته المصادر الوسيطة العربية والدراسات الأجنبية، من معلومات متنوعة والتي شكلت الركيزة الأساسية في إنجازه، إلا أنها لم تسد النقص الحاصل في هذا الموضوع، وبقيت جوانب غامضة.

أما المصادر المحلية (المخطوطات) فعلى الرغم من تأخرها عن الفترة المشمولة بالدراسة لكون جلها كتب في القرن (12هـ/18م) فقد أمدتني هي الأخرى بمعلومات لا يمكن الاستغناء عنها في إنجاز هذا البحث، إلا أنها لم تتناول في مجملها إلا الجانب الجهادي للمرابطين واقتصر اهتمامها بجانب التمدن على إichاءات تتعلق بالعمارة الدينية كالمساجد والرباطات التعليمية مع الإشارة إلى إرهابات التمدن الأولى التي شهدتها المنطقة كأنماط من القلاع والأسوار والأخصاص (الأعرشة) وغيرها.

وكان للأبحاث الأثرية التي شهدتها المنطقة في خمسينيات القرن العشرين والتي حظيت بها بعض المناطق الأثرية، مساهمة كبيرة في مد البحث بمعلومات أركيولوجية هامة دعمت جانب التمدن منه، إلا أنها لم تركز على ما قدمته الدولة المرابطية من تأثيرات على ذلك الجانب، وقد تناول الباحثون المحليون المتأخرون ذلك في أطروحات مست جوانب الموضوع وكانت لها إسهامات هي الأخرى في إغناء الموضوع بمعلومات مفيدة عن المجال الصحراوي إبان فترة قيام الدولة المرابطة في القرن (5هـ - 11م).

ومن أهم تلك الدراسات أطروحة بعنوان: "صحراء الملثمين" وعلاقتها بشمال وغرب إفريقيا للباحث الناني ولد الحسين، حيث بينت قيام الدولة المرابطية بالصحراء وما صاحب ذلك من تحولات شملت جميع المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، مما نتج عنه تحولات جذرية في المنطقة.

وتناولت دراسة "المدن الوسيطة المندثرة" للباحث أحمد مولود ولد أيده تأثير المدن، بالروافد الخارجية الوافدة من بلدان مختلفة ومساهمتها في النمط المعماري القائم بهذه المدن كما تناول نفس الباحث في أطروحته "مدن موريتانيا العتيقة " : قصور (ولاته، وادان، تيشيت ، وشنقيط)، وعبر عنها بالمدن الوسيطة الحية، وقد تحدث عن نشأتها، مبرزا علاقتها بالمدن الوسيطة المندثرة ومدى تأثير العمارة المغربية والسودانية على نمط العمارة الصحراوية، وكذا تأثيرها بالعمارة المرابطية خاصة الدينية كالمساجد والرباطات الدينية.

أما الروايات الشفهية المحلية فكانت لها إسهاماتها التي أنارت جوانب مهمة من هذه الدراسة، حيث تتكامل مع المصادر المحلية وتفصل أحيانا ما ذهبت إليه بعض المصادر في موضوع دخول المرابطين بعض المدن الوسيطة الحية، كما ذكرت الروايات الشفهية المشوبة بالنمط الأسطوري سيطرة قادة المرابطين على منطقة الصحراء كلها حتى ضفاف نهر النيجر وكونهم يتمتعون بقدرات خارقة كالكشف والولاية وغيرها، وعلى الرغم مما أمدتني به المصادر والمراجع من معلومات متفاوتة الأهمية، وما أسعفتني به الروايات الشفهية مع ما أصابها و يصيبها من تشويش الأساطير، فإن الموضوع مازال بحاجة إلى ما يجلي عنه الغموض.

وبخصوص المعوقات، فإنه لا تخلو أية دراسة من صعوبات تعترض طريقها، وقد واجهتني في إنجاز هذا العمل عدة معوقات أذكر منها:

. شح المعلومات المتعلقة بالموضوع في المادة المصدرة لانعدام التدوين في عصره، ويزداد صعوبة بسبب ندرة الدراسات القريبة من الموضوع.

. توجه الكثير من الدراسات نحو الحقبة الحديثة والمعاصرة مما انعكس على عدم الاهتمام بالحقبة الوسيطة.

. الاختلاف الكبير إلى حد التناقض في العديد من المعطيات المدونة.

. الإفراط في الذاتية لدى بعض المصادر المحلية.

. تعذر الحصول على بعض المصادر والمراجع بالمكتبات والخزانات خاصة الشخصية منها.

. النقص الحاصل في الحفريات المرتبطة بالمواقع الأثرية مما يتعذر معه الكشف عن أسرار النسيج الحضري للمدن المندثرة والأحياء التي ما زالت دفينه الرمال مما جعل بعض الأسئلة ذات الصلة رهينة التنقيب عن تلك الآثار ومؤجلة الإجابة إلى حين الكشف عنها.

ولم تكن الصعوبات المشار إليها سابقا إلا محفزا لإنجاز هذا العمل، وقد فرضت الدراسة خطة تتلاءم مع الموضوع وتراعي خصوصياته حسب المنهجية التالية:

❖ مقدمة:

الباب الأول: وقد انفرد بدراسة المدن الصحراوية الوسيطة المندثرة من خلال أربعة فصول، تحدثت في الفصل الأول عن المجال الصحراوي عموما، ووضحته من خلال ثلاث مباحث، تفصيلها كالآتي:

تناول المبحث الأول موضوع التمدن بالصحراء، من خلال إبراز مفهوم التمدن في اللغة والاصطلاح، ثم التطرق إلى التمدن بالصحراء كظاهرة عرفت المنطقة في حيز جغرافي مترامي الأطراف قبل الحديث عن حركة الإعمار ونشأة المدن ووظائفها المختلفة.

وأما المبحث الثاني، فكان الحديث فيه عن نشأة الحركة المرابطية، وعن الحضور المرابطي في الصحراء، والتوسع المرابطي بالمنطقة.

وأما المبحث الثالث، فقد تحدث عن التجارة عبر الصحراء و دورها في نشأة المدن وعن محاور التجارة بها والقوافل التجارية ونظامها ووسائل النقل والمقاييس التجارية المستخدمة. كما تم الحديث في الفصول (الثاني والثالث والرابع) من الباب الأول عن مدن أزوكي وآوداغست وكمبي صالح (غانه)، عن نشأتها وتطورها وإطارها الجغرافي والتاريخي وكذا الأبحاث الأثرية التي أنجزت فيها، وأدوارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والفكرية.

الباب الثاني: وقد اختص بدراسة المدن الصحراوية الوسيطة الحية (ولاته، وادان، تيشيت، شنقيط)، وتمت معالجته من خلال منهجية موحدة في أربعة فصول اختص كل واحد منها بدراسة إحدى المدن، حيث تم تقسيم كل فصل إلى مباحث تناولت نشأة المدن وتطورها والإطار الجغرافي والتاريخي لها ومعالم المدن الأساسية من خلال التعريف بنماذج من العمارة الدينية والسكنية وعن أدوارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والفكرية، وقد دعمت الدراسة ببعض الصور والخرائط التوضيحية.

❖ الخاتمة:

أما الخاتمة فكانت استنتاجات لما ورد في الدراسة من أفكار، وحوصلة لأهم الأجوبة عن الأسئلة المثارة، ووضع توصيات.

الباب الأول: المدن الصحراوية الوسيلة المندثرة

الباب الأول: المدن الصحراوية الوسيطة المندثرة

الفصل الأول: التمدن بالصحراء: المفهوم والنشأة والتطور

المبحث الأول: التمدن بصحراء الملثمين

المطلب الأول: لمحة تاريخية عن المدن

لقد شكلت المدن الصحراوية الوسيطة المندثرة رافدا مهما وجسر عبور للحضارة العربية الإسلامية إلى إفريقيا جنوب الصحراء، وقد احتضنت ذخرا حضاريا كبيرا تجسد في المخطوطات والصناعات وأنواع الآثار، وكانت شاهدا أميناً على الحضارات المتعاقبة التي شهدتها المنطقة والتي انتشرت من هذه المدن واستفاد من عطاءاتها كل سكان المنطقة والوافدين، عبر الاحتكاك الذي يحدث عند ملتقيات طرق القوافل التجارية السائرة بين إفريقيا والعالم العربي، وقد برز دور هذه المدن في العصر الوسيط بحكم موقعها الجغرافي ومكانتها السياسية التي حظيت بها في تلك الفترة خاصة إبان حكم المرابطين، الذي جعل منها منطلقاً لنشاطاته السياسية والاقتصادية والجهادية الدعوية: حيث شيدت المساجد والمدارس القرآنية والمباني العسكرية والأسوار والأسواق وقصور الملوك، وحفرت الآبار والعيون وسكت النقود.

وقد صاحب النفوذ المرابطي بالغرب الإسلامي تأمين الطرق التجارية وحرية التنقل بين المراكز التجارية والمدن، فازدهرت المدن وانتعشت الأسواق التجارية بمختلف البضائع المتبادلة بين الشمال الإفريقي والجنوب السوداني¹، مما أكسب المدن الصحراوية أهمية تجسدت فيما احتضنته من آثار كانت شاهداً أميناً على الحضارات المتعاقبة في المنطقة، وقد تمثل ذلك فيما احتوته تلك المدن من صناعات ومخطوطات وفنون وثقافات مختلفة أوجدتها تلك الشعوب المختلفة الأعراق والمشارب، إذ يرى بعض الباحثين أن أغلب سكانها يعيش تحت الخيام.

¹ - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي الجزء الأول، الطبعة الأصلية، بيت الفنون والآداب الجزائر 2006م ص: 67.

يقول اليزيد حمدوني: "إن أغلب سكانها يلتزم بالعيش تحت الخيام إلا أن ذلك لم يمنع من التجمعات التي شكلت بدورها مدنا وقصورا كمدينة آزوكي² وبنكلايين³.

وقد لعبت تلك المدن دورا أساسيا بالصحراء حيث قسم بعض الباحثين المحليين هذه المدن إلى أجيال.

• الجيل الأول: المدن الوسيطة المندثرة (آزوكي، أوداغست، كومبي صالح)

. مدينة آزوكي: تعتبر عاصمة المرابطين في الجزء الجنوبي للصحراء والتي تقع حاليا في شمال البلاد الموريتانية وتبعد عن العاصمة انواكشوط حوالي 450 كلم، وتوجد في ولايه أدرار قرب مدينة أطار على بعد 7 كلم.

. مدينة أوداغست: تقع أطلالها جنوب شرق موريتانيا الحالية على بعد 50 كلم من مدينة تامشكط الحالية في ولاية الحوض الغربي، وهي العاصمة القديمة لقبائل صنهاجة عرفت الإسلام في القرن (2هـ/8م).

. مدينة كمبي صالح: تقع في الشرق الموريتاني وهي عاصمة لإمبراطورية غانه القديمة بالسودان، وكانت من أكبر مدن الصحراء إعمارا وتبعد عن العاصمة انواكشوط حوالي 1160 كلم شرقا، وعن مدينة تمبذغة حوالي 60 كلم إلى الشمال الغربي.

وقد اتخذت هذه المدن شهرتها في العصر الوسيط من الأدوار التجارية والسياسية، فمدينة آزوكي تعتبر عاصمة للبافور منذ القدم، كما أن القبائل الصنهاجية اتخذت أوداغست عاصمة لها قبل مجيء المرابطين، وكانت كومبي صالح عاصمة لمملكة غانه في السودان، وقد ظلت هذه المدن تتابع أدوارها إلى مجيء الدولة المرابطية التي بسطت نفوذها على

² - اليزيد حمدوني علمي، جغرافية المدن ج(1) أطروحة دكتوراه دولة في الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرارز، فاس، السنة الجامعية 2003-2004م، ص: 70.

³ - بنكلايين: قرية من قرى السودان تسكنها جماعة من المسلمين تعرف ببني وارث من صنهاجة وتقع شرقي مدينة كركارة التي بها ضريح رئيس قبيلة لمتونة المعروف بترشينا. البكري المسالك والممالك، ص: 85.

منطقة الصحراء وأجزاء من بلاد السودان ونشرت المذهب المالكي، واتخذت أزوكي قاعدة عسكرية وعاصمة سياسية وفتحت مدينة آوداغست ثم مدينة غانه بعد ذلك.

• **الجيل الثاني:** المدن الوسيطة الحية (شنقيط، ودان، تيشيت، ولاته)⁴:

تعتبر مدن الجيل الثاني الوسيطة الحية امتدادا للمدن الوسيطة المندثرة وقد نقلت إليها الموروث الحضاري والفن المعماري، ونشطت هي الأخرى بعد الاندثار الذي أصاب مدن الجيل الأول نتيجة لاعتبارات أساسية من أهمها: تحولات الطرق التجارية لصالح مدن الجيل الثاني والتغيرات المناخية المتمثلة في نزوب المياه في بعض المدن.

وقد ازدهرت هذه المدن في القرن السادس الهجري حيث قدمت للصحراء موروثا عمرانيا وثقافيا واقتصاديا، وتواصل العطاء إلى ظهور التجارة البحرية وتراجع تجارة القوافل.

وقد ظلت المدن الوسيطة الحية صامدة رغم تراجع أدوارها تصارع عادات الزمن ولسان حالها يستنجد إلى أن أسست الدولة الموريتانية " المؤسسة الوطنية لحماية المدن القديمة سنة 1996م وعهد إليها بحماية وصيانة التراث المادي واللامادي في المدن الأربع (ولاته، تيشيت، وادان، شنقيط)⁵.

⁴ - صنفّت هذه المدن ضمن التراث العالمي بتاريخ 07-12-1996م من طرف منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة (اليونسكو)

⁵ - زيارة الموقع 26-02-2020 عند س 12 www.culture.gov.mr/spip.ph



خريطة رقم 1 : خريطة المدن الصحراوية الوسيطة المشمولة بالدراسة

مفتاح الخريطة

- المدن الصحراوية الوسيطة المندثرة ■
- المدن الصحراوية الوسيطة الحية ⬡

أولاً: مفهوم التمدن

1) التمدن لغة

من (مدن) : فلان مدونا أي أتى المدينة

تمدن: عاش عيشة أهل المدن وأخذ بأسباب الحضارة

المدينة: الحضارة واتساع العمران وهي المصر الجامع وهي جمع مدائن ومدن⁶.

وتعنى المدينة في اللغة مكان الإقامة أو الاستقرار، فمدن بالمكان أقام به وقد يكون الاشتقاق من فعل (دين) أي ملك، وربما مشتقة من دان يدين أي يحكم وديان أي القاضي فهي مكان إقامة القاضي⁷.

وقد ورد هذا اللفظ في معجم المعاني الجامع:

المدينة: (اسم) وهي من فعل تمدن: يتمدن، تمدنا فهو متمدن بمعنى تمدن البدو: بعدما استقروا وعاشوا عيشة أهل المدن وتكيفوا مع جوها.

- تمدن الشعب: دخل مرحلة الرقي والحضارة والعمران.
- تَمَدَّنَ: اسم مصدر تمدن وتمدَّنَ (فعل خماسي) ومعناها أنهم تحضروا بأخلاق سكان المدن منتقلين من الخشونة إلى الأنس وحالة الظرف عاش مجتمع متمدن.
- والمدينة: هي تجمع سكاني يزيد على تجمع القرية وهي اسم من أسماء يثرب مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم⁸.

وقد ورد ذكر المدينة في القرآن الكريم 14 مرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

⁶ - إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطية العوالمي، محمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط، الطبعة الثانية ج (1) ص: 809 أشرف على الطبع حسن علي عطية، أحمد شرفي أمين 2004.

⁷ - صبري فارس الهيتي، جغرافية المدن، الطبعة الأولى 2002م - 1423هـ، دار الصفا للنشر والتوزيع عمان ص: 24.

⁸ - نفسه.

{وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} ⁹. يس الآية: 20.

وفي جمع المدن على صيغة مدائن يقول جل من قائل: {قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} ¹⁰.

(2) التمدن اصطلاحاً

وهو التحضر عكس البداوة وهو كما أشار إليه ابن خلدون بقوله: "الإنسان مدني بالطبع" ¹¹ أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران.

وقد عرف ابن منظور المدينة بأنها: "الحصن يبني في أصطمة الأرض، - والأصطمة معظم الشيء وتمامه - (...) وكل أرض يبني بها حصن في أصطمتها فهي مدينة" ¹²

ويبين الفيروز آبادي نفس التعريف: " مَدَنَ: أَقام، فعل مُمَات؟، ومنه: المدينة، للحصن يبني في أَصْطُمَةِ أرضٍ، ج: مدائن ومُدُنٌ ومُدُنٌ" ¹³.

وهذا التعريف يختصر عندما يخص المدينة بالحصن ويخرج المدن الأخرى غير المحصنة من دائرة التمدن:

وقد يختلف مصطلح المدينة عن القرية ببعض المميزات التي تختص بها المدينة عن القرية لاحتواء المدينة على بعض المنشآت الحضرية مثل الأسواق والحمامات، والأسوار...

ويعرف ابن منظور القرية بأنها " هي المصر الجامع (...) والقرية من المساكن والأبنية والضياع" ¹⁴.

⁹ - سورة (يس) الآية: 20.

¹⁰ - سورة (الأعراف) الآية: 111.

¹¹ - عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، مصدر سبق ذكره، ص: 67.

¹² - ابن المنظور الأنصاري جمال الدين، لسان العرب، بيروت ط (3) 1994، ج 3، ص: 402.

¹³ - الفيروز آبادي مجد الدين، لسان العرب، القاموس المحيط، ج 4، 2005، ص: 272.

¹⁴ - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج15، مادة القرية ص: 177.

ويعتبر ابن خلدون أن التمدن: هو التحضر بعين ذاته القائم على الاستقرار في المدن وإذا بحثنا عن ساكنة المدن نجد أن أكثر ساكنتها من القرى التي تحيط بها وأن ساكنة القرى كلما أيسروا انتقلوا إلى المدينة لتظل تلك السيورة قائمة، ويعود ذلك إلى أن المدن والأمصار تستقر ساكنتها بحثا عن الترف والدعة¹⁵.

والتمدن عكس البداوة التي هي أقدم أيضا لدى ابن خلدون من الحضارة لأن البداوة أقرب إلى فطرة الإنسان الطبيعية ولأن أدواره تجلت في بداية أمره من الانطلاقة من الزراعة والفلاحة ليقوم بعد ذلك بتربية المواشي والحيوانات من بقر وإبل ونحل ودود... إلخ للارتفاع بنتائجها وهذا ما جعله يلجأ إلى السهول والبراري، وكان همه الوحيد جمع قوته والبحث عن السكن والدفع بالمقدار الذي يمكنه من الحياة ومواصلة العيش¹⁶.

وبذلك يكون البدو عنده أصل للحضر، لأن أول مطلب للإنسان هو حصوله على استمرار حياته، لينتهي إلى الكمال والترف ويصل البدوي إلى مبتغاه في التحضر.

ويعتبر بعض الباحثين أن المدينة مركز الثقافة السكانية لكنها مصحوبة عادة بتنوع العناصر والفئات والطبقات والطوائف والمواهب المزدهمة فقد يشترك البعض بعدم الكثافة السكانية لميزة المدينة، ويشترط وجود مركز سلطوي ووجود مركز دائم لتبادل السلع¹⁷.

ويصف أحد الباحثين المدينة بأنها المكان الذي يكون فيه القضاء، بمعنى الموضع الذي توفر فيه العدل والأمن¹⁸.

¹⁵ - ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد السلام، مصدر سبق ذكره، ص: 46.

¹⁶ - نفسه، ص: 116.

¹⁷ - عبد الباسط المستعين، المدن والمراكز الحضرية بالسوس بين : (668هـ/1269) و (1081هـ/1670م)، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، فاس السنة الجامعية 2009م-1430هـ ص: 66.

¹⁸ - عبد الباسط المستعين، المدن والمراكز الحضرية بالسوس، مرجع سبق ذكره ص: 66.

ولا يبتعد الجانب الديني كثيرا عن هذا المجال بل يبقى حاضرا كمحدد في بعض التعريفات، إذ يرى الإمام أبو حنيفة¹⁹ أن الجمعة تختص بها الأمصار عن غيرها، ولا يجوز إقامتها في القرى²⁰.

ونستخلص مما سبق أن المدينة تتميز عن القرى والحوضر بمجموعة من الخصائص والوظائف التي تقوم بها.

- الكثافة السكانية التي تفوق القرية.
- الوظيفة الإدارية المتمثلة في وجود حاكم مستقر لعماله.
- إقامة الحدود والأحكام التي تتطلب جهازا قضائيا.
- وحفظ الأمن الذي يقتضي إقامة الجمعة.

الوظيفة الاقتصادية المتمثلة في كون المدينة تشكل تجمعا كبيرا للمبادلات التجارية (السوق)

ثانيا: ظاهرة التمدن بصحراء الملثمين:

1) الحيز الجغرافي الصحراوي

لقد عرفت منطقة الغرب الإسلامي خلال القرن (5هـ-11م) سيطرة الدولة المرابطية التي امتد نفوذها من نيجريا جنوبا حتى شبه الجزيرة الإيبيرية شمالا، وقد شهدت هذه الفترة ازدهارا منقطع النظير للمذهب المالكي على تلك الرقعة المترامية الأطراف؛ ومما لا شك فيه أن هذه الدولة المرابطية حظيت بالكثير من الاهتمامات والبحث من طرف الكثير من الباحثين على اختلاف أعراقهم ومشاربهم، وكتب عنها الكثير، إلا أنها ما زالت تحتاج إلى مواصلة البحث لإخراج كنوزها خاصة في المنطقة الصحراوية والتي لم تحظ بما تستحقه من الاهتمام خلال

¹⁹ - الإمام أبو حنيفة: هو النعمان بن ثابت بن مرزيان الكوفي (80_150 هجرية. 659.767م) فقيه وعالم مسلم و أول الأئمة الأربعة عند أهل السنة و الجماعة وصاحب المذهب الحنفي في الفقه الإسلامي و هو أحد التابعين المشهود لهم بغزارة العلم و بالورع والإخلاص تاريخ الزيارة <https://ar.m.wikipedia.org>. 2019/06/12

²⁰ - زيارة الموقع: 25-01-2020h16 www.slamw.eb.net

هذه الفترة، كما يلاحظ الدارس لحقبة المرابطين وفي المجال الصحراوي بالذات فترات صمتت فيها المصادر عن ذكر أي شيء يمد الباحث بأخبار المنطقة، ولعل ذلك راجع في نظر بعض الباحثين إلى ازدهار الدولة في المجال الشمالي وما وصلت إليه من تقدم ونشاط وذيع خلال تلك الفترة، مما جعل الاهتمام ينصب أكثر على المجال الشمالي إلا أن ذلك لا ينقص من قدرها في المجال الجنوبي الذي واصلت فيه الجهاد ونشر المذهب المالكي إلى أن توغلت في بلاد السودان.

وإذا ما أمعنا النظر في الجانب الصحراوي فإنه يمكن القول إنه شكل الوعاء الأول لانطلاقة أول مشروع لتأسيس الدولة المرابطية، وكانت ساكنة الصحراء آنذاك قبائل صنهاجة المعروفة في بعض المصادر العربية باسم الملتمين²¹ كما وصفها ابن خلدون بقوله: "كان هؤلاء الملتمون في صحاريهم..."²².

وبصعب ضبط حدود منطقة الصحراء بشكل دقيق، ويرجع ذلك لاختلاف المصادر التي تناولتها خلال الفترة الوسيطة، وسأحاول وضع رسم تقريبي للحدود الصحراوية التي تهمننا في هذه الدراسة، والتي شكلت حيزا طبيعيا يميز منطقة محددة²³، أو هي منطقة انتقالية غير واضحة المعالم، رغم دورها التجاري الذي لعبته حيث كانت مجالا للمسالك التجارية²⁴ التي تجوبها القوافل قادمة من الشمال الإفريقي في اتجاه الجنوب السوداني محملة بالبضائع وتعود من الجنوب أيضا في اتجاه الشمال حاملة حاجيات الشمال التجارية وهو ما عرف بالتجارة عبر الصحراء، وقد لعبت هذه التجارة دورها في إنشاء المراكز التجارية في منطقة الصحراء.

²¹ - الملتمون : مصطلح أطلق في القرون الوسطى على ساكنة الصحراء الواقعة بين الشمال الإفريقي وبلاد السودان من طرف بعض المؤرخين العرب ، الناني الحسين، هامش، ص:9.

²² - عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد (6)، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ببيروت -1968، ص: 373.

²³ - الناني الحسين، صحراء الملتمين وعلاقتها بشمال وغرب إفريقيا، من منتصف القرن 2/هـ 8م إلى نهاية 5/هـ 11م، ص: 9.

²⁴ - حماد الله السالم، موريتانيا في الذاكرة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت - 2005، ص: 41.

والظاهر أن الغموض هو الميزة التي اتسمت به الحدود الجغرافية لبلاد الصحراء خلال العصر الوسيط، ونقدم هنا المعطيات التي توفرها المصادر الوسيطة، إذ نجد البكري يتحدث عن الصحراء بقوله "... إيزن وهو جبل في الصحراء إلى قبيل من صنهاجة يعرفون ببني لمتونه ظواعن رحالة في الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام"²⁵. ويبقى هذا التحديد ناقصاً لأنه لا يقدم سوى الحدود الشمالية والجنوبية للمنطقة، كما يشير من جهة أخرى بقوله "... ومن وادي سوس ثلاث مراحل (...)" ومدينة نول آخر مدن الإسلام وأول مدن الصحراء"²⁶ فهذه العبارة (بلاد الإسلام) تبقى مبهمة هي الأخرى، الأمر الذي يتطلب البحث لإزالة اللبس.

أما صاحب القرطاس فيقول إنها: "مسيرة سبعة أشهر طولاً وأربعة أشهر عرضاً من نول لمطة إلى قبلة القيروان من بلاد إفريقية وهي ما بين بلاد البربر وبلاد السودان"²⁷.

وبهذا القياس الذي قدم لنا صاحب النص ليس كافياً لمعرفة الحدود، لأنه يقيس بالشهور المساحة التي تحتوي عليها المنطقة الصحراوية بما فيها بلاد السودان التي كانت محددة عندنا لكنه أهمل حدود بلاد البربر، وعليه تبقى الحدود دائماً مبهمة.

أما ابن حوقل فيقول: "ومن سجلماسة إلى آودغست شهران على سمت آوداغست المتقدم ذكرها في نقطة المغرب أوليل وهو على نحر البحر وآخر العمارة (...)" ومن أوليل إلى سجلماسة راجعاً إلى الإسلام شهر وكسر من سجلماسة إلى لمطة (...)" عشرون يوماً ومن أوليل إلى لمطة (...)" خمسة وعشرون ميل ودون لمطة بلاد المغرب تاملت وعلى جنوبها آوداغست"²⁸.

²⁵- البكري (أبو عبيد الله)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، المطبعة الحكومية الجزائر، 1857، ص: 164.

²⁶- النحاس أسامة، عمارة الصحراء، القاهرة، بدون تاريخ، ص: 156.

²⁷- علي بن أبي زرع الفاسي، الأئيس المطرب بروض القرطاس من أخبار أهل المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط،

1973، ص: 120.

²⁸- ابن حوقل أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، منشورات درا، مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص: 91.

ونلتمس في تحديد ابن حوقل لمنطقة صحراء صنهاجة نوعا من الدقة يتميز به عن المصادر الأخرى، وذلك راجع إلى خلفيته الجغرافية، إذ يحدد في نصه بالمثلث الطويل الساقين بدءا من سجلماسة شمالا وانتهاء بأوداغست جنوبا إلى أوليل غربا رجوعا إلى سجلماسة شمالا، وزودنا بقياسات لمعرفة طول أضلاع هذا المثلث.

لكن رغم ما قدمه من توضيحات في بعض المقاييس التي وردت في النص فإن مسافة شهر أو شهرين لا تتطابق مع القياس بالميل مما يطبع الحدود لديه بضعابية.

بالإضافة إلى خروج المجال الذي تسكنه إحدى القبائل الصنهاجية (مسوفة) والذي يقع شرق قبيلة لمتونه وغرب قبيلة زناتة وتدخل قبيلة أكدالة في المجال المثلث المحدد من طرف ابن حوقل على الضلع الممتد من أوداغست إلى أوليل، وتؤكد الدراسات الحديثة لمجال الصحراء أنها تمتد على نطاق واسع بالتواجد القبلي الصنهاجي حتى تصل إلى تيندوف شمالا وجنوبا إلى منعطف حدود النيجر وإن كان هذا المجال الصحراوي يتسع بهذا الشكل فيكون المثلث الذي حدده ابن حوقل أسقط أيضا الكثير من الرقعة الترابية الصحراوية وإن كان الأقرب في تحديدها من سابقه²⁹.

ويقول ياقوت الحموي ما نصه: "... في شرقهم بلاد السودان وفي غربهم البحر المحيط وفي شمالهم منفلة إلى الغرب من سجلماسة وفي جنوبهم بلاد السودان"³⁰ وبذلك يكون حدد بالحدود الطبيعية من الناحية الغربية والجنوبية بلاد السودان إلا أنه أشار من الناحية الشرقية إلى وجود السودان فكان الأولى به أن يقول منفلة كما هو الحال بينهم وسجلماسة.

ولم تبتعد المصادر الوسيطة المتأخرة عن سابقتها في الوقوع في الغموض فيما يخص حدود صحراء صنهاجة.

²⁹- ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، تحقيق وتعليق: اسماعيل العربي، ط2، ديوان المطبوعات، 1982، ص: 78.

³⁰- ياقوت الحموي، "معجم البلدان"، مجلد 4، دار صادر بيروت، 1977، ص: 213.

فيقول الحسن الوزان ما نصه: "(...) تبتدئ عند المحيط غربا وتمتد شرقا إلى ملاحات تغازة وتنتهي شمالا في تخوم نوميديا أي إقليم السوس عند إقليم درعة وتسير جنوبا حتى أرض السودان عند مملكتي ولاته³¹ وتينكتو³²".

وبهذا التحديد الذي قدم الوزان لم يبتعد كثيرا عن مجموعة النصوص المصدريّة الوسيطة التي سبقته في الفترة الزمنية، فعند تحديده من الناحية الغربية والشرقية مملكتي ولاته وتينكتو وجنوبا تنتهي عند بلاد السودان حيث تعذرت عليه الناحية الشمالية (شمالا في تخوم نوميديا)، وتبقى هذه العبارة (تخوم) لا تفيد معرفة الحدود الشمالية للمنطقة.

ويحدثنا المؤرخ لويس دل مارمول كاريخال (Luis Del Marmol Carvajal) في هذا الشأن فيقول: "تبتدئ عند شواطئ المحيط وتشمل كل المسافة الممتدة من رأس لُون ونهر النيجر الذي يسميه أهل البلد "سينديك ويسميه العرب وادي التجار ويسميه البرتغاليون نهر السييك (...). تتاخم صحراء صنهاجة شرقا صحراء تغازة ويحدها غربا نول درعة وتمتد جنوبا إلى آيت آيس وجولف وممالك مالي وولاته³³".

يبدو أن كاريخال لم يضيف كثيرا عن سلفه بل امتدت هذه الصحراء حسب ما في نصه من شواطئ المحيط لتشمل كل المسافة الممتدة من رأس نون إلى نهر النيجر يمنحه تسميات مختلفة تبعا لأصحابها، وغربا يحدها نول ودرعة إلى أن تمتد جنوبا لتصل إلى مواضع سودانية وممالك مالي وولاته وتينكتو، مما يلاحظ فيه التأرجح وعدم الدقة.

³¹ - الحسن الوزان، "وصف إفريقيا" ترجمة عبد الله الواحد احميدة جامعة الإمام بن سعود كلية العلوم الاجتماعية الرياض، 1399هـ، ص: 148.

³² - تينكتو: مدينة تاريخية تقع في جمهورية مالي الحالية، تأسست في أوائل القرن الخامس الهجري الموافق لسنة 1080م ولذلك التأسيس قصة، وهي أن الطوارق كانوا يعيشون أثناء موسم الأمطار في ربوع صحرائهم ويعودون في فترات الجفاف إلى المناطق الخصبة حول نهر النيجر، وهو ما دفعهم إلى اختيار موقع تينكتو بجانب ثنية نهر النيجر، كمكان لتخزين احتياطي الغذاء، وينسب هذا الاسم إلى امرأة عجوز من قبيلة ايمقشرون اسمها بكتو وتتكون الكلمة من (تين) بمعنى (مكان) بكتو، وقد ظلت مدينة تينكتو في البداية عبارة عن مخيم للطوارق، ثم تحولت بمرور الأيام إلى قرية، لتتحول بعد ذلك بفضل موقعها إلى ملتقى للطرق التجارية ثم إلى مدينة يؤمها آلاف التجار والزوار ووصل ذلك أوجه في القرن 14 الميلادي، وقد ازدهرت فيها الحركة الثقافية وأنجبت الكثير من العلماء واستطاعت أن تنتزع مكانة مدينة ولاته بموريتانيا ويرنو في غانا، اللتان كانتا من أهم أسواق التجارة في الغرب الإفريقي آنذاك، عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، 1004م، 1068هـ تحقيق حماد الله السالم، دار الكتب العلمية، 2012، ص: 122-123.

³³ - مارمول كريخال، "إفريقيا"، ترجمة محمد حجي، محمد ازنيبرج، دار النشر والمعرفة الرباط، 1989م، ص: 159.

وقد تحدث الناصري عن الموضوع بقوله: "قموطن هؤلاء الملتمين أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر والإسلام"³⁴.

ويبدو أن الناصري أيضا اعتمد في تحديده على المصادر الوسيطة ولم يفد إلا التكرار لما سبقه. وهذا ما اعتمدته الكثير من المراجع اللاحقة إذ يقول سعدون عباس مثلا ما نصه: "... بأنها من اغدامس شرقا إلى المحيط غربا ومن جبال درن إلى أواسط الصحراء الكبرى جنوبا"³⁵.

ويقول أحمد شكري: "في الجزء الغربي من الصحراء على طول المحيط الأطلسي في ما بين نهر السينغال جنوبا ومنطقة سوس ودرعة شمالا إلى منطقة آدرار الموريتانية شرقا يمتد مجال صنهاجة اللثام"³⁶.

ويقول القادري بوتشيش: "(...) القفار الممتدة من اغدامس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ومن جبال درن شمالا حتى تخوم السودان جنوبا"³⁷.

ويقول محمود السيد: يحدها اغدامس في جنوب طرابلس إلى المحيط الأطلسي إلى ما يلي جبال درن شمالا إلى مصب نهر السينغال ومنحى النيجر"³⁸.

أما الباحثون المحليون في المجال الصحراوي من أمثال الناني ولد الحسين فقد ورد في كتابه "صحراء الملتمين وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا أن حدود صحراء الملتمين هي الأراضي الصحراوية أو شبه الصحراوية التي تدخل في نطاق نفوذ هؤلاء، وبين أن المصادر عجزت عن تحديد الحدود الشرقية بشكل دقيق وواضح، إذ تعتبر بعض هذه المصادر أن مملكة

³⁴ - الناصري أبو العباس احمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري و محمد الناصري، الدار البيضاء، 1954، ص: 159.

³⁵ - سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، دار النهضة الغربية، بيروت، الطبعة الأولى، ص: 13.

³⁶ - أحمد شكري، الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي، المجمع الثقافي أبو ظبي، 1999، ص: 22.

³⁷ - إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، ص: 8.

³⁸ - محمود السيد، تاريخ دول المغرب، مؤسسة شباب جامعة الإسكندرية، 2000، ص: 262.

"تادمكة" حدودا للصحراء لما تتميز به من أصول عرقية عن باقي قبائل صنهاجة الأخرى بينما تلامس حدودها الشمالية الشرقية الإمارات الزناتية التي تفصلها عنه بلاد مسوفة، أما من الناحية الجنوبية فإن بلاد السودان هي الحدود إلا أن هذه الحدود تأخذ فترات من المد والجزر داخل المنطقة ولا خلاف في الحدود الغربية للمنطقة، حيث المحيط الأطلسي³⁹.

ويرى المصطفى ولد يكبر في أطروحته "صحراء الملثمين والسودان الغربي (مجالات التواصل على عهد المرابطين) أن حدود صحراء الملثمين تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى مدينة اغدامس شرقا أما جنوبا فتصل حتى مدينة ولاته أما الحدود الشمالية فمن الصعب ترسيمها باعتبار أن المجموعة الصنهاجية امتداد بشري وثقافيا للمغرب الأقصى، كما أن سلطان دول المغرب في العصر الوسيط كان ينسحب على هذه المجالات⁴⁰.

ومما سبق يمكن القول إن حدود صحراء صنهاجة خلال العصر الوسيط لم ترسم بشكل دقيق بل كانت هناك محاولات من المصادر الوسيطة لتحديد وإرهاصات لم تفلح في النهاية، ولم تكن المصادر الوسيطة المتأخرة إلا اجترارا لما سبقها وكذلك المراجع اللاحقة، وانطلاقا من حدود الحيز الجغرافي الصحراوي الذي أشارت إليه المصادر الوسيطة والمراجع المتأخرة فإن هذا المجال يحوي المدن المستهدفة بهذه الدراسة قطعا والتي تقع ضمن الحيز الجغرافي لبلاد موريتانيا الحالية.

(2) حركة الإعمار

لقد نالت صحراء الملثمين منذ العصر القديم قسطا وافرا من الاستقرار في أماكن متفرقة منها، وكانت الحضارات المتعاقبة التي كشفت عنها المعاول الأثرية مثالا على ذلك، حيث

³⁹ - الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 11.

⁴⁰ - المصطفى ولد يكبر، صحراء الملثمين والسودان الغربي، مجالات التواصل على عهد المرابطين، أطروحة الدكتوراه جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس - فاس، السنة الجامعية 2010-2011م، ص: 20.

ظهرت مجموعات من القرى المتصلة والمتراصة في أنحاء الصحراء، والمشيدة بالحجارة تبعا لنمط معماري واضح ومحدد يتمتع بنظام التحصين المتعارف عليه في المنطقة.⁴¹



صورة رقم 1 : رسوم ونقوش من العصر الحجري الحديث

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

ويبدو من خلال هذه الآثار أن العصر الحجري الحديث قد شهد حركة إعمار هامة بالنسبة لهذا الجزء من الصحراء، وتعتمد هذه التجمعات المستقرة على الزراعة وذلك قبل تغير الأوضاع المناخية في الصحراء، ويبلغ عدد هذه القرى حسب الباحثين مئتين وخمسين قرية مبعثرة في أطراف الصحراء المترامية⁴².

ولا يقف الحديث عن ظاهرة التعمير بالصحراء عند العصر الحجري الحديث بل استمر تنامي هذه الظاهرة في الفترة الوسيطة حيث أصبحت منطقة الصحراء همزة وصل بين إفريقيا الشمالية والجنوب السوداني وظلت القوافل التجارية تجوب هذا المجال وشكلت مراكز تجارية أو مدنا تجارية عرفت ازدهارا خلال العصر الوسيط.

تشهد الأطلال القائمة في مواقع المدن على ذلك كما كشفت البحوث الأثرية في خمسينيات القرن الماضي (القرن العشرين) عن آثار تلك المدن (آزوكي، أوداغست، غانه) (كومبي صالح).

⁴¹ - الطيب بلاه حمودي، الأركولوجيا الموريتانية من خلال أسبار حفريات القرن العشرين (حصىلة قرن من البحث الأثري في موريتانيا)، رسالة ماستر، جامعة انواكشوط ، 2017-2018 ، ص:78.

⁴² - نفسه.

وإذا كان الحديث عن ظاهرة التمدن بالصحراء خلال العصر الوسيط يثير الدهشة لدى البعض وذلك لالتزام سكانها في أغلب أحوالهم بالعيش تحت الخيام،⁴³ فإن ذلك لم يمنع من وجود حياة حضرية تراوحت بين كثافة المدن والقرى وتندر أحيانا حسب الظروف والتحولات التي عرفتھا المنطقة، وكانت تتراوح ما بين ظروف غير مشجعة على الاستقرار، تتمثل في فترات الحروب التي تستهدف المستقرين عادة في الوهلة الأولى، وفترات القحط والجفاف الذي يؤثر على المياه الجوفية التي ترتبط عادة بمياه الأمطار إضافة إلى ندرة المراعي قرب المدن والقرى مما يزيح السكان الذين يمتلكون المواشي، ويفرض على البدو الرحل الابتعاد عن ضواحي المدن والقرى بحثا عن الكلاء⁴⁴، حيث يؤدي ذلك إلى افتقار المدينة إلى بعض الحاجيات التي كانت تحصل من طرف أولئك البدو في ضواحي المدينة، مما ينعكس على التبادل التجاري- لدى السكان المستقرين- الذي كان يحصل أثناء مرور القوافل العابرة للصحراء، فيتراجع ذلك بسبب انخفاض الكثافة السكانية في المدينة وضواحيها، وبعد ازدهار التجارة عبر الصحراء بين الشمال الإفريقي والصحراء والسودان الجنوبي، برزت مدن كبيرة فأخذت الصحراء نصيبها من هذا التمدن، فشيدت تلك المدن عند بدايات وعلى طول ونهايات الطرق التجارية.

وقد عمل سكان المنطقة على اختيار مواقع المدن مع مراعاة الجانب الأمني وكذلك وفرة النباتات والشجيرات التي توفر مراعي دائمة للإبل بشكل خاص، وكذلك كميات المياه الجوفية القادرة على تموين سكان المدينة وحيواناتهم بالماء الشروب، وتمكن من حفر الآبار لسقي البساتين⁴⁵.

واسهمت الظروف الملائمة في استجلاب السكان واستمرار مرور القوافل بشكل دائم على المدينة مما انعكس على نشاط الأسواق التجارية.

⁴³ - البزید حمدونی علمی، جغرافیة المدن، مرجع سبق ذكره ، ص:70.

⁴⁴ - النانی ولد الحسین، صحراء الملثمین، مرجع سبق ذكره، ص:193.

⁴⁵ - ابن خلدون، المقدمة، مصدر سبق ذكره، ص:67.

وتسهر المدن عادة على مراعاة حاجياتها، لأن أي تجمع حضري يراد له الاستمرار ينبغي أن تراعى فيه شروط الاستقرار المبنية على خيار المكان الأمني المناسب ووجود مياه وافرة، وهذا ما روعي في بناء المدن خلال الفترة الوسيطة⁴⁶.

وربما تغيرت هذه المعايير نظرا للتطورات البشرية فأصبحت المدن تقوم على أساس أنشطة اقتصادية حديثة كالمناجم والموانئ والمدن الإدارية⁴⁷.

ويرى بعض الباحثين المحليين أن التجارة عبر الصحراء هي الدافع الأول وراء تأسيس وتنشيط بعض المدن الصحراوية.

و قد ذكرت بعض المصادر العربية الوسيطة أن هناك مدنا صحراوية تقع على طول الطرق التجارية بين المغرب و الجنوب السوداني ولم تعد مواقعها اليوم معروفة بشكل دقيق لاندثارها منذ قرون عديدة وتبدلت أسماؤها ومن أهم تلك المدن: آزقا وتيمانوت وارتنتي وبنكلايين ومدوكن... الخ⁴⁸.

ولم تكن الصحراء خالية من العمران كما يتبادر إلى أذهان البعض حتى أشد أجزائها قساوة من حيث المناخ كمنطقة آدرار في موريتانيا الحالية، فقد أشارت الروايات المحلية إلى كثافة العمران في تلك المنطقة خاصة في العصر الوسيط وهو الجزء الذي تقع فيه مدينة أزوكي وأبير (شنقيط) ووادان، بينما توجد المدن الأخرى في الجانب الشرقي من موريتانيا الحالية وهي أوداغست وكومبي صالح وولاته وتيشيت.

وإذا كان من الصعب تحديد التاريخ الدقيق الذي تأسست خلاله تلك المدن فإن المصادر بمختلف أشكالها تحدثت عن وجودها.

⁴⁶ - ابن خلدون، المقدمة، مصدر سبق ذكره، ص: 67.

⁴⁷ - البوزيد حمدوني، جغرافية المدن، مرجع سبق ذكره، ص: 71.

⁴⁸ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 196.

3) نشأة المدن الصحراوية الوسيطة

أ) : المدن الصحراوية الوسيطة المندثرة

• أزوكي

لقد تحدث البكري عن حصن أزوكي وذكر أنه شيد من طرف يانو ابن عمر الحاج قبل قيام الحركة المرابطية⁴⁹.

وأكدت الدراسات الأثرية بالاعتماد على بعض البقايا الموجودة من أطلال المدينة أنها كانت قائمة خلال القرن 10م، وأن بعض البنايات تعود إلى بدايات العهد المرابطي⁵⁰.

• آوداغست

تأسست مدينة آوداغست في أوائل العصر الوسيط ولا ندري تاريخ تأسيسها بالتحديد، وبما أن هذه المدينة سبق وأن كانت مملكة صنهاجة وقد تحدث عنها ابن أبي زرع ونعتها بأيام عبد الرحمن الداخل بالأندلس المعروفة ولايته سنة (132هـ/756م)⁵¹.

كما ذكر المؤرخ الموريتاني المختار بن حامدن أن صحراء صنهاجة تبعت للفهربيين منذ قيام دولة عبد الرحمن بن حبيب سنة (127هـ/745 م) وأن أهلها أسسوا دولة مستقلة⁵².

وتفيدنا هذه التواريخ التي وردت عند بعض المصادر التاريخية أن هذه المدينة أسست في القرن الثاني الهجري والسابع الميلادي، وقد يكون ذلك أقرب إلى الصحة إذا ما قارنا تأسيسها مع نظيرتها الشمالية المغربية مدينة سجلماسة التي تأسست سنة (140هـ/757م)

⁴⁹ - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 167.

⁵⁰ - 23. Ould Cheikh, Abd El Wedoud & Saison, Bernard. Le théologien et le somnambule: Un épisode récent de l'histoire Almoravide en Mauritanie, Canadian Journal of African Studies / Revue canadienne des études africaines, 19:2, 1985. P : 301-317.

⁵¹ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سبق ذكره، ص: 120.

⁵² - المختار بن حامدن، حياة موريتانيا السياسية، مرقون، محفوظ بقسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي انواكشوط، ص: 8.

وقد عاصرتها هذه المدينة وارتبطت معها عن طريق المبادلات التجارية خلال العصر الوسيط⁵³.

• كومبي صالح

لا تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن تأسيس مدينة كومبي صالح ولا عن مملكة غانا التي تعتبر المدينة جزءاً منها ولا نمتلك ما نحدد به تاريخها إلا إذا اعتبرنا أن هذه المدينة كانت ترتبط بمدينة أوداغست تجارياً وجغرافياً وأنها عاصرتها في نفس الفترة الزمنية المشار إليها عند مدينة أوداغست أي حوالي القرن الثاني الهجري السابع الميلادي.

ب) المدن الصحراوية الوسيطة الحية

1) ولاته

تعتبر مدينة ولاته من أقدم المدن الصحراوية ، وقد عرفت باسم "بيرو" عند بعض الباحثين وسكانها الأصليون من السوننكة⁵⁴.

وقد اختلف الباحثون في تاريخ نشأتها كما هو الحال عند جل المدن الصحراوية فمنهم من قال إنها تأسست في القرن الثاني الهجري وذلك من خلال ربط تأسيسها بمجيء (يحي الكامل)⁵⁵.

ومقابل هذه الرواية تشير رواية "كنته" إلى أن مدينة ولاته تأسست في القرن الأول الهجري إثر قدوم سرايا القائد عقبة بن نافع إلى المنطقة⁵⁶.

ويقول الباحث حماد الله ولد السالم في هذا الشأن "... التاريخ القديم لمدينة ولاته موغل في القدم ولذلك فإن الحقائق في شأنه قليلة، فبعض الروايات ترجع تأسيس المدينة إلى (بني

⁵³ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 96.

⁵⁴ - بول مارتى، القبائل البيضاوية في الحوض والساحل وقصة احتلال فرنسا للمنطقة، تعريب محمد محمود ودادي (بدون تاريخ) ص: 304.

⁵⁵ - أحمد مولود ولد أيده، مدن موريتانيا الوسيطة (أوداغست، غانة (كومبي صالح، أزوكي) قراءة في التاريخ الحضري والتراث الأثري (بحث لنيل الدراسات المعمقة في الآداب ، غير منشور) جامعة تونس الأولى كلية الآداب والعلوم الإنسانية 1999-2000، ص: 185 .

⁵⁶ - الناني ولد الحسين، صحراء المثلثين، مرجع سبق ذكره، ص: 164.

إسرائيل) قبل الإسلام، أي خلال القرنين (السادس/ السابع للميلاد) وخلال القرن الخامس سيطر المرابطون على غانة، وأصبحت مدينة ولاته (القرية الصغرى) آنذاك خاضعة لنفوذهم⁵⁷.

(2) مدينة وادان

تختلف الروايات الشفهية المحلية حول تأسيس مدينة وادان و أكثر هذه الروايات شيوعاً كونها تأسست على يد ثلاثة حجاج هم الحاج عثمان الأنصاري والحاج يعقوب القرشي والحاج علي الصنهاجي ، وتضيف بعض الروايات الأخرى أن الحاج عبد الرحمن الصايم التحق بهم و ذلك في غضون القرن السادس الهجري.

(3) تيشيت

تذكر الروايات المتداولة أن مدينة تيشيت شيدت خلال القرن 2هـ/8م، وتذكر رواية عن أبناء المدينة أنها تأسست في القرن 6هـ 12م على يد الشريف عبد المؤمن بن صالح، لكن الروايات الأولى تصرح بأن المدينة شيدت بالقرب من قرية كانت قائمة إلى الجنوب من موقعها الحالي، حيث يقول محمد بن أحمد الصغير التشيتي "وسار عبد المؤمن إلى بلاد تيشيت وساكنوها يومئذ أهل أخصاص على قدر فرسخ من جهة جنوب موضع القرية، فندب بعضهم إلى البناء فلم يساعده... فارتحل عنهم إلى موضع القرية التي هي به الآن، وكان قد استصحب حين قدومه من له حرفة بالبناء وآلات البناء فابتدأ بالبناء للمسجد ثم ابتنى داره حذوه⁵⁸.

⁵⁷ - حماد الله ولد السالم، المجتمع الأهلي الموريتاني مدن القوافل (1591 . 1898م)، ط 1، بيروت، آذار مارس 2008م، ص: 72.

⁵⁸ - شيخنا بوي بن بوعسرية، تأليف في أنساب بني عبد المؤمن وبني محمد مسلم، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، الرقم: 413.

(4) مدينة شنقيط

لقد تحدثت المصادر المحلية عن مدينة آبير (شنقيط) الحالية ، وذكرت أنها أسست في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، حوالي: 160هـ/777م⁵⁹.

وهذا التاريخ معتمد لدى أهل شنقيط ومنقوش على محراب مسجدهم، باعتبار أن شنقيط وريثة آبير التي لا تبعد عنها إلا بثلاث كلومترات إلى الشمال الشرقي منها.

المطلب الثاني: وظائف المدن الصحراوية الوسيطة

تعتبر المدن تطورا بشريا لخيار الاستقرار في مكان معين ويرتبط المكان ببعض الأنشطة التي تساعد على الاستقرار كوجود الماء، وقد تحدث ابن خلدون عن ذلك بقوله "... تقوم المدن على جلب المنافع مبينا الشروط التي يجب مراعاتها في الاستقرار أي أن أي تجمع حضري من شأنه أن يستمر، فلا بد أن يراعي في مرحلته الأولى الجانب الأمني سواء كان ذلك الاختيار أوجده موقع استراتيجي"⁶⁰.

ولم تخضع هذه التجمعات البشرية في عصرنا الحديث للخيارات التي قامت عليها المدن في الفترة الوسيطة بل تجاوزت ذلك نظرا للتطورات البشرية حيث أصبحت المدن تقوم على أنشطة اقتصادية حديثة، مثل المدن الاقتصادية التي تقوم على وجود مصانع ومناجم، ومدن تجارة تقوم على وجود موانئ ومدن علمية ثقافية ومدن دينية تحتوي على المقدسات، ومدن سياحية ومدن ذات طابع إداري سياسي كالعواصم.

وقد برزت مدن مختلفة الوظائف بالغرب الإسلامي كالمدين العلمية والتجارية خلال العصر الوسيط منها المدن ذات الوظائف العلمية كالقيروان وفاس وقد اجتمعت وظائف متعددة لمدينة واحدة كما هو الحال في مراكش ، فبالإضافة إلى وظيفتها السياسية والإدارية جمعت

⁵⁹ - ابن حبت (سيد أحمد): تأليف غير معنون يذكر القبائل التي خرجت من مراكش إلى بلاد التكرور، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي بنواكشوط، 3.

⁶⁰ - ابن خلدون، المقدمة، مصدر سبق ذكره، ص: 67.

بينها وبين الوظيفة العسكرية والتجارية، وقد انسحبت نفس الوظائف على المدن الصحراوية فانفرد بعضها بوظيفة واحدة، وجمع بعضها الآخر بين عدة وظائف كما الحال في مدينة أزوكي.

أولاً: المدن الصحراوية الوسيطة المندثرة

(1) مدينة أزوكي: تعددت الوظائف لدى هذه المدينة الصحراوية حيث كانت عاصمة لمجموعات البافور المقيمين في جبل آدرار.

وقد أهلها موقعها التجاري على الطريق اللمتوني أن تأخذ وظيفتها التجارية وبعد الفتح المرابطي جعلها المرابطون قاعدة عسكرية لانطلاقة جيوشهم نحو الشمال أي اتجاه أوداغست وسجلماسة لتكون فيما بعد عاصمة لملكهم في الجنوب.

(2) أوداغست: شغلت مدينة أوداغست الوظيفة السياسية والإدارية أيام الحكم الصنهاجي على الصحراء⁶¹.

وخرجت من طور العاصمة إلى سيطرة مملكة غانه بقيادة مجموعة من التجار، وتم انتقالها من وظيفة العاصمة الإدارية والسياسية لتصبح مدينة تجارية بامتياز وظلت تمارس دورها التجاري إلى أن سقطت تحت الحكم المرابطي سنة 1054م⁶².

(3) كومبي صالح (غانه):

تعني مدينة كومبي صالح مدينة التجار المسلمين التي كانت تحت سيطرة ملك غانه وتبعد عن العاصمة الغانية 10 كلم وهي الموجودة أطلالها اليوم بالقرب من مدينة تمبذغة بالحوض الشرقي من موريتانيا الحالية، وتميزت هذه المدينة بالوظيفة التجارية ويعود ذلك إلى موقعها الذي كان يوفر المواد التجارية الأساسية كالذهب والرقيق.

⁶¹ - الناني ولد الحسين، صحراء المثلثين، مرجع سبق ذكره، ص: 67.

⁶² - نفسه.

ثانيا: المدن الصحراوية الوسيطة الحية

أما المدن الوسيطة الحية فهي التي يطلق عليها اليوم في موريتانيا الحالية (المدن القديمة)، نذكر منها:

1) ولاته:

أخذت مدينة ولاته وظيفتها التجارية من موقعها الاستراتيجي حيث تعتبر استمرارا للموانئ الصحراوية الأقدم منها كأوداغست وكمبي صالح، وقد ذكرت المصادر التاريخية أن لا وصول إلى ذهب السودان وخيراتها إلا بها، وكانت من أهم المحطات المصدرة للملح إلى السودان مما ربطها بالمدن الأخرى التي تلعب تجارة الملح الدور الرئيسي في أنشطتها الاقتصادية كوادان وشنقيط وتيشيت⁶³.

وقد ازداد مركزها التجاري بعد اندثار أوداغست وسقوط كمبي صالح⁶⁴.

الوظيفة العلمية والثقافية: عرفت مدينة ولاته بوظيفتها العلمية والثقافية في منطقتها، فجل علماء تينبكتو ما عدى السودانين من أصول ولاتيه، وانتشر إشعاعها الثقافي في كامل الإقليم منذ القرن الثامن الهجري⁶⁵.

يقول عنها الفقيه الشاعر محمد الأمين بن سيد أب الكنتي:

نعم الديار التي قد كان يقصدها يريد علما وآدبا وقرآنا
من كل فج بنوا سبلا فتجمعهم في ظل بيت أغاريبا واخوانا

ولا يمكن حصر خريجي محاضرها وقدم عطائها العلمي فقد أثرت في محيطها القريب والبعيد، وشاع العلم بين مختلف مكونات سكانها، فخرجت محاضرها الآلاف من طلبة العلم

⁶³ - محمد الأغظف ولد الداه، ولاته بين: التاريخ المشرق وتحديات الواقع والتطلعات للمستقبل، محاضرات أقيمت في مدينة وادان، وزارة الثقافة والشباب والرياضة، الاتحاد الموريتاني للنشر والتوزيع الطبعة 1 2013، ص : 67-68.

⁶⁴ - نفسه.

⁶⁵ - نفسه، ص : 83.

وحامله وانتشروا في الأصقاع حاملين اسم ولاته ورايتها العلمية أين ما حلوا وارتحلوا... وقد وصفهم الشاعر سيد أحمد ولد حماد بقوله⁶⁶.

العلم مطعمهم والزهد ملبسهم والجود مركبهم وفهم نقبها
أعني المحاجيب والأقلاق واليلبي والبرتلي ونسل داود الأدبها
آباؤهم قد بنوا لدين خالقنا قصرا مشيدا بتقوى الله منتصبا
سل الحجارة وأرض العرب قاطبة عن شأنه ستري من حسنه العجبا

ومما سبق يمكن القول إن ولاته لم تقتصر على الوظيفة التجارية بل تجاوزتها إلى الوظيفة العلمية والثقافية.

(2) وادان

وادان: إحدى مدن الصحراء التي تقع شمال موريتانيا الحالية نحو 500 كلم شمال شرقي العاصمة في منطقة آدرار، وتبعد من عاصمة ولاية آدرار أطار 220 كلم شمالها شيدت هذه المدينة من الصخر يضرب بها المثل بالحسن والحصانة، حيث يقول المثل الحساني (شعليك يا وادان من عيطة أعقاب الليل) ومعناها بالفصحى: ما ذا يضريك يا وادان من المغير بالليل؟⁶⁷، ويبدو أن هذا المثل يشير إلى مدى قوة التحصين للمدينة والمتمثل في السور الذي بني عليها يحميها من الغزو الخارجي، عرفت هذه المدينة بوظيفتها العلمية والثقافية لأنها عاشت كمصدر إشعاع حضاري طارت شهرته العلمية والثقافية⁶⁸.

يقول الطالب أحمد ولد أطوير الجنة إنه اندهش حينما سمع الليبيين يقولون: "... التمر فزاني والعلم واداني..." وتحكي الروايات الشفهية المنسوبة إلى أهل وادان أن طالب العلم أي

⁶⁶ - ولد مثالي ولد محمدين، نبذة عن مدينة وادان، محاضرات ألقى بمدينة وادان، النسخة الثالثة من مهرجان المدن القديمة ط 1، 2013، ص: 129.

⁶⁷ - نفسه

⁶⁸ - محمد الأغظف ولد الداه ، ولاته بين: التاريخ المشرق وتحديات الواقع والتطلعات للمستقبل، مقالة سبق ذكرها، ص: 15.

كان مستواه المعرفي، أو الفن الذي يتعلم، كان يجلس في الطريق لتلقى العلم من أول من يمر به، كما يوجد بالحي القديم لمدينة وادان شارع سمي منذ القدم "...شارع الأربعين عالما" ويعزو العلامة ولد اطوير الجنة أن شيخه سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم ذكر أن اسم وادان مشتق من تثنية "واد" وأن الوادين مليئين، أحدهما دينا وعلما والآخر نخلا وتمرا⁶⁹.

وقد ورد على لسان الطالب أحمد ولد اطوير الجنة في ذكر مدينة وادان يفاخر بها المدن الأخرى بقوله:

يا أرض وادان لا غبتك باكرة	حييت من تربة يا أرض وادان
كم فيك من عالم ندب ومن	يحن دهرًا إلى الخيرات تحنانا
و من كريم مليح الوجه ذي أدب	تلفيه دهرًا على اللأواء معوانا
هينون لينون لا يخطاك نائلهم	مهما لقيتهم مثى ووحدا

وفي هذه المفاخرة تظهر أهمية مدينة وادان عند الشاعر ولد أطوير الجنة الذي تغنى بأمجادها وسمو مكانتها العلمية من خلال كثرة من أنجبت من العلماء حتى نالت من الفضائل والقيم ما لم تتله نجد ونجران.

(3) تيشيت:

تقع المدينة شرق بلاد موريتانيا حاليا وسط بلاد الصحراء سابقا بولاية تكانت وتبعد عن عاصمتها تجكجة 250 كلم⁷⁰.

نالت موقعا متميزا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وقد ساعدت وفرة المياه وخصوبة التربة على تكديس الثروة حيث تجسد ذلك في كثافة النخيل والعيون والآبار والدور ذات العمارة المتقنة

⁶⁹ - ولد متالي، نبذة عن مدينة وادان، مقالة سبق ذكرها، ص: 132-133.

⁷⁰ - محمّد ولد اشريف بوي، مقالة عن مدينة تيشيت، محاضرات أُلقيت في مهرجان وادان، ط الأولى 2013م، الناشر، الاتحاد الموريتاني للنشر والتوزيع، ص: 108.

المتميزة،⁷¹ ويصفها الخليل النحوي بقوله "... وهي إحدى مدن الواحات القديمة، ومحطات القوافل كانت تمر بها طريق (فلم، ولاته، تينبكتو، اتوات، فزان، الاسكندرية) وغيرها..."⁷².

يوحي هذا النص بأن تيشيت كانت إحدى المحطات التجارية في بلاد الصحراء بوقوعها على الطرق التجارية مما يؤهلها كباقي المدن الصحراوية لوظيفتها التجارية، إضافة إلى الوظيفة العلمية والثقافية التي تأسست من أجلها يقول الخليل النحوي في هذا المضمار "... قد أدخل الشريف عبد المؤمن مؤسس محظرة تيشيت والحاج عثمان مؤسس محظرة وادان علوم اللغة العربية إلى البلاد في القرن السادس الهجري..."⁷³.

يفيد العلامة محمد بن سيد عبد الله العلوي في مضمون نصه الشعري الذي وصف فيه مختلف العلوم التي اتصف بها طلاب العلم بمدينة تيشيت من حيث البلاغة والفصاحة والشعر بأوزانه إذ يقول : "وفارس علم لا يشق غباره" هذا الوصف الذي يعبر عن المكانة العلمية التي وصلت إليها هذه المدينة أيام عزها وازدهارها.

وفي أهل المدينة يقول نفس العلامة.

فكم بك يا تيشيت من ذي بلاغة	أديب فصيح في المقال ظريف
يغوص ببحر الشعر يخرج دره	بسيط طويل كامل وخفيف
له وافر من حظه متقارب	سريع إلى الخيرات غير عنيف
له رمل للشاردات يردها	بمنسرح للمعضلات كشوف
وفارس علم لا يشق غباره	وذي خشية عال المقام عفيف
وذي قلم ازري بخط ابن مقله	وكان على الحراق أي منيف ⁷⁴

⁷¹ - الخليل النحوي، المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، السنة: 1987، ص: 96.

⁷² - نفسه.

⁷³ - محمد ولد الشريف بوي، تاريخ مدينة تيشيت مرجع سبق ذكره، ص: 106.

⁷⁴ - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة، ط 4، 1989، ص: 32.

(4) شنقيط:

عرفت مدينة شنقيط كباقي المدن الصحراوية إبان الفترة الوسيطة بوظيفتها التجارية الهامة نظرا لموقعها على الطرق التجارية الرابطة بين الشمال الإفريقي والجنوب السوداني كما ارتبطت مع أخواتها من المدن الصحراوية في المبادلات التجارية التي تحدث بينها في فترة ازدهار تلك المدن، وكانت محطة سنوية هامة لانطلاقة الحجيج صوب الديار المقدسة.

والى جانب أهميتها التجارية برزت مدينة شنقيط بمكانتها العلمية التي ميزتها عند المشاركة بالديار المقدسة ومصر والشام وتركيا والعراق والهند وبلاد المغرب والسودان، وقد تحدث أعلام الفكر العربي بإعجاز عن هؤلاء الشناقطة، وعن نظامهم العلمي المتمثل في المحظرة ومنهجها يقول حماد الله ولد السالم في هذا المضمار "... ويدين الشناقطة في شهرتهم بالحفظ والفصاحة إلى منهج المحظرة" وهي المؤسسة التعليمية البدوية والمنتقلة والراقية، والتي عرفت الشناقطة الفصاحة وحفظ المتون والإنشاد وهي أسباب التميز الشنقيطي في المشرق والمغرب ...⁷⁵.

ويقول حماد الله ولد السالم في وصفه للمحظرة "... فالمحظرة الشنقيطية مؤسسة ظريفة فاللوح الخشبي والقلم السيل، والحبر مصنوع من مشتقات معدنية محلية كلها أدوات بسيطة، وأصيلة قضت عبقرية الشنقيطي على دياجير الجهل، وحققت بها ما حققته كبريات المدارس الإسلامية بما ملكت من وسائل علمية متطورة حينها ...⁷⁶.

اشتهرت كوكبة من العلماء في الأقطار الإسلامية باسم مدينة شنقيط (الشناقطة) وأخذ عنهم الكثير من العلوم في الجامع الأزهر وفي الحجاز والسودان، يقول عبد اللطيف الخالدي إن

⁷⁵ - تم الاطلاع عليه يوم: 13-05-2020. <https://www.shoroknews.com>

⁷⁶ - المقال تحت عنوان "سر الفصاحة وحفظ المتون في بلاد شنقيط، نفس الموقع <https://www.shoroknews.com> زيارة الموقع 13/06/2020 الساعة: 1h.

"... من الشناقطة علماء لا نغالي إذا قلنا عنهم لا يقلون أهمية عن أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدو ورشيد رضا وأبي الثناء الألوسي بن سند وأضرابهم"⁷⁷.

يقول المؤرخ الليبي علي المصراتي "... إنه أخذ العلم في بداية حياته عن علماء الشناقطة أبناء ميايى وكانت للعالم الجكني الأعمش محطرة كبيرة في مدينة تيندوف، كما كانت لشنقيط سفارة في البلاط الملكي المغربي أيام حكم المولى اسماعيل وابنه محمد العالم الذي كان حاكما على السوس تبادلوا فيها مساجلات شعرية مع سيد عبد الله الملقب ابن رازكه وعبد القادر بن محمد ومحمد سالم وشملت تلك المساجلات علماء بفاس لا يتسع المقام لذكرهم"⁷⁸.

وقد تجول محمد محمود بن اتلاميذ في عدد من البلدان وأدى فريضة الحج وبهر الناس لسعة علمه وقوة حافظته، كما شهد علماء العراق لمحمد محمود التندغي بقوة الحفظ، وقد توطدت علاقات محمد أمين فال الخير الشنقيطي بالمصلح البحريني.

ولا يحصى عدد علماء الشناقطة الذين نشروا العلم والمعرفة في أعماق افريقيا ونسجوا وشائج معرفية وعلمية.

ونذكر من بين أولئك العلماء سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم ومحمد الأمين الشنقيطي الملقب آب بن اخطور ومحمد حبيب الله بن ميايى.

⁷⁷ - المقال تحت عنوان "سر الفصاحة وحفظ المتنون في بلاد شنقيط، نفس الموقع <https://www.shoroknews.com> زيارة الموقع 13/06/2020 الساعة: 1h.

⁷⁸ - نفسه.

المبحث الثاني: نبذة عن قيام الدولة المرابطية في الصحراء

المطلب الأول: نشأة وتطور الحركة المرابطية

أولاً: النشأة

تجمع المصادر العربية على أن نشأة الدولة المرابطية بصحراء الملثمين تعود أسبابها إلى حجة الأمير الصنهاجي يحيى بن إبراهيم الكدالي الذي نزل بالقيروان وحضر حلقات الدرس التي تقام من طرف الفقيه أبي عمران الفاسي وقد كشف الأمير الصنهاجي عن مستوى قومه في الصحراء وما يحتاجونه من تعليم وتوجيه وإرشاد في أمور دينهم، فتقدم إلى الفقيه بطلب معلم ومرشد ديني يصحبه إلى قبائل الصحراء (صنهاجة) ليفقههم في دينهم، فما كان من الشيخ إلا أن أحال الأمير يحيى برسالة إلى تلميذه وجاج بن زلو اللمطي، الذي كان يقيم آنذاك في رباط له جنوبي السوس الأقصى، أي على المشارف الشمالية للصحراء، وطلب منه في رسالته أن يبعث مع يحيى بن إبراهيم من طلبته من يثق في دينه وحسن تدبيره، فوقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الذي اصطحبه الأمير يحيى إلى صحراء الملثمين حيث بدأ في مباشرة خطة دينية وسياسية أدت في النهاية إلى قيام الدولة المرابطية⁷⁹.

وقد ذهب الباحث الناني إلى أن أسباب نشأة الدولة المرابطية تمت بعد مخاض عسير قام على ظرفية صعبة من التشتت للقبائل الصنهاجية إبان تكالب القوى المتنافسة معها على مزايا التجارة عبر الصحراء، ولما تمكنت تلك القوى من تهيمش الصنهاجيين منذ أواخر القرن العاشر الميلادي وعزلهم في المناطق الصحراوية بعيدا عن المناطق التجارية والزراعية، أدى ذلك إلى التنافر والتنافس بينهم على المناطق الرعوية النادرة في الصحراء القاحلة وأصبحوا محاصرين فيها، وضعفت الصلات والروابط بين بعضهما البعض وتوالت الحروب وكادت اللحمة العصبية تفقد بينهم لولا انبعاث حركة إصلاحية في النصف الأول من القرن الخامس

⁷⁹-الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين مرجع سبق ذكره ص: 208

الهجري الحادي عشر الميلادي كرسَتْ جهودها لجمع شملهم، لكن هذه الدعوة رفعت الشعار الإسلامي النابع من الكتاب والسنة⁸⁰.

ومهما يكن الدافع لتلك الحركة فإنها مكنت القبائل الصنهاجية من استعادة وحدتها وتجاوزت ضغائنهما وابتعدت عن الصراع على المصالح الآنية والتخاذل ورفعت شعار الجهاد من أجل الفوز بالشهادة أو النصر، فتمكنوا بواسطة هذه الروح العالية التي ضخّمها هذا العامل الجديد من الوصول إلى هدفهم المنشود.

ومن هذا المنطلق فإن الدولة المرابطية نشأت بتضافر جهود الفقهاء المالكيين والزمّعاء السياسيين، وقد مهدت لها عوامل سياسية واقتصادية ودينية.

1- العامل السياسي:

لقد سادت مظاهر الضعف في الدولة الإسلامية في المشرق، وغابت الدولة الأموية في الأندلس كما تراجعت قوة بني زيري وبني حماد في إفريقيا والمغرب الأوسط، وبحدوث هذه التحولات العميقة على مستوى العالم الإسلامي لم يسلم منها في المقابل الغرب المسيحي الذي يعيش نهضته ووحدته السياسية على مستوى الإمارات النصرانية وتمكن بعضها من السيطرة على أجزاء من الدولة الإسلامية، مما فرض على المسلمين التصدي لهذه القوة الجديدة والمتمثلة في الصليبيين، نتيجة العجز الحاصل في مركز الدولة الإسلامية فانتقلت مهمة الإنقاذ إلى الشعوب البدوية (الأتراك في الشرق - والمسلمين في الغرب الإسلامي) علاوة على الفقهاء السنيين الذين كان مذهبهم يعرف انتعاشا كبيرا في تلك الفترة، مما عاد بالدارسين لهذه الحقبة الزمنية إلى تسليط الضوء على حجة يحي بن إبراهيم الكدالي⁸¹، التي كشفت عن مشروع سياسي من طرف زعمائه أصحاب المذهب المالكي ويرى أصحاب هذا الرأي أن يحي بن إبراهيم الكدالي كان يهدف من وراء مروره بالقيروان إلى الحصول على

⁸⁰ - الناني ولد الحسين، صحراء المثلثين مرجع سبق ذكره ص: 208

⁸¹ - نفسه.

دعم ديني لأهدافه السياسية، إلا أن المصادر ذكرت أن أبا عمران الفاسي اختبر الرجل في القيروان، فسأله عن أمر دينه وعن الفرائض منها بشكل خاص فلم يجده يعرف منها شيئاً ولا من يحفظ الكتاب ولا من السنة حرفاً⁸².

أما الاتجاه الذي لا يوافق رأي المصادر في قولهم بجهل يحي بن إبراهيم الكدالي، فيرى أن الإسلام دخل منطقة صنهاجة قرنين من الزمن على الأقل قبل اللقاء بين الاثنين يحي بن إبراهيم الكدالي وأبي عمران الفاسي وتخلقوا بأخلاقه ويظهر ذلك في سلوكهم وتقاليدهم وشعائهم الدينية التي من أبرزها فريضة الحج التي قام بها الكدالي والتي كانت هي السبب الأساسي في قيام الدولة المرابطية حسب المصادر العربية، وليس من المنصف أن يقال إنه انتشر في مستهل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي⁸³.

مما سبق يمكن القول إن الظروف المعاشة في تلك الفترة، أدت إلى المساهمة في خلق إطار سياسي يهدف إلى بسط نفوذه على منطقة الغرب الإسلامي خلال الفترة الوسيطة.

2- العامل الاقتصادي:

بعد هيمنة الزناتيين في أواخر القرن العاشر الميلادي على مناطق ذات صلة مباشرة بالتجارة عبر الصحراء، حلت مغراوة في تافلات محل الإمارة الصفيرية وقامت بتوسيع مجالها اتجاه السوس الأقصى ودرعة، في الوقت الذي تمكن فيه الزناتيون والإباضيون من الاستقرار في أوداغست عن طريق التحالف مع امبراطورية غانه السودانية، في الناحية الجنوبية بالطرق التجارية، فأصبح المثلثون ممنوعين من الاستقرار في الجنوب، من المراعي الجيدة والموارد التجارية وتم طردهم من أوداغست عاصمتهم ذات الموقع الجغرافي المتميز والسوق الرابحة مما فرض على المثلثين التفرغ في الصحراء والاعتماد على تربية الإبل وحرما من

⁸² - أحمد الشكري، مملكة غانا علاقتها بالحركة المرابطية هل حقا قام المرابطون بغزو غانا، م ط، النجاح الجيدة-الدار البيضاء، الناشر معهد

الدراسات الأفريقية، ص: 44.

⁸³ - نفسه.

المناطق الصالحة للزراعة وكذلك من مراكزهم التجارية التي كانوا يتولون الإشراف عليها، وقد انعكس ذلك على تقليص أعداد هامة من سكان المنطقة، وخاصة الذين كانوا يعيشون في الحواضر ويمارسون التجارة أو الزراعة، وأجبروا على مواجهة ظروف اقتصادية صعبة للغاية، كما عرفت المنطقة جفافا في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي مما أدى إلى أزمة اقتصادية صعبة أودت بحياة الكثير من الثروة الحيوانية⁸⁴ وفي ظل هذه الوضعية الصعبة بات من الضروري البحث عن مصادر بديلة تؤمن الحد الأدنى من الحياة، وكانت التجارة العابرة لصحرائهم من أكثر الموارد لهم، لأن مردوديتها مربحة ومضمونة أكثر من أي وقت مضى لتراجع النشاط التجاري عبر الطرق الشرقية التي كانت تربط مصر وإفريقية ببلاد السودان الغربي بشكل مباشر وبسبب المخاطر الطبيعية البشرية التي هددت أمن روادها فأدى ذلك إلى اتجاه القوافل جنوبا مرورا بصحراء الملثمين، فما كان من القبائل الصنهاجية إلا أن توحدت وفرضت هيمنتها على الطرق والمراكز التجارية فكانت تلك المحاولات تحت قيادة محمد بن تيفاوت اللمتوني لبلوغ ذلك الغرض⁸⁵.

لقد كانت تلك الوحدة مرحلة جديدة مهدت لقيام الدولة المرابطية التي رفعت شعار نشر الإسلام السني وضمنت للملثمين وحدتهم ففتحت آوداغست سنة 446هـ و(1054م)، ثم فتحت سجلماسه شمالا سنة 447هـ (1055م)، وبسيطرة الدولة المرابطية على المركزين الاقتصاديين الهامين مدت انظارها نحو الشمال لبسط نفوذها على أجزاء من المغرب وتمت السيطرة على بلاد الملثمين إضافة إلى أجزاء من السودان الجنوبي.

3- العامل الديني:

يعتبر العامل الديني من أهم العوامل التي أسهمت في قيام الدولة المرابطية حسب ما يراه الباحثون وذلك لما للعقيدة من دور في تجسيد وتعميق الوازع الديني ولما يثيره من حماس في

⁸⁴ - احمد الشكري، مملكة غانا علاقتها بالحركة المرابطية، مرجع سبق ذكره، ص: 44.

⁸⁵ - نفسه.

نفوس الأفراد والجماعات، وبدا ذلك جليا في توصيلهم للمذهب السني المالكي ونشره في غرب إفريقيا وتربعه على مقعد السلطة، وهو ما حصل عن طريق قيام الدولة المرابطية التي نشرت هذا المذهب ورسخته، وحملت راية الجهاد في سبيله وتوسعت الدولة في اتجاه السودان جنوبا ومن الصحراء إلى المغرب والأندلس شمالا، وبما أن هذا المد السني كان متناميا إبان هذه الفترة فقد تزامن ذلك مع حجة يحيى بن إبراهيم الكدالي، حيث ولد لديه السعي إلى إنقاذ قومه مما كانوا فيه من جهل لما واجه المستوى الثقافي والإسلامي الذي وصلت إليه الشعوب⁸⁶.

ويرجع بعض الباحثين قيام دولة المرابطين إلى رغبة زعيمهم يحيى بن إبراهيم الكدالي في تجديد الدعوة بين صفوف قومه - المحرومين من الاستفادة من الفقهاء والعلماء بفعل طبيعة الصحراء الصعبة في الوقت الذي كان تركز العلماء في المدن الشمالية- لما رأى أن مخالطتهم للوثنيين بالجنوب أثرت على معتقدتهم وممارستهم لشعائهم الدينية حتى أصبح إسلامهم سطحيا⁸⁷.

ويذهب آخرون إلى أن نوايا قادة قبائل صنهاجة وإخلاصهم لدينهم والسعي إلى تعميق المعارف الدينية لقومهم وإلزامهم بممارسات شعائر الإسلام الصحيحة أدت إلى التحالف مع فقهاء المالكية في المغرب لإقامة إطار سياسي يحقق قيام هذا المشروع ويوسع مجاله، وهذه الخطوات برهنت على أن الدين لعب دورا حاسما في نشأة الدولة المرابطية.

وإذا ما تراءى للدارس أن قيام هذه الدولة كان استجابة لحاجيات اقتصادية وسياسية من جهة، فإن الطابع العام الذي ميزها عن باقي الدول التي قامت في المنطقة هو اتباعها للمذهب السني المالكي في جميع مناحي الحياة إلى درجة أنها اشتهرت بهيمنة الفقهاء على

⁸⁶ - الناني الحسين مرجع سبق ذكره ص: 215.

⁸⁷ - نفسه.

قراراتها وفي هذا المضمار قام المرابطون بإصلاح ديني شامل مبني على الرجوع إلى المذهب السني المالكي وعملوا على اتخاذ بعض النقاط الأساسية نذكر منها:

- إعادة الوحدة الإسلامية إلى المناطق المحكومة من طرفهم وتجلى ذلك في محاربة البرغواطيين والمغراويين وغيرهم من أصحاب البدع والوثنيين في منطقة الصحراء والجنوب السوداني.

- الدفاع عن ملوك الطوائف في الأندلس وتوحيدها وذلك للتصدي للهجمات المسيحية.

ومما سبق يمكن القول إن المرابطين أسسوا للوحدة المذهبية بنشر المذهب المالكي في المنطقة، وذلك لما عرفوا به من شدة رجالهم ولشجاعتهم واستعدادهم للشهادة في ساحات المعارك.

ثانيا: تطور الحركة المرابطية

ذكرت المصادر العربية الوسيطة أن اللقاء الذي حدث بين يحيى بن إبراهيم الكدالي والفقير أبي عمران الفاسي، هو المبادرة الأولى لوضع خطة أدت إلى قيام دولة المرابطين، ولا يبدو أن ذلك تم بشكل اعتباطي، ولعل الحوار الذي اشترك فيه الرجلين حول صراع الملتزمين وقع في مكان آخر في القيروان، لأن الصلات التجارية والثقافية كانت وثيقة بين المنطقتين ولا يستبعد أن المشروع كان قيد الدراسة مع عبد الله بن تيفات، لأن أول خطوة قام بها الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي كانت توحى بوصية من سلفه، حيث قام باستخلاف ابنه إبراهيم بن يحيى ورحل إلى المشرق لتأدية فريضة الحج.

ذكر ابن عذاري المراكشي أن أبا عمران الفاسي خرج هو الآخر لأداء فريضة الحج سنة 425هـ (1034م)⁸⁸ و تولد لدى بعض الباحثين أن يكون يحيى بن إبراهيم الكدالي التحق بنفس الحجة وكان قائد الركب أبو عمران الفاسي فتم بينهم التعارف ورافقه ليكون المتسع

⁸⁸ - أبي عذاري المراكشي مصدر سبق ذكره ص: 34.

أكثر⁸⁹ وكان لاختيار الداعية عبد الله بن ياسين من طرف شيخه وجاج بن زلو اللمطي، وتطوعه لتلك المهمة نظرا لخبرته ومعرفته بطباع أهل الصحراء وإطلاعه على مواضع الضعف، وهذا ما جعله يعاملهم ويصبر عليهم حتى يحقق الهدف، وقد توافرت لشخصية الرجل المؤثرات الفكرية والسياسية مما جعل من صاحبها معلما وداعية، فسار في توجيه الدعوة وفق خطة مرسومة تهدف إلى إقامة الدولة⁹⁰ وقد تمت الدعوة في مضارب اكدالة ولمتونه حتى غلب عليه اليأس من تقويم القوم فارتأى الخروج إلى جزيرة باقتراح من الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي فوافقه الرأي، ليقوم رباطا يعتزل فيه عن المشاغبين ويكون مقرا لدعوته، وحصنا لاتباعه يدفع عنهم خطر أعدائهم ويوفر لهم الحماية، وينصرفون إلى تعليمهم وعبادتهم وإعداد أنفسهم للجهاد⁹¹ وذلك عندما نجى من مؤامرة معارضته في القبائل الصنهاجية وكان الداعية واتباعه في مأمن من القوم ومن هجمات المماليك السودانية، وتتأقلم الناس أخبارهم وأنهم يطلبون النجاة من النار فكثرت الواردون إليهم وأخذ عبد الله بن ياسين يعلمهم القرآن والشرائع الإسلامية ويرغبهم في ثواب الله إلى أن تمكن من قلوبهم فسماهم المرابطون وذلك لملازمة رباطه⁹².

وقد أوضح بعض الدارسين أن هذه الكلمة (رباط) فيما يتعلق بالمرابطين كان لها معنى مرتبط بالجهاد وقد تلقاها ابن ياسين عن طريق شيوخه ولا سيما وجاج بن زلو اللمطي.

وقد انتقلت الدعوة المرابطية من طور التعليم والتوجيه إلى مرحلة الخروج من الرباط والمواجهة العسكرية لقبائل صنهاجة في الصحراء حيث أخضعتها وتوجهت إلى المراكز التجارية الهامة فاستولت على مدينة أوداغست ومنها إلى سجلماسة لتضع بثقلها على المنفذين التجاريين وبذلك اكتمل الأمر للمرابطين في الصحراء ولاحت إمكانية تأسيس دولتهم

⁸⁹ - الناني الحسين، مرجع سبق ذكره، ص: 355.

⁹⁰ - أحمد فال القلاوي، مرجع سبق ذكره، ص: 221.

⁹¹ - نفسه.

⁹² - ابن أبي زرع الانيس المطرب، مصدر سبق ذكره، ص: 192.

وتم إنشاء بيت مال لأول مرة بالصحراء وامتدت أنظارهم في اتجاه المغرب لتبدأ عملية الفتوحات لاحقاً، ولم تكتمل السيطرة على المنطقة دفعة واحدة بل جاءت عبر مراحل عديدة.

المطلب الثاني: الحضور المرابطي في الصحراء

لقد نسبت الصحراء إلى قبائل الملتمين المعمرين لها خلال العصر الوسيط فأطلق عليها من طرف بعض المؤرخين "صحراء الملتمين" واعتبروا أن هذه القبائل مثلت شعباً انضمت تحت لوائه سبعين قبيلة، ومن أشهر قبائل صنهاجة آنذاك :

- **لمتونه:** التي سيطرت على منطقة شاسعة من مناطق الصحراء وهي إحدى أكبر وأقوى القبائل الصنهاجية ويقع المجال الجغرافي الذي كانت تسيطر عليه في الوسط بين أراضي اكداله غرباً وبلاد مسوفه في الشرق وفي الشمال وصلت مضاربها إلى واد ترجا (الساقية الحمراء وواد الذهب)، وقد استقر بعضهم في المدن كأوداغست منذ فترة متقدمة من القرون الوسيطة وكان جلهم يرتحل وراء مواشيهم، وقد لعبت هذه القبيلة دوراً محورياً في التجارة عبر الصحراء لسيطرتها على الطريق الغربي الذي حمل اسمها بعد قيام الدولة المرابطية⁹³ كما أشرفت على استخراج الملح من مملحة "اجل" التي تقع في نطاق نفوذها الاقتصادي، وقد خولت لها المكاسب التي حصلت عليها أن تلعب دوراً أساسياً فريداً من نوعه في الصحراء فكان ملك صنهاجة يقع عليه الخيار من بين اتحاد رؤسائها⁹⁴.

- **اكداله:** من أكثر القبائل الصنهاجية عدداً، استقروا في المنطقة وانتشرت فروعها جنوباً حتى الضفة اليمنى لنهر السنغال وكان النطاق الخاص بهم الجزء الغربي من الصحراء والموالي للمحيط الأطلسي.

⁹³ - محمد عالي الصلابي، الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، عالم الكتب للطباعة والنشر، القاهرة، 2007، ص: 15.

⁹⁴ - نفسه.

وقد لعبت قبيلة اكدالة دورا أساسيا في المبادلات التجارية مع السودان، فسيطروا على مملحة أوليل منذ القرن العاشر الميلادي تقريبا والتي كان ملحها يصدر نحو الممالك السودانية ويبيع بالذهب مما مكن قبيلة اكدالة من الثراء بالمنطقة⁹⁵.

- **مسوفة:** تعتبر قبيلة مسوفة من قبائل صنهاجة اللثام، التي كانت تسيطر على الجزء الشرقي من الصحراء تحدها من الغرب لمتونة وزياتة ومن الشرق تمتد حدودها إلى أن تصل نهر النيجر وتميزت أراضيها بالجفاف وقساوة المناخ، لكن لم يقلل ذلك من دورها الذي لعبته من حيث النشاط التجاري فسيطرت على الطريق الذي يربط بين سجلماسه وغانا، كما استولت على مملحة تغازة، لتنتقل المسوفيين في المناطق البدوية الطبيعية في صحرائهم القاحلة، وأصبحوا مطلعين على المسالك الوعرة واستفادوا من الخبرة فتولوا القوافل وهدايتها⁹⁶.

ولم تكن هذه القبائل وحدها الموجودة في المنطقة بل كانت تسكنها قبائل صنهاجية أخرى لكن كان الحظ الكبير لهذه نتيجة لكثرتها ونفوذها.

وعاش إلى جانب هذه القبائل الكبرى بنو وارث وجزولة ولمطة وغيرها، إلا أن هذه القبائل في مجموعها تشكل الجزء الأهم لمجتمع الصحراء.

وقد تكالبت القوى المتنافسة على التجارة عبر الصحراء في تهميش الصنهاجيين منذ أواخر القرن العاشر الميلادي وكانت هزيمة لمتونه على أيدي تحالف التجار الزناتيين والغانيين وانزياحها إلى الدخول في صراع مرير مع شعب البافور عند جبل آدرار.

⁹⁵ - محمد عالي الصلابي، مرجع سبق ذكره، ص: 6.

⁹⁶ - نفسه.

وقد تفرقت كلمة القبائل ابتداء من ثورة القبائل الصنهاجية على ملكهم تميم بن الأثير وقتلهم له سنة 360هـ، حيث تمكنت بعد ذلك من إقامة حلف قبلي أوكلوا قيادته إلى رئيس لمتونه أبي عبد الله بن تيفافوت الملقب بتارشينا⁹⁷.

ويذكر أن مجموعات البافور التي كانت تدين باليهودية وهي بجانب لمتونه بجبل آدرار توجه إليها الجيش المرابطي وقاتلها وفتح مدنها.

ولم تتم السيطرة على منطقة الصحراء بشكل مضبوط إلا بعد استيلائهم على المراكز التجارية الكبرى، وعلى مسالك الطرق التجارية بالصحراء، وخاصة آوداغست 1054م وسجلماسه في الشمال 1055م فاكتمل بذلك قيام الدولة المرابطية بالصحراء وتتالي على حكمها مجموعة من الأمراء وقد بذل هؤلاء جهودا كبيرة لتثبيت أركان الدولة وتأمين استمراريتها لتؤدي رسالتها في نشر الإسلام السني المالكي في منطقة الصحراء⁹⁸.

وقد قامت الدولة المرابطية في الصحراء خلال النصف الأول من القرن (5هـ - 11م) وبسطت نفوذها على الصحراء كلها، بعد أن احتوت الأجزاء التي اجتاحتها غانا من قبل، وامتدت سيطرتها حتى شملت أجزاء من المغرب، كما وضعت حدا لهيمنة منافسيها على الطرق والمراكز التجارية في المنطقة، وتمكنت من توحيد منطقة نفوذ دولتهم التي يسودها المذهب السني المالكي.

وقد علل بعض الباحثين ذلك بهزيمة لمتونه التي فرض عليها النزوح إلى الشمال بجبل آدرار وانشغالها بالحروب مع البافور في تلك المنطقة الشيء الذي أتاح الفرصة أمام قبيلة اكدالة لتتربع على الحلف الصنهاجي آنذاك لأن اكدالة كانت أقدر على مكافحة السودان من أي

⁹⁷ - الناسي / الحسين مرجع سبق ذكره ص: 217

⁹⁸ - حماء الله السالم، تاريخ بلاد شنقيطي (موريتانيا) من العصور القديمة إلى حرب شريبه الكبرى بين أولاد الناصر ودولة ليدوكل اللتونية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2010، ص: 40.

قبيلة أخرى، فكانت ديارها متاخمة لديارهم وهي أعرف بطبائعهم من غيرها علاوة على اشتغالها بتجارة الملح والتبر والرقيق مما أكسبها ثروة هائلة⁹⁹.

وذهب البعض إلى القول بأن رابطة المصاهرة بين الزعيم الصنهاجي تارشينا ويحي بن إبراهيم الكدالي هي التي نقلت زعامة صنهاجة من قبيلة لمتونه إلى قبيلة اكداله.

ومهما يكن من أمر فإن هذا التحول التاريخي للسلطة كان يحمل في طياته، حركة دعوية جديدة لسكان الصحراء حملت رياح تغيير جذري بالمنطقة وقد برزت نتائجها مع وصول انصار الداعية عبد الله بن ياسين ألف رجل، حيث بدأ وعظهم وحثهم على الجهاد وقال لهم: إن ألفا لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعوة إليه وحمل الكل عليه، فاخرجوا بنا لذلك، وقاتلوا قبائل صنهاجة كلها بما فيها لمتونه ومسوفة واكدالة¹⁰⁰.

يقول بعض الباحثين إن القبائل الأقل شأنًا سارعت في دخول الدعوة وإظهار الطاعة والولاء للمرابطين وذلك عندما أخضعوا القبائل الكبرى واحدة تلو الأخرى.

بدأ عبد الله بن ياسين بقبيلة اكدالة وقاتلهم حتى أذعنوا وحسن إسلامهم، وأدوا ما لزم من فرض الله عليهم وذلك سنة 434هـ وخرج إلى قبيلة لمتونه وقاتلهم حتى خضعوا وتابوا وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة، وفعل ذلك بمسوفه حتى بايعوا على ما بايعت عليه اكدالة ولمتونة.

وفي هذا الخصوص يتحدث أحمد شكري فقال: وبعد وفاة الأمير محمد بن تيفاوت اللمتوني "تارشينا" حوالي عام 425هـ / 1034م تولى صهره يحي بن إبراهيم الكدالي أمر صنهاجة، وبذلك انتقلت رئاسة الحلف الصنهاجي، ربما لأول مرة من لمتونه إلى اكداله، ولا شك أن الأمر له دلالة عميقة بخصوص ترتيب البيت الصنهاجي الجديد غير أننا لا نمتلك

⁹⁹ - حماء الله السالم، تاريخ بلاد شنقيطي (موريتانيا)، مرجع سبق ذكره، ص: 52.

100 - نفسه

أدلة ملموسة حتى الآن عن طبيعة المعطيات المستجدة، التي سمحت بانتقال رئاسة الحلف من قبيلة لمتونه إلى اكدالة بتلك السهولة¹⁰¹.

المطلب الثالث: التوسع المرابطي في المنطقة

بدأ المرابطون دولتهم بالدعوة والموعظة الحسنة في قبائل الملتمين بالصحراء، وقد اعتزلوا القوم وكونوا رباطا بلغ عددهم فيه ألف رجل، ولما بلغوا ذلك العدد عمل قائدهم ومرشدهم الديني عبد الله بن ياسين على شحذ همهم وحثهم على الاستعداد للجهاد والدفاع عن الحق، فخرجوا إلى القبائل بالمواعظ الحربية ولم تلبث هذه القبائل حتى انقادت لأمرهم، ولم يقتصر أمرهم على ذلك بل كونوا نواة للدولة المرابطية في الصحراء ليمتد نفوذها خارج ذلك باتجاه الشمال والجنوب ففي سنة 1042م انطلق المرابطون لمحاربة الرافضين لدين الله من لمتونه وتمكنوا من فتح آدرار وتكانت بالصحراء آنذاك، كما أطلق الأمير يحيى بن إبراهيم هجوما في آدرار ضد قبائل اكدالة الرافضة لاعتناق الإسلام وفي سنة 1054م فتحت مدينة أوداغست عاصمة الدولة الصنهاجية سابقا، كما نظم عبد الله بن ياسين حينها حملة ضد اكداله وانتصر عليهم وتمكن أبوبكر بن عمر من السيطرة عليه بعد سنتين من المعارك وفي سنة 1076م تمكنت جيوش المرابطين من محاصرة مملكة غانا وإخضاعها والسيطرة على العاصمة كمبي صالح وكان ذلك تحت قيادة أبي بكر بن عمر.

واتجهت جيوش المرابطين نحو المناطق الشمالية من بلاد المغرب، ففي عام 1055م أخذوا درعة ثم تارودانت عاصمة السوس ومغراوة سنة 1058م وفتحوا برغواطة 1078م وفتحوا وهران سنة 1083م وتحكموا في عامة القوافل المتجهة إلى سجلماسة.

وكانت الفوضى السياسية في طول بلاد المغرب وعرضه كذلك والصراعات التي نشبت بين أمراء الدويلات وتواصلت حتى تقاسمت حكم المغرب والمجاعات والأوبئة والسياسة الضريبية

¹⁰¹ -أحمد شكري مرجع سبق، ذكره ص: 40.

المجحفة التي انتهجها هؤلاء الأمراء، شكلت عوامل داخلية ساعدت على توجيه همة المرابطين نحو فتح المغرب.

ويبدو جليا من خلال خط سير العمليات العسكرية التي اتبعها المرابطون أنها خضعت لخطّة محكمة حيث قسمت المنطقة إلى محاور:

أ- محور سجلماسه - آغمات : الذي كان يهدف إلى السيطرة على منافذ التجارة والحق أن هذه المرحلة كانت حاسمة في توطيد نفوذ المرابطين بالمغرب لكن المصادر لم تول اهتماما بخصوصها حيث تأتي بأخبار شحيحة تتميز باختلاف حول السنوات التي وقعت فيها المعركة، وانطلقت الحملات العسكرية بقيادة يحيى بن عمر الذي خلف يحيى بن إبراهيم الكدالي، وتحت الزعامة الروحية التي مثلها عبد الله بن ياسين وقد شملت فتح درعة وسجلماسه ثم عادت أدرجها نحو السودان، قبل العودة لسجلماسه من جديد لإخماد ثورة اندلعت هناك، وبعد ذلك واصلت الجيوش المرابطية زحفها نحو السوس بقيادة أبي بكر بن عمر الذي خلف يحيى بن عمر سنة 448هـ - 1056م فتم الإستيلاء على تارودانت وجبل درنه¹⁰²، وتوالت الفتوحات المرابطية في مدن المغرب بقيادة يوسف بن تاشفين، وبعد استقرار الأمر له في المغرب توجه بالفتح إلى شبه الجزيرة الإيبيرية (الاندلس) وحدثت معركة الزلاقة المشهورة التي انتصر فيها المرابطون على جيوش الفونسو السادس ملك قشتالة، وفي اجتيازه الثاني للبحر نحو الأندلس استولى المرابطون على غرناطة عام 1090م وقرطبة واشبيلية ومرسية عام 1091م ولشبونة عام 1094م وبلنسية عام 1102م.

ومما سبق يمكن القول إن الدولة المرابطية بسطت نفوذها على المغرب شمالا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية وامتدت جنوبا في اتجاه الصحراء إلى تخوم بلاد السودان.

¹⁰²-إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والاندلس في عصر الموحدين، مرجع سبق ذكره، ص: 11.

المبحث الثالث: التجارة عبر الصحراء ودورها في نشأة المدن

اكتست التجارة عبر الصحراء أهمية بالغة في نشأة المدن وتأسيس التجمعات السكنية أو المراكز التجارية، وقد تنامت هذه الظاهرة منذ القدم وعلى نطاق واسع وفي مختلف أرجاء المعمورة، ففي الجزيرة العربية وأطرافها تكونت قبل ظهور الإسلام مدن كثيرة: كالبترا، وتدمر، والعلا ويثرب...، وقد ساهمت تجارة الفينيقيين ثم الرومان مع الصحراء الوسطى في ظهور مدن إفريقية منذ العصر القديم كإغدامس وجرمة¹⁰³.

كما ساهم الإسلام بدوره في تنامي ظاهرة التمدن، وتجسد ذلك من خلال الفتوحات التي صاحبت تلك الفترة، فإثر هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يثرب لجعلها نواة للدولة الإسلامية أطلق عليها اسم "المدينة المنورة" وتسهم الفتوحات في تشييد الكوفة والبصرة، والقيروان التي أصبحت أمصارا لتبدأ بذلك نشأة المدينة العربية الإسلامية.

ولم يسهم الفتح الإسلامي على يد عقبة بن نافع الفهري في إفريقيا سنة 62هـ - 682م بأي تمصير أو تمدين عدا القيروان، إلا أن إفريقيا لها نصيبها منذ القدم في وجود مدن مثل تشمش، وليلي...¹⁰⁴.

وقد نشطت تجارة القوافل بواسطة تلك المدن حيث ازدهرت الأسواق وتوفرت المواد المتبادلة، ومن أهم تلك المدن الصحراوية في العصر الوسيط مدينة أوداغست، وغانه (كومبي صالح) وآزوكي، وقد زاد النشاط التجاري لتلك المدن خلال القرن (5هـ / 11م) في الفترة المرابطية لما وفرته هذه الدولة من أمن للمحاور التجارية وما أولته من اهتمام على المستوى الاقتصادي، وتحدث الباحثون عن الطرق التجارية الرابطة بين الشمال الإفريقي والسودان الجنوبي وأطلقوا عليها اسم (المحاور التجارية).

¹⁰³ - أحمد مولود أيده، المدن الموريتانية الوسيطة المندثرة (أوداغست، غانه وكومبي صالح وآزوكي)، رسالة الماجستير، جامعة تونس -1999- 2000م.

¹⁰⁴ - بن عبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية (معلمة المدن والقبائل) الرباط 1977 ص: 275-279.

المطلب الأول: المحاور التجارية

تطلق هذه الكلمة عند الدارسين على مجموعة من الطرق والمسالك ذات الاتجاه المشترك، والتي تربط بين مركزين تجاريين أو أكثر وتنطلق هذه الطرق التجارية من الشمال الإفريقي إلى السودان الجنوبي مروراً بمنطقة الصحراء التي تشكل همزة وصل بين الطرفين، وقد قسم بعض الباحثين تلك الطرق إلى محورين أساسيين:

أولاً: المحور الغربي

يطلق المحور الغربي: على مجموعة الطرق المنطلقة من جنوب المغرب باتجاه المدن السودانية مروراً بالمدن الصحراوية.

وقد ساهمت المدن المغربية في ازدهار هذا المحور بموقعها شمالاً على مشارف الصحراء، بالإضافة إلى الكثافة السكانية التي كانت تتمتع بها خلال تلك الفترة والتي تعتمد على ممارسة الزراعة على الأنهار التي تتبع من الأطلس الكبير كنهر زيز ودرعة وسوس، مما ساعد بشكل كبير على الاستقرار في هذه المدن، مع وجود بعض المواد النفيسة كالفضة والنحاس، وقد تبوأَت مدينة سجلماسة مكانة هامة في تجارة القوافل خلال العصر الوسيط، فكانت المدينة تجمعاً لأغلب التجار القادمين من شمال إفريقيا ومصر وغيرها لأنها منطلقاً لأغلب الطرق المتجهة نحو الجنوب وبذلك أصبحت بوابة للصحراء، ومركزاً للاستراحة قبل الانطلاق نحو الصحراء، وإلى جانب سجلماسة وجدت مدينة تامدلت التي أسسها الأدارسة في بداية القرن الثالث الهجري والتي انطلقت منها بعض الطرق في اتجاه الجنوب¹⁰⁵، ومدينة نول التي تصفها بعض المصادر أنها آخر مدن الإسلام وأول مدن الصحراء¹⁰⁶.

وقد كانت الطرق التي تنطلق من هذه المدن في اتجاه الجنوب عبارة عن مجموعة مسالك متوازية تفصل بينها أحياناً عدة مراحل لكنها تلتقي مع بعضها البعض عند نهاية كل مرحلة وعلى القافلة اختيار المسلك المناسب لها لأن المسلك الواحد لا يوفر حاجيات مجموعة من

¹⁰⁵ - المصطفى ولد يكير، صحراء الملثمين و السودان الغربي، مرجع سبق ذكره، ص: 183.

¹⁰⁶ - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 161.

القوافل من المراعي والماء والحطب ولأن الوجهة غير واحدة فانقسم المحور إلى مجموعة طرق منها¹⁰⁷ :

(1) الطريق اللمتوني

سميت هذه الطريق بالطريق اللمتوني نسبة إلى أبي بكر بن عمر اللمتوني حيث كانت تسلكها الجيوش المرابطية أثناء العودة من الجنوب نحو الشمال، وتعتبر هي أقدم طرق المحور الغربي وتتطلق من مدينة سجلماسة وتمر بمدينة تامدلت، ويعتقد بعض الباحثين أنها من أول الطرق الصحراوية استخداما حيث سلكتها العربات التي تجرها الخيول خلال آلاف السنين قبل الميلاد¹⁰⁸.

ولا يستبعد بعض الباحثين أن هذه الطريق هي التي حفرت عليها بعض الآبار من طرف عبد الرحمن بن حبيب ابن أبي عبيد وأنه سلكها أثناء حملته في الصحراء¹⁰⁹، وقد ذكرت المصادر مجموعة من الآبار على طول هذه الطريق.

وقد حدثنا البكري عن هذه الطريق حيث يقول "من تامدلت إلى بير الجمالين مرحلة وهذه البئر (...) من أنباط عبد الرحمن بن حبيب (...) إلى ماء يسمى تندفس¹¹⁰ آبار يحتفرها المسافرون ولا تلبث أن تنهار وتندفن ثم تسير منه ثلاثة أيام إلى بير كبير يقال لها "وين هيلون" ثم تمشي ثلاثة أيام (...) إلى ماء نزر يقال له تازفي (...) ثم تسير منها إلى بير يقال لها ويطونان،¹¹¹ ثم تمشي منه إلى بلد أروان خمسة أيام (...) ثم تسير منه يومين إلى ماء يقال له أغرف (...) ثم تسير منه ثلاثة أيام إلى موضع يقال له أفرتدي (...) ثم تسير

¹⁰⁷ - المصطفى ولد يكر، صحراء الملثمين و السودان الغربي، مرجع سبق ذكره، ص: 184.

¹⁰⁸ - الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 272-274.

¹⁰⁹ - نفسه، ص: 272.

¹¹⁰ - حاول بعض الباحثين مقابلة الأسماء التي أوردها البكري في نصه بأسماء حديثة لتفسيرها وقد فسر كلمة (تندفس) أنها تعني تندوف وهي مدينة موجودة حاليا بالجزائر، المصطفى ولد يكر الهامش 185.

¹¹¹ - يفيد البكري في نصه ملوحة الآبار التي ترتبط بين طريق تامدلت و أودغست ويذكر اسم بطونان وهي بئر كبيرة تنزف وماؤها زعاق ويمكن أن يعني بها بئر لأنها تمتلك نفس الأوصاف تبعد 60 كم من أطلال أوداغست وتسمى "تول" هامش المصطفى ولد يكر 185.

منه يوما في جبل يقال له ازجونان(...) ثم تسير منه إلى شرف عال على آوداغست (...).
مرحلة ثم إلى آوداغست¹¹².

من خلال النص الذي أفاد به البكري يمكن القول إن هذه الطريق كانت من أكثر الطرق استعمالا لدى القوافل التجارية ويرجع ذلك إلى الاهتمام الذي أولاها البكري ومحاولة وصفها بشيء من الدقة أكثر مما أعطاه لغيرها.

(2) الطريق الساحلي

تتطلق هذه الطريق من مدينة لمطة في جنوب السوس الأقصى على الساحل الأطلسي للمغرب، ويتجه نحو الجنوب بمحاذاة ساحل البحر حتى يصل إلى مملحة أوليل¹¹³، التي تقع اليوم في مصب نهر السنغال، وقد حدد البكري الفترة الزمنية التي تقطع القوافل فيها الطريق بشهرين من السير فقال "... والطريق منها إلى انول (يعني أوليل) على ساحل البحر لا يفارقه مسيرة شهرين يمشي في أرض أكثرها صفى".¹¹⁴

يتميز هذا الطريق بإيجاد مناخ ملائم للسفر وذلك بحكم وقوعه على المحيط إلا أن المياه قليلة بالإضافة إلى المدن وأماكن الاستراحة، ويعتبر من الطرق الأكثر أمنا نتيجة لقلّة المجموعات عليه باستثناء قبيلة اكدالة التي تقع في نهايته.

كما تتعدم أهمية الدليل في هذا الطريق لأن الآبار ونقاط المياه معلومة المكان، ويحصلون على المياه إذا ما حفروا بشكل أسهل عن طريق آبار صغيرة.

¹¹² - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 172.

¹¹³ - ماجدة كريمي، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني "رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط، 1988-1989، ص: 147.

¹¹⁴ - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 172.

وفي هذا الشأن يتحدث البكري فيقول "... وإنما يشربون من طريقهم من قلات يحفرونها فتنبض ماء عذبا"¹¹⁵.

وقد حدده الباحث موني (Mauny) ب 1600 كلم ويعتقد أن هذا الطريق لم يزدهر بقدر ما ازدهر الطريق للمتوني وباقي الطرق الصحراوية الأخرى، بل يذهب في رأيه إلى أبعد من ذلك حين يفيد أن هذا الطريق لم يلعب دورا مهما في التجارة القوافلية في العصرين القديم والوسيط، بل اكتسب أهميته في الفترة الحديثة عندما بدأ الأوروبيون التواجد على السواحل الإفريقية الغربية، ويستدل على رأيه بعدم أهمية المواد التي كانت توجد على الطريق خاصة إذا ما تجاوزنا مملحة أوليل¹¹⁶.

ولا يتفق بعض الباحثين المحليين مع موني (Mauny) في الرأي وذلك بدليل أهمية مملحة أوليل في أوائل العصر الوسيط حيث أن الملح يصدر إلى مناطق الضفة اليسرى لنهر السينغال، كما يحمل إلى مدينة أوداغست عبر طريق يتجه شرقا من "أوليل إلى أودغست مسافة شهر من السير"¹¹⁷، وتستفيد منه بعض المناطق السودانية عن طريق القوارب.

وهذا ما ذكره الإدريسي في قوله: "... وذلك أن المراكب تأتي إلى هذه الجزيرة (أي أوليل) فتسوق وتسير منها إلى موقع النيل وبينها مقدار مجرى ، فتجري في النيل إلى سلى وتكرور ونرسي..."¹¹⁸

وإذا كان هذا الطريق أقل أهمية من باقي طرق المحور الغربي الأخرى فإنه يبقى مسلوكا من طرف القوافل، وخاصة في النصف الأول من العصر الوسيط.

¹¹⁵ - الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، مصدر سبق ذكره، ص: 273.

¹¹⁶ Mauny, Raymond. Tableau Géographique de L'ouest Africain au Moyen-Age d'après les Sources Ecrites, la tradition et l'archéologie, Dakar, IFAN, 1961. Réédition Amsterdam, 1967.p : 247.

¹¹⁷ - ابن حوقل، ابن حوقل، صورة الأرض. مصدر سبق ذكره، ص: 91.

¹¹⁸ - الإدريسي، نزهة المشتاق، في اختراق الآفاق، الجزء الخاص بالقارة الإفريقية و جزيرة الأندلس: تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المجموعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص: 32.

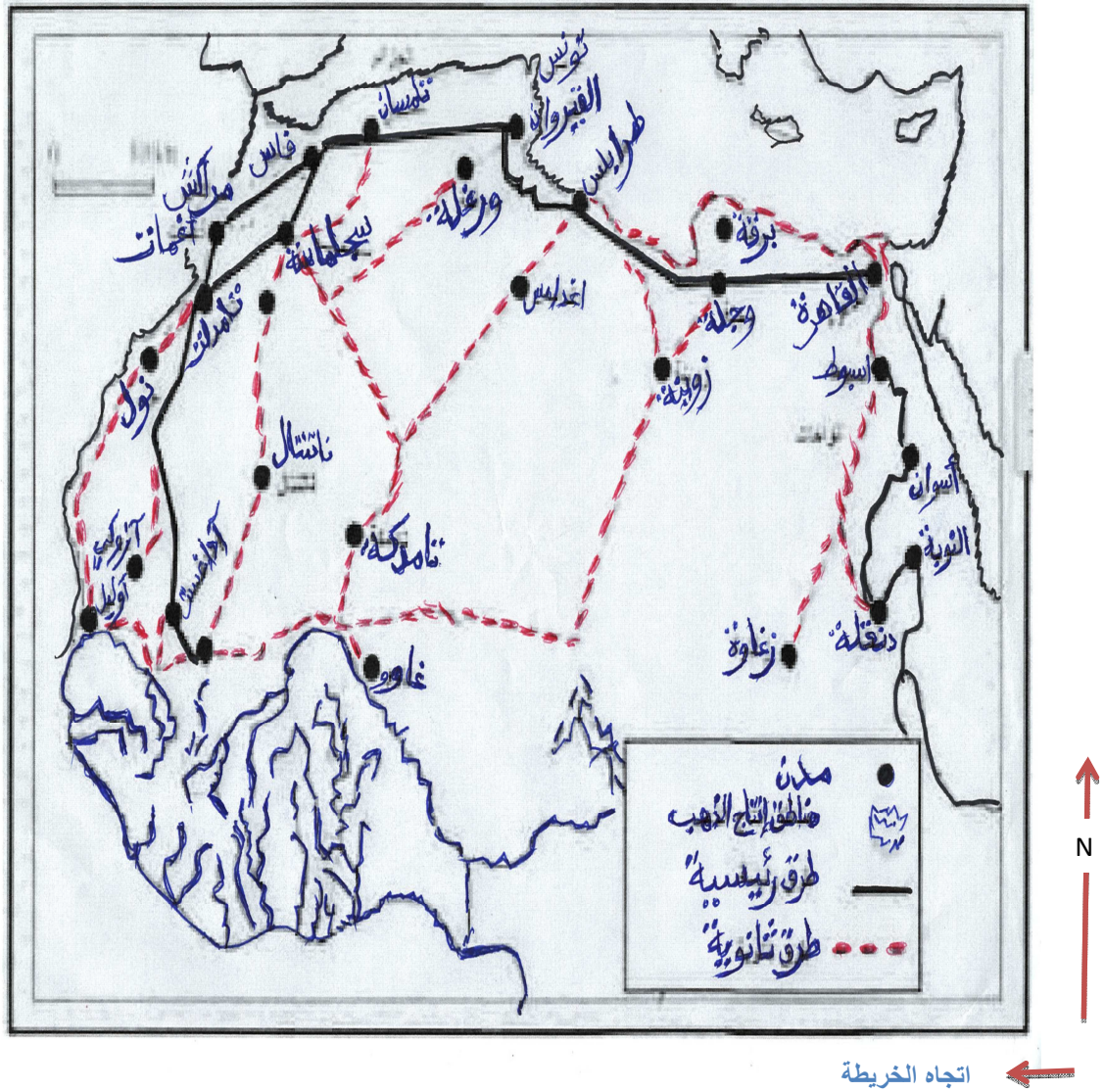
وقد ازدهرت هذه الطريق إبان دخول العرب الفاتحين إلى المنطقة، ويعتبر البعض أن حملة عقبة بن نافع سلكت جزأه الشمالي، من سوس إلى آدرار في موريتانيا الحالية، وأن ذلك المكان هو الذي واصل منه عقبة جولاته في اتجاه الشمال حسب قول ابن عذارى المراكشي: "وجال هناك ولا يقاتله أحد ولا يعارضه حتى فتح كورة من كور بلاد السودان..."¹¹⁹.

كما استفاد هذا الطريق من الحركة النشطة للدويلات الخارجية في شمال إفريقيا باتجاه بلاد السودان، إذ كان هو طريقها الرئيسي، حيث أشار اليعقوبي إلى ذلك في القرن التاسع باعتباره أهم طريق يربط بين المغرب والسودان فقال: "...ومن سجلماسة لمن سلك متوجها إلى القبلة يريد السودان... يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين مرحلة ثم يسير إلى بلد يقال له غسط وهو واد عامر فيه المنازل..."¹²⁰.

¹¹⁹ - ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب " ج (4) دار الثقافة ط (3) بيروت 1983، ص: 29.

¹²⁰ - أحمد بن أحمد أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، كتاب البلدان، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف 1959- ص: 111.

مقياس الخريطة:
80000000/1 سم



خريطة رقم 2 : خريطة توضح طرق الفترة المدروسة القرن 11م¹²¹

وقد اعتمد الباحثون الأسماء الحالية للمدن والأماكن المعروفة الواقعة على المسالك التجارية ويرجع ذلك إلى عدم معرفة الأسماء المتطابقة معها التي وردت في المصادر فذكر من الشمال إلى الجنوب تيندوف والفارسية وعين بنتيلي و بير أم اكرين و أناجيم و تورين و بير الطالب واجريف شنقيط...¹²².

¹²¹ - الناني ولد الحسين بتصرف، صحراء الملتمين، ص: 332.

¹²² - Daveau, Suzanne « Itinéraire de Tamadalte à Awdaghost selon Al- Bakri » Tegdaoust I, Paris, 1970.

p : 33-38.

ويذكر الباحث موني(Mauny) أن الطريق ينطلق من تامدلت، ليتجه إلى تيندوف، ومنها إلى بير أم أكرين، فأناجيم، ومنه إلى تورين، ثم أروان فعكلت انمادي ثم يتجه إلى آوداغست وتتخلل هذه الطرق صعوبات رملية يصعب عبورها على القوافل يعتقد أنها صحراء أمقيطير الحالية بأدرار الموريتانية، حيث كانت تسير فيها القوافل لا ماء فيها، وهو أصعب موضع بطريق آوداغست أربعة أيام إلى موضع يقال له "انزمين"، ذات آبار قريبة الرشاء فيها العذب ومنها المالح، وعليه جبل صعب طويل كثير الوحوش، وبهذا الماء مكان يجمع طرق السودان، وهو موضع مخيف، تغير فيه لمطة وجزولة، ويتخذون مرصدا لهم لعلمهم بحاجة الناس إلى الماء، وتعتقد دافو(Daveau) أن هذا الموضع المسمى "انزمين" عند البكري هو بئر الغلاوية¹²³ وتصل مسافة هذا الطريق 51 يوما من السير لا تجد القوافل أثناءها الماء إلا اثنا عشر(12) موقعا، ويفصل بين كل موقعين منها ما بين يومين إلى خمسة أيام من المسير¹²⁴.

أما بعض الآبار المالحة فهي شديدة الملوحة، إذ يضر شربها مستعمله مثل بئر "وينطونان" وهي كبيرة لا تتزف، مأوها زعاق، يُسهلُ شاربيه من الناس والأنعام، وهي من عمل عبد الرحمن بن حبيب¹²⁵، ويضطر التجار إلى حفر الآبار من أجل التزود بالماء في مناطق يصعب حفر الآبار فيها لطبيعتها الرملية فلا تبقى مدة طويلة فيذكر البكري ذلك: "...آبار يحتقرها المسافرون فلا تلبث أن تنهار وتتدفن..."¹²⁶.

وفي قول البكري: "... موقع يقال له أوكازنت أرض زرقاء ينبط أهل الرفاق فيها الماء على ذراعين وثلاث..."¹²⁷ وبإمكان القوافل الحصول على الماء في فترة الخريف أو بعيدة في

100-Ibid. P : 35

¹²⁴ - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 156.

¹²⁵ - نفسه، ص: 157.

¹²⁶ - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 158.

¹²⁷ - Daveau, Suzanne. Op.Cit. P :123

بعض المناطق التي يغطيها الرمل دون أن يتكبد الإنسان في الوصول إليها جهدا يذكر، كالمنطقة القريبة من بئر وين هيلون حيث يذكرها البكري في قوله: "...ثم تمشي ثلاثة أيام في أرض سواء صحراء ربما وجد فيها الماء على صفا تحت الرمل من بقية الأمطار..."¹²⁸.

(3) الطريق الشرقي

يوجد هذا المحور شرقي المحور الغربي، وهو الرابط بين وادي درعة وبلاد السودان وقد استفاد من مروره بمملحة تغازة التي استغلت في القرن 8هـ وتم ازدهار هذا الطريق خلال القرن 5هـ/11م¹²⁹، ورغم الأهمية التي حظي بها هذا الطريق فإن ندرة المياه ظلت تطرح مشاكل لسالكه من القوافل، وكانت توجد على طوله أربع نقاط للمياه هي آبار: تزامنت، بئر الجمالين، نالي، وبني ينتسر، وقبل وصول القافلة للمكان الأخير تعترضها صحراء قاحلة أطلق عليها البكري "المجابه الكبرى" فتقطعها القوافل مدة ثمانية أيام من دون قطرة ماء¹³⁰.

ويبدو أنها شرقي وادان (الموريتانية)، وجنوب مدينة ولاته الحالية، وقد ورد ذكرها في القرن الرابع عشر عند ابن بطوطة في قوله "...إن القوافل عندما تتوسطها ترسل رسولا إلى أهل ولاته للاستقبال بالماء على بعد عدة أيام"¹³¹، وحدد الباحث موني هذه المسافة ب 550 كلم¹³².

وتنتهي المسافة عند قرية "مدوكن" للسير إلى غانه مدة أربعة أيام وتتجه طريق من "مدوكن" في اتجاه النيجر¹³³.

¹²⁸ - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 156.

¹²⁹ - نفسه، ص: 17.

¹³⁰ - نفسه، ص: 163.

¹³¹ - ابن بطوطة، تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مصدر سابق، ص: 227.

¹³² - Mauny, Raymond. "Tableau Géographique de L'ouest Africain au Moyen-Age d'après les Sources Ecrites", la tradition et l'archéologie, Dakar, IFAN, 1961. Réédition Amsterdam, 1967.P : 430.

¹³³ - Ibid, P : 430.

ولانطلاقة هذه الطريق من درعة من المنطقة المحيط بها والتمتيزة بانطلاقة عدة طرق من المغرب أهمها الطريق الذي يربط سجلماسة بغيرها من المدن، كما تنطلق الطرق من قاعدة تومتين في اتجاه "نارجا" وهي الساقية الحمراء التي يعدها البكري " أول الصحراء ويصل طول مسافة هذا الطريق إلى خمسين يوما¹³⁴.

ويمكن القول إن هذا الطريق تم استغلاله عند بداية الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا والصحراء، ويذكر البكري البئر التي يعتقد أنها حفرت من طرف الأمويين، فيقول: "... البئر المسماة تزامت بئر معينة غير عذبة وهي إلى الملوحة أقرب، قد انبطحت في حجر صلد من عمل الأول، ويزعم قوم أن بني أمية صنعتها..."¹³⁵.

وقد يكون طريق درعة الصحراوي هو ما تحدث عنه ابن حوقل في القرن 10م وذكر أن مسوفة تسيطر عليه، وجاء هذا الحديث في سياق كلامه عن مسوفة حيث قال: "... ولهم ملك يملكهم ويدبرهم تكبره صنهجة وسائر أهل تلك الديار لأنهم يملكون تلك الطريق..."¹³⁶ هذا إن كانت مسوفة وقتها في الجزء الشرقي من صحراء صنهجة.

ثانيا: المحور الشرقي

يطلق المحور الشرقي على الطرق التي تنطلق من الواحات المصرية الإفريقية والمغرب الأوسط والمتجهة إلى السودان الغربي وقد شهد هذا الطريق ازدهارا في بداية القرن الخامس الهجري بحكم استقرار بعض المجموعات الإفريقية بمدينة آوداغست إبان السيطرة الغانية على المدينة.

¹³⁴ - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 163.

¹³⁵ - EL Alaoui, Abdelaziz, "Le Maghreb et le Commerce Transaharien (milieu du Xte- milieu du XIVes) Contribution à l'histoire économique, sociale et politique du Maroc Médiéval", Université de Bordeaux III, (Institut Arabes et Islamiques), 1983. P :50.

¹³⁶ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.

ولهذا المحور عدة طرق تسلكها القوافل في وجهتها وتربط بين مدن الصحراء الكبرى من أهمها:

(1) الطريق القديم (إقليم فزان)

ينطلق من إقليم فزان في اتجاه بحيرة اتشاد ومنها إلى النيجر

(2) طريق المغرب الأقصى:

يندرج هذا الطريق ضمن المحور الشرقي و ينطلق من المغرب الأقصى وجنوب غرب الجزائر ويمر عبر الصحراء في اتجاه منعطف النيجر.

وقد أشار البكري إلى إحدى هذه الطرق بقوله "... وبين آوداغست والقيروان مائة مرحلة..."¹³⁷.

و يتحدث ابن حوقل عن طريق يدخل ضمن نطاق المحور الشرقي يربط بين الواحات المصرية وغانه، تم التخلي عنه إثر الصعوبات التي أدت إلى هلاك بعض القوافل التي سلكته فيقول: "... براري عظيمة ورمال كانت سالف الزمان مسلوكة وفيها الطريق من مصر إلى غانه فتواترت الرياح على قوافلهم ومفردتهم فأهلكت غير قافلة وأنت على غير مفردة وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة واحدة فانقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة"¹³⁸.

فغيرت القوافل اتجاهها جراء هذا الحدث، فسلكت بوجهتها الطريق المحاذي للبحر الأبيض المتوسط إلى أن تصل إلى المغرب فتتجه إلى سجلماسة لتسلك طريق المحور الغربي.

¹³⁷ - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 65.

¹³⁸ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 32.

المطلب الثاني: القوافل التجارية و نظامها

أولاً: نظام القافلة:

تطلق القافلة التجارية على مجموعة الجمال المحملة بالبضائع وترافقها جماعات من التجار والعمال والخدم وقد عرفت في المصادر بالتجارة القوافلية أو التجارة عبر الصحراء وهي التي يستطيع التجار نقل بضائعهم من خلالها بين الشمال والجنوب.

وقد شكلت المدن المغربية كسجلماسة وتامدولت ونول لمطة" محطات تجمع للتجار قبل الانطلاق في اتجاه الجنوب، حيث يستكملون الاستعداد لخوض غمار الصحراء وما قد يتعرض له هؤلاء من مخاطر يحتم عليهم السير في جماعات من أجل التغلب على المصاعب التي تواجههم¹³⁹.

وكانت هناك مواسم معلومة لخروج هذه القوافل من الشمال في اتجاه الجنوب والعكس، ويعود ذلك إلى اعتبار فصول السنة، فكانت أغلب رحلاتهم تتم في فصلي الخريف والشتاء بالنسبة لبلاد الصحراء لأن هذين الفصلين أقل حرارة وجفافاً، بالإضافة إلى وجود المياه السطحية التي تكونت من أمطار الخريف، والتي تساعد أصحاب القوافل لإيجاد مصدر مهم للماء الذي يعتبر أكبر تحديات تواجهها القافلة أثناء عبور الصحراء¹⁴⁰.

وكانت أول خطوة يقوم بها التجار عند تجمعهم على مشارف الصحراء شمالاً هي شراء الجمال و كرائها و إرسالها إلى المناطق الرعوية الخصبة حتى تصبح بإمكانها أن تتمكن من اجتياز الصحراء، ويعتمد التجار في الغالب إلى بيع الجمال وذلك عند وصولهم إلى منطقة السودان بعد أن تنهكها الطريق، فيقوم الصنهاجيون بشرائها وتسمينها من جديد لتنتكر نفس عملية البيع مع تجار آخرين¹⁴¹.

¹³⁹ - المصطفى ولد يكر، صحراء الملثمين و السودان الغربي، مرجع سبق ذكره، ص: 211.

¹⁴⁰ - الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 31.

¹⁴¹ - الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 10.

ثانيا: جهاز القافلة

يتكون جهاز القافلة من التجار والأدلاء والخدم والحرس ويرافق القافلة عدد كثير من التجار الذين يصاحبون بضاعتهم ذات القيمة الكبيرة وهذه المواد تتطلب إيجاد نظم لتوزيع الأدوار بين أعضاء القافلة، مما جعل التجار يسعون إلى اختيار الأشخاص المناسبين لتولي قيادة القافلة حرصا منهم على تأمين بضاعتهم ووصولها إلى وجهتها دون التعرض للأخطار الكثيرة التي تتربص بها، ومنها قطاع الطرق وهاجس الانحراف عن الطريق والعطش الذي يهدد مجتازي الصحراء لذلك كانت القافلة تحظى بجهاز يتكون من عدد من الموظفين¹⁴²، نذكر منهم:

(1) رئيس القافلة:

يعتبر من أهم الأشخاص الذين تتوقف عليهم سلامة القافلة، وهو المسؤول عن تنظيم الرحلات، وهو صاحب المفاوضات مع القبائل التي تمر القوافل من أراضيها من أجل تحديد قيمة مناسبة للضريبة التي سيدفعها التجار عن قافلتهم، ويقوم الرئيس بتوزيع هذه الضرائب على التجار كل حسب مقدار بضاعته وهو المسؤول أيضا عن فض النزاعات التي تحدث بين التجار ويقوم بتحديد أوقات سير القافلة، وأوقات توقفها¹⁴³.

ولم يكن تنظيم القافلة بالأمر السهل لأن هؤلاء التجار ينتمون إلى بلدان مختلفة ففيهم التونسي والتلمساني والليبي والمصري والمغربي¹⁴⁴.

(2) الدليل

هو الشخص الثاني في القافلة ولا تقل أهميته عن الرئيس وهو الذي ينير طريق القافلة في الصحراء، ويكون عادة من أبناء الصحراء العارفين بالطرق ومظان المياه، لأن هذه الطرق

¹⁴² - المصطفى ولد يكير، صحراء الملثمين و السودان الغربي، مرجع سبق ذكره، ص: 212.

¹⁴³ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 11.

¹⁴⁴ - ماجدة كريمي، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني، ص: 10.

التي تمر من الصحراء لا معالم لها ثابتة يستدل بها، والقوافل التي تمر بها لا تترك أثرا بارزا بل تقضي الرياح والرمال المتحركة على الأثر بها¹⁴⁵.

ويتحدث ابن حوقل عن ذلك بقوله: "... إنما هي رمال تنسفها الرياح فتترك جبالا رملية في مكان ثم تراها قد انتقلت إلى سواه"¹⁴⁶.

ولقد حاول سكان الصحراء التعامل معها بغية تذليل صعابها حيث يضعون ألواحاً صخرية وخشبية على فوهة البئر مخافة من ردمه بالرمال ولا تتزع إلا عند الحاجة فينتج عن ذلك تجمع الرمال عليه وتكدسها فتختفي تلك البئر، فيصبح من الصعب التعرف على مكانها إلا من أبناء المنطقة العارفين بأحوالها وأسرارها¹⁴⁷.

"يقول الإدريسي "... وشربهم من عيون يحفرونها في تلك الأرض عن علم لهم بها وتجربة في ذلك صحيحة"¹⁴⁸.

وفي هذا المضمار يذكر بعض تجار شمال إفريقيا خلال العصر الوسيط أن أحد سكان الصحراء أنقذ قافلة من هلاك محقق بالعطش عند ما مروا بمنطقة رملية أخذ الدليل رمالها وشمها فأمر بالحفر فيها فوجدوا الماء على عمق لا يتجاوز نصف قامة¹⁴⁹.

ويجب توفر عدة صفات في الدليل ليكون صالحاً لمهمته¹⁵⁰، كما أنه ملزم بمعرفة الطريق التي تسلكها القافلة بالإضافة إلى الاهتداء بالنجوم وذلك أثناء سير القافلة ليلاً¹⁵¹.

¹⁴⁵ - المصطفى ولد يكير، صحراء الملثمين و السودان الغربي، مرجع سبق ذكره، ص: 213.

¹⁴⁶ - ابن بطوطة، تحفة النظائر في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، دار صادر، بيروت، 2019، ص: 297.

¹⁴⁷ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 43.

¹⁴⁸ - نفسه

¹⁴⁹ - النائي ابن الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سابق، ص: 110.

¹⁵⁰ - المصطفى ولد يكير، صحراء الملثمين و السودان الغربي، مرجع سبق ذكره، ص: 213.

¹⁵¹ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.

ويتم اختيار الدليل من جميع قبائل صنهاجة بناء على معرفتها بصحاريها إلا أن مسوفة اشتهرت بالقيام بهذه المهمة ويذكر ابن حوقل ذلك بقوله " وفيهم (يعني مسوفة) البسالة والجرأة والفروسية على الإبل وأشكالها والهداية فيه والدلالة على مياهه بالصفة والمذاكرة ولهم الحس الذي لا يدانيه في الدلالة إلا من قاربهم وسعى سعيهم¹⁵² .

(3) التكشيف

يعتبر التكشيف نوع من الدلالة ويختلف عن الدليل وهو أحد مساعديه وهو الشخص الذي تلجأ القافلة إلى إرساله إلى المدن القريبة منها وخاصة المدن الكبيرة من أجل أن يخرجوا لهم بالماء، كما يقوم بحمل الرسائل إلى التجار المستقرين بالمدن من أجل تأجير الدور للتجار المرافقين للقافلة" ويتقدم صاحب التكشيف إلى (إيولاتن) برسالة من القافلة إلى أصحابهم ليُكْتَرُوا لهم الدور ويخرجوا للقائهم بالماء وهم على مسيرة أربعة أيام¹⁵³ ، وقد ورد ذلك في حديث ابن بطوطة عن ولاته، وكانت مهمة التكشيف أكثر خطورة من مهمة التدليل حيث إنه يسافر بالصحراء منفرداً، كما أن تعرضه للهلاك أو الانحراف عن الطريق يهلك القافلة التي أرسلته¹⁵⁴ .

"... وربما هلك التكشيف في الصحراء فلا يعلم أهل إيولاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو كثير منهم¹⁵⁵ .

وقد استغرب ابن بطوطة الثمن الباهظ الذي يحصل عليه صاحب التكشيف حيث يقول: "...واكثرنا التكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب وهو من مسوفة"¹⁵⁶ .

¹⁵² - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98 .

¹⁵³ - ابن بطوطة، تحفة النظائر، مصدر سبق ذكره، ص: 297.

¹⁵⁴ - المصطفى ولد يكر، صحراء الملثمين و السودان الغربي، مصدر سبق ذكره، ص: 214.

¹⁵⁵ - ابن بطوطة، تحفة النظائر، مصدر سبق ذكره، ص: 297.

¹⁵⁶ - نفسه.

وقد أخذت مسوفة هذه المهمة على عاتقها وعرفت بها إلى فترات متأخرة من العصر الوسيط، حيث نجد ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري يقول: "والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكثره أهل القافلة"¹⁵⁷.

(4) فقيه القافلة

كان من اللازم أن يكون للقافلة فقيه ولا يقل دوره عن من سبقه بل يكمن دوره في الإمامة للصلاة، وكتابة المعاملات التجارية التي تتم بين تجار القافلة وفض النزاعات التي تحدث بين التجار على ملكية بضاعة أو حيوان أو تسديد ديون وما إلى ذلك من مهام أخرى تتعلق بجميع النزاعات.

وكانت القافلة تتعرض إلى نزاعات داخلية بسبب اختلاط الأجناس التي تضمها بحيث يكون هناك منتمون إلى القافلة ولهم صراعات قبلية قديمة مما ينتج عنه بعض النزاعات¹⁵⁸،

فيكون فقيه القافلة بمثابة قاض لذلك فهو ملزم عليه الإمام بمهنة القضاء، كما يقوم بتجهيز الموتى، والقيام على ممتلكاتهم وبيعها والاحتفاظ بأثمانها لتسليمها إلى ورثتهم إن أمكن ذلك.

(5) الحرس والخدم

تحتاج القافلة أثناء سفرها في الصحراء إلى مجموعة تقوم بحراستها¹⁵⁹، ويقوم هؤلاء بالدفاع عن القافلة خاصة إذا تعرضت لهجوم خارجي إما من إحدى القبائل أو عملية يقوم بها قطاع طريق للاستفادة من تجارة تلك القافلة، ويحدث ذلك عادة عند أماكن المياه، وإلى جانب الحراسة تأتي مهمة الخدم وهي مجموعة ترافق القافلة أثناء سيرها تقوم على عمل الخدمة

¹⁵⁷ - ابن بطوطة، تحفة النظائر، مصدر سبق ذكره، ص : 298.

¹⁵⁸ - الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص : 265.

¹⁵⁹ - ماجدة كريمي، تجارة القوافل ، مرجع سبق ذكره، ص : 79.

بكل انواعها سواء كانت خدمة حمل البضائع على الجمال أو تجهيز كلما تحتاجه القافلة أثناء سفرها من طعام وشراب ورعاية للدواب.

ويتألف الحرس عادة من مجموعات من العبيد المملوكين من طرف التجار المرافقين للقافلة بالإضافة إلى حرس ترسله قبائل صنهاجية لاختيار مجال قبيلة معينة.



صورة رقم 2 : قوافل صحراء موريتانيا، تاريخ الزيارة: <https://www.google.com/se:13/10/2018>

ومما سبق يمكن القول إن القافلة تمتلك تنظيمًا إداريًا لا يمكنها الاستغناء عنه ولا عن عناصره والمكونة من رئيس القافلة والفقهاء والدليل والتكشيف، والخدم والحرس وقد يجمع بعض الأشخاص وظيفتين مثل رئيس القافلة إذ يمكن أن يكون فقيها وكثيرا ما يكون رئيس القافلة من أهل العلم.

المطلب الثالث: وسائل النقل والمقاييس التجارية

أولاً: وسائل النقل

1) الجمل سفينة الصحراء

يعتبر الجمل سفينة الصحراء لنقل البضائع الأساسية، وهذه المهمة قام بها منذ القدم وفي أماكن متعددة خاصة في شبه الجزيرة العربية¹⁶⁰، حيث ربط المراكز التجارية فيما بينها في

¹⁶⁰ - الناني الحسين، صحراء المثلثين، مرجع سبق ذكره، ص: 157.

الصحراء نظرا لسهولة تكيفه مع وضع الصحراء وما يميزها من ندرة المراعي والمياه وارتفاع درجات الحرارة، زيادة على قدرته على حمل الأثقال وقطع المسافات البعيدة، وهذه الخصائص الفريدة يمتلكها الجمل بدون منازع ولا يضاهيه فيها أي حيوان آخر¹⁶¹.

وتنقسم الجمال إلى نوعين: مجموعة تمتاز بالسرعة الفائقة وتسمى المهارى وهي مخصصة لحمل راكب واحد مع زاده وتستعمل في إرسال الرسائل وفي حراسة القافلة في حالة تعرضها لغارات من العدو¹⁶².

أما جمال الحمل، فتتقل البضائع و تصل حمولة الجمل إلى ما بين 125 و 150 كلف، وقد تتجاوز ذلك في بعض الحالات لتصل إلى ما بين 170 و 180 كلف، ويقدر معدل الرحلة للقافلة المحملة بالبضائع خلال اليوم ست ساعات¹⁶³ تقطع خلالها مسافة تتراوح بين 25 و 30 كلم، وبإمكان جمال الحمل مضاعفة السرعة لقطع 50 إلى 60 كلم، خاصة إذا كانت نقاط المياه متباعدة، مما يتطلب من القوافل مواصلة سيرها خلال الليالي المقمرة تحاشيا لارتفاع درجات الحرارة في النهار وما يترتب على ذلك من حاجة المسافرين إلى استهلاك كميات كبيرة من المياه ورغبة في مضاعفة السير حتى الوصول إلى أقرب نقطة مياه مواتية، وينبغي أن تستريح الجمال مدة يوما أو اثنين بعد توقفها عند أول نقطة¹⁶⁴.

(2) الثور والحمار:

شارك الثور والحمار في عملية التبادل التجارية عن طريق حمل البضائع، إلا أن هذه الوسائل أكثر استخداما بالنسبة للصحراء والمناطق الواقعة بين المنطقة الساحلية وحدود الغابات الاستوائية ويبدو أن استخدام الثيران والحمير في النقل التجاري يعود إلى عهد قديم.

¹⁶¹ - المنظمة العربية للتربية والعلوم، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات العربية بغداد- 1984، ص: 11.

¹⁶² - ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، ص: 322.

¹⁶³ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 156.

¹⁶⁴ - نفسه.

فالحمار يتميز ببساطة التغذية التي يتطلبها في اليوم كما يتحمل نسبيا العطش، وأشارت المصادر العربية الوسيطة إلى استخدامه في حمل البضائع وقد ذكره البكري أثناء حديثه عن غانه عندما كتب يقول: "... ولملكهم على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد وديناران في إخراجهم، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل وله على حمل المتاع عشرة مثاقيل...¹⁶⁵

وتقدر حمولة الحمار من البضائع ما بين 70-80 كلغ وكان يقطع بها 16 كلم خلال رحلة يومية¹⁶⁶.

ويرى بعض الباحثين أن الثيران كانت مخصصة لركوب كبار التجار ولا يحمل معهم إلا زادهم ومؤناتهم من الماء¹⁶⁷.

ويعتقد بعض الباحثين أنهما كانا مستخدمين لعبور الصحراء قبل الجفاف، ويقتصر استخدامهما على المسافات القصيرة والتبادل التجاري بين المراكز التجارية التي تتقارب في المسافة.

(3) الإنسان

ولا يقتصر النقل على الحيوانات بل يتجاوز الأمر إلى أن يستخدم الإنسان في عملية نقل البضائع ويتم هذا النوع داخل الأدغال الاستوائية في السودان الجنوبي حيث تزداد كثافة النباتات وتوجد مجاري الوديان العميقة نسبيا وغير الصالحة للملاحة، حيث تكثر ذبابة تسي - تسي، إذ كان التجار السودانيون الذين بإمكانهم التكيف مع البيئة، يشكلون قوافل بشرية تحمل البضائع في تلك المناطق الوعرة، وقد كتب بعض الباحثين عن هذه الظاهرة نقلا عن بعض علماء السودان أن حمل الإنسان للبضائع والأثقال كان مسألة مألوفة¹⁶⁸.

¹⁶⁵ - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص : 176.

¹⁶⁶ - الناني الحسين، صحراء الملثمين ، مرجع سبق ذكره، ص :254.

¹⁶⁷ - نفسه.

¹⁶⁸ - ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، ج 6 ص :416.

وقد تحدث ابن خلدون عن ذلك بقوله: "... وإنما يحملون على الوصائف والرجال في أوطانهم وأما السفر البعيد كالحج فعلى المطايا...¹⁶⁹.

وتتشكل القافلة البشرية من أشخاص أحرار يمارسون التجارة برأس مال لم يمكنهم من الحصول على من ينقل بضائعهم، أو مؤجرين من طرف أصحاب البضائع، أو من العبيد الذين يشترونهم التجار من أجل استخدامهم في هذا الميدان أو أسرى الحروب، وقد اشتهر هذا النوع من القوافل البشرية بين الكنكارة الذين كان تجارهم مشهورين بتشكيلهم لقوافل العبيد الكبيرة، وكانوا يستخدمونها في نقل الملح من مدينة جنة¹⁷⁰، إلى مناجم الذهب وكذلك الهاوصا الذين استخدموا العبيد على نطاق واسع لنقل البضائع¹⁷¹.

وتختلف الحمولة لدى الإنسان حسب الأشخاص والجنس والسن والحوافز، فكانت حمولة العبيد البالغين في المتوسط تصل إلى 25 كلف بمسافة قدرها 25 كلم تقريبا، بينما حمولة النساء والأطفال تصل إلى 15 كلف وتنقص عن تلك المسافة، أما الأشخاص الذين يحملون لحسابهم فتصل الحمولة في بعض الأحيان إلى ما بين 30-40-50 كلف وتصل الرحلة اليومية لديهم إلى ما بين 30-35 كلم¹⁷².

(4) القوارب

يتم التبادل التجاري في المناطق التي توجد بها الأنهار الدائمة أو الملاحية الموسمية عن طريق القوارب مثل ما كان يتم في بلد زقوا على نهر النيجر¹⁷³، كما ينقل الملح من مصلحة

¹⁶⁹ - ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، ج 6 ص 416.

¹⁷⁰ - مدينة جنة: أوجينييه: مدينة تقع في المنطقة الوسطى بجمهورية مالي، ظلت على مدى قرون حلقة اتصال أساسية بين دول المغرب العربي و جنوب الصحراء الكبرى (بلاد السودان) و مركزا هاما لنشر الإسلام و تدريس القرآن و علومه في القارة الإفريقية ، و تقع في دلتا نهر النيجر الداخلية و هي المنطقة الواقعة في سيغوي و موبتي، و عرفت بمساجدها العامرة ، جني(مالي) <https://ar.m.wikipedia.org/wiki> بتاريخ: 2019/07/03.

¹⁷¹ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 255.

¹⁷² - نفسه.

¹⁷³ - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 177.

أوليل إلى ممالك حوض نهر السينغال بواسطة تلك القوارب، خاصة خلال موسم فيضان النهر¹⁷⁴.

ثانياً: المقاييس التجارية

(1) مقاييس الطول

تستخدم التجارة عبر الصحراء في الفترة الوسيطة المقاييس العربية الإسلامية، وإن كانت كل منطقة ومدينة مختصة بخصوصيتها في المقاييس في الطول والوزن، فيرى ابن خرداذبة أن أصغر وحدة في مقاييس الطول هي الأصبع حيث يقول: "... والأصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض"¹⁷⁵، أما الباحث موني (Mauny) فيقدر طول ست حبات شعير متناظرة بالمقاييس الحديثة ب: 2 سم¹⁷⁶.

أما الوحدة الموالية والمستعملة في القماش والألبسة فهي الذراع الذي يساوي عند ابن خرداذبة ب: 24 أصبعا و 48 سم بالتقديرات الحديثة لدى موني، وهذا بالمقياس العربي، أما المقياس الأندلسي بالذراع فيساوي 47 سم، ويقاس بالشبر الذي يبلغ طوله: 21 إلى 23 سم¹⁷⁷.

أما مقياس المسافات الطويلة فيستعمل الميل الذي يساوي 1960 مترا، والفرسخ الذي يبلغ طوله 12000 ذراع وتبلغ أكبر درجة في طول المسافات 25 فرسخا أي 144 كلم¹⁷⁸.

(2) مقاييس الوزن

أما مقاييس الوزن، فأهمها المتقال الذي ذكره ابن خلدون و حدد وزنه ب: 72 حبة شعير¹⁷⁹ وتستخدم كذلك مقاييس الوزن لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي الرطل والقنطار،

¹⁷⁴ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 255.

¹⁷⁵ - أبو القاسم عبد الله بن خرداذبة، "المسالك والممالك" دار صادر أفست، ليدن، بيروت، 1889، ص: 4.

¹⁷⁶ - Mauny. Tableau Geographique. op cit.P : 410

¹⁷⁷ -Mauny. Tableau Geographique. op cit.P : 411.

¹⁷⁸ - ابن خرداذبة، "المسالك والممالك"، مصدر سبق ذكره، ص: 4.

¹⁷⁹ - ابن خلدون، "المقدمة" مصدر سبق ذكره، ص: 322.

ويبين الباحث موني(Mauny) أن المعلومات متوفرة، سواء في المصادر المكتوبة أو عن طريق الأركيولوجيا، وحدد بعض قياساتها بما يلي: **المنقال**: 72،4 غراما، **الأوقية**: 77،37 غراما، **الرطل**: 33،453 غراما، **القنطار**: 33،4533 غراما¹⁸⁰.

(3) مقاييس الكيل

وتستخدم المكايل للمواد الجافة والسائلة، كالحبوب والتمور والزبيب... إلخ وهي متداولة في الأسواق آنذاك، أما الوحدة الأساسية للوزن أو الكيل فهي المد النبوي، وعثر على نماذج من المد في المغرب الأقصى تعود إلى أواخر العصر الوسيط، وتصل سعته إلى 75،0 لترا، ويليه الصاع الذي تصل سعته إلى أربعة أمداد أي 3 لتر، وقد أخذت مكايل أكثر سعة لقياس الكميات الكبرى ظهرت في بعض المدن الكبرى كسجلماسة مثلا¹⁸¹، حيث كانت سعة المد تبلغ لديهم: 768 مدا نبويا وغيره من المكايل المماثلة في المدن الكبرى، وكانت عمليات التبادل التجاري تتم عن طريق المقايضة خاصة في المنطقة الصحراوية¹⁸²، باستثناء المدن الكبرى في إفريقيا الشمالية التي عرفت باستخدام النقود في التعامل التجاري منذ فترة متقدمة من تاريخها، ويعود ذلك لارتباطها بالحضارات المتوسطة، ويعتقد بعض الباحثين المحليين أن نفس الحالة انطبقت على المراكز التجارية الصحراوية، وتمت عملية التبادل التجاري داخل أسواقها بالعملات المغاربية والمصرية كما أشارت بعض المصادر إلى أثمان المواد التجارية¹⁸³، وتحدث البكري في هذا الموضوع حيث قال في مدينة آوداغست "...يشترى بالمنقال الواحد عشرة أكبش وأكثر... وسعر القمح عندهم في أكثر الأوقات القنطار بستة مئاقيل وكذلك التمر والزبيب¹⁸⁴.

¹⁸⁰ - Mauny. Tableau Geographique. op cit.P : 414.

¹⁸¹ - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 158.

¹⁸² الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 137 .

¹⁸³ - نفسه.

¹⁸⁴ - البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا والمغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 158.

الفصل الثاني: مدينة أزوكي

المبحث الأول: النشأة والتطور

المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي

أولاً: الموقع

تقع مدينة أزوكي ضمن النطاق الصحراوي المعروف في الفترة الوسيطة بصحراء الملثمين أو ما يعرف اليوم بموريتانيا، و بالذات في الجزء الجنوبي من وادي تيارت بمنطقة آدرار¹⁸⁵ قرب مدينة أطار على بعد 8 كلم، ويمر هذا الوادي بين سلسلتين صخريتين إذ يصعب الوصول إليه إلا من ممرات قليلة أسهلها ممر فم "جول" في الشمال الغربي وفم "شور" في الجنوب الشرقي¹⁸⁶، ولا شك أن هذا الجزء الجغرافي المتميز من حيث الموقع أعطى المكان طابعاً دفاعياً جعل منه ومنذ القدم حصناً طبيعياً ذا قيمة استراتيجية هامة، و زيادة على العوامل الطبوغرافية المتميزة، فإن سهل تيارت يوفر الماء الضروري لمزاولة غرس النخيل على نطاق واسع¹⁸⁷.

وتقع أزوكي الحالية على أطلال المدينة القديمة وآثارها العمرانية التي تم التعرف عليها من قبل الأثريين في الخمسينيات من القرن العشرين، وقد تبين من خلال هذه البحوث الأثرية ارتباط المنطقة بالتاريخ المرابطي¹⁸⁸.

¹⁸⁵ - آدرار : كلمة بربرية بمعنى (جبل) وتطلق على عدد من المناطق في الصحراء

آدرار : عاصمة توات، وأهم قصر في قبيلة تيمية على بعد 650 كلم وعدد سكانها قليل ومنطلق القوافل التجارية نحو الشمال.

آدرار (يفوغاس) كتلة جبلية أو جملة مرتفعات تقع بالصحراء الجنوبية (والسودان الغربي) وهو امتداد لإقليم الهنكار ويمتاز نباتها بالصبغة الصحراوية.

آدرار : موريتانيا (آدرار التمر) يطلق على تضاريس بارزة يمكن أن تتعت بالجبلية تناولتها المصادر العربية بجبل لمتونه أما البرتغالية " بجبل البافور" يبلغ ارتفاعها 800م وهي أراضي لينة متسعة، عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية (معلمة الصحراء) مادة آدرار، ص: 219.

¹⁸⁶ - لوحة تقديمية لمدينة أزوكي في المتحف الموريتاني، رقم 13 (زيارة خاصة للمتحف (15/11/2018)

¹⁸⁷ - روبير فيرنى، الأركولوجيا في إفريقيا الغربية الصحراء والساحل، ترجمة بوبه ولد محمد نافع، ص: 171.

¹⁸⁸ - نفسه .

ثانيا: نشأة مدينة أزوكي

نشأت مدينة أزوكي في الجزء الشمالي من صحراء الملثمين بمنطقة آدرار منذ القدم بفضل الحركة التجارية القائمة بين الشمال الإفريقي والجنوب السوداني، ومن الصعب تحديد تاريخ نشأتها، شأنها في ذلك شأن نظيراتها من المدن التي عاصرتها كأوداغست وغانه (كومي صالح).

لقد حظيت أزوكي بموقع استراتيجي هام أكسبها مميزات خاصة من بينها صعوبة الوصول إلى مكانها وإتاحة الدفاع أثناء الهجوم، إضافة إلى خصوبة التربة التي ساعدت على وجود واحات نخيل كثيرة، كما مكنها موقعها على الطريق الغربي (طريق اللمتوني) من إنشاء سوق تجارية تلاقحت فيها مختلف الحضارات والثقافات والشعوب في تلك الفترة، حيث سكنها الزوج والبافور وصنهاجة، مما جعلها أولى الخيارات لدى الدولة المرابطية في القرن (5 هـ 11م) لتكون عاصمة لدولتهم الفتية بصحراء لمتونه، حيث توجهت إليها أنظارهم في أول وهلة بإشارة من الزعيم الروحي عبد الله بن ياسين الجزولي¹⁸⁹، وكانت بذلك حصنا منيعا وقلعة عسكرية انطلقت منها الشرارة الأولى للجيش المرابطية في اتجاه باقي المدن الأخرى.

و قد ذكرت المصادر أن الأمير أبا بكر بن عمر لما استقر بمدينة أغمات وأسس مدينة مراكش، وفدت إليه وفود من الصحراء تخبره باختلاف الأمر هناك ووقوع الخلاف بين قبيلتي اكدالة و لمتونه¹⁹⁰.

وفي خضم هذه الأحداث رأى الأمير ضرورة الإسراع إلى بلاد الصحراء¹⁹¹ لأنه متول أمرهم و مسؤول عنهم، وكان الرجل متورعا عن اقتتال المسلمين فبعث إلى شيوخ لمتونه وكبرائهم

¹⁸⁹ - عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي: الزعيم الأول للمرابطين وجامع شملهم وصاحب الدعوة الإسلامية فيهم، كان من طلبة العلم في دار أنشأت بالسوس وسميت دار المرابطين، أرسل إلى صنهاجة بإشارة من الفقيه أبي عمران الفاسي إلى وجاج بن زلو اللمطي مع الزعيم يحيى بن ابراهيم الكدالي الصنهاجي إلى قبائل صنهاجة بالصحراء لتعليمهم أمور دينهم، ورأى البدع فاشية فيهم فشد في الوعظ وإقامة حدود الشرع، المسالك والممالك للبكري، ص: 95.

¹⁹⁰ - الحل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، 1979، مصدر سبق ذكره، ص: 16. علي بن أبي زرع الفاسي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس و تاريخ مدينة فاس، ص: 134.

¹⁹¹ - الناصري ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، مصدر سبق ذكره، ص 19.

وأخبرهم أن قبيلة اكدالة أغارت على قبيلة لمتونه بصحراء الملثمين وأنه مسافر إليهم للأخذ بثأرهم، فأنظروا منكم رجلا استخلفه عليكم فسكت القوم ولم يحصل إجماع على هذا الأمر، وفي الاجتماع الموالي حضر يوسف بن تاشفين ومازال أبوبكر يعيد القول على إخوانه وفي المرة الثالثة قال له يوسف بن تاشفين: "... أنا أكون خليفتك إن شاء الله عز وجل ..." ¹⁹² فقال أبو بكر ليوسف صدقت والله يا يوسف أنت والله خليفتي ¹⁹³ فولاه الخلافة على المغرب الأقصى وتوجه الأمير أبوبكر إلى صحراء لمتونه في ذي القعدة سنة 453 هـ - 1061م ¹⁹⁴ بعد أن أخذ ثلثي جيشه وترك الثلث الآخر لدى يوسف بن تاشفين ¹⁹⁵ و لما وصل إلى مضارب المتنازعين من قبيلة صنهاجة أزال أسباب الخلاف وأعاد الأمن والاستقرار إلى ربوع صحراء لمتونه ¹⁹⁶، ثم توجه إلى الجنوب وغزا السودان الغربي ¹⁹⁷ ليشغل أهله من قبائل صنهاجة في الجهاد عن النزاع فيما بينهم حيث أخضع مسيرة ثلاثة أشهر من أراضي السودان الغربي للحكم المرابطي وبعد فراقه من مهامه في الصحراء عاد إلى الشمال سنة 461 هـ - 1072م لاسترجاع ملكه في بلاد المغرب واستئناف غزواته ¹⁹⁸، ولما علم يوسف بن تاشفين بقدوم الأمير أبي بكر، أصيب بغم شديد وحزن عظيم لصعوبة فراق الحكم بعد ما رتب من أموره ¹⁹⁹ فأشارت عليه زوجته زينب بنت اسحاق النفزاوية بورع ابن عمه وبعده من اتخاذ قرار يسفك دماء المسلمين، ويكفيه أن يظهر له عكس ما يعرفه فيه من أدب وتواضع ويظهر له الغلظة والشدة والجفاء ويغدق عليه بالهدايا ويلطفه بالأموال ²⁰⁰، ولما لقي أبو بكر بن عمر الأمير يوسف بن تاشفين ورأى ما لم يكن في الحساب من حيث التمسك

¹⁹² - ابن عذارى المراكشي، البيان المقرب، مصدر سبق ذكره، (ج4)، ص: 20.

¹⁹³ - نفسه

¹⁹⁴ - بن أبي زرع، روض القرطاس، مصدر سبق ذكره، ص: 134، ابن خلدون كتاب العبر، ص: 184.

¹⁹⁵ - ابن عذارى المراكشي، البيان المقري، مصدر سبق ذكره، (ج4)، ص: 21.

¹⁹⁶ - لسان الدين بن الخطيب، القسم الثالث من كتاب الإعلام، تحقيق وتعليق د. أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء 1964، ص: 232.

¹⁹⁷ - عطيه مخزوم الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء مرحلة انتشار الاسلام، دار الكتب الوطنية، بن غازي 1998، ط 1، ص: 115.

¹⁹⁸ - محمد مصباح الأحمر، تاريخ العلاقات العربية الافريقية، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت 2001م، ط 1، ص: 167.

¹⁹⁹ - الحلل الموشية، مصدر سبق ذكره، ص: 24.

²⁰⁰ - ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، مصدر سبق ذكره ج (4)، ص: 23.

بالحكم وضخامة الملك وكثرة الجيوش، تورع عن القتال وزهد في الحكم ونصح ابن عمه يوسف بضرورة التزام العدل وإصلاح شؤون الرعية، فشكره الأمير يوسف وعاهده أن لا يقطع أمرا دون الرجوع إليه فأقره أبو بكر أميرا على المغرب بحضور شيوخ قبيلة لمتونه وبعض العدول وأعيان القبائل²⁰¹، وبعد عودة أبي بكر إلى الصحراء انتقلت مدينة أزوكي من طور القاعدة الحربية لحركة المرابطين لتضطلع بوظيفة سياسية كعاصمة لدولة المرابطين بصحراء الملثمين، ويستشف ذلك من خلال توليته لأبي بكر المرادي وظيفة القضاء بها وتأليفه كتاب الإشارة في تدبير الإمارة²⁰².

ثالثا: أزوكي في المصادر التاريخية

تحدثت المصادر العربية في العصر الوسيط عن مدينة أزوكي حيث ذكرها أبو عبيدة البكري في القرن الحادي عشر الميلادي (1068) و قال إن عبد الله بن ياسين أمر الأمير يحيى بن عمر²⁰³ بالتحصين في جبل لمتونه، ذي المراعي والمياه الكثيرة والذي به حصن (أزكي) وحوله نحو عشرين ألف نخلة كان بناه يانو بن عمر الحاج بن أخي يحيى بن عمر²⁰⁴ وهو أول من ذكر حصن أزوكي.

وقد ورد ذكره عند الإدريسي في القرن الثاني عشر الميلادي ونسب المدينة لقبيلتي مسوفة ولمطة، ووصفها بأنها أولى مراقي الصحراء، كما تحدث عن سكان بجبل البافور وأطلق عليهم أهل قمنورية حيث قال ما نصه: "... وكانت في القديم من الزمن الأول لأهل قمنورية مدينتان عامرتان... و كانت هاتان المدينتان تحتويان على أمم القمنورية وبشر كثير..."²⁰⁵.

²⁰¹ - أحمد بن خالد السلاوي، الإستقصا، مصدر سبق ذكره، ص: 25.

²⁰² - الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 99.

²⁰³ - الأمير يحيى بن عمر (ت 447هـ/1055م) خلف الزعيم الكدالي يحيى بن إبراهيم مدير المشروع المرابطي مع الفقيه أبي عمران الفاسي، كان الأمير يحيى من أهل الدين و الفضل ، و قد خلفه أخوه أبو بكر ابن عمر اللمتوني، بعد وفاته. علي محمد الصلابي ،الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطية، دار النشر و التوزيع الإسلامي ،ط1، 1424هجرية 2003م ، ص : 153.

²⁰⁴ - البكري، ، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب ، مصدر سبق ذكره، ص: 167.

²⁰⁵ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص : 86.

ولم يبين لنا الإدريسي في هذه الإشارة تسميتهم بل اكتفى بإضافتهم للبلاد، لكنه بين معتقدهم في قوله "... وأهل قمنورية فيما يذكره التجار يدعون أنهم يهود وفي معتقدهم تشويش..."²⁰⁶

وقد حدد موقع بلادهم ومواصفاتها فذكر أنها تبعد مسيرة ستة عشر يوما من سلى وتكرور، اللتين كانتا تقعان على الضفة اليسرى لنهر السينغال من جهة، ومن جهة أخرى ذكر أنها كانت مجاورة لصحراء نيسر التي كان المسافرون يعبرونها إلى آوداغست وغانه²⁰⁷.

كما ذكر أن بهذه الأرض جبلا سماه²⁰⁸ جبل "مانان" يرى بعض الباحثين أن هذا الجبل هو ما ذكره البرتغاليون في القرن السادس عشر الميلادي وأطلقوا عليه جبل البافور نسبة إلى السكان (البافور) وأن الجبل نفسه هو ما يسمى عند بعض الباحثين بجبل لمتونه نسبة إلى قبيلة لمتونه الصنهاجية التي تسكن مدينة آزوكي منذ القدم وقد خاضت معارك وحروباً ضد قبائل البافور قبل مجيء الحركة المرابطية.

وقد ذكر ذلك محمد بن عبد المنعم الحميري حيث قال: "... أن سكان قمنورية يهود وأن لمتونه الصحراء شتتوا وأفنوا معظمهم أثناء حروب خاضوها ضدهم..."²⁰⁹.

ولم يرد ذكر لمدينة آزوكي فيما تحدث عنه الحميري مما يشير على أنها ظلت عصية على قبيلة لمتونه إلى أن جاء المرابطون وفتحوها في معركة فاصلة وأعلنوها عاصمة لدولتهم في الجنوب²¹⁰.

وقد ذكر كتاب ومؤرخو المنطقة هذه المعارك حيث تحدث سيد أحمد ولد حبت عن معركة دارت بين جيوش المرابطين وأقوام في مدينة كبيرة بمنطقة آدرار يطلق عليها مدينة

²⁰⁶ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 86.

²⁰⁷ - نفسه، ص: 76.

²⁰⁸ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 73.

²⁰⁹ - محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار، مصدر سبق ذكره، ص: 488.

²¹⁰ - الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 179.

"الكلاب"(آزوكي) فقال: "... يوم مدينة الكلاب التي هي اليوم أطار²¹¹، وكانت عامرة كبيرة فلما قدمها المسلمون خرجت إليهم الروم بكلابها التي هي أشد منهم قتالا..."²¹².

وتوحي عبارة الروم التي أطلقها ابن حبت على سكان المدينة أنهم قوم تجمعهم ديانات وثقافات فيما بينهم تميزهم عن العرب.

وقد ذكر الإدريسي أيضا أن كلمة أزوكي بربرية وأنها تعرف عند السودانيين باسم "كوكدام"²¹³ وأنها ممر إجباري لمن يريد الوصول إلى سلى و تكرور وغانة.

وعلى نفس النهج يذكرها ابن سعيد (القرن الثالث عشر الهجري) ويعتبرها أحد مداخل صحراء اللط وعاصمة لمتونة، في حديثه عن قدم سلطان هؤلاء في صحرائهم²¹⁴.

رابعاً: أزوكي في الذاكرة الشعبية

لقد ظلت مدينة أزوكي رغم عاديات الزمن راسخة في الذاكرة الشعبية لدى سكان منطقة آدرار تروي تاريخها جيلا عن جيل، وترتبط الروايات الشفهية الأكثر تداولاً بالوجود المرباطي مع استحضار لساكنة المنطقة خلال العصور الوسيطة، ومن اللافت للانتباه في هذه النقطة غياب المرباطين في نظيراتها من المدن الوسيطة الصحراوية والتي عاصرتها وأكدت المصادر بالشواهد الأثرية الفتوحات التي تعرضت لها تلك المدن إبان العهد المرباطي مثل أوداغست وكومبي صالح، لكن لم تحظ تلك المدن بمخيلة جماعية تمدنا بالمعلومات أو الأساطير في تلك الفترة، ولم يعلم إلى حد الآن ما هي الأسباب التي أدت لغياب الذاكرة الشعبية من تلك المدن؟

²¹¹ - ابن حبت سيدي أحمد، تأليف غير معنون ، مصدر سبق ذكره، ص: 6.

²¹² - أطار: مدينة موريتانية تقع على هضبة آدرار و تبعد عن العاصمة انواكشوط 435 كلم شمالا و عن مدينة أزوكي الأثرية 7 كلم إلى الجنوب الشرقي و قد أسست سنة : 720 هجرية من طرف أبناء شمس الدين الشرفاء.

²¹³ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 44.

²¹⁴ - ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، ط. 2 ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص: 113.

تروي الروايات الشعبية المتداولة في منطقة آزوكي بما يشبه الأسطورة أنها هي "مدينة الكلاب" التي سكنتها مجموعات بيض البشرة يدعون البافور إلى جانب سكان سودانيين يدينون بالمجوسية ، وجاءهم أبوبكر بن عمر قادما من الشمال وفتح المدينة والمنطقة ككل بعد حروب ضارية قضت على الكثير من الكلاب التي كانت مستخدمة ضد المرابطين في القتال وسيطر على المدينة واتخذها قاعدة حربية، وتابع الفتوحات انطلاقا منها في اتجاه مدن آدرار الأخرى كآبير (شنقيط) ووادان ... إلخ²¹⁵.

كما تروي إحدى الروايات أن كلمة آزوكي لفظة من كلام " آزناكه" وهم المتكلمون بلغة " أزيّر" وهي لغة محلية عرفت في تلك الحواضر الوسيطة وهي خليط من اللهجة الزنجية واللهجة الصنهاجية في تلك الفترة، وتتابع هذه الرواية أن أقواما زنوجا كانوا يسكنون منطقة آزوكي بالإضافة إلى مجموعة شعوب بيض البشرة تدعى البافور قدم إليهم الفتح المرابطي بقيادة الأمير أبي بكر بن عمر²¹⁶ صحبة الإمام الحضرمي بجيوش جرارة قادمين من مراكش، ودارت معارك ضارية بينهم انهزم فيها السكان الأصليون وفر السود في اتجاه النهر جنوبا وتتابع الفتح المرابطي في بقية المدن المجاورة التي يذكر منها في الغالب: آبير ووادان ... إلخ ونسب صاحب المقابلة في شريط ميكرو أفيلم: 17 الموجود بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي هذه الروايات إلى القدماء من أهل منطقة آزوكي حيث قال:

وذاك قد خبر من لقينا وهم روه عن الأقد مينا
والأقدمون نقلوا هذا الخبر عن كل من لقوا وهكذا استمر

²¹⁵ - الحضرمي بن الحضرمي بن عبيد الشمسدي المولود بمدينة أطار 1902م وقد أجريت معه المقابلة في يوم: 1975/07/01، والمقابلة في الشريط رقم: 17، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، قسم الدراسات الاجتماعية المروية ميكرو فيلم 17، مصلحة الروايات الاجتماعية.

²¹⁶ - نفسه.

ويبدو أن هذه الروايات الشفهية متوارثة عن الأجيال في مدينة أزوكي ومحيطها، وهذا ما يعني أن الذاكرة الثقافية كانت تهتم بتلك الروايات وتعتمد عليها كثيرا وهي بمثابة الموروث الثقافي لدى سكان المدينة²¹⁷.

ويرى بعض الباحثين في روايات شفوية أخرى متداولة بين سكان " أزوكي " أن البافور أسلاف صنهاجة قاتلوا الرومان في حروب قديمة ولا تزال أصولهم غامضة، وقد يكونون سكان أسطوريون، و تروي الروايات المحلية المتعلقة بتأسيس حواضر آدرار، أنهم تولوا إعمار تلك الحواضر قبل الإسلام و تذكر منهم: آبير(شنقيط)، ووادان... وتؤكد الرواية المتداولة الشفهية، إعمار أزوكي من قبل سكانه الأصليين قبل القضاء على كلابهم المفترسة²¹⁸.

وأن أزوكي الواقعة قرب مدينة أطار الحالية من أكبر مدن البافور وأهمها في المنطقة، واشتهرت بمدينة " الكلاب"، وتحمل هذه الكلمة دلالات مختلفة من بينها وصف سكانها من البافور بأنهم كلاب من طرف أعدائهم المرابطين الذين كانوا يقاتلونهم خلال القرنين الـ 10 و11م²¹⁹.

و رغم الاختلاف الحاصل بين الباحثين في أولوية السكان في المدينة فإنهم يؤكدون على قدم الصراع بين البافور و قبائل صنهاجة و خاصة قبيلة لمتونه في مدينة أزوكي ومحيطها.

و لم يتفق الباحثون على تاريخ نشأة المدينة بل ظلت الآراء متضاربة في هذا الشأن، إذ لم يقدم لنا البكري إلا وصفا عن الحصن حيث قال: "... وهناك حصن يسمى أزكي حوله عشرون ألف نخلة كان بناءه يانو بن عمر الحاج ابن أخي يحي بن عمر"²²⁰.

²¹⁷ - محمد لحبيب ولد هيين، فقيه وشاعر من منطقة أزوكي من قبيلة اسماسيد، مولود سنة: 1892م نفس الشريط السابق رقم 17 المعهد الموريتاني للبحث العلمي.

²¹⁸ - حماد الله السالم، مدن القوافل (1898-1591) الطبعة الأولى - بيروت، آذار - مارس 2008م، ص: 130.

²¹⁹ - نفسه، ص: 74.

²²⁰ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب ، مصدر سبق ذكره، ص: 167.

ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه: هل بنى يانو بن عمر الحاج الحصن فقط؟ أم أنه قام بغراسة النخيل حوله؟

وتكون غراسة النخيل تعود إلى لمتونه وهو ما ينفيه الوصف الذي تعرض له البكري عن هؤلاء القوم حيث قال: " ... و ليسوا يعرفون حرثا ولا زرا ولا خبزا وإنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن..."²²¹ ويبين بعض الباحثين أن البافور كانوا أهل غراسة للنخيل بشكل خاص.

المطلب الثاني: أزوكي والأبحاث الأثرية

تعرف الباحث موني (Mauny) على موقع مدينة أزوكي سنة 1955م عن طريق صورة جوية التقطها، فحدد السور المربطي من خلال هذه الصورة ، حيث يقع هذا السور في السهل على بعد 1000 متر تقريبا من "قم شور" ويفصله عن مجرى وادي تيارت شريط من النخيل، وقد وصفه بالمبنى المستطيل الشكل عموما، مع بعض الاختلاف في وصف تقنيات البناء وشكل الأبراج الموزعة على طول السور، إذ تبدو على شكل نصف دائري، ويبدو أن هذا السور يتصل بالطريق الشمالي الشرقي، أما مجاله الداخلي فإنه شديد الانحدار، ويبلغ ارتفاعه 5 إلى 6 أمتار فوق مستوى البطحاء المجاورة لوادي تيارت، وتوجد مباني متفرقة في محيط يزيد على 400 متر من بينها بيت منهار في الشمال في الجهة الجنوبية من المنطقة ومدفنان قديمان فوق الربوة²²².

يعتقد موني (Mauny) أن هذا الموقع هو الحصن المربطي الذي ذكره البكري بأزوكي²²³، وكشفت حفريات (1980-1981م) عن بعض المعطيات الجديدة فيما يخص بقايا سور الحصن المذكور الذي استوت عليه الأرض و غطته الرمال، وبعد الحفر حول أساسه تبين

²²¹ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب ، مصدر سبق ذكره، ص: 167.

²²² Mouny, Raymond. Notes d'histoire Et d'archéologie sur Azougui, Chinguetti et Ouadane Bull. de l'IFAN, Série B, Tome XVIII, 1956, p.142-162 . op. ct.

²²³ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 167.

أنه يتمتع بنفس المقاييس التي حددها موني (Mauny) سابقا، فهو ذو شكل مستطيل منحرف قليلا 100م * 80م تقريبا، يمتاز بالاستقامة في الواجهة الشمالية الغربية ومن الناحية الجنوبية الشرقية، وتظهر الواجهة الجنوبية انحرافا واضحا، ويتبين أن الجزء الشمالي الشرقي من أسوار الحصن أكثر امتدادا واستقامة من الجهة الجنوبية الغربية، وتتكون بقايا أساس البناء من جدارين: جدار خارجي وجدار داخلي²²⁴، ذكر موني أن سمك الجدار 5,0 متر والمسافة الفاصلة بينهما 5,1 متر ومادة البناء هي الحجارة الصلبة²²⁵.



صورة رقم 3 : صور من حفريات أزوكي تظهر سمك الجدران

المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث والثقافة في انواكشوط: 2019/07/03 (قسم الآثار)

وقد محصت الباحثة دنيز روبير (Denes.R) هذه المعطيات فذكرت أن سمك الجدار ليس ثابتا و يتراوح ما بين 70، 75، 80 سنتمتر في أجزاء الجدران، وأن المسافة الفاصلة بين الجدارين غير ثابتة، فتتراوح بين 80,1 - 90,1 متر وأن الحجارة المستخدمة ليست من الصنف الذي ذكره موني (Mauny)، فهي حجارة مربعة غير مرصوفة، مربوطة بملاط أبيض على أثر طريقة معهودة للبناء في عمارة أوداغست²²⁶، كما كشفت أيضا إحدائية تتعلق

²²⁴– Saison, Bernard. Azugi : Archéologie et Histoire en Adrar Mauritanien, Recherche, Pédagogie et Culture, n° 55. 1981 . p : 72.

²²⁵ _Mouny, Raymond. Notes d'histoire Et d'archéologie sur Azougui. op. ct. p : 145.

²²⁶ Denise, Robert and Serge Robert. Douze années de recherches archéologiques en République islamique de Mauritanie. Annales de la Faculté des Lettres. Dakar ,1972. p : 100.

بالأبراج الموزعة على امتداد الجدار الخارجي لبقايا أسوار الحصن وأن تلك الأبراج نصف دائرية²²⁷ وليست مستطيلة كما ذكر موني (Mauny)، ورأت أن الصورة الجوية ضخمت الشكل²²⁸.

أولاً: القلعة (القصيبة) :

يرى بعض الباحثين الموريتانيين أن وجود الأبراج ضمن بقايا هذا المعلم يبعث على افتراض وظيفة حربية له، كما أن حجم السمك للجدارين والربط المحتمل بينهما في عمارة هذا المعلم يعزز فرضية البعد العسكري، ويبدو أن هذا المعلم كان يتوفر على مدخل وحيد تم الكشف عنه بالجهة الشمالية²²⁹.

وقد اتخذ موني (Mauny) عينات من بقايا هذا الحصن وحدده بالكربون (14)، وبعد التعرف على هذا المعلم التاريخي الذي حدد موني موقعه، أطلق عليه من طرف السكان اسم : "القصيبة" وهو تصغير لاسم " القصبة" باللهجة الحسانية، والذي كان يطلق في منطقة الغرب الإسلامي على قلاع محصنة تأخذ في شكلها مستطيلاً لم يكتمل بعد، وتوجد في مواضع مرتفعة داخل أسوار المدينة، وتحتوي على دواوين الحكام، وهي مكان للتحصين عندما يقدم الخطر، ولعل هذا الاسم له مدلول مرتبط بتلك المسميات التي تنطبق عليها هذه الحالة ويكون المكان فعلاً يوحى بوظيفته الحربية، وقد أكد جورج مارسى وجود الفن المعماري المرابطي وركز بالدرجة الأولى على أن العمارة العسكرية أكثر في اهتمامات المرابطين من العمارة المدنية والدينية، وقد ظهر ذلك في جميع المناطق التي وقع عليها الحكم المرابطي بالإضافة أيضاً إلى المزارات للتبرك²³⁰ وهذا ما نستنتجه في أزوكي حيث توجد "لقصيبه" التي تشكل الحصن الحربي و تحتوي على ضريح الإمام الحضرمي قاضي أزوكي الذي يعتبر مزاراً يفد عليه الزوار حتى اليوم: 1440هـ/2019م، وقد وصف موني (Mauny) هذا المعلم بالبناء

²²⁷ Saison, Bernard. Azugi : Archéologie et Histoire en Adrar Mauritanien. Op.Cit .P : 73.

²²⁸ Mouny, Raymond. Notes d'histoire Et d'archéologie sur Azougui. op. ct. P : 145.

²²⁹ - أحمد مولود/ أيده، رسالة الماجستير، المدن الوسيطة المندثرة، مرجع سبق ذكره، ص: 50.

²³⁰ -Marcais, gorges. L'architecture Musulmane d'Occident, paris, 1955. p : 539.

المتأخر²³¹، وفي سنة (1975 م)، حضر مهتمون استطلاعيون للتعرف على الموقع بعد أن ظل الاعتقاد السائد هو نتائج أسبار موني (Mauny)، فكلف المعهد الموريتاني للبحث العلمي : "دنيز روبير (Denes.R) وبونا سيزون" (Bona Sezon) من فريق " تكداوست" حيث تمكنوا من ضبط كوتوغرافية (بيانات) الموقع ونشروا نتائجها بعد أن أنجزت (1980م - 1981م) فاعتبرت مع أعمال موني مستندا للبحوث لهذا الموقع ولم تضاف أشياء جديدة معتبرة ، إلا أنها ضبطت أربع مستويات²³².



صورة رقم 4 : جانب من حفریات قلعة لقصيبة بأزوكي

<https://m.facebook.com/story>.

قامت هذه الحفریات الاستطلاعية في عدة نقاط داخل القلعة (لقصيبة) وخارجها فأكدت المستويات الأربعة والذي يهمننا في البحث من المستويات، المستوى الأول والثاني:

(أ) **المستوى الأول:** وتتحصر شواهد على بعض الحجارة المتناثرة وآثار لبعض المواقف بها فحم خشبي مكن تاريخه ب (C14) من تحديد تاريخ المستوى بحدود القرنين 10 و 11 الميلاديين على أنها بداية الفترة المرابطية، وبه آثار قطع مستوردة من شمال الصحراء وبعض الصناعات المعدنية.

²³¹ –Mouny, Raymond, Notes d'histoire et d'archéologie sur Azougui ... op. cit. p : 145 ; Tableau géographique .op.cit. p : 476.

²³² – Saison, Bernard, Azugi : Archéologie et Histoire en Adrar Mauritanien. Op.Cit. p : 70.

ب) المستوى الثاني: والمؤرخ بالقرن 11م وبداية القرن 12م، و قد شهد توسعا ملحوظا في العمران ووفرة في إنتاج الخزف المحلي²³³.

وينضاف إلى تلك الاكتشافات، اكتشاف المبنى الواقع أسفل الجبل " الجرف" وهذا المبنى على بعد 800م من القلعة على ضفة أحد روافد تيارت قرب متسع لممر "قم شور" وهذا المبنى عبارة تقريبا عن نموذج مصغر للقلعة، ويعتبر الباحث موني(Mauny) أن هذا المبنى له صلة بالقلعة أو هو نقطة للرقابة²³⁴.

ويصف الباحث دينيز ربير((Denes.R)) المنطقة المحيطة بالقلعة على أنها هي المنطقة الأثرية وتظهر تلك الآثار التاريخية داخل المناطق المغروسة حديثا بالنخيل وخاصة في الجزء الشمالي الغربي الذي يظهر أنه أكثر كثافة من الناحية العمرانية²³⁵.

ثانيا: المقابر:

وتوجد مقبرتان أثريتان داخل المنطقة هما:

(5) مقبرة الإمام الحضرمي:

و تتميز بكثرة الأشجار التي تظلها غربي القلعة وتضم العديد من القبور الموجهة على الطريقة الإسلامية، أهمها ذلك الضريح المتأخر للإمام الحضرمي كما وصفه موني(Mauny)²³⁶.

²³³ – Ibid. p :96.

²³⁴ – Mauny, Raymond. Tableau Géographique de L'ouest Africain au Moyen-Age d'après les Sources Ecrites, Op.Cit

²³⁵ – دينيز روبر شاليكس، مقالة "أزوكي"، عرض لأعمال تحضيرية للحفر، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، باريس، أعمال الندوة الدولية بانواكشوط، 1996م، ص: 105.

²³⁶ – Mauny, Raymond. Ibid.



صورة رقم 5 : ضريح الإمام الحضرمي

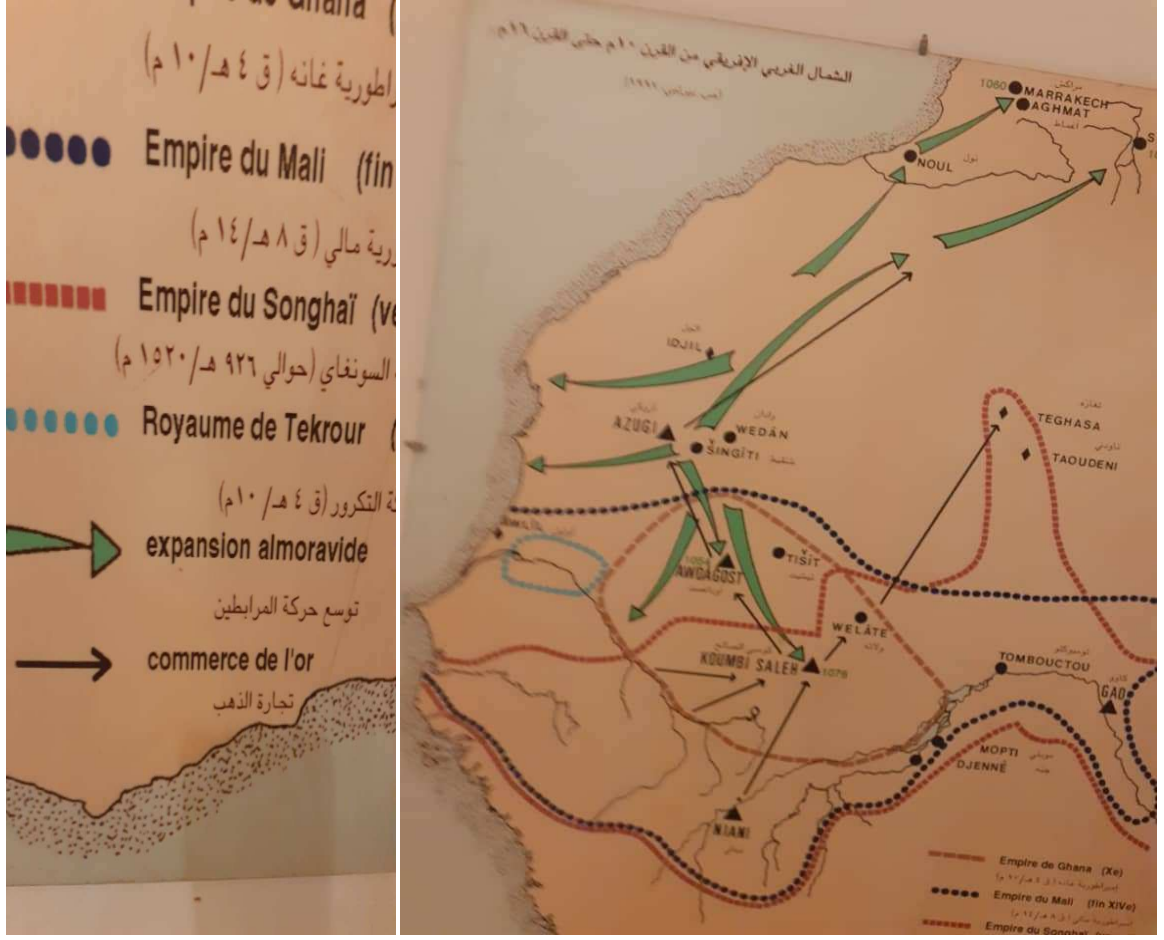
<https://www.tabrenkout.com/?p=10007> تاريخ الزيارة: 2019/01/13.

6) مقبرة متميزة:

وهي بمعزل عن القلعة في اتجاه منطقة انطواز وتظهر كriوة مستطيلة الشكل ومتوجة بحائطين متشابهين ومربعين لكل منهما عتبة في الغرب ومحراب في القبلة وبداخل الحائطين قبور، ولهذه الآثار شبيهاتها في المدن الوسيطة كأوداغست وكومبي صالح وبعض مناطق المغرب ومصر²³⁷.

²³⁷ – الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 107.

المطلب الثالث: استنتاجات عامة



مفتاح الخريطة

خريطة رقم 3 : خريطة توضح مسار انطلاق جيش المرابطين من مدينة أزوكي

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

لقد ظلت مدينة أزوكي حاضرة في الذاكرة الشعبية تروي قصتها رغم الاختفاء الذي سببته عاديات الزمن، و لم يكن ذكرها في المصادر إلا دليلا على ما أورده تلك الروايات، وقد كشفت المعاول الأثرية عن الجزء اليسير مما تزخر به المدينة من شواهد مادية ما زالت مطمورة تحت الرمال إلى حد الساعة و لم تتل ما يكفي لإمطة اللثام عن هذا التراث المدفون. وقد تحدثت البحوث الأثرية عن وجود معالم في هذا الموقع من بينها بقايا سور حددت مقاييسه من طرف الأثريين، إضافة إلى وجود أبراج ضمن بقايا هذا المعلم، حيث علله

الباحثون بافتراض وظيفة حربية، ويطلق عليه اسم "القصيبة" من طرف السكان المحليين وأكدوا على التشابه بينه و بين القلاع المحصنة التي كانت تنتشر في المدن الشمالية للغرب الإسلامي، كما نسبوه إلى العهد المرابطي الذي كان يهتم بالعمارة العسكرية والدينية. ويحتوي هذا الحصن على دواوين الحكام، وقد احتوت القصبة على ضريح الإمام الحضرمي الذي نصبه الأمير أبو بكر ابن عمر قاضيا للمدينة و يعتبر ضريحه مزارا للتبرك كما هو الحال في بعض المدن المرابطية الوسيطة الأخرى.

إضافة إلى المبنى الواقع أسفل الجرف، والذي اعتبره المؤرخون نموذجا مصغرا من القلعة. وجدت شواهد مادية تمثلت في تناثر الحجارة و الخزف في الموقع مع وجود مواقع للفحم وبعض الصناعات المعدنية المستوردة من الشمال. ونشرت جريدة القدس العربي، أن مدينة أزوكي عاصمة للمرابطين في الجزء الجنوبي للصحراء، وهي قلعة شامخة مبنية من الحجارة الصلدة، محاطة بسيج مؤلف من عدة طبقات وعدة مستويات، و كشفت الأبحاث الأثرية عن أبنية داخل القلعة و محيطها²³⁸.



صورة رقم 6: لوحة تعريفية

<https://m.facebook.com/story>.

²³⁸ -www.alquds.com.uk.du:26I03I2019.

كما نشرت معلومات من طرف وزارة الثقافة الموريتانية تكشف عن بقايا السور الذي يحيط بالمدينة والذي يحتوي على آثار لمنازل متعددة من بينها دار للحكم و مكاتب للقضاء و المسجد العتيق الذي دفن في رحابه قاضي المدينة الإمام الحضرمي.²³⁹

و قد ذكر الباحث محمد يحي ولد باباه أن مدينة آزوكي كانت مزدهرة حضاريا و عمرانيا إبان القرن الخامس الهجري و أن بها شوارع منظمة و اعتبرها ملتقى للقوافل التجارية بين الشمال الإفريقي و السودان الجنوبي بحكم موقعها على الطريق للمتوني²⁴⁰، الذي سلكه الأمير أبو بكر ابن عمر المتوني أثناء عودته إلى الصحراء قادما من مراكش، حيث وصل منطقة آدرار وقام بفتح المدن، وقد ذكرت الروايات المحلية في شأن هذه الحروب أن البافور كانوا على أهبة الاستعداد للجيش المرابطية القادمة من الشمال، حيث كانوا يتحسسون المخاطر بواسطة إحدى نسائهم، كانت لها خاصية سحرية تمكنها من أن ترى مسافة يومين، وأنها كانت تراقب من أعلى الجبل المطل على آزوكي جيشا قادما من الشمال، وكان هذا الجيش جيش المرابطين الذي هاجمهم و شتت شملهم وأنهى أمرهم²⁴¹.

واستولى القائد أبو بكر بن عمر على مدينة آزوكي وقد تحدثت المصادر في هذا الشأن حيث يقول ابن أبي زرع ما نصه: "...أنه بعد سيطرة المرابطين على المغرب الأقصى واستخلاف قائدهم أبي بكر بن عمر لابن عمه يوسف بن تاشفين في الملك، عاد إلى الصحراء في شهر ذي القعدة سنة 453هـ ديسمبر 1061م للقضاء على بعض الفتن هناك، وبعد أن أكمل مهمته عاد إلى المغرب الأقصى حيث وجد ابن عمه قد استأثر بالملك لنفسه، فتورع أبو بكر عن سفك دماء المسلمين، وعاد إلى الصحراء محملا منه بهدايا جزيلة²⁴²....".

كما يذكر ابن عذارى في عودة الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء فيقول: "...بينما كان الأمير أبو بكر بن عمر وقومه الملتزمون يشرعون في بناء مراكش، إذ وفد إليهم رسول من

²³⁹ - www.alquds.com.uk.du:26l03l2019.

²⁴⁰ - محمد يحي ولد باباه، مقال منشور في القدس العربي على الرابط: www.alquds.com.uk.du:26l03l2019.

²⁴¹ الناني/ الحسين، صحراء الملتمين، مرجع سبق ذكره، ص: 78.

²⁴² - ابن أبي زرع، الأئيس المطرب....، مصدر سبق ذكره، ص: 134-135.

قبيلة لمتونه بالصحراء يخبرهم أن اكدالة أغارت عليهم وكانت بينهم فتن دائمة فاستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب واتجه هو إلى الصحراء، وكان تأسيس مراكش 462هـ/1070م²⁴³.

ويذكر صاحب الاستقصاء أيضا عودة الأمير أبي بكر فيقول: "... كان سفر أبي بكر بن عمر إلى الصحراء في ذي القعدة سنة 453هـ، ولما وصل إليها أصلح شأنها ورتب أحوالها وجمع جيشا كثيفا وغزا به بلاد السودان فاستولى منها على تسعين مرحلة..."²⁴⁴.

وذكر أن الأمير أبا بكر عاد إلى الصحراء رفقة جيشه، والمرشد الديني أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي الذي ولاه مهمة القضاء بمدينة أزوكي²⁴⁵، والذي يهمننا في هذا السياق هو اتخاذ الأمير أبي بكر بن عمر مدينة أزوكي عاصمة ملكه في الصحراء، ويبدو أن هذا الاختيار لم يتم بصفة عشوائية بل ساقته أحداث مكنت من الاستقرار في المنطقة، فالتوجه إلى هذا المكان من الصحراء جاء سابقا من طرف فقيه الحركة المرابطية عبد الله بن ياسين ليحيى بن عمر في بواكر التحرك للجيش المرابطي في اتجاه الشمال، وهو ما ذكره البكري ووصف المكان بالخصب وكثرة النخيل، مما سهل اتخاذ المكان كاستقرار "مدني" وقع في تلك الربوع وتمركز بجانب ذلك الاستقرار العسكري الذي ساعد عليه موقع المدينة الطبيعي الاستراتيجي و جعل منه مكانا حصينا لتخزين الذخيرة العسكرية وجعل المدينة عاصمة على العدو، وهذا ما ظهر من الشواهد المادية التي منحتها البحوث الأثرية، حيث حددت منطقة مركزية داخل وادي تيارت بأزوكي، وهذه المنطقة لا يوجد أي استقرار دائم إلا بها، ويعود ذلك

²⁴³ - ابن عذاري، البيان المغرب، ص: 19.

²⁴⁴ - الناصري، كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، مصدر سبق ذكره، ص: 21.

²⁴⁵ - أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليعصب السبتي، كتاب الغنيمة، فهرست القاضي عياض، تحقيق محمد بن عبد الكريم، بيروت 1978، ص: 282-283.

إلى توفر موارد المياه فيها ووعورة الطرق المؤدية إليها للوصول إلى السهل الحصين الذي وصفه البكري²⁴⁶.

ومن الصعب الحصول على معلومات عن عاصمة المرابطين بالجنوب ويعود ذلك إلى غياب التدوين بمنطقة الصحراء في تلك الفترة بالإضافة إلى الازدهار الذي وصلت إليه الدولة المرابطية بالشمال في جميع المجالات حيث انصرفت أقلام الكتاب عن الجزء الجنوبي الصحراوي واعتبر بعض الباحثين أن أبا بكر بن عمر لم يعتن بمشروع تأسيس الدولة في الجنوب بقدر ما اشتغل بالجهاد والفتوحات، و يرى الباحث الناني ولد الحسين أن مدينة أزوكي كانت عاصمة للدولة المرابطية حيث قال: "... وسواء أكان المكان بناه يانو أو بناه البافور فإن الحصن مهد الطريق أمام جيوش لمتونه بقيادة أبي بكر بن عمر للاستيلاء على عاصمة البافور وبقيّة أراضيهم وجعلها عاصمة للمرابطين في الشق الجنوبي الصحراوي..."²⁴⁷.

وقد استمر دورها بعد وفاة الأمير أبي بكر بن عمر، ويبرز ذلك جليا من خلال كتاب "الإشارة في تدبير الإمارة" الذي ألفه الإمام الحضرمي وضمنه التوجيهات التي تساعد الأمراء على تدبير شؤون الملك، ولكن لم تحظ مدينة أزوكي بما يكفي من البحوث لاكتشاف كنوزها المندثرة تحت رمال الصحراء ولم تحصل من عمليات الحفر إلا على ما قام به الباحث ريمون موني (Mauny) سنة 1955م، أو الحفريات التي أقيم بها سنة (1980-1981) من طرف المعهد العلمي العالي بالتعاون مع فريق البحث.

²⁴⁶ - أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين (من 17/15 أبريل 1996) جامعة انواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مخبر الدراسات والبحوث التاريخية، تم نشر أعمال الدورة بدعم من مصالح وكالة التعاون والعمل الفرنسية في انواكشوط، مصادر دفاتر التاريخ الموريتاني، ص: 16.

- برنار سيزون، حصيلة وآفاق البحث الأركيولوجي، مقالة منشور ضمن أعمال الندوة الدولية، جامعة انواكشوط، 1996م، ترجمة بوبه / محمد نافع، ص: 6-7.

²⁴⁷ - الناني الحسين، صحراء المثلثين، مرجع سابق، ص: 78.



صورة رقم 7 : صور من حفريات أزوكي

المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث والثقافة في انواكشوط: 2019/07/03 (قسم الآثار)

ولم تقف هذه الحفريات إلا القليل وركزت على جانب القلعة (لقصيبة)²⁴⁸، مما حال دون معلومات علمية تساعد على التعرف على جوانب من هذه المدينة التي أضحت منازلها بادية للعيان إلى زمن قريب، ومن المحتمل أن تنتقل بعض المميزات الحضارية من الشمال الإفريقي إلى الجنوب الصحراوي عن طريق تجارة القوافل التي ازدهرت في تلك الفترة وقد تلمس ذلك في مجالات عديدة منها السور المرابطي الذي كشفت عنه معاول الأثريين بأزوكي وأوجه التشابه الحاصل في طريقة البناء بالحجارة والطين التي اعتمدها المرابطون عند تأسيس عاصمتهم مراكش بالشمال إضافة إلى استخدام الأبراج الحربية والقلع.

ومن خلال ما تقدم يمكن القول إن العاصمة المرابطية الجنوبية أخذت مكانة متميزة بالصحراء حيث شكلت أول انطلاقة للجيش المرابطي في اتجاه الشمال مما ينجم عنه لاحقا السيطرة المرابطية على الغرب الإسلامي في تلك الفترة، وما صاحب ذلك من ازدهار، كما صمدت تلك المدينة فترة زمنية تنتشر المذهب المالكي عن طريق المرشد الديني الثاني

²⁴⁸ - برنار سيزون، حصيلة وآفاق البحث الأركيولوجي، مرجع سبق ذكره، ص: 6.

المعروف بالإمام الحضرمي (المرادي) والذي ما زال ضريحه قبلة للزوار حتى اليوم، وقد قصرت أقلام الباحثين عن الكشف عن طيات تاريخها العريق نظرا لما تحتاجه من بحوث أثرية لم تحظ بها حتى اليوم، وإن كانت لا تستطيع أن تكون ندا للعاصمة المرابطية في الشمال (مراكش) التي ازدهرت إبان الحكم المرابطي في جميع المجالات بفضل قوة الدولة في الجزء الشمالي.

المبحث الثاني: أدوار المدينة

المطلب الأول: الدور السياسي لمدينة أزوكي

يعتبر موقع أزوكي أول قاعدة عسكرية لانطلاق جيوش المرابطين اتجاه المدن الصحراوية حيث اتجهت نحو أوداغست لتواصل عملياتها نحو المدن الشمالية المغربية بدءا بسلمجاسة ومنها إلى باقي المدن، ولم تلبث مدينة أزوكي كثيرا حتى انتقلت من طابعها العسكري إلى طابعها السياسي بعد عودة الأمير أبي بكر بن عمر قادما من الشمال وتجاوز ذلك ليتوغل في الجنوب السوداني حتى وصل إلى حوض النيجر في الجنوب وفتح المدينة بعد معارك ضارية مع سكانها ونصب الإمام الحضرمي بها كقاض للمدينة وواصلت الجيوش المرابطية دورها الجهادي في المجال الصحراوي ...

لم تكن الوضعية السياسية التي مرت بها مدينة أزوكي بمنأى عن الظرفية التي تعيشها الدولة المرابطية في الجزء الجنوبي من الصحراء، مادامت هي أول موقع أرشد إليه عبد الله بن ياسين حسب ما ذكره البكري موجهًا به الأمير يحيى بن عمر، كما ذكرنا آنفا، حيث أمره بالتحصن في حصن أزوكي²⁴⁹.

و قد حظيت مدينة أزوكي بميزة استراتيجية جعلتها أول خيار أمام الجيش المرابطي للتهيئة و التمركز قبل انطلاقة الشعلة الجهادية في اتجاه "أوداغست" سنة (446هـ/1054م) و منها

²⁴⁹ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 167.

نحو الشمال للسيطرة على مدينة سجلماسة (447هـ/1055م)²⁵⁰، فتكشف عن ذلك أن الثكنة العسكرية المنيعّة التحصين في صحراء الملثمين والتي تمت منها الانطلاقة في اتجاه الشمال والجنوب عن وجود عدة عسكرية ملموسة وجيوش على أهبة الاستعداد للجهاد، إلى جانب أن المكان الذي هو حصن "آزوكي" بجبل لمتونه.

و يجدر بنا أن نتساءل هنا عن النظام السياسي الذي أقامته الحركة في تلك المدينة بالذات، هل هو شبيه بالنظام السياسي في الشق الشمالي من الدولة المرابطية؟

أم هو نظام ذو طابع عسكري أوجدته ظرفية دولة في طور النشأة؟

هذه التساؤلات ينبغي أن نطرحها، ونحاول الإجابة عليها من خلال ما أتاحتها المصادر التاريخية من معلومات و ما كشفت عنه البحوث الأثرية وما ساقته الروايات الشفهية التي يعول عليها في منطقة أزوكي.

تروي الروايات الشفهية الكثير عن مدينة أزوكي وخاصة في جانب الفتوحات التي قام بها المرابطون في المدينة والاشتباكات التي حصلت لهم مع سكان المدن والمناطق الأخرى، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على تمركز قوة عسكرية داخل مدينة أزوكي، مما يؤكد على إشارة البكري عن الحصن، علاوة على ما وجدناه عند الأثريين من الآثار العسكرية التي تمثلت في قلعة "لقصيبة" وما احتوت عليه من الآثار المرابطية، مما كشف عنه الأثريون، ولم يكتمل ذلك البحث الأثري في مدينة أزوكي بل كانت نتائجه قليلة مقتضبة، مما جعل المدينة في أمس الحاجة إلى قيام بحوث أثرية أخرى تمكن الباحث من الكشف عن غوامض تلك الآثار التي اندرست تحت الرمال.

و تكمن الإجابة على السؤال المطروح عن النظام السياسي في مدينة أزوكي، فيما عاشته الدولة المرابطية بصحراء الملثمين من تغييرات في نظامها السياسي، وهو ما انطبق على

²⁵⁰ - أحمد حسن محمود، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، 2007، ص: 101.

نظامها في الجزء الشمالي، بل اتخذ فيما يبدو نفس الطابع الذي كان يطبع السلطة المرابطية في بدايتها وهو توجيه المرشد الديني لقائد الجيش، وبعد رجوع الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء للمرة الثانية وتسليمه ابن عمه يوسف زمام الملك في الشمال، واصل فتوحاته متوسعا في اتجاه السودان²⁵¹، وكان ذلك سنة 465هـ²⁵²، وقد تحدث بن بسام عن أمير المرابطين بآزوكي كعاصمة لدولته في أواخر القرن 5هـ/11م، وقد جاء ذلك في حديثه عن أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، فكتب يقول: "... ثم كر إلى أمراء المرابطين في المغرب، فانخرط في أسلاكهم وعرض نفسه على أملاكهم ووقع آخر منهم إلى محمد بن يحيى بن عمر، فأقعه صهوة منبره وولي قضاء معسكره..."²⁵³.

و يرى بعض الباحثين المحليين أن محمد بن يحيى بن عمر هو من تحدث عنه ابن بسام إلا أنه لا يعرف الكثير عنه لا مدته التي قضاها في الحكم ولا تاريخ وفاته، إذ يرى أنه أكمل بقية القرن 5هـ/11م، وأنه كان في سن الشباب عندما تولى الأمر وولى القاضي الحضرمي المتقدم في السن، شؤون القضاء في ذلك الوقت، علما بأن وفاة الإمام الحضرمي كانت سنة 489هـ/1095م²⁵⁴.

وبما أن الحركة المرابطية جاءت لتكريس تعميم المذهب المالكي وكان المنحى السياسي للحركة يأخذ نفس المسار، فقد تركز الحكم في الدولة المرابطية على إعطاء حظوة كبيرة لرجال الدين والقبيلة، حيث حظيت قبيلة لمتونه بميزة أساسية فيها، نظرا لتوليها القيادة وأمور الجهاد واستفادتها من الغنائم الكثيرة، بموازاة الفقهاء المالكيين الذين اعتلوا مناصب الفتوى والقضاء في تلك الفترة، الشيء الذي يبدو أنه شمل أجزاء الدولة المرابطية كلها²⁵⁵.

²⁵¹ - ابن أبي زرع، الأنييس المطرب، مصدر سبق ذكره، المجلد 6، ص: 135.

²⁵² - ابن عذارى، البيان المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 26.

²⁵³ - أبو الحسن علي بسام الشنتريني، " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1 بيروت 1979، المجلد الأول، ص: 364.

²⁵⁴ - الناني الحسين، صحراء المثلثين، مرجع سبق ذكره، ص: 145.

²⁵⁵ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 165.

وقد حرص أمراء المرابطين على احترام توجيهات فقهاءهم حيث التزموا بالدور الذي لعبه "ابن ياسين" في تأسيس دولتهم خاصة فيما يتعلق بوجود مرشد ديني يقود الدولة ويُستشار في الأمور، وهذا الدور هو ما تجسد بالذات في مدينة أزوكي، إذ نجد أن الإمام الحضرمي توجه إلى أبي بكر بن عمر في اغمات، فاصطحبه إلى الصحراء حيث مارس فيها مهمته كمرشد وقاضي للدولة المرابطية بالصحراء في عهد أبي بكر بن عمر وحتى عهد محمد بن يحيى بن عمر، ولم يقتصر دور الفقيه على الإرشاد الديني فقط، بل تجاوز ذلك إلى الاستشارة السياسية لأمرأ الشطر الجنوبي من الدولة المرابطية، ويتضح ذلك من خلال محاولته في كتابه "الإشارة في تدبير الإمارة" ترسيخ قواعد الدولة المرابطية في صحراء الملثمين، و ذهب الباحثون إلى أن هذا الكتاب ألفه الإمام الحضرمي لأبي بكر بن عمر²⁵⁶، فأورد في مضمونه ثلاثين باباً تتمحور في نقاط عدة نذكر منها نقطتين أساسيتين:

- يبين في الأولى تقاليد الملك التي تميز رجال السلطة عن غيرهم حسب مواقعهم من الرعية، وتخلق رهبة في نفوس الرعية تساعد على الانصياع لأوامر تلك السلطة²⁵⁷.
- أما النقطة الثانية فتتمحور حول السلوك السياسي للسلطة اتجاه الرعية، وأن ذلك السلوك ينبغي أن يتماشى مع خصوصيات الظرفية التي يتصرف الأمير أثناءها، وتخضع لطبيعة ما يواجهه من مشاكل، ففي بعض الأوقات يكون إلى الحلم أقرب، وهناك أمر يستدعي الشدة والغلظة والبطش وبعض المواقف تفضل فيها الخدعة وبعض المواقف يفضل فيها الحلم²⁵⁸.

ومن هنا يتضح لنا جلياً أن السلطة السياسية في أزوكي قامت على شاكلة نظيرتها الشمالية في مراكش حيث أخذ الفقيه الدور الكبير الذي حظي به في حكم الدولة المرابطية والمتمثل في

²⁵⁶ -المرادي، أبوبكر محمد بن الحسن الحضرمي القيرواني، الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق رضون السيد، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص: 22.

²⁵⁷ - المرادي، الإشارة في تدبير الإمارة، مصدر سبق ذكره، ص: 96.

²⁵⁸ - نفسه، ص: 46.

صيغة القرار السياسي وهو ما استغله بعض الفقهاء في القرب من أمراء الدولة وقوة تأثيرهم عليهم. والاحترام الكبير الذي كانوا يحظون به من طرفهم فاستخدموها لجمع الأموال، وأصبحوا أثرياء²⁵⁹.

وقد تمركزت الدولة المرابطية حسب الباحثين في صحراء الملثمين بعد وفاة أبي بكر بن عمر وهو ما صمت عنه البعض ولم يشهر به، وتعود وفاته إلى سنة 480هـ / 1087م حسب بعض المصادر²⁶⁰.

ويعللون ذلك بقولهم إن الحكم على انتهاء الدولة المرابطية بالجنوب لا يستند على أي برهان حسب رأيهم ولا مبرر له بل إنه يرجع إلى جهل بعض الكتاب بأحداث الفترة التي أتت بعد وفاة ابن عمر أو إلى الانبهار بعظمة الملك في الشمال إبان فترة يوسف بن تاشفين وما رافق ذلك من انتصارات في الأندلس²⁶¹.

وقد ذكر محمد امبارك اللمتوني في أرجوزته حول تاريخ لمتونة في الصحراء أسماء لأمرأ الدولة المرابطية في صحراء الملثمين، وتوحي هذه الرواية أن الدولة ظلت قائمة في الصحراء إلى أن وصلت الهجرات الحسانية المغامرة في القرن 16م، فقال إن أبا بكر خلفه أخوه أحمد بن عمر اللمتوني ثم ابن عمه الخضير بن يوسف بن تاشفين ثم حفيده عتبة ثم البشارة بن عتبة ثم ابنه البادي الملقب (لنه) ثم أعمر بن عتبة ثم محمد البمبري اللمتوني الذي شهدت فيه الدولة المرابطية فشلا آلا إلى تقسيمها بين أربع أمراء هم بيلك الأسد بن محمد البمبري وأعمر بن أجفج اللمتوني الحميري والهاشمي الألفغي حفيدهم العلوي الحسني²⁶².

وقد نظمها اللمتوني في الأبيات التالية:

²⁵⁹ - محمد ولد داداه، مفهوم الملك في المغرب والأندلس من منتصف القرن السابع، دراسة في التاريخ السياسي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة 1977، ص: 114.

²⁶⁰ - السعد محمد المختار، عوائق البحث في التاريخ الموريتاني، مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، العدد 2، 1988، ص: 28-29.

²⁶¹ - حسن أحمد محمود قيام، الدولة المرابطية، مرجع سبق ذكره، ص: 43.

²⁶² - محمد امبارك اللمتوني، نظم في الدولة اللمتونية، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي مسجل تحت رقم 2838، ص: 7، 8.

فقام فيهم أربعين حقبة ابن ابنه وقام ستين سنة ثم ابنه المدعو بالبشارة وقام فيهم ثلاثين سنة عشرون حقبة فاعمروا ابنه فمات ثم بايعوا محمدا عشرة من السنين ونزل وأقسمت دولتهم موزعة أحدهما يدعى بيلك الأسد وابن الأمير الأجفقي أعمرا والهاشمي الألفغي المرابطي حفيد اللمتون وعالم الزمن ولم يزل خلفهم يزداد حتى تقطن لشأنهم أدل فمات ثم بايعوا لعقبه على الصحاري حاكم ما أحسنه قد بايعوه بعد بالإماره ثم ابنه الباد الملقب النيه ست وأربعون كان فله البمبري أمتي مكررا عن ملكه بعد حروب وفشل عن فشل على رجال أربعة ابن محمد الأمير أحمد الأمتي بن أمير حميرا العلوي الحسني الضابط ويضعة الرسول ذو الخلق الحسن ويكثر الفساد والعناد من لقبوه بب وهو ذو عدد

في الوقت الذي تشير بعض الروايات إلى أنه خلفه إبراهيم بن أبي بكر بن عمر، ويذكر أنه توجه إلى المغرب بعد وفاة أبيه لاسترجاع السلطة، وأنه لم يعترف بمشروعيتها لابن عمه يوسف بن تاشفين، وأنه اتصل بابن عمه مزدلي يقول "...أطلب ملك أبي الذي غصبنا فيه عمي يوسف" فأجابه ابن عمه مزدلي... إن الملك بيد الله يؤتیه من يشاء، والله تعالى خص هذا الرجل بالملك دوننا، فإن كنت عاقلا فاطلب منه أن يعينك بمال وخيل ترجع إلى بلدك²⁶³.

²⁶³ - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 29.

ويبدو أن مدينة آزوكي اكتست قيمتها السياسية إثر عودة أبي بكر بن عمر الأخيرة من المغرب، كما اتخذت خاصيتها الحربية كذلك وهذا ما أثبتته البحوث الأثرية التي أجريت على المنطقة سنة (1980م/ 1981م)²⁶⁴.

ويرى حماد الله ولد السالم أن دولة المرابطين ظلت كيانا خاصا تحت سلطة إبراهيم بن أبي بكر بن عمر وابن أخيه وخلفهم إلى نهاية القرن 11هـ، ويظهر ذلك جليا في استمرار الفتوحات بعد وفاته، حيث قام إبراهيم بن أبي بكر بن عمر بمواصلة فتوحات أبيه، ففتح غانا سنة 469هـ/1076م، ودوخ البلاد السودانية وشاركه قاضي المرابطين "المرادي" في المشورة (ت489هـ/1090م)²⁶⁵.

ويرى الباحث سيد ولد مناه أن الحالة السياسية للمجتمع المرابطي في مدينة آزوكي أسس لها المرادي وكان كتابه "الإشارة في تدبير الإمارة"، يهدف من بين ما يهدف إليه نصائح أمراء الصحراء في تلك الفترة الزمنية وتضمنت أمثالا تعكس في طياتها الحالة السياسية في آزوكي، وكان يطمح في تأسيس مشروع عقدي سياسي في جوهرة، وطبعه بطابع الفقه السياسي، ولعل هذا المشروع قد أبلغه عبد الله ابن ياسين من قبل، وأنه اتخذ في ذلك الاعتماد على ثقافة القوم البسيطة والبعيدة من السلطة²⁶⁶.

المطلب الثاني: الدور الاجتماعي

لقد أحدث الحكم المرابطي تغييرات عميقة على مستوى الأوضاع العامة لسكان صحراء الملثمين، لتتلاءم مع الأهداف الدينية والسياسية، حيث برزت فئات اجتماعية جديدة من أهمها تلك القائمة على الشؤون الدينية والعسكرية والتي تتولى القيام بالجهاد لنشر الدين الإسلامي، بدلا من المهام السابقة المتمثلة في الذود عن القبيلة وشن غارات السلب والنهب على القبائل الأخرى.

²⁶⁴ - أحمد مولود / أيده، المدن الوسيطة المندثرة ، مرجع سبق ذكره، ص: 176.

²⁶⁵ - حماد الله/ السالم، المجتمع الأهلي الموريتاني، مرجع سبق ذكره، ص: 155.

²⁶⁶ - سيد ولد مناه، مقال، الكتابة السياسية عند أبي بكر المرادي، أعمال الندوة في جامعة انواكشوط ، 1996، مرجع سبق ذكره ، ص : 82.

ومما تحتفظ به الذاكرة الجماعية لسكان الصحراء أن التشكيلة الاجتماعية خضعت للتقسيم على المستوى الاجتماعي بدلا من المستوى العرقي وتمثلت في تمكين كل مجموعة من دورها الجديد الموكل إليها من قبل الأمير أبي بكر بن عمر، ومما دل على ذلك ما ورد في كتابات بعض علماء الشناقطة حيث يقول الفقيه: سيد أحمد بن حبت في مضمون حديثه عن وقائع جهادية قام بها أبو بكر بن عمر ما نصه: "... ثم ارتحل قاصدا جبل تكانت حتى نزل بالبطحاء المتدلية من جانب الجبل الغربي، ببطحة السلاطين، وعلى الجبل ملوك كنعارة، وحاصروهم حتى مات رئيسهم آدر فوق الحقف²⁶⁷ وأصبح علم المكان عليه آدار، فانهزموا إلى البحر واسترقهم وقسم السبي والمال وجعل الجيش ثلاث طوائف واحدة من العرب للجهاد، والثانية من الزوايا تتعلم وتعلم الناس العلم، وترزقان من بيت المال الذي هو الخمس في الغنيمة، والثالثة تعنى بالقيام بأمور المواشي والحرث والغرس...²⁶⁸.

كما يبين ذلك محمد امبارك اللمتوني في أرجوزته إن هذه الأدوار والوظائف التي قسم عليها المجتمع الصحراوي لا علاقة لها بالنسب، وإنما كانت وظائف يراد منها تحقيق الاكتفاء الذاتي للمجتمع في مجالات اهتماماته خلال ذلك العصر عن طريق تقسيم وظيفي فيقول في حديثه عن أبي بكر بن عمر:

وقسم الجيش على أوضاع	تليق بالشراع وبالسماع
فبعضهم أخذ للدفاع	وبعضهم أخذ للشراع
وبعضهم قد ذكر الحدادا	وذكر الطراز والصيادا

²⁶⁷ - الحقف: حقف من الرمل المعوج، وجمعه أحقاف وحقوف وحقاف وحقفة ومنه قيل لما اعوج محقوف، قال تعالى: "وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا نَجْنُؤُهُ إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" سورة الأحقاف، الآية: 21.

والحقف بالكسر المعوج من الرمل وجمعه أحقاف وحقاف وحقوف وهو الرمل المستدير أو المستطيل المشرق

يقول الحطينة: تطير الحصى بعري المنسمين * * إذا الحاققات ألفن الظلالا، أساس البلاغة أبو القاسم الزمخشري توفي 538هـ/1143م

القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد يعقوب الفيروز أبادي، توفير 817هـ/1414م

²⁶⁸ - ابن حبت، تأليف غير معنون، مصدر سبق ذكره، ص: 6.

وللأموال أخذت طوائف والكُل ليس بأصل يا عارف²⁶⁹

ويذكر المختار ولد حامدن أن مجتمع المرابطين ينقسم إلى فئات هي: المجاهدون والزوايا كفئة عليا، والأتباع إلى جانب الفئات الحرفية، الصيادون والعبيد...إلخ، ويوضح أن هذه البنية الاجتماعية تتطلبها البيئة الصحراوية²⁷⁰

ويؤكد أحد الباحثين أن التغيير الذي حدث في بنية المجتمع لم ينتج عن قرار صادر عن فرد مهما كانت مكانته آنذاك، وإنما حدث بشكل تدريجي تحت تأثير المستجدات الثقافية والسياسية والاقتصادية التي عرفت المنطقة إبان قيام دولة المرابطين²⁷¹.

أولاً: الفئات الاجتماعية

1- الفئة الأرستقراطية

تتكون من مجموعتين تمارس كل منها مهمة مقدسة في نظر المجتمع لارتباط خدماتهما بالجانب الديني وهاتان المجموعتان تمثلان الفئة الأرستقراطية، وهي فئة المجاهدين والفقهاء، فدورهما واحد وإن اختلفت المهام الأساسية وهي نشر الإسلام بالسيف أو عن طريق الموعظة والتعليم لأمر الدين²⁷².

2- فئة الأتباع

يعتمد المجاهدون والمتعلمون على هذه الفئة في الأمور المادية والمعاش وتسمى (اللحمة)²⁷³ وتطلق هذه الكلمة على القبائل التي وقعت تحت تأثير القهر وأخضعت بالقوة

²⁶⁹ - محمد امبارك الممتوني، نظم الممتوني، مصدر سبق ذكره، ص: 1 و2.

²⁷⁰ - المختار بن حامدو، الجزء الجغرافي، مرجع سبق ذكره، ص: 37.

²⁷¹ - الناني الحسين، صحراء المثلثين، مرجع سبق ذكره، ص: 90.

²⁷² - محمد المختار ولد السعد، حرب شريعة أو أزمة الجنوب الغربي الموريتاني خلال القرن 17م، المعهد الموريتاني للبحث العلمي انواكشوط، ص: 27.

²⁷³ - اللحمة: هي مجموعات اخضعت بالقوة و لم تحظ بالتعليم و لا بالفروسة المختار ولد حامدن، حياة موريتانيا الجزء الجغرافي بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي انواكشوط، ص: 38.

ولعل جماعة البافور في أزوكي كانت من ضمن تلك المجموعات التي خضعت للمرابطين في حروب الفتح للمنطقة²⁷⁴.

ولعل تلك المجموعات هي التي ذكرها الإدريسي في حديثه عن أهل قمنورية وحروبهم مع لمتونه حيث يقول: "... وأهل لمتونه الصحراء الساكنون من جهتي هذه الأرض، طلبوا هذه الأرض أعني قمنورية حتى أفنوا أكثر أهلها وقطعوا دابرههم وبددوا شملهم..."²⁷⁵ وإذا كانت هذه الحروب سبقت فترة المرابطين، يعني أن المجتمع الصنهاجي كان له أتباع، من بينهم ضحايا الحروب والقبائل المغلوبة على أمرها التي لم تستطع الدفاع عن نفسها مما يبعث تشرذمها وتشتتها إلى أن أصبحت أتباعا لغيرها، وقد شهد المجتمع الأزوكي ذلك حيث تجذرت نفس الفئوة التي عاشتها الصحراء على المستوى الاجتماعي إبان الحكم المرابطي، ولم تختلف أزوكي عن باقي المجتمعات الصحراوية، لكونها من مراكز الوجود العسكري المرابطي، وقد ورد في المصادر المحلية ما تعرضت له هذه المدينة أيام الفتح المرابطي والتي يسمونها بمدينة " الكلاب" والتي كانت تسكنها مجموعات البافور حسب الروايات الشفهية المحلية²⁷⁶.

فيقول ابن حبت: "... ومن جهة ما وقع بينهم وبين المسلمين يوم مدينة الكلاب التي هي اليوم أطار، وكانت عامرة كبيرة، فلما قدمها المسلمون خرجت إليهم الروم بكلابهم التي هي أشرس منهم قتالا فعظم أمرهم على المسلمين، فقال الإمام الحضرمي الولي المشهور للأمير أبي بكر إن شئت أمسكت عنك الكلاب وإن شئت أمسكت عنك أهلها..."²⁷⁷.

وتختلف الرواية في أصول سكان مدينة أزوكي والتي تسمى بمدينة الكلاب في الذاكرة الشعبية للسكان المحليين بأنهم البافور وسماهم ابن حبت بالروم ربما يكون تمييزا لهم عن البربر أو هو اسم يطلق عليهم بالإضافة إلى البافور، فهذه الفئة المغلوبة على أمرها بفعل الجهاد سرت

²⁷⁴ - ابن حبت، تأليف غير معنون، مصدر سبق ذكره، ص: 7.

²⁷⁵ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 105.

²⁷⁶ - ابن هيبين، مكرو فيلم، المعهد الموريتاني للبحث العلمي (قسم المرويات الاجتماعية)، مرجع سبق ذكره.

²⁷⁷ - ابن حبت، تأليف غير معنون، مصدر سبق ذكره، ص: 8.

عليها التبعية للفئة المنتصرة والمتمثلة في المجاهدين والفقهاء والمتربعين على رأس الهرم الاجتماعي، فأصبحت فئة من مكونات السكان الأصليين لمدينة أزوكي قائمة بالأعمال التي تفيد الفئة الحاكمة، كتربية المواشي ورعيهم وتوفير المعاش وما إلى ذلك من المستلزمات التي تتطلبها الحاجة في تلك الفترة بالإضافة إلى استغلالها في المزارع والحقول والسقي وكلما تحتاجه المدينة المرابطية الناشئة، وإلى جانب الفئة المغلوبة (البافور) فئة العبيد التي تشاركها في نفس الأدوار.

3- فئة العبيد

توجد هذه الفئة في مختلف المجتمعات خلال العصر الوسيط، وهي موجودة في أسفل الهرم الاجتماعي وكان الانتاج في تلك المجتمعات يعتمد أساسا عليها، وقد زاد من أعداد هذه الفئة القيام بعمليات جهادية في المناطق السودانية القريبة²⁷⁸.

وبالرغم من أن المصدر الأساسي في الصحراء للعبيد هو بلاد السودان التي استمرت فيها عمليات الجهاد لفترة طويلة من الزمن، إلا أن ذلك لا يمنع من وجود العبيد البيض في نفس مدينة أزوكي، خاصة أن المصادر العربية الوسيطة ذكرت أن يوسف بن تاشفين قدم هدايا لأبي بكر بن عمر وجاء بها إلى أزوكي، من ضمنها جوار وخدم (بيض البشرة)²⁷⁹ قد حصل عليها يوسف بن تاشفين من فتوحاته في الشمال.

ثانيا: العادات والتقاليد في مدينة أزوكي

- العادات:

لكل مجتمع عادات وقواعد يسير عليها وتمثل قناعاته الراسخة و تنظم حركة الأفراد داخل المجتمع، تنتقل عبر الأجيال ويلزم احترامها من طرف الجميع وتختلف من مجتمع إلى آخر.

²⁷⁸ - موسى عز الدين أحمد، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص.120.

²⁷⁹ - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 23.

- **التقاليد:** فهي السلوك المتوازن لدى الأجيال حسب صيرورة الزمن وتتبع من طرف الأشخاص بشكل فطري وطبيعي وتختلف هي الأخرى من مجتمعات إلى أخرى كما يختص بعض المدن بعادات تخصه دون غيره، و هناك عادات مشتركة للمجتمع الصحراوي ككل كالنمط الغذائي وعادات اللباس وعادات اللثام ومكانة المرأة والزواج.²⁸⁰

وتختص مدينة أزوكي كباقي المدن الصحراوية بعادات نذكر منها:

(1) النمط الغذائي بمدينة أزوكي

اعتمدت مدينة أزوكي في نمطها الغذائي على ما اعتمد عليه مجالها الصحراوي الذي كان يعيش على ثروته الحيوانية و صيده البري، الذي يعتبر مصدر أكله وشربه وسكنه وكسوته، قبل التقري في حواضر ومدن جلبت إليها التجار حاملين أنواعا من الأغذية لم تعرفها من قبل، وقد ساعدت خصوبة التربة في اعتماد المدينة على الزراعة وغرس النخيل، الذي أتاح المجال لإنشاء مزارع تحت ظلال النخيل فأنتجت الشعير وكان نشاطا أساسيا لسكان تلك المدينة²⁸¹.

يقول البكري: "...وحوله عشرون ألف نخلة..."²⁸²، بينما قال اليعقوبي في أواخر القرن 9م: "...ومعاشهم من الإبل وليس لهم زرع ولا طعام"²⁸³، كما تحدث ابن حوقل في القرن 10م عن قبيلة مسوفة، وعاداتها الغذائية، فقال: "... وبنو مسوفة قبيل عظيم من المقيمين بقلب البر على مياه غير طائفة لا يعرفون الشعير ولا الدقيق، ومنهم من لم يسمع بهما إلا بالمثل، وأقواتهم الألبان وفي بعض الأوقات اللحوم"²⁸⁴.

²⁸⁰ - أسعد فايزة، أطروحة دكتوراه، العادات الاجتماعية و التقاليد في الوسط الحضري بين التقليد و الحداثة، وهران و اندرمه نمونحا، الجزائر، 2013، ص: 117.

²⁸¹ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب ، مصدر سبق ذكره، ص: 167.

²⁸² نفسه.

²⁸³ - اليعقوبي، البلدان ، مصدر سبق ذكره، ص: 111.

²⁸⁴ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 159.

ولا يعتبر -ما ورد في المصادر من تضارب في أنماط المعيشة لدى قبائل الملثمين بالصحراء- خلافاً، لكون بعضهم من البدو الرحل يعتمدون على إنتاج مواشيهم (اللبن واللحم) ويلتزمون في حياتهم الانتجاع والترحال، أما بعض المناطق الأخرى والتي يميزها نوع من الاستقرار بفعل وجود مراكز تجارية فأهلها يعتمدون في معيشتهم على الزراعة بمختلف أنواعها كما في منطقة آدرار الجبلية الخصبة التي تحتضن واحات مدينة أزوكي التاريخية.

ويصف البكري نمط حياة مسوفة في معاشهم فيقول: "...ليسوا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا خبزاً إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن، ينفد عمر أحدهم وما رأى خبزاً ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام و بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق"²⁸⁵.

ويصفهم أيضاً فيقول: "... وطعامهم صفيف اللحم الجاف مطحوناً يصب عليه الشحم المذاب أو السمن وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء يبقى الرجل منهم الأشهر لا يشرب ماء وقوتهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة"²⁸⁶، ويقول شيخ الربوة في هذا الصدد: "...وأموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن وحبوب تنبت أَرْضُهُم من الربيع، والذرة تجلب إليهم، يمر على الواحد منهم العمر الطويل ولا يرى على يده خبزاً إلا ما يحمله إليهم التجار الواردون عليهم من بلاد المغرب، وهم طواعن في طلب الكلاً لا يستقر بهم منزل"²⁸⁷.

وقد تحدث ابن الخطيب في إطار حديثه عن غذاء المرشد العام للحركة المرابطية: عبد الله بن ياسين إبان إقامته في صحراء الملثمين فقال: "ولم يقتت إلا من لحوم الصيد..."²⁸⁸،

²⁸⁵ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب ، مصدر سبق ذكره، ص: 159.

²⁸⁶ - نفسه، ص: 170.

²⁸⁷ - شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، ط.1، بيروت 1988، ص: 56.

²⁸⁸ - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، مصدر سبق ذكره، ص: 316.

ويقول البكري: "...وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم متورع عن أكل لحومهم وشرب ألبانهم لما كانت أموالهم غير طيبة، وإنما كان عيشه من صيد البرية"²⁸⁹، وقد تم ذلك داخل الجزيرة التي تأسس فيها الرباط فقال له يحيى بن إبراهيم الكدالي أثناء وصفه الجزيرة لعبد الله بن ياسين ما نصه: "... وفيها الحلال المحض الذي لا شك فيه من أشجار البرية وصيد البر وأصناف الطير والوحش"²⁹⁰.

وهذا النوع من الغذاء تشترك فيه المدن مع البوادي وكذلك الألبان واللحوم، فالمراعي قريبة من المدن مما يمدّها بالمنتجات الحيوانية، كما أن سكان المدن الصحراوية خولت لهم المدن حياة زراعية مدت تلك المدن بالحبوب والفواكه.

(2) الأمراض والأدوية

لقد تعرضت مدينة أزوكي للأوبئة التي اجتاحت مناطق مختلفة من العالم خلال العصر الوسيط تسببت في الكثير من الوفيات، نظرا لغياب الرعاية الصحية في تلك الفترة وموجات القحط والجفاف، وقد ذكر ابن حامد أن جل الأمراض التي أصابت سكان المنطقة ككل عائد إلى العامل المناخي، وقد وصف الجزء الشمالي من المنطقة وهو الذي توجد به مدينة أزوكي بأنه صحي عكس الساحلي الجنوبي²⁹¹، إلا أنها لم تخلُ من مكافحة بعض الأمراض بأدوية طبيعية من مواد وأعشاب وغيرها اتخذت علاجات ظلت متداولة إلى فترات قريبة، مثل : علاجهم لمرض الجرب بالكبريت، واستخدام "الحميرة" (وهي حجر صلب أحمر اللون) يستخدم في علاجات أمراض العيون وبعض القروح الجلدية والأورام، و"الونكل" وهذه المادة من الطين الأصفر الصلب ويعالج بها بعض أمراض الطبيعة (الصفراوية والدموية) وكذلك أمراض المعدة ومشاكلها²⁹².

²⁸⁹ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب ، مصدر سبق ذكره، ص: 165.

²⁹⁰ - نفسه.

²⁹¹ - المختار بن حامد، الجزء الجغرافي، مرجع سبق ذكره، ص: 4.

²⁹² - نفسه.

(3) الملابس

لقد عاشت مدينة أزوكي ضمن مناخها الصحراوي الذي يفرض نوعا من الملابس، حيث تكون عادة فضفاضة ومفتوحة الأكمام مصنعة محليا من وبر الإبل ومن صوف الضأن ومن جلد الماعز، بالإضافة إلى ملابس مستوردة من الشمال عن طريق المبادلات التجارية²⁹³ ولا تستهوي في الغالب ولا يهتم بها إلا ميسوري الحال.

وقد وصف الإدريسي نوعية الملابس وطريقة ارتدائها عندهم في قوله: "... ولباس الرجال منهم والنساء أكسية الصوف ويحتزمون في أوساطهم بمآزر صوف ويسمونها آسفاقس²⁹⁴. وقد تعودوا على الملابس الصوفية فقد كتب ابن الخطيب عن يوسف بن تاشفين يقول: "... لم يغير حاله من لباس الصوف... مع ما فتح الله عليه من الدنيا²⁹⁵، وقال عنه ابن أبي زرع "... لباسه الصوف لم يلبس قط غيره²⁹⁶".

وأغلب الملابس خلال الفترة الوسيطة حددتها بعض المصادر بتداولهم لملابس الصوف أكثر، فقد وصفها اليعقوبي في قوله "... شأنهم كلهم أن يتلثموا سنة فيهم ولا يلبسوا قميصا وإنما يتشحون بثيابهم²⁹⁷".

وقد عرفت مدينة أزوكي بعادة مشهورة لدى سكان الصحراء ميزتهم عن باقي الشعوب خلال العصر الوسيط واشتهرت بها القبائل التي عمرت الصحراء في تلك الفترة و يتعلق الأمر بعادة اللثام لدى سكان الصحراء، وهذه العادة تحدثت عنها المصادر، فمنها ما ذكرها بالوصف فقط، ومنها ما حاول أن يجد لها بعض التفسيرات، وقد عرف بها المجتمع الصنهاجي، ولقب

²⁹³ - ابن الشرقي حصري أحمد، ارتسامات ومعطيات حول مدينة مراكش، المطبعة الوراق الوطنية، مراكش، 1986 ص : 24 .

²⁹⁴ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 62.

²⁹⁵ - لسان الدين بن الخطيب، القسم الثالث من كتاب الأعلام، مصدر سبق ذكره، ص: 357.

²⁹⁶ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سبق ذكره، ص: 136.

²⁹⁷ - اليعقوبي، البلدان، مصدر سبق ذكره، ص: 111.

بها من طرف بعض المصادر وأطلقت على الصحراء فيقال "صحراء المثلثين" من شدة تمسكهم به في جميع الأحوال.

فقد ذكر اليعقوبي في أواخر القرن 3هـ/9م في معرض حديثه عن مجموعة " أنبية" من صنهاجة تقطن المنطقة الفاصلة بين السودان وسجلماصة بقوله "... شأنهم كلهم أن يتلثموا بعمائمهم سنة فيهم"²⁹⁸.

وهذا ما يفهم منه أن هذه العادة متوارثة وليست حديثة العهد.

وفي القرن 10م، يذكر ابن حوقل أنه زار المنطقة فكتب عن بني مسوفة يقول: "ولم تر لأحدهم ولا لصنهاجة مكانا من وجوههم غير عيونهم، وذلك أنهم يتلثمون وهم أطفال وينشؤون على ذلك"²⁹⁹.

وقد وصف البكري التزام صنهاجة باللثام في قوله: "... وفي قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منهم إلا محاجر عيونهم ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال ولا يميز رجل منهم وليه ولا حميمه إلا إذا انتقب وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتل وزال قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع، وصار ذلك ألزم لهم من جلودهم..."³⁰⁰.

ويقول عنهم ابن خلكان "... وهم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم، لذلك سموهم المثلثين وذلك سنة لهم يتوارثونها خلفا عن سلف..."³⁰¹.

وقد أمدتنا بعض المصادر التاريخية بتفسيرات عن الأسباب والدوافع وراء التزام صنهاجة باللثام دون سواهم من الشعوب، فذكر صاحب الحل أنهم أول من تلثم وربط عادة اللثام لديهم

²⁹⁸ - اليعقوبي، البلدان، مصدر سبق ذكره، ص: 111.

²⁹⁹ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 9.

³⁰⁰ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 170.

³⁰¹ - أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنبأ الزمان، ج8، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971، ص: 129.

بموقفه من نسبهم إذ يرى أنهم حمير وأن أجدادهم كانوا في اليمن، وأنهم يدينون بدين بشر به أحد ملوكهم الأوائل وتعرضوا بعد وفاته لمضايقة فقتلوا وشردوا، فتلثموا ليخفوا أنفسهم وكان اللثام وقتها مستخدما من طرف نساء اليمن دون رجالهم، حسب ما ذكره المؤلف.³⁰² ثم "...فروا بأنفسهم من قطر إلى قطر وصار اللثام زيهم الذي أكرمهم الله به ونجاهم من أعدائهم، فاستحسنوه ولازموه وصار زيا لهم ولأعقابهم لا يفارقونه إلى هذا العهد..."³⁰³.

ويرى ابن الأثير أن الالتزام باللثام لديهم يرجع إلى سببين، أحدهما طبيعي مرتبط بالظروف المناخية المتميزة في الصحراء التي ترتفع فيها درجات الحرارة بشكل كبير نسبيا في فصل الصيف الحار والجاف وتنخفض في فصل الشتاء البارد والجاف، وتكون هذه الظروف المناخية قاهرة خاصة للبدوي الذي يلزم الترحال سواء الصنهاجي أو غيره، وهذا ما كتبه عن ملك صنهاجة فقال "... وكانوا قبل أن يملكوا يتلثمون في الصحراء من الحر والبرد مثلما يفعل العرب..."³⁰⁴، لكن هذا اللثام أصبح عادة لدى صنهاجة متوارثة، أما السبب الثاني لدى ابن الأثير فيقول في حكاية أن حيا من لمتونه باغته العدو أثناء غياب الرجال ولم يكن به سوى النساء والأطفال والشيوخ، وأن أحد الشيوخ أشار إلى النساء بأن يتلثمن قبل أن يصل العدو إليهن وأن يحملن السلاح حتى يظنهن العدو رجالا، فلما اقترب منهن العدو رأى جموعا كثيرة فظنها من المقاتلين.³⁰⁵ فقال بعضهم " هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن، قتال الموت والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن تبعونا قاتلناهم خارجا عن حرمهم..." وأثناء جمع العدو للحيوانات أقبل الرجال مسلحين، فأصبح الأعداء بينهم والنساء المسلحات، فأعمل فيهم الجميع السيوف وقتلوا معظمهم وانهزم الباقي، وكان عدد من قتل من طرف النساء أكثر، فكان ذلك سببا في

³⁰² - الحلل الموشية، مصدر سبق ذكره، ص: 19.

³⁰³ - نفسه، ص: 170.

³⁰⁴ - الحلل الموشية، مصدر سبق ذكره، ص: 76.

³⁰⁵ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج4، مصدر سبق ذكره، ج 9، ص: 76.

ملازمتهم اللثام... فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلزمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب، و لا يزيلونه ليلا ولا نهارا³⁰⁶.

كما يذكر ابن حوقل أيضا في تفسير هذه العادة أنهم كانوا ينظرون إلى الفم كعورة تستحق الستر، وأن سبب ذلك هو أن " ما يخرج منه عندهم أنتن مما يخرج من العورة³⁰⁷، ويضيف البكري أنهم كانوا يسخرون من الأمم التي لا يتلثم رجالها ويشبهون أفواههم بأفواه الذباب³⁰⁸.

ويعتقد بعض الباحثين أن حفاظ الملتئمين على اللثام وارتدائه وتغطية الفم تحفظ الأجساد التي لها صلة بالأرواح الشريرة، بواسطة السحر، ولا ينطبق ذلك على النساء بوصفهن في مأمن منه³⁰⁹.

أما في العهد المرابطي فبدأ رمزا من رموز الترفع والأبهة، فقد أورد الجزولي أن شيوخ أبي إسحاق ياران بن يحيى المسوفي وكان من أكابر المرابطين بالمغرب استشرطوا عليه نزع اللثام عندما اتخذ التصوف مسلكا له في حياته، وأن يجعل بدلا من اللثام طبقا على رأسه ويدخل السوق حتى يراه الناس، ليذهب ما في نفسه من الرياء ففعل ذلك وأصبح في زمرة المتصوفين، ويبدو أن نوعية اللثام تميز المكانة الاجتماعية للفرد الذي يرتديه³¹⁰.

(4) مكانة المرأة

من الصعب معرفة مكانة المرأة في مدينة أزوكي قبل الفترة المرابطية نظرا للغموض الذي يلف تلك الحقبة التاريخية، لكن المصادر التاريخية تحدثت عن مكانة المرأة في صحراء الملتئمين وما حظيت به من التميز عن باقي نساء المناطق الأخرى والقبائل الصنهاجية

³⁰⁶ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج4، مصدر سبق ذكره، ج 9، ص: 76.

³⁰⁷ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 129.

³⁰⁸ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 170.

³⁰⁹ - ابن الشريقي حصري أحمد، ارتسامات ومعطيات حول مدينة مراكش، مرجع سبق ذكره، ص : 24.

³¹⁰ - عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص: 35.

ضمن النسيج الاجتماعي الذي عمر مدينة أزوكي في تلك الفترة، وقد تحدثت المصادر عن بعض صفات نساء الملتمين، وحددت سمة الشجاعة والفروسية لديهن.

حيث قال البكري: "...ولهم في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم وهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف..."³¹¹، وقد ظهرت تلك الصفات عند نسائهم أيضاً³¹².

وقد ذكر ابن حوقل في القرن 10م عن مسوفة فوصفهم بالبسالة والجرأة والفروسية³¹³.

وقد أطلق ابن خلكان صفة الفروسية على عامة نساء صنهاجة³¹⁴.

وهذه المكانة ميزت المرأة الصحراوية عن مثيلاتها في المجتمعات الأخرى، فقد عرفت بحظوتها في مجتمع الملتمين قبل الوجود المرابطي، ولم تقل حظاً عن ذلك في العهد المرابطي، فهي تحصل على حقوقها وما فوق ذلك، فتمت مشاركتها للرجل في تلك البيئة القاسية، فرافقته في الرحيل والرعي والإقامة وشاركت في جميع الميادين

وإذا رجعنا إلى تشكيلة المجتمع الصنهاجي قبل الإسلام نجد أن النظام الأمومي كان سائداً بينهم، ولم يتم القضاء عليه إلا بعد ترسيخ مبادئ الإسلام في المجتمع، يقول النويري: "...وكذلك جميع الملتمين ينفادون لأمر نسائهم ولا يسمون الرجل إلا بأمه، فيقولون ابن فلانة..."³¹⁵ وهذه العادة استمرت في بداية العهد المرابطي، فهذه الألقاب اتخذها بعض قادة المرابطين، مثل أبي عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين الذي كان يطلق عليه لقب "ابن عائشة"، وكابن فاطمة وابن غانية.

³¹¹ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 166.

³¹² - أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق عبد الحميد، حاجيات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1875، ص: 117.

³¹³ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.

³¹⁴ - ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنبأ الزمان، مصدر سبق ذكره، ص: 84.

³¹⁵ - نفسه، ص: 385.

ويذكر أن المرأة كانت متعلمة في الفترة المرابطية وتنهل من مصادر الثقافة العربية الإسلامية إلى أن تجاوزت بعض النساء تلك المرحلة إلى الإبداع والتميز مثل حواء بنت تاشفين وهي زوج القائد سير بن أبي بكر، التي وصفها ابن عذارى بأنها "...أديبة شاعرة جلييلة ماهرة"³¹⁶.

المطلب الثالث: الدور الاقتصادي لمدينة أزوكي

تتمتع الصحراء منذ القدم بموقع استراتيجي جعلها حلقة وصل بين افريقيا الشمالية والجنوبية، ولذلك ظل التبادل التجاري ينشط بين المنطقتين عبر العصور التاريخية، لتجتازها قوافل الشمال محملة بالبضائع كالمح واللبس، وبقية المنتجات المحلية، لتعود محملة ببضائع الجنوب من ذهب وعبيد... إلخ³¹⁷.

وقد ترتب على نشاط هذه الحركة التجارية المتواصلة، إنشاء مراكز تجارية ومدن عديدة عند منطلق القوافل وعلى طول الطرق التجارية الكبرى، اشتهر بعضها بأسواق كبيرة وعامرة نذكر منها على سبيل المثال مدينة سجداسة وآوداغست، وتمكنت الدولة المرابطية من السيطرة على هذه المدن التجارية مبكرا واستفادوا من تدفق الأموال لاستقرار أمر دولتهم، وعملت القيادتان السياسيتان في تنفيذ ذلك الأمر حيث سيطرت الدولة الشمالية على المغرب الأقصى وأجزاء من المغرب الأوسط والأندلس، بالإضافة إلى الشق الجنوبي الذي قام بالسيطرة على المنافذ التجارية بالصحراء وأجزاء هامة من السودان³¹⁸.

وقد نشط المحور الغربي كما فصلنا سابقا، وعرف الطريق الذي تقع عليه مدينة أزوكي بطريق الممتوني.

ويبدو أن الوجود السكاني القديم بمنطقة آدرار ناتج عن خصوبة المنطقة، كما بينه بعض الباحثين، حيث يرى "روبير فرني" (Rober Ferny) في حديثه عن هذه الفترة أن مجموعات بشرية عاشت في جنوب الصحراء، تمارس الزراعة، وتربية الأبقار، وأن هذه المنطقة عرفت

³¹⁶ - ابن عذارى، البيان المغرب، مصدر سبق ذكره، ج 4، ص: 57.

³¹⁷ - محمد المختار/ محمد الهادي، أطروحة الدكتوراه، النضال السياسي الوطني في موريتانيا، جامعة الموصل، بغداد، 1997م، ص: 8 مرقونة.

³¹⁸ - الحبيب الجحاني، المغرب الإسلامي التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، بيروت، دار الطليعة، 1980، ص: 160.

تحسنا مناخيا هاما، وذلك ما كشفت عنه بحوث تكداوست الأثرية، وازدهرت فيها منطقة آدرار.

وقد ذكرت المصادر العربية انتشار النخيل خلال القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين، مما يوحي أنه موجود فيها منذ القدم، ولقد نقل البكري عن محمد بن يوسف الوراق، الذي كتب في القرن العاشر الميلادي قوله: "... وهناك حصن يسمى آزكي حوله نحو عشرين ألف نخلة"³¹⁹ وهذا يعني أن هذا الكم الهائل من النخيل لا يمكن أن يتكاثر بهذه الصورة، إلا إذا كانت المجموعة التي تسكن بالمنطقة متمرسة ولديها تقنيات كفيلة بالمحافظة على هذه الثروة، كما أن تواجد هذه الثروة بهذا الشكل يوحي بقدمها على الأقل إذا ما قيست بفترة نمو الغراسة³²⁰، ودلت البحوث الأثرية في المنطقة على قرب المياه الجوفية من سطح التربة، وهذا ما سهل انتشار النخيل بهذا الشكل، وقد ورد أيضا ذلك عند البكري في وصفه لآزوكي فقال إنها تقع في " جبل منيع كثير الماء والكأ"³²¹.

وقد عرفت هذه الواحات شكلا من الزراعة يتم تحت ظل النخيل وإلى جانبه، وعرف هذا الشكل بالبستنة، وتشتمل هذه المزروعات، على القمح والذرة واللوبيا... إلخ³²².

ويبدو أن الإشارة التي أشار إليها البكري والمتعلقة بكثرة الماء والكأ، كانت وراء خصوبة المراعي التي تساعد ساكنة المنطقة على تنمية ثروتها الحيوانية التي يذكر من بينها البقر والإبل والأغنام...³²³.

كما تكثر الوحوش الكثيرة بمنطقة آدرار، شأنها في ذلك شأن الصحراء في العصر الوسيط، ومن بين هذه الوحوش ما ذكره البكري أيضا في وصفها بهذا الحيوان الذي يدعى

³¹⁹ -البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 167.

³²⁰ - الناني الحسين ، صحراء الملثمين ، مرجع سبق ذكره، ص: 27.

³²¹ -البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 167.

³²² - الناني الحسين، صحراء الملثمين ، مرجع سبق ذكره، ص: 26.

³²³ - نفسه، ص: 27.

"اللمط"³²⁴ فيقول: "... إلى صحراء اللمط التي بين هذه البلاد وبلاد السودان"³²⁵، ويذكر ابن سعيد نقلا عن البكري أن مدينة أزوكي تقع في الجبل وهي حصن ولها نخيل.

ومن هذا الحيوان " اللمط": تعمل درق اللمط الحصينة وتباع في مدينة كوكدام...³²⁶، وهذا ما يوحي بكثرة الحيوان المسمى اللمط فوصفت به الصحراء لكثرة استقراره بها.

وقد ورد ذكر حيوان اللمط في المصادر العربية فوصفه البكري فقال: " ومما في الصحراء حيوان اللمط وهو دابة دون البقر لها قرون دفاق حادة لذكرائها وإناثها، وكلما كبر منها الواحد طال قرنه حتى يكون أطول من أربعة أشبار"³²⁷.

وأثبتت الدراسات التي أجريت على الحيوانات البرية الصحراوية أن هذا الحيوان الذي يطلق عليه اسم اللمط هو المها ومن أسرة الظباء³²⁸. وقد ذكر الإدريسي صناعته في مدينة أزوكي فقال: "... وبهذه المدينة تصنع الدرق اللمطية التي لا شيء أبدع ولا أحسن منها صنعا، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة حملها..."³²⁹.

³²⁴ اللمط: حيوان ينتشر بالصحراء ويكثر بضواحي مدينة آوداغست، يقول الحموي: إنه من جنس الظباء إلا أنه أعظم خلقا أبيض اللون، ويقول الوزال إن اللمط حيوان "المها"، اختصت مدينة نول لمطة بصناعة الدرق بالإضافة إلى مدن أخرى (كآوداغست وأزوكي) عرفت هذا النوع من الصناعة، مثل مدينة كوكدام، وهي مدينة بأقصى المغرب جنوب البحر متاخمة للسودان، وكانت قبائل البربر تتسلح بها في حربها وسلمها، كما استخدمته جيوش المرابطين وذاع صيته إلى أن وصل الأندلس أيام معركة الزلاقة الشهيرة سنة 479هـ/1086م

http://www.ahlahdeeth.com.hg الزيارة: 14h: 16 يوم الجمعة 6-12-2019

دراسة علمية بعنوان: الدرق اللمطية، الأستاذ موسى هوارى، أستاذ تاريخ إسلام المغرب الإسلامي، جامعة الجزائر (2) بوزريعة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

³²⁵ ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، مصدر سبق ذكره، ص: 113.

³²⁶ نفسه.

³²⁷ البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 159.

³²⁸ _Chaleix, Robert. Céramiques découvertes à Tegdaoust Tegdaoust III, Recherches sur Aoudaghost. 1999. P: 245-294.

³²⁹ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 171.

ولعل هذه الجلود كانت تستعمل في حاجة المقاتلين والجيش لأهمية هذا الصنف، فيذكر القزويني صفات الدرق فيقول: "... لا يعمل فيه الحديد أصلا إن ضرب بالسيوف نبت عنه وإن أصابه خدش أو بتر يبيل بالماء ويمسح باليد فتزول عنه"³³⁰.

العملة المستخدمة:

كان نظام المقايضة وسيلة التعامل الشائعة في أرجاء الصحراء، ولا ينفي ذلك وجود بعض العملات المغاربية أو المصرية خلال العصر الوسيط في المراكز التجارية الصحراوية، ولعل تداول تلك القطع النقدية نادرا شيئا ما إلا في المدن التجارية الكبرى، ولقد ذكر البكري في حديثه عن آوداغست التي تعد من أكبر المدن الصحراوية وأهمها في الفترة الوسيطة، فقال عنها "... وسوقها عامرة الدهر كله لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله، وتبايعهم بالتبر وليس عندهم فضة"³³¹.

وعلى هذا الأساس، يمكن أن نعتبر أن دقيق الذهب كان وسيلة للتعامل في أسواق الصحراء، ويمكن أن يطلق عليه عملة لقيامه بوظيفتها، ومن بين المقادير التي يمكن الإشارة إليها في التبادل التجاري خلال القرن 11م، " المثقال " الذي كان وزنه وقتها 72،4 غراما³³².

ويعتبر الذهب من أهم القضايا الاقتصادية التي اهتم بها المرابطون ، فقد استخدم الدينار على نطاق واسع في العملية التجارية خلال عهد الدولة المرابطية³³³.

³³⁰ - القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ، بيروت، 1969، ص: 187.

³³¹ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 158.

³³² - نفسه، ص: 159.

³³³ - رجاء بن حسن المصمودي، " العناصر الاقتصادية والسياسية في السكة الذهبية ، الندوة الدولية بانواكشوط 1996، ترجمة المختار محمد، ص: 127.



صورة رقم 10 : ضريح الأمير أبي بكر بن عمر من الداخل والخارج

زيارة الموقع 2020/06/27 عند الساعة 12 المقالة: قرية المكسم مثنوى الأمير المجاهد أبي بكر بن عامر/ www.elhourria.net

وتوحي العملة الذهبية المتداولة في الفترة المرابطية بالاهتمام الكبير الذي أولته هذه الدولة لثروة الذهب، ويبدو أنهم سيطروا على الثروة الذهبية القادمة من الجنوب عن طريق تحكمهم في المنافذ التجارية الرابطة بين الشمال والجنوب.

و قد عرفت أسواق المدن الصحراوية باستخدامها لأغراض تجارية كما هو الحال في أزوكي والتي سهل طريقها الفتح الإسلامي، ذكره ابن عذاري بقوله: "... إنه لم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولاية خلفاء بني أمية بالمشرق إلا عقبة بن نافع الفهري، ولم يعرف المصامدة غيره وقيل إن أكثرهم قد أسلم طوعا على يده، كما أنه فتح هذا الطريق أمام تجار العرب الذين بدأوا يرتادون هذه المناطق"³³⁵.

بجواره منذ قرون تبركا به وأصبح الأحفاد على نهج سلفهم، وبطالون بإحياء تراث الأمير والاهتمام به من طرف القائمة على ذلك ولم يحظ الموقع ببحوث أثرية تكشف عن أسرارته إلى الآن.

زيارة الموقع 2020/06/27 عند الساعة 12 المقالة: قرية المكسم مثنوى الأمير المجاهد أبي بكر بن عامر/ www.elhourria.net

³³⁵ - ابن عذاري، البيان المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 29.

واتخذوا من مدينة آزوكي قاعدة لهم، وبدأوا يجوبون الصحراء إلى آوداغست، وبها كانوا ينظمون حملات مسلحة يعاونهم فيها المثلثون لجلب الرقيق من بلاد السودان إلى المغرب الأقصى للتجارة به³³⁶.

وبفهم من هذا السياق أن آزوكي كانت سوقا يجلب إليها التجار الرقيق من السودان، كما أن هذه الحملات التجارية يشترك فيها المثلثون وتجار الشمال.

ومما لفت انتباه الدارسين الذين أجروا البحوث الأثرية في المدن الصحراوية، تآثر القطع الفخارية والزجاجية في هذه المدينة³³⁷.

لقد عرفت الصحراء إنتاج المواد الفخارية منذ فترة مبكرة من العصر الوسيط، وقد ميز المختصون في هذا المجال الأنواع المصنوعة محليا والأنواع المصنوعة في الشمال، فهي تنقسم إلى شكلين من الخزفيات، نوع مغطى بطلاء أبيض والآخر مبرنق.

ونتيجة لكثرة هذه الأشكال في الصحراء فإن البعض ذهب إلى القول إنها كانت مهمة في مجال التبادل التجاري، فبالإضافة إلى ثقل وزنها وهشاشتها لا يمكن أن تجلب من الشمال إلا تحت الطلب والريح المغربي، وأنها موجهة إلى فئة ثرية ومتحضرة، ولعلها من مجموعة التجار الشماليين³³⁸ ولهم الرغبة في اقتناء الحوائج المتميزة من حيث الجودة عن الصناعات المحلية.

ومن بين أهم الأدوات الفخارية التي تجلب من الشمال جرار صغير لحفظ المياه وأباريق

وصحون... إلخ، وتوجد بعض هذه الأدوات الفخارية³³⁹ في المتحف الوطني الموريتاني.

³³⁶ - ابن عذاري، البيان المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 29.

³³⁷ - نفسه، ص: 30.

³³⁸ _Vanacker, Claudette, Tegdaoust II : recherché sur Aoudaghost, fouille d'un quartier artisanal, mémoire de l'imrs N 2, imprimerie sopizet, 1979. p :173.

³³⁹ _Chaleix, Robert. Céramiques découvertes à Tegdaoust Tegdaoust III, Recherches sur Aoudaghost. 1999. P: 173.



صورة رقم 11 : صورة توضح بعض الأدوات المستعملة في مدينة أزوكي

المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث والثقافة في انواكشوط: 2019/07/03 (قسم الآثار)

المطلب الرابع: الدور العلمي والفكري

ظل الموقع الجغرافي للصحراء متميزا عن غيره، إذ يلعب دورا هاما في جميع المجالات، وخاصة على مستوى المدن التي ساهمت في تنشيط الحركة التجارية، مما أرغم التجار على الاستقرار داخل تلك المدن، مما تولد عنه احتكاك بين شعوب إفريقيا الشمالية من جهة والجنوبية من جهة أخرى، الشيء الذي نتج عنه انصهار حضاري بارز على المستوى الاقتصادي والعمراني والثقافي، ومن الطبيعي أن يقع التأثير بحكم الموقع بين السودان والدولة المرابطية في الشمال، وهذا ما حصل، فقد عرفت الدولة المرابطية بمكانتها الاقتصادية وإشعاعها الثقافي خلال القرن 5هـ/11م، مما انعكس على مدنها في تعاليم الدين الإسلامي وأداء الواجبات الدينية، التي غلبت على الجانب الأخلاقي، كالالتزام والوفاء وعدم الغش... إلخ، مما ولد تعايشا وامتزاجا في تلك المدن.

ومنذ دخول الإسلام المنطقة بجهود الفاتحين، انتشر الإسلام في الصحراء، عن طريق نقل العلماء والدعاة من شمال إفريقيا، فانتشرت الكتب الدينية واللغوية والتي كانت تمثل المرجعية

الرئيسية للثقافة العربية الإسلامية في المنطقة، إلا أنه يتعذر الوصول إلى تلك النصوص التي كانت تدرس خلال تلك الفترة بالصحراء³⁴⁰، وقد رتب الإمام الحضرمي قاضيا في مدينة أزوكي، و أضاف مهمة التدريس إلى مهمة القضاء التي كلف بها حيث ذكر أنه اتخذ من المسجد مكانا للتدريس ويظهر أن المعارف الدينية المرتبطة بتدريس الفقه المالكي بدأت في القبائل الصحراوية مع المعلم الأول عبد الله بن ياسين، كما ذكرت المصادر أنه باشر التدريس بين اكدالة في مدينة ارتنني³⁴¹، ويبدو أنه ركز على تدريس الكتاب والسنة، منطلقا من البسيط إلى المعقد، فاعتنى بتحفيظهم الآيات القرآنية وكذلك الأحاديث النبوية، حتى ساهم في تكوين علماء من بينهم من اشتهر بالورع والتقوى³⁴².

أما الجيل الثاني من معلمي الصحراء فقد بدأت معارفه تتنوع أكثر، وعلى رأسهم المرادي بمدينة أزوكي بوصفه فقيها، أصوليا، متكلمًا وأديبا أخذت عنه مؤلفات ممن درس لديه في أزوكي قادمين من الأندلس وشمال إفريقيا³⁴³.

وانطلاقا من المعارف المنتشرة في الشمال والأندلس، أي في الجزء الشمالي من دولة المرابطين، وبوصفها هي المراكز العلمية الكبيرة التي احتضنت الإشعاع العلمي، والكتب المتداولة في تلك الفترة، إضافة إلى وجود المرادي القادم من الشمال ومن الأندلس ناهلا من منابع العلمية المنتشرة، لينقل بدوره أهم النصوص المدروسة³⁴⁴، وتقول الروايات المحلية إن المرادي قدم إلى أزوكي ضمن مجموعة من العلماء اصطحبهم أبو بكر بن عمر من اغمات إبان عودته الأخيرة إلى الصحراء، وكلفه بالقضاء واستقر في أزوكي كعاصمة للدولة، ورافق العلماء الجيوش المرابطية القائمة بالفتوحات وكانت مهمتهم تعليم البلاد المفتوحة بقوة السلاح أمور دينهم، ويساعدون السكان الجدد على الإسلام في تعميق معارفهم³⁴⁵.

³⁴⁰ - الناني الحسين، صحراء الملثمين ، مرجع سبق ذكره، ص: 235.

³⁴¹ - ابن عذارى، البيان المغرب، مصدر سبق ذكر، ص: 158.

³⁴² - نفسه.

³⁴³ - أبو الفضل القاضي عياض، الغنمية، مصدر سبق ذكره، ص: 282.

³⁴⁴ - الناني الحسين، صحراء الملثمين ، مرجع سبق ذكره، ص: 136.

³⁴⁵ - محمد امبارك اللمتوني، نظم اللمتوني، مصدر سبق ذكره ، ص: 3.

وهذا ما كتبت عنه المصادر المحلية بالتفصيل، فقد تحدث محمد امبارك اللمتوني عن خمسة فقهاء نسبهم إلى قریش وذكر أنهم كانوا يرافقون جيش الفتح الذي كان يقوده أبو بكر بن عمر في الصحراء والسودان فقال:

لجيش دائما بهم يزدان	خمسة من قریش أركان
رب قني من نزعات النفس	الكنتي والركاز ثم المجلسي
العالم المتقن و النحرير ³⁴⁶	والقزنبی والحضرمي الشهير

ويذكر أيضا رفيق آخر للحضرمي يدعى ابراهيم الأموي، وقيل إن أبا بكر اختاره قاضيا ومعلما في مجلسه يرافق الأمير في حله وترحاله وهو صاحب حل اشكالياته الدينية، كما تقول الروايات المحلية إن ذريته أخذت عنه نفس اللقب وتعرف "بالمجلس" ذكر ابن أبي مدين أن ضريحه في مقبرة قرب مدينة موريتانية تسمى " القوارب"³⁴⁷.

كما تذكر بعض الروايات الشفهية المحلية أن عبد الرحمن بن الغيث أحد العلماء الأربعة هو صاحب القبر المعروف حتى اليوم بتيشيت، قاد جيوش المرابطين التي فتحت واحة تيشيت، وسقط شهيدا في معركة بين جيشه ومشركي الواحة، وبناء على هذا يكون إسلام المنطقة على يد المرابطين، قبل قدوم الشريف عبد المؤمن مؤسس مدينة تيشيت³⁴⁸.

وقد انتشرت بعض الكتب في المنطقة الصحراوية سواء في المدن أو في المناطق البدوية.

وأكد الباحثون أن المرابطين اكتفوا في مجال العقيدة بما كان ماثورا عن السلف الصالح، ولم يعطوا لأصحاب علم الكلام اهتماما، خاصة العقيدة الأشعرية التي انتشرت فيما بعد في

³⁴⁶ - محمد امبارك اللمتوني، نظم اللمتوني، مصدر سبق ذكره ، ص: 3.

³⁴⁷ - محمد ابن أبي مدين الشنقيطي، المنحة، مطبعة العهد الجديد الرباط- 1959، ص: 71.

³⁴⁸ - حماد الله ولد مياي، مدينة تيشيت، رسائل وأشعار، من القرنين الثاني والثالث عشر الهجريين، جمع وتقديم وتحقيق، دار الطبعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص: 23.

المغرب، بل حاربوها³⁴⁹، ويعتقد البعض أن هذا الرأي في المرحلة الأولى لقيام الدولة المرابطية وبالخصوص في عهد ابن ياسين بالذات، لم تكن العقيدة الأشعرية غريبة على المغرب الإسلامي، لأن أبا عمران الفاسي كان تلميذا للباقلاني المؤسس للمدرسة الأشعرية، ويرى بعض الباحثين أنه كان أبرز المغاربة الذين أدخلوا العقيدة الأشعرية إلى إفريقيا والمغرب مع مجموعة أخذت عنه من تلاميذه المغاربة من أمثال عتيق السوسي، وأبي القاسم والسيوري... إلخ³⁵⁰.

ويعتقد أن لأبي زيد القيرواني مؤلفات أخرى بالإضافة إلى "الرسالة" كانت متداولة في الصحراء والمغرب، وقام بدور هام في إدخال العقيدة الأشعرية من القيروان إلى باقي بلاد المغرب، وتعرف له رسالة في الدفاع عن الإمام الأشعري ردا على منتقديه من المعتزلة³⁵¹.

كما كانت مدونة ابن مالك في الفقه هي الأخرى متداولة و هي عبارة عن سماع بن القاسم عن مالك بن أنس، الذي دونه عنه أسد بن الفرات، فأخذها عن هذا سحنون وصححها وأضاف استدراكات ابن القاسم عليها، عندما التقى به³⁵²، حظيت المدونة بالاهتمام الكبير من لدن الفقهاء المالكيين في المغرب الإسلامي فشرحوها وأعدوها لتكون كتابا يدرس في المنطقة³⁵³.

وظلت مدونة الإمام مالك هي المدرسة في الصحراء ومدنها لفترة زمنية إلى أن حل محلها بشكل تدريجي مختصر الشيخ خليل³⁵⁴، كما كانت رسالة محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المتوفى 386هـ/996م متداولة أيضا، وكان صاحبها من شيوخ أبي عمران الفاسي³⁵⁵.

³⁴⁹ - حماد الله السالم، الإطار الفكري للحركة المرابطية، أعمال الندوة الدولية حول المرابطين بانواكشوط (15-17) أبريل 1996.

³⁵⁰ - عبد المجيد عمر النجار، فصول في الفكر الإسلامي في المغرب الإسلامي، بيروت 1992، ص: 28.

³⁵¹ - نفسه.

³⁵² - الخليل النحوي، "بلاد شنقيط المنارة والرباط" عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر) المطبعة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1987، ص: 93.

³⁵³ - عبد العزيز المجدوب، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزييرية، الدار التونسية للنشر - تونس - 1985، ص: 41.

³⁵⁴ - الخليل النحوي، بلاد شنقيط، مرجع سبق ذكره، ص: 93.

³⁵⁵ - نفسه، ص: 199.

أما في مجال الحديث فكان موطأ مالك ابن أنس من أشهر الكتب التي تدرس خلال ذلك التاريخ، علما بأن عليا بن زياد كان أول من أدخل نسخة من الموطأ إلى القيروان وسمعها من مالك³⁵⁶، وجلبه الفارس بن قيس إلى الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل³⁵⁷، وقد درس ابن ياسين الحديث في الصحراء، وقد أجاز فيه العلماء³⁵⁸.

و قد اختصت مدينة أزوكي بميزات وذلك لكونها أصبحت موطنا جديدا للإمام الحضرمي المعروف بالمرادي والذي احتل مكانة بارزة فيها واحتفظت به الذاكرة الشعبية حتى اليوم 1440هـ.

وللحديث عن العقيدة الأشعرية ينبغي أن يكون حضوره بارزا ويذكر له مؤلفات وأنظام ككتابه تنبيه الأنام وغيره³⁵⁹.

وتشكل هذه الشخصية أثرا بالغا في مدينة أزوكي من خلال ما ورد عنها ضمن المصادر والروايات الشفهية في المنطقة، لذلك سنخصص لها صفحات من البحث لما لها من أهمية ضمن الحيز الجغرافي لأزوكي على مدى القرون الماضية.

فمن هو الإمام الحضرمي (المرادي) ؟:

هو أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي³⁶⁰، لا يعرف الكثير عن المراحل الأولى من نشأته، يقول رضوان السيد: إنه نشأ في المشرق أو رحل إليه ودرس فيه، يراعى في ذلك مجموعة من الاعتبارات يذكر منها أنه ينتمي إلى قبيلة مراد العربية من أهل

³⁵⁶ - الخليل النحوي، بلاد شنقيط، مرجع سبق ذكره، ص: 184.

³⁵⁷ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سبق ذكره، ص: 125.

³⁵⁸ - أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوان، كتاب الصلة في أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، 1955، ص: 345.

³⁵⁹ - أبو الفضل القاضي عياض، الغنيمة، ص: 282.

³⁶⁰ - ابن بشكوال، الصلة، مصدر سبق ذكره، ص: 572.

حضر موت اليمنية، تخصص في بعض المعارف منفردا بها في المغرب، خاصة علم الاعتقادات³⁶¹.

لم تتردد المصادر في نسبة الإمام الحضرمي إلى المغرب، وإن كانت أسرته قادمة من حضر موت لا تنفي مغربيته، وقد نسبته المصادر التي تحدثت عنه إلى القيروان³⁶².

نشأ المرادي في موطنه القيروان ودرس فيه ثم قرر كغيره من علماء إفريقية عند اختلال الأوضاع الأمنية منذ سنة 449هـ/1058م بعد خراب القيروان على يد أعراب بني هلال وبني سليم، وخروج الأمير المغربي من القيروان³⁶³، والتوجه إلى الأندلس وكان ينوي بها الاستقرار، إذا حصل على ما يناسبه، وبعد التردد على ملوك الطوائف لم يجد لديهم ما يلبي طموحاته، ولعل الشكوك ساورت أمراء الطوائف في أمره، يقول ابن بسام في حديثه عنه: "... وتقلب أبو بكر بين السهول والحزون تقلب الميل بين أطباق الجفون، وقلت دولة من دول ملوك الطوائف بالأندلس إلا وقد ابتغى إليها وسيلة وأعمل في الهجوم عليها حالا وحيلة، فتنزوي عن مكانه انزواء الحفائف من الرصد وتغص بإحسانه غصص العين بالرمد"³⁶⁴.

تقرب المرادي من أصحاب المكانة العالية في الأندلس ليصل إلى مبتغاه، واستعان بالفقهاء أيضا ومن بينهم مروان بن سراج³⁶⁵، وأبو عبد الرحمن بن ظاهر، وقد احتفظت بعض المصادر بالمدائح التي مدح بها بعضهم، ومنها القصيدة التي مدح بها ابن صادق متوسلا إليه بقاضيه أبي الوليد بن هشام الهلالي، وقد انتهت رحلة المرادي عند التحاقه بالمرابطين في

³⁶¹ - المرادي، الإشارة في تدبير الإمارة، مرجع سبق ذكره، ص: 10-12.

³⁶² - الناني الحسين، صحراء الملتمين ، مرجع سبق ذكره، ص: 228.

³⁶³ - المرادي، الإشارة في تدبير الإمارة، مصدر سبق ذكره، ص: 13.

³⁶⁴ - ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مصدر سبق ذكره، ص: 572.

³⁶⁵ - ابن بشكوال، الصلة، مصدر سبق ذكره، ص: 572.

بداية دولتهم عندما وجد أبا بكر بن عمر في اغمات، فتوجه معه إلى الصحراء قاصدا أزوكي فنصبه قاضيا بعاصمة المرابطين³⁶⁶.

تولى المرادي منصب القضاء ذي الطابع الديني بأزوكي، لكن اهتماماته السياسية ظلت هي الأهم في حياته المعرفية وإنتاجه العلمي، ومن الأمثلة على ذلك تعليمه لأمرأ المرابطين في الصحراء "رسوم الملك" وآدابه المرتبطة به، فألف كتابه المتداول حتى الآن، وهو كتاب "الإشارة في تدبير الإمارة"³⁶⁷.

كان أبو بكر المرادي من علماء الإسلام الكبار، اشتهر بمعرفة علوم أصول الدين وعلم الكلام وفقه اللغة³⁶⁸، وكان شاعرا وأديبا، يقول عنه ابن بسام: "وكان أبو بكر هذا فقيها وشاعرا لسنا، ممن جمع براعة الفقهاء وبراعة الشعراء النبهاء، وتصرف المطبوعين وتكلم باللسنة المجاهدين، أشعارا كصفحات البدو ودواوين كإنتاج البحور..."³⁶⁹، كما قال ابن بشكوال ما نصه: "... كان رجلا نبيا عالما بالفقه وإماما في أصول الدين، وله في ذلك تواليف حسان مفيدة، وكان مع ذلك ذا حظ وافر من البلاغة والفصاحة... له نصوص في علم الاعتقادات والأصول ومشاركة في الأدب وقرض الشعر..."³⁷⁰.

ويعتبر من الرواد في مجال علم الكلام بالمغرب الأقصى، فقد قال عنه التادلي ما نصه: "...وكان المرادي أول من أدخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى..."³⁷¹.

³⁶⁶ - العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكز وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور للمطبعة الملكية، الرباط، 1412/1976، ص: 12.

³⁶⁷ - المرادي، الإشارة في تدبير الإمارة، مصدر سبق ذكره، ص: 15.

³⁶⁸ - ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مصدر سبق ذكره، ص: 365.

³⁶⁹ - نفسه، ص: 364.

³⁷⁰ - ابن بشكوال، الصلة، مصدر سبق ذكره، ص: 572.

³⁷¹ - ابن الزيات، أبو يعقوب بن يحيى التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي يعقوب السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب الرباط 1984، ص: 106.

كان عالما موسوعيا كما وصفه بذلك بعض المؤلفين الذين أعطوه لقب "الإمام أبو بكر المرادي"³⁷².

تفيد المصادر أنه سافر إلى الأندلس بعد أن قضى ما يزيد على ثلاثين سنة بالصحراء قاضيا لآزوكي، وأخذ عنه الكثيرون في رحلته من مشاهير قضاة الأندلس وعلمائها، ومن أشهر من أخذوا عنه: القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد إبراهيم اللخمي، الذي درس عليه أصول الدين، وأبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري المقري و أبو الوليد بن هشام بن أحمد بن هشام الهلالي³⁷³ وأخذ عنه أبو العباس الكتاني كتاب فقه اللغة للثعالبي وغيرهم من علماء الأندلس³⁷⁴.

لم تحتفظ المصادر بأسماء مشاهير تلاميذ الإمام الحضرمي في الصحراء، لكن يبقى أبو الحجاج يوسف بن موسى الضرير السرقسطي أشهر تلامذة المرادي وأكثرهم ارتباطا به وعنه أخذ الكثير³⁷⁵... وكان أبو الحجاج يتردد على المرادي في أزوكي بالصحراء³⁷⁶، ولما توفي شيخه استقر بمراكش وأخذ عنه الكثير من الإجازات في معظم مؤلفاته منها: عياض الأرجوزة الصغرى، والكبرى، وكتاب التجويد وهي كتب في علم الاعتقاد³⁷⁷.

ويبدو أن مؤلفات المرادي تعرضت للتلف ولم يبق متداولاً منها إلا كتاب السياسة المعروف "الإشارة في تدبير الإمارة" وكتاب في علم أصول الدين وهو محفوظ بمكتبة القرويين بفاس

³⁷² - ابن فرحون البعمرى، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1969 ص: 45.

³⁷³ - أبو الفضل القاضي عياض، الغنيمية، مصدر سبق ذكره، ص: 238.

³⁷⁴ - بن بشكوال، الصلة، مصدر سبق ذكره، ص: 573.

³⁷⁵ - أبو الفضل القاضي عياض، الغنيمية، مصدر سبق ذكره، ص: 283.

³⁷⁶ - المرادي، الإشارة في تدبير الإمارة، مرجع سبق ذكره، ص: 282.

³⁷⁷ - أبو الفضل القاضي عياض، الغنيمية، مصدر سبق ذكره، ص: 282.

تحت عنوان " اختصار تنبيه الأنام"³⁷⁸ كما توجد منه نسخ في بعض المكتبات الشخصية بموريتانيا³⁷⁹.

واحتفظت المصادر ببعض القطع الشعرية المختلفة التي نظمها القاضي أبو الفضل عياض أبي الحجاج يوسف الكلبي حيث يقول متحدثا عن هذا الأخير: "... حدثني رحمه الله، قال: أنشدني أبو بكر المرادي بنفسه في الحجة على إثبات القدر"³⁸⁰:

علمي بقبح المعاصي حين أركبها	يقضي بأنني محمول على القدر
كلفتم فعلا ولم أقدر عليه ولم	أكن لأفعل أفعالا بلا قدر
وكان في عدل ربي أن يعذبني	فلم أشاركه في نفع ولا ضرر
إن شاء نعمني أو شاء عذبني	أو شاء صورني في أقبح الصور
يا رب عفوك عن ذنب قضيت به	عدلا علي فهب لي صفح مقتدر ³⁸¹

تميز المرادي بالاعتزاز بالنفس، فخورا بسعة معارفه ومآثره قاسيا على مخالفتي رأيه³⁸².

ومن مآثر شعره أيضا، أنه كان يرافق أحد أمراء المرابطين في سجلماسة، وكان معهما " أبو الأصبع" وهو كاتب ذلك الأمير، فسقط " أبو الأصبع" من فوق دابته، وشج رأسه، ثم سقط المرادي أيضا من أعلى دابته، فقال: "...أبو الأصبع هذا الفقيه أيضا سقط" فقال المرادي أبياتا من بينها هذين البيتين:

فشتان بين وقوعي أنا	وبين وقوعي أبي الأصبع
فذاك سقط يشج الوجوه	وهذا سقط كما ينبغي

³⁷⁸ - المرادي، الإشارة في تدبير الإمارة، مرجع سبق ذكره، ص: 15.

³⁷⁹ - الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة و الرباط، مرجع سبق ذكره، ص: 51.

³⁸⁰ - أبو الفضل القاضي عياض، الغنيمة، مصدر سبق ذكره، ص: 283.

³⁸¹ - نفسه.

³⁸² - ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مصدر سبق ذكره، ص: 283.

وهذه النماذج الشعرية تبرز منزلة المرادي كشاعر وأديب بقدر ما هو فقيه وأصولي ومتكلم وسياسي.

وقد حرص المرادي على تعليم أهل آزوكي وأهل الصحراء ككل بما يناسب مشاغل حياتهم اليومية فنظم أراجيز ومختصرات تساعد على تسهيل فروع الدين وحفظها وتداولها، إضافة إلى المهام التي كلف بها من أمراء المرابطين³⁸³. ظل على هذه الحال بآزوكي صحبة أبي بكر بن عمر اللمتوني³⁸⁴، شاغلا منصب القاضي في عاصمة الدولة المرابطية، وكان يطمح إلى مكانة عبد الله بن ياسين، وآخر أمير مرابطي شغل في عهده المرادي ذلك المنصب، هو محمد بن يحيى بن عمر، الذي توفي المرادي في أيام حكمه سنة 489هـ/1096م.

خلف المرادي أبناء من بعده ذكر من بينهم ابنه أبو الحسن علي المعروف بابن المرادي الذي يبدو أنه ارتحل من الصحراء بعد وفاة والده ليسكن غرناطة، وكان من كبار العلماء بها، وله روايات عن والده أخذها عنه علماء أندلسيون من بينهم أبو خالد وأبو القاسم بن سمحون وغيرهما³⁸⁵.

وقد استفاد سكان مدينة آزوكي وعامة سكان صحراء الملثمين من فكر الإمام الحضرمي، كعالم وقاضٍ في تلك الفترة الزمنية، خاصة وأن هذا الفكر وجد صدًى في هذا المجتمع في القرون اللاحقة إبان ظهور "الإمام المجذوب" الذي تبنى علاقة روحية مع قاضي آزوكي الإمام الحضرمي وشكلت هذه العلاقة نهضة فكرية في مجتمعه لدى بعض الباحثين المحليين³⁸⁶، بحيث بعث الصورة المنهجية السياسية الفكرية والقيمة الثقافية للمشروع

³⁸³ - المرادي، الإشارة في تدبير الإمارة، مصدر سبق ذكره، ص: 15.

³⁸⁴ - ابن الزيات، أبي يعقوب يوسف التادلي، التشوف مصدر سبق ذكره، ص: 106.

³⁸⁵ - العباس بن إبراهيم، الأعلام، مصدر سبق ذكره، ج 4، ص: 12.

³⁸⁶ - السني عبادة، الإمام المجذوب فيلسوف متصوف و مصلح مغمور، موقع الزمان الإخباري، 2013، ص: 3-4، تاريخ الزيارة،

2018/12/02.

المرابطي بمختلف أبعاده، والذي كان الإمام الحضرمي امتدادا له بعد نشأته مع المرشد الأول ابن ياسين في الصحراء إلى أن تجسد مع الأخير في عاصمة المرابطين بآزوكي لتنفيذ أهدافه في الصحراء والسودان.

وهذه العلاقة الروحية التي ذكرنا عن الإمام المجذوب من جهة والإمام الحضرمي من جهة أخرى تستدعي منا بعض التوضيح، حيث تقول الرواية الشفهية المتداولة في المجتمع الأزوكي، أن الإمام المجذوب هو الذي اكتشف قبر الإمام الحضرمي حيث يقول السني عبداوة ما نصه: "... طلب منه أخ في الله زيارة رجل صالح مدفون في تيارت (آزوكي) مجهول المحل فانشرح صدره وسار معه حتى وجدا موضعا فيه اثني عشر حجرا وفيه شجرة فوق في نفسها أن ذلك هو محل قبر ذلك الرجل الصالح، فذبحا عنده شاة، قالوا: فارتفع دمها إلى السماء واهتزت فركنت نفساهما لذلك، ثم إن الإمام المجذوب نام فرأى في نومه صاحب القبر وهو ينفث في صدره ريحا باردة فصار من ذلك الوقت تأخذه الحمى وترم يده حتى تكتب ما يمليه عليه صاحب القبر إلى أن اجتمع ستة أجزاء، تمسك بها البعض وأكرها البعض³⁸⁷.

وقد ورد في كتاب المجذوب ما يدل على أن ضريح الحضرمي كان مزارا ومدرسة لتعليم الفقه والتوحيد، و يروي السني عبداوة عن الإمام المجذوب نقلا عن شيخه ما نصه "...إذا أتيتم البيت ومسجده تذكروا ما قلنا لكم قبل ، من لم يكن من أهله وكذلك العاقل من أهله لا يتخذه متكأ ولا مجلسا، وإذا كان العلم يتلى ويكتب، ولتتحفظ نساؤكم من رجالكم واستعملوا ما عندكم من العلم وتمسكوا بقول شيخكم فليعلم العالم منكم الجاهل والكبير الصغير³⁸⁸.

³⁸⁷ -الإمام المجذوب: هو محمد بن الحسن بن إسحاق بن أحمد بن شمس الدين الأصغر بن محمد فاضل بن شمس الدين الأكبر بن يحيى القلقمي، ولد في أواخر القرن العاشر أو مطلع القرن الحادي عشر وتوفي 1098هـ، أحد أبناء مدينة أزوكي اشتهر عندهم بالولاية والصلاح، كتابه " المنة".

³⁸⁸ - السني عبداوة ، الإمام المجذوب فيلسوف متصوف و مصلح مغمور، مرجع سبق ذكره، ص: 8.

وعلى العموم يكون الإمام الحضرمي ترك في منطقة أزوكي الأثر البالغ في نفوس أهلها تتداوله الروايات والأجيال كل بطريقته، مع أن تراث هذا الإمام لم يعثر عليه باستثناء كتابه " الإشارة في تدبير الإمارة" الموجود في المعهد الموريتاني للبحث العلمي، ونظرا لما تزخر به منطقة أزوكي من تراث علمي متميز خلفه المرابطون في فترتهم، فإنها تحتاج إلى بحوث أثرية متواصلة للكشف عن هذا التراث العلمي الهام.

الفصل الثالث: مدينة آوداغست

المبحث الأول: النشأة والتطور

المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي

أولاً: الموقع الجغرافي

تقع أطلال مدينة آوداغست في منطقة آوكار بالحوض الغربي وعلى بعد 35 كلم إلى الشمال الشرقي من مدينة تامشكط بموريتانيا الحالية،³⁸⁹ وبهذا الموقع أطلال مدينة كبيرة شيدت بوادي النداش، الواقع بهضبة اركيز³⁹⁰. ويعتقد الباحث الفرنسي موني (Mouny)، اعتماداً على نقوش وكتابات ورسوم وقبور غير إسلامية، وجدت في الموقع وحواليه، أن تكداوست (آوداغست) عرفت استقرار جماعات لها صلة بسكان البحر الأبيض المتوسط منذ فترة قديمة قبل الميلاد³⁹¹.

وقد مكنت حفريات أجريت في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين من الكشف عن أجزاء واسعة من هذه المدينة، وقد أكد فريق جان دفيس (Jean.Devisse) الذي أشرف على الحفر وجود مركز تجاري صحراوي قديم استمر نشاطه عموماً من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) حتى القرن التاسع الهجري (الرابع عشر الميلادي) ومكنت هذه الأبحاث من إقامة صلة واضحة بين هذه الآثار العمرانية وما كان بها من نشاط تجاري وصناعي³⁹².

وذكر هذا الفريق أن أطلال المدينة تغطي مساحة تقدر باثني عشر هكتاراً في مكان يحيط به مجرى وادي النداش من جهة واحدة وروافده من جهة أخرى، وقد حظي هذا المركز بالكثير

³⁸⁹ - جماعة من الباحثين، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، الصحراء والساحل، إشراف روبير فيرنى، ترجمة بوبه محمد نافع، ص: 172.

³⁹⁰ - نفسه.

³⁹¹ - Mauny Raymond, Les siècles obscurs de l'Afrique Noire, tome 42, fascicule 2.1972. P : 151.

³⁹² - جماعة من الباحثين، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، الصحراء والساحل، مرجع سبق ذكره ص: 172.

من الأبحاث واستعمل كورشة للتكوين، واستقبل العديد من الأثريين الفرنسيين والأفارقة، الذين قاموا بأعمال الحفر التي مكنت من الوصول إلى نتائج علمية متنوعة³⁹³.

وارتباطا بالأبحاث الأثرية تم إعداد الكثير من الرسائل الجامعية من مختلف المستويات بالإضافة إلى نشر خمسة مجلدات للتعريف بأعمال التنقيب وما توصلت إليه من نتائج، أذكر منها على سبيل الاستدلال: رسالة الماستر من جامعة انواكشوط، 2017-2018 للطالب: الطيب بلاه حمودي، تتحدث عن الأركيولوجيا الموريتانية من خلال أسبار حفريات القرن العشرين (حصيلة قرن من البحث الأثري في موريتانيا) وكذلك البحث الأثري الذي أعده الباحث جان ابولى حول أوداغست و المعنون ب:

Tegdaoust IX :Fouille d'un quartier de Tegdaoust (urbanisme et architecture) paris 1984.

كما كشفت أعمال التنقيب عن الفترات العمرانية المتعاقبة، وكيفية التعامل مع المجال الحضري، بالإضافة إلى الكشف عن بعض الأحياء المتخصصة، في مجالات إنتاجية معينة، مثل صناعة الخزف ومعالجة المعادن كالذهب والنحاس ... إلخ³⁹⁴.



صورة رقم 12 : مدينة أوداغست الأثرية

<https://www.google.com> زيارة الموقع: 2019/07/03م

وكشفت أيضا عن جوانب من الصلات التجارية مع سكان البحر الأبيض المتوسط عموماً، وشمال إفريقيا خصوصاً³⁹⁵.

³⁹³ - جماعة من الباحثين، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، الصحراء والساحل ، مرجع سبق ذكره، ص : 173.

³⁹⁴ - نفسه.

وقد لعب الموقع الهام لمدينة آوداغست دوراً هاماً من الناحية الأمنية، حيث شيدت بين كتلتين جبليتين، كتلة اركيز الصخرية، وجبال أفلة، و لم يكن هذا الموقع اعتبارياً بل كان الهاجس الأمني يشكل الدور الكبير في اختياره³⁹⁶.

كما يبدو أن مؤسسي المدينة اختاروا موقعها الاقتصادي إلى جانب موقعها الأمني، حيث تم اختيار منطقة قادرة على توفير مراعي جيدة ودائمة لأعداد كبيرة من الحيوانات خلال فصل الصيف وفي السنوات العجاف، خاصة الإبل و الأبقار و الأغنام.

علاوة على أن هذا الموقع يوفر حاجيات المدينة من المياه نتيجة الكم الهائل الذي كان يتلقاه من التساقطات المطرية سنوياً، كما كانت المياه المنحدرة من أعالي الجبال أثناء موسم الأمطار تشكل أودية تجري داخل المدينة وحولها، وكان لتلك الأودية دور كبير في تغذية المياه الجوفية في المنطقة، الأمر الذي ساهم في حفر معظم الآبار لدى سكان المدينة، في ساحات منازلهم،³⁹⁷ وقد ساعدت تلك المياه على انتشار النشاط الزراعي في المدينة، فكانت بساتينها متنوعة المزروعات وقد ورد عن البكري نقلاً عن الوراق المتوفى سنة 947م قوله: "... وحولها بساتين النخيل ويزرع فيها النخل بالفؤوس ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون الذرة والمقاثي تجود عندهم، وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة أيضاً، وبها جنان حسناء لها غلة كبيرة وبها آبار عذبة³⁹⁸."

ويعتبر هذا الموقع أهم محطة تجارية تستقبل القادمين من الشمال، فارتبطت المدينة بمختلف المناطق التي كانت تشارك في التجارة عبر الصحراء، بواسطة الطرق التي تصب فيها من كبريات المدن التجارية الموجودة في تلك المناطق³⁹⁹ فكانت آوداغست ترتبط بشكل مباشر

³⁹⁵ - جماعة من الباحثين، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، الصحراء والساحل ، مرجع سبق ذكره، ص : 173 .

³⁹⁶ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص : 97.

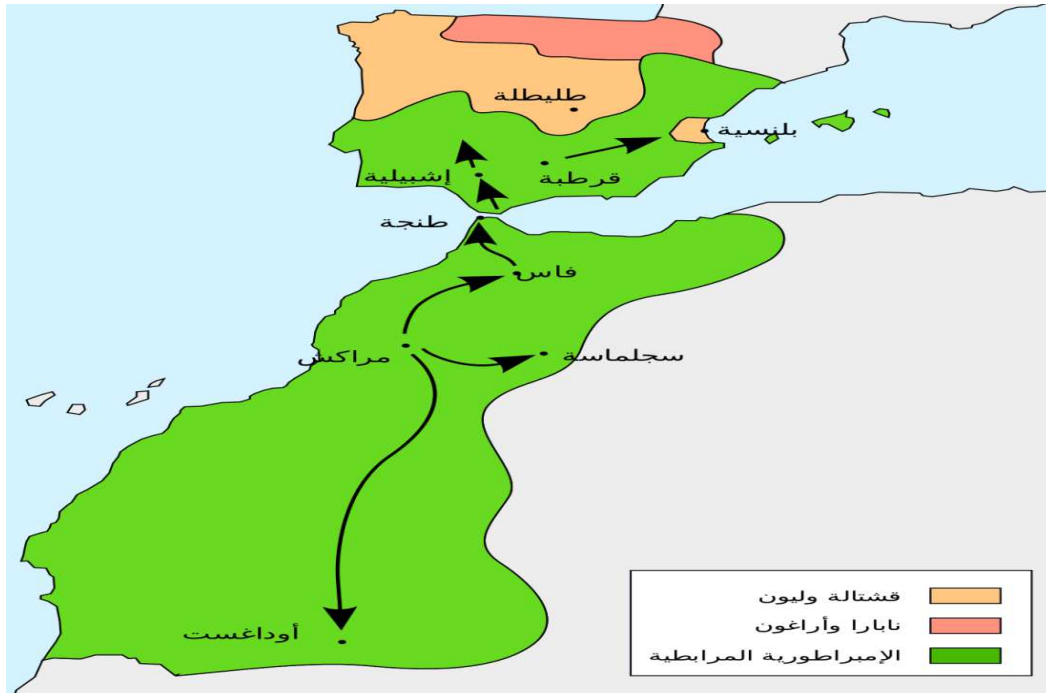
³⁹⁷ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب ، مصدر سبق ذكره، ص:158.

³⁹⁸ -Serge, Robert, Archéologie et Bilad Es-sudan, a L'époque almoravide, Actes du colloque sur le mouvement Almoravide, Nouakchott, 1997. P:48.

³⁹⁹ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص : 65 - ص : 91، وكذلك البكري، مصدر سبق ذكره، ص:156 .

بمنطقتي السوس الأقصى وتافيلالت بواسطة الطريق الرابط بينها مع سجلماسة وعبر تامدلت إلى باقي مدن المغرب والأندلس،⁴⁰⁰ بالإضافة إلى الصلة التي تربطها ببلاد إفريقية والمغرب الأوسط ومن خلالهما بمصر والمشرق العربي بواسطة الطرق الرابطة بالقيروان والتي كانت تقطعها القوافل أثناء عبورها له مائة وعشرة مراحل⁴⁰¹.

وكانت آوداغست ترتبط بأوليل بواسطة طريق يتجه من الغرب إلى الشرق، وبهذا الطريق ترتبط أوليل بنول لمطة وممالك حول نهر السينغال، كما كانت تلك المدينة ترتبط بمختلف المدن السودانية الواقعة إلى الجنوب منها، خاصة الواقعة بنهر النيجر⁴⁰².



خريطة رقم 4 : الطريق الرابط بين آوداغست . مراكش . سجلماسة

<https://www.google.com> زيارة الموقع: 2019/07/03م

⁴⁰⁰ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص : 65 - ص : 91، وكذلك البكري، مصدر سبق ذكره، ص: 156 .

⁴⁰¹ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب ، مصدر سبق ذكره، ص : 168.

⁴⁰² - نفسه.

ثانيا: نشأة مدينة آوداغست

يعتبر بعض الباحثين أن مدينة آوداغست تأسست من طرف سونكيين قادمين من مدينة غانة قبل الحكم الصنهاجي و أنها منحت اسمها لمملكة صنهاجة التي أنشأتها القبائل الصنهاجية في المنطقة، و تسمت المملكة باسمها (آوداغست) ثم أصبحت فيما بعد عاصمة لمملكتهم (حملت اسم العاصمة و اسم المملكة)⁴⁰³، وهي التي توجد أطلالها اليوم في موريتانيا الحالية، في منطقة اركيز بإقليم الحوض الغربي، لم يعرف تاريخ تأسيس هذه المدينة، وقد تحدث عنها الكتاب المسلمون خلال الفترة الوسيطة،⁴⁰⁴ فقد كتب عنها اليعقوبي في أواخر القرن التاسع الميلادي وهو أول من أشار إلى تلك المملكة وعاصمتها بالاسم، فذكر أن ملكها كان يحارب ممالك كثيرة في بلاد السودان، وهذا يوحي بأنها تأسست قبل ذلك لأن مدة الملك تتداول و لا بد وأن تكون له فترة أطول، ولم يقل إنها سلطة ناشئة، ويبدو أنه نقل عن كتاب أقدم من زمنه لأنه لم يزر المنطقة، و ذكر أن ملك أنبية (صنهاجة الصحراء) الذي كان يتخذ من "غسط" عاصمة له، كان على غير ملة الإسلام فقال: "...غسط وهو واد عامر فيه المنازل وفيه ملك لهم لا دين له ولا شريعة يغزو بلاد السودان وممالكهم كثيرة"⁴⁰⁵.

وقد نقل إلينا ابن أبي زرع تاريخ نشأة هذه المملكة فحددها بحكم عبد الرحمن الداخل بالأندلس، حيث يقول: "...وكان أول ملك منهم بالصحراء يتلوتان بن تلاككين الصنهاجي للمتوني ملك بلاد الصحراء بأسرها ... وكان في أيام عبد الرحمن الداخل القائم بالأندلس..."⁴⁰⁶.

⁴⁰³ - الناني الحسين، صحراء المثلثين ، مرجع سبق ذكره، ص: 109.

⁴⁰⁴ - محمد عابد الجاري، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، دار النشر المغربية، ط (4)، الدار البيضاء، 1984، ص: 320.

⁴⁰⁵ - اليعقوبي، البلدان، مصدر سبق ذكره، ص: 111.

⁴⁰⁶ - ابن أبي زرع، روض القرطاس، مصدر سبق ذكره، ص: 120.



صورة رقم 13 : صورة من أطلال مدينة آوداغست

www.google.com تاريخ الزيارة: 2019/08/02

ويرى بعض الباحثين أن مملكة آوداغست قامت في منتصف القرن الثامن الميلادي، بناءً على المصدرين السالفين وأنها تصادف فترة حكم عبد الرحمن ابن هشام المعروف بعبد الرحمن الداخل الذي بدأت ولايته سنة 132هـ / 756م وانتهت عند وفاته سنة 172هـ / 788م⁴⁰⁷.

ويشير إلى ما ذكره البكري في قوله: "...آوداغست وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة ... وهو كان منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل أن تدخل العرب غانه"⁴⁰⁸، ويرى محمود كعت أنها من صنهاجة وأن ملوكها ظلوا يحكمون الشعوب السودانية حتى ثارت عليهم بعد أن تعاقب منهم أربعون ملكاً⁴⁰⁹.

⁴⁰⁷ - الثاني الحسين، صحراء المثلثين، مرجع سبق ذكره، ص: 110.

⁴⁰⁸ - نفسه.

⁴⁰⁹ - محمود كعت التتبعي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش وأكابر الناس، دراسة و تعليق آداما بمبا، مؤسسة الرسالة، 2017، ص:

ويعتبر بعض الباحثين أن الثورة السوننكية على ملوكهم من الصنهاجيين وتأسيسهم لغانة التي عاصمتها "قنب" أو كمبي قد تمت في القرن الثامن الميلادي⁴¹⁰.

ويذكر المؤرخ الموريتاني المختار بن حامدن أن صحراء صنهاجة تبعت للفهريين منذ قيام دولة عبد الرحمن بن حبيب سنة 127هـ / 745م وأن أهلها أسسوا دولة لها نظام حكم مستقل⁴¹¹.

ثالثاً: إشكالية التسمية

لقد تحدث الكتاب العرب المسلمون عن مدينة أوداغست الوسيطة، فقال عنها اليعقوبي في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ما نصه: "... غسط، وهو واد عامر فيه المنازل..."⁴¹²، هذا الوصف مطابق لاسم المدينة باللغة الصنهاجية التي سادت الصحراء وظلت متداولة بين السكان إلى عهد قريب. فقد أورد (Delafosse) ما نقله جان ديفيس (Jean.Devisse) عن المختار بن حامدن من قوله: "إن "غسط" تعني الجنوب، و"إد" تعني "أهل" فتكون كلمة "إدغسط"، في مجملها تعني "أهل الجنوب" فتم تحويلها بشكل بسيط إلى أوداغست⁴¹³، وأن التوافد كان كثيراً إليها من طرف تجار البربر وتجار العرب وأقاموا بها، مما جعل السكان الأصليين أقلية مقارنة مع الوافدين⁴¹⁴، وقد ذكر البكري وابن حوقل أن ملوكها صنهاجيون⁴¹⁵.

المطلب الثاني: أوداغست والبحوث الأثرية

لقد تحدثت سلسلة (تكداوست) الأثرية عن النمو الحضري في موقع المدينة، سواء كان الأمر يتعلق بالمنازل أو على مستوى الأحياء السكنية، وتبين من هذه الدراسات أن أوداغست بدأت

⁴¹⁰ -الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص : 110.

⁴¹¹ -ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، م 6، ص: 371.

⁴¹² - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 65 - 91، وكذلك البكري، مصدر سبق ذكره، ص 156.

⁴¹³ - Delafosse, Maurice. Haut-Sénégal-Niger (Soudan français). Première série. Tome II, L'histoire / préf. de M. le gouverneur Clozel. Paris, 1912.

⁴¹⁴ - Ibid.

⁴¹⁵ - ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 96.

تأخذ طابعها الحضري وإعمارها في القرن العاشر الميلادي، في هذه الفترة أخذ التصميم العام للمنازل شكلاً مستقرًا، إضافة إلى إدخال تعديلات من حين لآخر⁴¹⁶.

وتقول: روبير شالكس (Robert Chalix): "...يظهر من مخطط الحي الشرقي أن للكثير من المنازل مدخلًا واسعاً نسبياً بحيث يحتاج إلى باب ذي مصراعين، يؤدي إلى رواق طويل وضيق كما يوجد سلم عند الزاوية الموائية للشارع، للصعود إلى سطح المنزل، وعند أحد طرفي الرواق يوجد ممر يؤدي إلى الساحة، وبين الرواق والساحة ينتظم عدد من الحجرات السكنية، وفي محيط الساحة تقع الغرف الخاصة بالخدمات، ثم المرحاض.

وقد خلصت الباحثة في نقاشها لهذا المخطط أنه ذو أصل شمالي متوسطي، وذلك في غياب أي إشارة في المصادر المعروفة إلى نمط العمران في المناطق الواقعة في جنوب الصحراء⁴¹⁷.

لقد تميزت فترة الازدهار العمراني في أوداغست بالتركيز على جوانب نخص منها بالذكر، العناية الفائقة بإطار الحياة داخل المنازل، إذ تتوفر أغلبية البيوت على آبار خاصة بها داخل الجدران، ثم احتياط السكان من تأثير السيول وما ينجم عن ذلك من خسائر، فعملت على شق قنوات محكمة تصرف هذه المياه إلى أقرب شارع، أو بتوجيهها إلى صهاريج محفورة لهذا الغرض، والظاهر أنه في حالة وجود ساحة منزل منعزلة، فإن جيران المنزل يسمحون بمرور المصارف عبر منازلهم، حتى تصل إلى الشارع، ويندرج تبليط المنازل بالحجارة أو بالطين في مجهود الصرف السريع للمياه، والحد من تأثير الرطوبة على أرضية المنازل⁴¹⁸.

⁴¹⁶ - جماعة من الباحثين، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، الصحراء والساحل، إشراف: روبير، مصدر سبق ذكره، ص: 172.

⁴¹⁷ - نفسه، ص: 173.

⁴¹⁸ - جماعة من الباحثين، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، الصحراء والساحل، إشراف: روبير، مصدر سبق ذكره، ص: 172.

ويقوم أصحاب المنازل ببناء حاجز حول البئر لوقايتها من التلوث من جراء السيول الموسمية⁴¹⁹، ولم يظهر هذا الاهتمام بمشاكل المياه في المراحل الأولى من العمران التي يبدو أنها تأثرت بالسيول كثيراً، فهل هذا راجع إلى جهل السكان بالتقنيات الملائمة للوسط؟

يرى الباحثون صعوبة في الإجابة على هذا السؤال المطروح، إلا ببعض الاحتمالات التي وردت في تحاليل الباحثين فقد يحتمل أن تكون الفترة الزمنية لهؤلاء السكان شهدت قحطاً أو جفافاً في تهطل الأمطار.



صورة رقم 14 : بئر محفورة في منزل بأوداغست

arabic.sputniknews.com تاريخ الزيارة: 2018/07/06.

وقد يكون غياب المصارف الرئيسية أدى للانحياز المفاجئ للإعمار الثاني في القطاع الذي درسته "كلودث فاناكير" (C)Vanacker)، مع أن أرضية المساكن كانت تعلو قليلاً مستوى الساحة، ثم احتياط السكان بإعداد قنوات للصرف⁴²⁰، ومما يؤكد على درجات التحضر التي بلغت أوداغست وجود بعض الأحياء المتخصصة في العمل الحرفي، مثل ذلك الذي كشفه فريق البحث واعتمدته الباحثة ك. فاناكير (C) Vanacker) واعتمدته الباحثة المذكورة في تصنيفها له كحي حرفي وهناك جملة من الأمور الأخرى تدل على تحضر الحي منها غزارة الآثار الصناعية وتنوعها، وكذلك العثور على مجموعة من الأفران وغيرها من الخزفيات

⁴¹⁹ - جماعة من الباحثين، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، الصحراء والساحل، إشراف: روبير، مصدر سبق ذكره، ص: 172.

⁴²⁰ - نفسه، ص: 178.

المصنوعة محلياً أو المستوردة من جهة أخرى، كل هذه المقتنيات وهذه الصناعات تجعل الطابع الحرفي للحي أمراً وارداً⁴²¹.

أولاً: المستويات العمرانية

لقد أثبتت الأبحاث الأثرية التي قام بها فريق البحث الفرنسي بقيادة عالم الآثار: جان دوفيس (Jean Devisse) ورفيقه الثاني سرج روبير (S.Robert) في أطلال مدينة آوداغست وجود حضارة مطمورة تحت الرمال منذ فترات ليست بالقصيرة وقد مكنت الحفريات من الحصول على نتائج هامة ومتنوعة استطاعوا من خلالها تحديد الفترات العمرانية المتعاقبة من جهة وكيفية التعامل مع المجال الحضري من جهة أخرى.

وقد اثبتوا وجود عدة أحياء متميزة وظيفياً لكل منها مجاله الصناعي الخاص به وعرفوها بالأحياء الصناعية، وكانت تقوم بمعالجة النحاس و صناعة الخزف وتصفية الذهب وصياغته.

ويهمني من المستويات العمرانية ما يلي:

1- العمران الثاني (المرحلة الثانية):

بدأت ملامح الحي الصناعي تظهر خلال مرحلة التعمير هذه حيث بدأ الصناع في استغلال الفضاء الموجود تحت تصرفهم وهو ما يمكن ملاحظته من خلال التخطيط الذي شهده القطاع إبان هذه المرحلة:

يوجد في الوسط: ساحة واسعة (اطلقوا عليها الساحة 1) وأربعة آبار وستة صهاريج وخزان صغير وألواح حجرية كبيرة افترض الباحثون أنها قد تكون استعملت كطاولات عمل كما وجدوا حفرة كان يرمى فيها رماد مواقد الأفران الأربعة المستديرة المصنوعة من الطين المشوي⁴²².

⁴²¹ جماعة من الباحثين، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، الصحراء والساحل، إشراف: روبير، مصدر سبق ذكره، ص: 179.

⁴²² - مجموعة أبحاث أثرية ، تكداوست رقم 11، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، انواكشوط، 1976م، ص: 1.

و في الشمال الشرقي: يوجد أنقاض سكن ذا حجم متواضع بني بلبن من الطين المجفف، وله ساحة (اطلقوا عليها الساحة 2) وهو مقابل ل: (الساحة 1)⁴²³.

في الشمال والشمال الغربي: يوجد مسكن مبني من الحجارة، وهو كالسكن الموجود في الشمال الشرقي ويفتح كذلك على (الساحة 1).

2- العمران الثالث:

يتميز هذا العمران بقيمة التحولات والدقة التي حققت بها البيانات وكذلك استمرار الأنشطة الحرفية وتطورها وليس هناك أي فاصل لهذا العمران عن العمران الثاني كسقوط مواد جدران العمران الثاني ووجود طبقة عقيمة، وما عثر عليه من مواد لا يختلف عما ينسب إلى العمران الثاني إلا في مستوى الجزء العلوي من الطبقة الأثرية.⁴²⁴

وقد أعيد بناء جدران السكن الشرقي (القطاع أ) بالحجارة التي وضعت على الجدران الطينية القديمة، وهو أمر يدعو إلى الاستغراب، لكن هذه الجدران الطينية قد دعمت برفع مستوى الأرض حولها وفي ساحة السكن وبقي المسكن الشمالي الغربي من (القطاع ب) عامراً كله مع هجر جانبه الشمالي.⁴²⁵

أما الساحة المركزية فقد تقلصت مساحتها إثر بناء غرفة جديدة متصلة بالجزء الجنوبي للمسكن كما أن حوضاً مستطيلاً قد أقيم بمقربة من البئر المركزية التي أعيد استعمالها وقد حفر قاعها الطيني لوضع الخزف وحفظ السوائل.⁴²⁶

وقد بنيت هذه الأبنية كلها في غاية الإحكام والدقة بجدران حجرية مقصبة وواجهات مصقولة وأسس صلبة لاستعمال الأبنية القديمة (مثل الصهاريج المردومة) ، وما عثروا عليه من

⁴²³ - مجموعة أبحاث أثرية ، تكدوست رقم II، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، انواكشوط، 1976م، ص: 2.

⁴²⁴ - نفسه.

⁴²⁵ - ريبير فرني، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، مرجع سبق ذكره، ص: 6.

⁴²⁶ - نفسه، ص: 7.

المواد كان بكمية كثيرة، فبالإضافة إلى قطع أثرية متقنة الصنع، وجدوا قطع حلي وصفوها بالدقيقة من النحاس والصدف وقشر بيض النعام وقطع من الزجاج والحجر والصدف غير المخدومة، و تدل هذه الأشياء على استمرار وتطور الأنشطة الحرفية (التي ميزت القطاع وخاصة الصناعة التحويلية الصغيرة وصناعة الحلي، وامتازت عن غيرها بأنها وجدت تامة وهي جنوبي القطاع قرب الشارع ومنها سبعة أسورة متشابهة)⁴²⁷.

و إن كانت هذه الغرف مفتوحة على الشارع – وهذا عسير الإثبات لأن الجدران تهدمت إلى مستوى منخفض جداً – فإنه يمكن اعتبارها حانوتاً صائغاً، يقول فريق البحث الأثري: حبذا لو وقع التأكد من وجود حي مماثل لهذا الحي في الجانب الآخر للشارع كما تدل عليه الأشياء التي عثر عليها على جنبات الشارع فنكون إذ ذاك أمام حي كامل للحرفيين.⁴²⁸

وهذا التطور شمل الأنشطة الحرفية صادف مرحلة التنظيم القصوى للمكان الذي شهد وضع تصميم عمراني حقيقي، إلا أن كل هذا قد توقف فجأةً وتهدمت الأفران وهجر الحي، وكان لوجود أشياء مثل: الصياغة أو الخزفيات الكاملة يدل على هروب السكان أمام هجوم بعض الأعداء ولا يدل هذا على تنقل بصفة منتظمة وسلمية.

يتحدث فريق البحث فيقول: "...ونحن نتوفر على شاهد هام لتحديد تاريخ هذا العمران الثالث، ويتمثل في تاريخ حصلنا عليه عند دراسة عينات فحمية بطريقة الكربون 14 أخذت من داخل أحد الأفران المهدمة، وهذا التاريخ قريب من سنة: 1188م تزيد أو تنقص 122 سنة و يميل فريق البحث أكثر إلى التأويل أن هذا التاريخ يقابل سنة 1063م تقريباً وعلى عين المكان أعطت العينات المدروسة للطبقة الأثرية تواريخ قريبة من 1069م فمن الممكن إذن، والفرن قد هدم في حين أنه يشتعل أن يتبلور تصور عند فريق البحث عن حدوث

⁴²⁷ - مجموعة أبحاث تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص: 7.

⁴²⁸ - نفسه.

هجوم مفاجئ على هذا القطاع سنة 1060م وحينئذ أصبح عندهم من المستساغ التفكير في هجوم المرابطين على آوداغست سنة 1054م الذي رواه البكري⁴²⁹.

هذا الهجوم الذي تبين من خلال البحوث الأثرية - حسب المعطيات التي توصل بها الفريق من خلال الدراسة - بهجوم المرابطين سنة 1054م والسيطرة الكلية على مدينة آوداغست في إطار الحملة الجهادية التي شملت الجزء الشمالي وبلاد السودان رغم أنها بدأت كما يذكر من طرف المصادر بالسيطرة أولاً على مدينة آوداغست في الجنوب ومدينة سجلمااسة في الشمال وهذين القطبين التجاريين يشكلان في تلك الفترة الزمنية من تاريخ المنطقة شرايين متدفقة بالبضائع المتبادلة في الرحلة المعروفة بالتجارة عبر الصحراء، وسنبين ذلك فيما بعد عندما نصل إلى المقام المناسب و يذكر فريق البحث أن الذي أصاب الحي الصناعي للمدينة هو تحطيم استهدف قيمة الحي، ورفاهيته وازدهاره، بقولهم: "ومن هنا يمكن اعتبار هذا التخريب المقصود برهاناً على ما لهذا الحي من قيمة من حيث الأنشطة التي يحتضنها"⁴³⁰ باعتبار أن هذا الحي مركزاً للصناعة المعدنية ويعتبر التاريخ الذي يمكن الاعتماد عليه لتحديد هذه المرحلة العمرانية الثانية الهامة هو الربع الأخير من القرن التاسع إلى 1054م وهذه الفرضيات معقولة لدى البعض ولا يمكن تكذيبها إلا باكتشافات وتحليلات جديدة⁴³¹.

ومن خلال هذه الدراسة العلمية للطبقات الأثرية يتبين أن هذا التحول يمكن أن يكون في النصف الثاني من القرن العاشر، وهو القرن الذي يوحى بتصميم حقيقي يتضمن شوارع ومساكن لها هندسة معمارية محكمة ويمكن أن يكون معاصراً لإقامة زناتة بالمدينة⁴³².

429 - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 161.

430 - مجموعة أبحاث أثرية ، تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص: 9.

431 - ريبير فرني، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، مرجع سبق ذكره، ص: 9.

432 - نفسه، ص: 4.

ثانياً: الاكتشافات

وقد كشفت البحوث الأثرية عن الكثير من المقتنيات التي عثر عليها أثناء عمليات الحفر وقد تمكن المعهد الموريتاني للبحث العلمي من الحفاظ على الكثير منها داخل قاعة المتحف الوطني خاصة عينات من الخزف التي كانت مستعملة في مستلزمات البيت منها: ما يخص المطبخ ومنها ما كان يستعمل للحفاظ على الماء وقد وزعت كمجموعات مجدولة على الأحرف التالية:

1- أنواع الخزف:

-خزفيات ذات قاع محدب:

(بساق أو بغيره غالباً) وأسفل بطنها دائماً محدب، القاع وأعلاه محدب أو مستقيم في تضيق.



صورة رقم 15 : خزفيات ذات قاع محدب

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

-خزفيات بدون أعناق:

وقطرها الأقصى يطابق إما نقطة الالتقاء بين الجانب العلوي والجانب السفلي لبطن الآنية أو حاشيتها، ويميز كل نوع من الحواشي عدد أثبت في الجذاذات التي وضعت مباشرة بعد

العدد المميز لنوع الخزف حاشية بسيطة⁴³³، حاشية خفيفة الميلاق، حاشية مسطحة⁴³⁴، حاشية ذات شفة، حاشية مغلظة.



صورة رقم 16 : خزفيات بدون أعناق

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

- خزفيات ذات أعناق:

هناك عدد من أنواع الخزفيات مختلفة الأعناق حسب نوع الخزف، وقد تم تحديد 14 نوعاً من الأعناق، وهي إما أعناق مستقيمة أو مخروطية مفتوحة أو مخروطية مغلقة أو مخروطية مفتوحة أو مجوفة وحاشيتها تكون إما بسيطة أو مغلقة⁴³⁵.



صورة رقم 17 : خزفيات ذات أعناق

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

⁴³³ - مجموعة أبحاث أثرية ، تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص : 15.

⁴³⁴ نفسه، ص : 16.

⁴³⁵ - ريبير فرني، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، مرجع سبق ذكره، ص: 45.

-خزفيات ذات قاع مسطح:

قد صنفّت هذه الخزفيات حسب شكل جنباتها بالتميز لكل صنف منها باتّباع حروف وعلامات.

وهذا القانون جعل في جذاذات كل نوع منها في سجل وله رقم إحالة مع حرف يرمز إلى نوع العنق أو الجنبات للخزفيات ذا القاع المسطح أو رقم يرمز إلى شكل الطرف بالنسبة للخزفيات التي لا عنق لها وصورة فوتوغرافية ورسم وتعريف وذكر الأبعاد⁴³⁶.

وتوجد هذه الخزفيات بالمتحف الوطني بنواكشوط وبذلك تم التوصل إلى جدولة ثلاثة وعشرين نوعاً من الخزفيات بالإضافة إلى عدد كبير من المجموعات الصغرى التي ظهرت بحكم تنوع الحواشي والأعناق⁴³⁷.

وقد مكنت السلسلة الأولى من دراسة وتطور الأشكال ووضع سلسلة ثانية من الجذاذات تتعلق بتطور الزخارف وعلى ذكر التنوعات لأي زخرف وأنواع الخزفيات التي استعمل فيها والمراحل العمرانية المطابقة لها⁴³⁸.



صورة رقم 18 : خزفيات ذات قاع مسطح

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

⁴³⁶ - مجموعة أبحاث أثرية ، تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص: 16.

⁴³⁷ - نفسه.

⁴³⁸ - نفسه.

- الخزفيات المميزة:

. أوان نصف كروية ذات حافة محززة أو مطبوعة أو بحاشية غليظة.

. أوان نصف كروية ذات شكل مغلق لها حاشية بسيطة معلمة بتحزيزات رقيقة ولها حاشية غليظة. وقد زينت هذه الخزفيات سواء كانت بأطواق ناتئة في أكتافها أو بدونها بزخارف متنوعة منها خاصة زخارف بالمشط المجرور أو بسطور منحنية مصحوبة بزخارف في شكل عوينات صغيرة بصفة جوفاء وكذلك زخارف مرسومة بالأبيض فوق الأطواق الناشئة وبينها⁴³⁹.

- أوان بيضوية ذات حاشية بسيطة مزخرفة بطوقين ناشئين.
- أوان كروية ذات عنق قصيرة وضيقة مجوفة على الجذع.
- أوان مضلعة البطن ذات عنق ضيق طويل.
- أوان مضلعة البطن ذات عنق واسع مستقيم أو مخروطي الجذع قليلاً منغلقة وقد علمت مفاصل هذا النوع بأطواق ناتئة ملونة بالأبيض⁴⁴⁰.



صورة رقم 19 : الخزفيات المميزة

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

⁴³⁹ - ريبير فرني ،الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، مرجع سبق ذكره ، ص: 17.

⁴⁴⁰ - مجموعة أبحاث أثرية ، تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص: 16.

-الخزف المزخرف بالمينا:

تكثر هذه العينات من الخزف ذات الحاشية المخرزة مغطى بطبقة من المينا الأخضر مع وجود تكوينات وخاصة خضراء داكنة وألوان حمراء تميل إلى أنواع من الألوان الأخرى كالرمادي، وقد نسبت هذه الأدوات والقطع إلى المستويات المنسوبة إلى العمريين الثاني والثالث و على مقربة من الأفران.



صورة رقم 20 : الخزف المزخرف بالمينا

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

ثالثا: الأدوات المعدنية وصناعة المعادن واستعمال الأفران

إن عثور الفريق على هذه الأدوات قد مكن من دراسة تحليلية تقدم فرضيات تتعلق باستعمال الأفران والتعرف أكثر على الأنشطة الممارسة بهذا القطاع وعلى اقتصاد المدينة من جهة أخرى⁴⁴¹.

1- الأدوات المكتشفة عن طريق الحفريات:

. خمس بويقتات قطرها صغير جداً (من 3 إلى 3,7 سم) وكذلك ارتفاعها من 1 إلى 3 سم) وقد تكون هذه البويقتات مستعملة لصهر الذهب أو كميات صغيرة من النحاس لصنع

⁴⁴¹ - مجموعة أبحاث أثرية ، تكدواست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص: 18.

الحلي، كما يذكر أن بويقتات من هذا النوع وبأبعاد مختلفة قد اكتشفت في مواقع "مارندت" ونار القديمة⁴⁴².

. أدوات جديدة أو شظايا منها، وهي عديدة جداً ويزيد عددها من التعمير الثاني إلى الرابع وينخفض جداً بعد ذلك ومن بين ما عثروا عليه حثالة معدنية، ويعتقد أنها إزاء المرحلة الأخيرة لصناعة الحديد، مرحلة صناعة الأدوات الدقيقة⁴⁴³.

وبين هذه الأدوات يذكر عدد وافر من المسامير والشظايا والخواتم ورؤوس الأسهم وشفرات السكاكين وقضبان وصفائح صغيرة بها مسامير وأدوات خشبية⁴⁴⁴ وإبرة ومغزل غريب طوله 17 سم وقطره 5 سم.

(أ) أدوات نحاسية أو شظاياها:

ويذكرون أنها موجودة بوفرة خاصة في مدة التعميرين الثاني والثالث، ويقل وجودها في بداية التعمير الرابع وتكاد تنعدم في الخامس، وقد عثر على معظم هذه الأشياء في المنازل وساحتها، وبالنسبة للتعمير الثالث في الحانوت المقام على جانب الشارع⁴⁴⁵.



صورة رقم 21 : قالب لصهر النحاس

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

⁴⁴² - مجموعة أبحاث أثرية ، تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص: 18.

⁴⁴³ - ريبير فرني ، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، مرجع سبق ذكره ، ص: 19.

⁴⁴⁴ - نفسه.

⁴⁴⁵ - نفسه، ص: 20.

ونذكر من بين هذه الأشياء ما يلي:

حلي وأقراط وخاتم في شكل حلقة مسطحة يعلوها زخرف رقيق محززة وجوهرة ولوالب صغيرة وقطعة في شكل جلجل مخروطي الجذع له خمس واجهات، وسوار سطحي غير مغلق عليه زخرف رقيق وسبعة أساور مستديرة مخززة بصورة تجعل أغلب الظن فيها أنها مكونة من حبات منظومة⁴⁴⁶.



صورة رقم 22 : نموذج من الحلي في أوداغست

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

وهناك نشاشيب وصفائح صغيرة بها مسامير وسلسلة صغيرة، أسلاك صغيرة مسطحة الطرفين لا يتجاوز طولها 3 سنتيمترات وقد وجدت أسلاك مشابهة لها بكومبي صالح، ويظن أنها كانت مستعملة كعملة، كما يشار إلى أن النحاس كان مستعملاً أيضاً كلحام للأدوات الحديدية⁴⁴⁷.

ب) السبائك:

⁴⁴⁶ - مجموعة أبحاث أثرية ، تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص: 19.

⁴⁴⁷ - نفسه.

عثر على ست عشرة سبيكة وشظايا سبائك والسبيكتان الكاملتان يبلغ طولهما 2،25 سم و 8،28 سم، وتختلف أطرافها بين المستديرة قليلاً في عرض ودقة طرف والمستديرة والمستقيمة أو الخفيفة التحذب أو المستديرة الدقيقة الطرف، كما أن مقاطع الأدوات مختلفة أيضاً فهي إما بشكل منحرف مع استدارة الواجهة العليا للسبيكة قليلاً أو مستطيلة مع فرضة طويلة في الواجهة العليا.

وقد اكتشفت شظايا قوالب من الطين المشوي، وقد حفرت أماكن عميقة، يبدو أنها كانت مستعملة لصهر المعادن ومقطع السبائك المذابة في هذه القوالب منحرف وبواجهة عليا خفيفة التحذب⁴⁴⁸.

وهذا النوع من السبائك من المؤكد أنه مصنوع بتكداوست، كما تشير الدراسة إلى وجود عينات زجاجية بلون أصفر يميل إلى الاخضرار في أحد القوالب وتشارك إفريقيا في صناعة هذا الزجاج⁴⁴⁹.

(ج) الأفران:

لقد عثر فريق البحث على الكثير من الأفران في تكداوست (أوداغست) لكن هذه الأفران ليست سليمة، فهي بنايات مستديرة يبلغ قطرها متراً وربعاً تقريباً وقد بنيت جنباتها المكونة أساساً من الصوان والتي تقل نسبة الطين فيها، ولها صفائح من الفخار متلاصقة، وقد تكون هذه الأفران لها مشاوي، أما الموقد فلم يكن مجهزاً وإنما كان محفوراً في الرمل، وقد قاموا بعملية تكديس للرمال حتى لا تضيع حرارة الأفران، إضافة إلى اكتشاف حفرة يلقي فيها

⁴⁴⁸ Vanacker, Claudette, Tegdaoust II : recherché sur Aoudaghost, fouille d'un quartier artisanal, mémoire de l'imrs N 2, imprimerie sopizet, tome 1979. P : 139.

⁴⁴⁹ - مجموعة أبحاث أثرية ، تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص:22.

الرماد، في أجزاء قريبة من الجنبات تكون ناتئات مستطيلة فوق الصف الأخير من الصفائح الفخارية، كما توجد قطع القوالب المستعملة لتدوير السبائك في نفس المكان⁴⁵⁰.

يبين فريق البحث من خلال اكتشاف الأفران أنها قد هدمت عمداً وبصورة مفاجئة، فقد رميت الجنبات المكسرة لأحد هذه الأفران، كما رميت فيه صخور كبيرة ومحتركة لا علاقة لها بالفرن، وهذا حدث في نهاية التعمير الثالث، مع هدم الحي الصناعي بأكمله، علماً بأن الصناعات التحويلية الصغيرة لها أنشطة أخرى تعد الأفران من أهم دلائلها⁴⁵¹.

المبحث الثاني: تصميم المدينة

المطلب الأول: العمارة الدينية

أولاً: المسجد:

إنه من الصعب على الدارس لمدينة أوداغست أن يغوص كثيراً في العمارة الدينية (المساجد) ويعود ذلك إلى شح المعلومات حول هذه المعالم، ولم نعثر في هذا المضمرة إلا على ما ورد عند البكري نقلاً عن الوراق في قوله: "...أوداغست مدينة كبيرة آهلة، رملية، يطل عليها جبل كبير موات لا ينبت شيئاً، ، و حولها بساتين النخل (...) وبها آبار عذبة وبها مبانٍ حسنة رفيعة (...) وسكانها أهل إفريقية و برفجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة، وهؤلاء أكثر، وبها نبذ من سائر الأمصار..."⁴⁵². ويبدو من خلال هذا النص الوارد عن البكري أن التركيبة الاجتماعية في تلك الفترة كانت مختلفة، وربما يرجع ذلك إلى الإغراءات التي تحتويها المدينة في فترة النشاط التجاري وقد كشفت البحوث الأثرية عن الأنماط العمرانية للمساجد في تكداوست والتي تشابه النمط المعماري المغربي المكون من بيت للصلاة يقابله صحن بموازية جهة القبلة وتحيط بالصحن أروقة جانبية، وكذا الصومعة التي تنتصب في زاوية الصحن⁴⁵³.

⁴⁵⁰ - مجموعة أبحاث أثرية ، تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص:22.

⁴⁵¹ - أحمد مولود أيده، المدن الوسيطة المندثرة، مرجع سبق ذكره، ص: 78.

⁴⁵² - البكري، البيان المغرب، مصدر سابق، 158.

⁴⁵³ - Serge, Robert, Archéologie et Bilad Es-sudan, idem, P:125.



صورة رقم 23 : أطلال مسجد في أوداغست

تاريخ الزيارة: 2018/07/06 .arabic.sputniknews.com

وينفي الباحث "سرج روبير" (Robert (S)) وهو من أبرز الأساتذة المتخصصين في الفن المعماري الموريتاني، انتشار الأنماط المعمارية الإباضية في المجال الصحراوي في نظرية ساقها "جوزيف شاحت" (Josephe Chahet) يعتقد الأول أن منارة الجامع شيدت على نمط منارة عقبة بن نافع بالقيروان، وضمنها في مقالة ضمن أعمال الندوة الدولية بنواكشوط حول الحركة المرابطية⁴⁵⁴.

ثانيا: الكتابات (دور المحاضر):

لا شك أن الفتح المرابطي الذي تعرضت له مدينة أوداغست كان هدفا لتدريس المذهب السني المالكي بوصفه هدفا أساسيا من أهداف الحركة المرابطية أصلا، ومن هذا

⁴⁵⁴ - سيزون رينار، أعمال الندوة الدولية بنواكشوط حول الحركة المرابطية، مقال، حصيلة وآفاق البحث الأركيولوجي، باريس، ترجمة بوب محمد نافع، المعهد الوطني للبحث العلمي، انواكشوط موريتانيا، 1996، ص: 31.

المنطلق انتشرت المساجد والرباطات لتدريس القرآن إضافة إلى نصوص المذهب المالكي.

و قد تحدث البكري عن ذلك بقوله: "... بها جامع ومساجد كثيرة في جميعها المعلمون للقرآن..." وبفيد النص أن التدريس في تلك الفترة كان يتم في المساجد على غرار ما حدث في الكثير من المدن الإسلامية التي عاصرتها في تلك الفترة.

المطلب الثاني: العمارة السكنية

أولاً: المنازل:

تحدث ابن حوقل في منتصف القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي، فقال عنها: "... آوداغست مدينة لطيفة أشبه بلاد الله بمكة وبمدينة الجزروان في بلد الجرجان من بلاد خراسان، لأنها بين جبلين ذات شعاب..."⁴⁵⁵ وفي النصف الثاني من نفس القرن، كتب عنها المهلب ي يقول: "...آوداغست مدينة بين جبلين في قلب البر..."⁴⁵⁶ ويقول أيضاً ابن حوقل: "... إنها تبعد عن سجلماسة مسافة شهرين..."⁴⁵⁷ ويقول عنها البكري الذي كتب في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي: "...آوداغست مدينة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير..."⁴⁵⁸ ويذكر الإدريسي في القرن الثاني عشر الميلادي: "...مدينة آوداغست صغيرة في شمال غانة، بصحراء قليلة الماء..."⁴⁵⁹ ويقول محمد بن عبد المنعم: "...آوداغست مدينة بين صحراء لمتونه والسودان وهي مدينة عظيمة آهلة لكنها صغيرة، وفي صحرائها ماء قليل، وهي بين جبلين شبه مكة في الصفة ولأهلها جمال منها يعيشون..."⁴⁶⁰، ويقول أيضاً في وصف مباني مدينة آوداغست إنها رفيعة ويتحدث عن

⁴⁵⁵ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 91.

⁴⁵⁶ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سبق ذكره، ص: 277.

⁴⁵⁷ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 91.

⁴⁵⁸ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 158.

⁴⁵⁹ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 73.

⁴⁶⁰ - محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطاء في خبر الأقطار، معجم جغرافي مع فهارس شاملة، د. إحسان/ عباس، ط (1)، 1975 - 1984، وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم، ص: 63.

سكان المدينة، وأنهم استوطنوا في هذه المدينة واستقر بها التجار القادمون من كل بلد لما حوته من خيرات، "...بآوداغست مبان رفيعة وأهلها أخلاط من جميع الأمصار قد استوطنوها لكثرة خيرها ونفاق أسواقها..."⁴⁶¹ وكما وصف البكري مبانيها منتصف القرن الحادي عشر الميلادي فقال عنها: "...وبها مبان حسنة ومنازل رفيعة..."⁴⁶² ويقول أيضاً: "...آوداغست وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير...وهي متقنة المباني حسنة المنازل..."⁴⁶³.

ويرى بعض الباحثين أن عمارة المنازل التي تم التعرف عليها بآوداغست تشبه إلى حد كبير فن العمارة بالأندلس⁴⁶⁴، وليس من الغريب أن تجار الأندلس كانوا يتوافدون على هذه المدينة وأن البكري تلقى المعلومات من أحدهم من بلاد الصحراء عن تلك المدينة، وكذلك بلاد السودان. ولذلك يعتقد أنهم بنوا منازلهم على ما عهدوه في بلادهم الأصلية، فنشروا بذلك الفن المعماري الأنديلسي بالمنطقة⁴⁶⁵.

كما اعتقد بعض الباحثين أن الأفنية المسورة، هي عادة رافقت البدو الذين كانوا يحتاجون في حياتهم اليومية إلى قطعة من الأرض يستغلونها إلى جانب الخيمة أو العريش الذي كان مكوناً معها من قطعة واحدة، وهذا لا ينفي ضرورة وجود فناء، خاصة في فترة الصيف وارتفاع درجات الحرارة خاصة في شهر مايو إلى نهاية سبتمبر من كل سنة، لأن هذا المناخ القاسي في الفترة الصيفية لا يمكن أن تكون فيه المنازل مريحة، خاصة أنها شيدت بالحجارة التي ترتفع درجات الحرارة فيها بشكل سريع، وتحفظ بها لمدة طويلة نسبياً، مما يجعل اللجوء إلى الفناء أثناء الليل أمراً مريحاً لسكان تلك المنازل.

⁴⁶¹ - محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطاء في خبر الأقطار، مصدر سبق ذكره، ص: 64.

⁴⁶² - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 158.

⁴⁶³ - نفسه.

⁴⁶⁴ - Polet, Jean. "Tegdagoust IV fouille d'UN quartier de Tegdaoust urbanisme et architecture", Paris, 1984. P: 162.

⁴⁶⁵ - الناني الحسين، صحراء المثلثين، مرجع سبق ذكره، ص: 210.

وقد حرص مصممو المنازل على أن تكون نوافذها وأبوابها ومواقع المطابخ في أفنييتها متكيفة مع ظروف المنطقة المناخية السائدة وخاصة الرياح، كما أن اختيار الأبواب الخارجية والنوافذ يتم بطريقة لا تسمح للمارة بالتعرف على من بداخل المنزل أو فنائه المسور عن طريق اختلاس النظر.

وخصص سكان مدينة أوداغست المنطقة الشرقية من مدينتهم للبساتين حيث عثر على بقايا قنوات وخزانات يعتقد أنها كانت مستخدمة في ري المزروعات المتنوعة المعروفة في بساتين أوداغست، وتحدثت عنها المصادر الوسيطة⁴⁶⁶.

لقد استمدت هذه الحاضرة قيمتها وأهميتها بين الحواضر التجارية الإسلامية بحكم الموقع على تخوم بلاد السودان، حيث استولت على الملح المجلوب من "منجم أوليل" قبل الوصول إلى مدينة غانة بجانبها وتتم مقايضته بالذهب السوداني، إضافة إلى امتيازها بالثروة الحيوانية الهائلة، التي من ضمنها الإبل وهي في تلك الفترة أفضل وسائل النقل المتاحة، وأكبرها قيمة تجارية⁴⁶⁷.

وقد تطابقت نتائج الحفريات مع ما تحدث عنه البكري و وصفه لتلك المباني الحسنة، ويعكس ذلك منازل ذات شكل مستطيل بصحنها المفتوح، أي ما يشبه العمارة الإسلامية المغربية في تلك الفترة، وهذا ما يستجيب لمعطيات المناخ الصحراوي، إذ أثبتت الدراسات أن المنزل ذا الصحن المفتوح منظم لدرجات الحرارة⁴⁶⁸ وقد اعتمد التجار في تشييد المنازل على استخدام الحجارة وهذه الحجارة قوية الحساسية في البيئة المستخدمة فيها إذ تحتضن الكثير من درجات الحرارة والبرودة، ولعل استخدام هؤلاء التجار لها جهلاً منهم بطبيعة المنطقة، و تأثيراً لما تمليه العمارة السودانية مثل الكسوة التي تلبسها الحجارة أثناء البناء وتكون هذه الكسوة من

⁴⁶⁶ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص : 210.

⁴⁶⁷ - أحمد مولود أيد، المدن الوسيطة المنذرة، مرجع سبق ذكره، ص: 80.

⁴⁶⁸ - Polet, Jean. Tegdagoust . op.cit, P :234.

الطين،⁴⁶⁹ كما اعتنى سكان المنطقة بوسائل الراحة والبذخ وينعكس ذلك على أعتاب المنازل المرتفعة وقنوات صرف المياه⁴⁷⁰.



صورة رقم 24 : أطلال من مدينة آوداغست

تاريخ الزيارة: 2018/07/06 .arabic.sputniknews.com

ثانيا: الطرق و الممرات

لقد حال اندثار المدينة دون معرفة شبكة الطرق التي كانت قائمة إبان الفترة الوسيطة ولم تقم البحوث الأثرية بالكشف عن ذلك، وقد ظهرت بعض الطرق والممرات الضيقة في آوداغست⁴⁷¹ وهذه الممرات الضيقة تتشابه في تلك الفترة مع التقاليد المدنية في المدن العربية والإسلامية.

ثالثا: السوق

تعد مدينة آوداغست أحد القطبين الاقتصاديين اللذين اعتمدت عليهما التجارة عبر الصحراء (آوداغست سجماسة) وهذا ما فسره التحرك المرابطي في مرحلته الأولى، ولم تف البحوث

⁴⁶⁹ - دفيس (ج)، الفن الإسلامي وتأثيرات...م/س، ص: 551.

⁴⁷⁰ - نفسه، ص: 395.

⁴⁷¹ - الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، ص: 250.

الأثرية بالكشف عن مكنونها رغم أنها أماطت اللثام عن الكثير من المقتنيات ولم تحدد أماكن لتلك الأسواق التي كانت تتم بها المبادلات التجارية القائمة آنذاك.

ولم تكن المعالم كبيرة الحجم بهذه المدينة التي يقدر "رمون" (Remond) عدد سكانها بخمسة إلى ستة آلاف نسمة، ويتزايد هذا العدد كلما توافدت القوافل التي تحط رحالها في الساحة التي كشفت عنها الحفريات وسط النسيج العمراني، و التي تعتبر مكانا واسعا يستخدم لتفريغ حمولة القوافل وإناخة الجمال وحمل السلع والتزويد باحتياجات القوافل⁴⁷²، وهي بذلك تمثل السوق المركزية في المدينة.

رابعاً: مواد البناء:

(1) الحجارة:

لقد ساعد موقع مدينة أوداغست المحصور بين جبلين على وفرة الحجارة و استخدامها في عملية البناء بكثرة، و يرى بعض الباحثين أن بداية استخدامها يعود إلى مجيئ جاليات التجار المغاربة و استيطانهم المدينة، و قد استخدم الطين لكسوتها تأثراً بالنمط العمراني السوداني⁴⁷³.

(2) الطين

لقد استخدمت هذه المادة (الطين) كرابط بين الجدران الحجرية واستخدم الطين المجفف كطلاء في أوداغست، كما شيدت جدران في الفترة الثانية من لبن الطين فوق صرح من الحجارة.

وهذه الفترة الثانية هي التي شهدت بداية العمران ويطغى على هذا المستوى استخدام اللبن الطيني لتشييد الجدران، مع وجود قاعدة حجرية لبعضها وينطبق الوضع المزدوج للجدران على الجدار الذي حفرتة الباحثة روبير (Robert) مع ارتفاع نسبة الحجارة، وهذا العنصر هو الطين

⁴⁷²– 19. Mauny, Raymond. Tableau Géographique, op.cit, P : 482.

⁴⁷³– أحمد مولود أيده، المدن الصحراوية الوسيطة ، مرجع سبق ذكره، ص: 88

الممزوج بالرمل، كما شيدت مباني من اللبن المجفف وقد تزوج مع الحجارة في القطاع الذي كشفت عنه الباحثة: ك. فانكير (C) Vanacker⁴⁷⁴.

وبالإضافة إلى استخدامات الطين على شكل قوالب مجففة فإنه يستخدم كروابط للجدران الحجرية وكذلك للتبليط، ففي بعض الغرف التي تم التعرف عليها في آوداغست كانت الأرضية مدعمة بالطين المشوي وكذلك بعض الأماكن في ساحات المنازل⁴⁷⁵.

كما استخدم في إعداد قنوات خاصة لصرف مياه الأمطار عند المنازل، ويستخدم لطلاء الجدران سواء كانت حجرية أم من أصل طيني أو مختلطة، وقد تميزت آوداغست باستخدام الطين بشكل واسع في مختلف مراحل إعمارها⁴⁷⁶.

وقد تميزت الفترة العمرانية ما بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين باستخدام كثير للحجارة عند بناء الجدران التي شيد معظمها على مباني طينية.

(3) الخشب

لا يغيب عن أي بال أن المواد النباتية وخاصة الأخشاب استخدمت في صناعة الأبواب والسقوف، وقد تبين ضيق في الغرف إذ لا يزيد عرضها غالباً عن مترين ونصف وذلك ناتج عن ندرة الأخشاب الطويلة في تلك الفترة وفي البيئة المحيطة بالمواقع، ذلك أن المنطقة الصحراوية الساحلية لم تسعف بالأخشاب الطويلة، وإن كان النخيل قد استخدم كجزء أساسي من السقف، كما يتضح من شواهد فحمية في كل من أزوكي وكذلك آوداغست، مع أن الواحة التي تشكل الحزام الأخضر لهذه الأخيرة قد انقرضت ولم يعد لها أثر في المنطقة⁴⁷⁷.

⁴⁷⁴– Vanacker, Claudette, Tegdaoust II : Recherches sur Aoudaghost, fouille d'un quartier artisanal, mémoire de l'imrs N 2, imprimerie sopizet, 1979. P : 139.

⁴⁷⁵– Denise, Robert and Serge Robert. op.cit, P : 77.

⁴⁷⁶– Vanacker, Claudette, idem, P : 23.

⁴⁷⁷– جماعة من الباحثين، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، ، الصحراء والساحل ، مرجع سبق ذكره، ص: 181.

(4) تقنيات البناء

حظيت آوداغست بالجزء الأكبر من الأبحاث الأثرية التي نالتها مواقع المدن المستهدفة في هذا البحث، فقد شملت أحياء سكنية كاملة مما ساعد على إعطاء نظرة أشمل حول طرق البناء، والظاهر أن هذه الطرق خضعت لعوامل عدة منها الطبيعة الطبوغرافية للمجال العمراني، وكذلك تأثير المياه الموسمية الجارفة إضافة إلى ما وصلت إليه الخبرات المحلية من تطورات⁴⁷⁸ وتوافد البنائين إلى المنطقة من مناطق مجاورة، دعت هذه الأسباب إلى إدخال تقنيات تعتمد على الحجارة أكثر من الطين مما يفيد في مواجهة السيول المدمرة⁴⁷⁹.

اتخذ البنائون عدة حلول لتدعيم المباني ويتضح ذلك من العناية الكبيرة التي أولوها لإنجاز أسس قوية، وتختلف الأمور باختلاف طبيعة التربة إضافة إلى المهارات العمرانية المكتسبة، ففي الأماكن غير المستوية تغلبوا على مشكلة الانحدار بإعداد توطئة واسعة من الحجارة مع الردم كقاعدة تدعم الاستقرار للجدران، أما على مستوى الأماكن الرملية فإن زيادة مساحة التماس بين الجدران تكون من قوة الضغط على الأرض، وقد استعملوا لذلك الأسس العريضة لبعض الجدران التي كشف عنها الباحث : ج. بولي (Jean Pauly)، ويصل سمك الجدران أحياناً إلى 100 سم بدلاً من 50 إلى 70 سم المعتادة، وتقع الأساسات على مستوى أرضية الإعمار على العموم⁴⁸⁰.

ويستخدم الطين المشوي كقاعدة في بعض الأماكن بالإضافة إلى القاعدة المعدة سواء على شكل ألواح صخرية أو عن طريق أسس عميقة، وأظهرت دراسة التعاقب العمراني لآوداغست تزواجاً بين اللبن الطيني المجفف والحجارة عند إعادة الإعمار، وقد دأب البنائون في كل مرحلة على تشييد الجدران فوق بقايا أخرى⁴⁸¹.

⁴⁷⁸ - جماعة من الباحثين، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، الصحراء والساحل، مرجع سبق ذكره، ص: 181، ص: 182.

⁴⁷⁹ - Serge, Robert, « Archéologie et Bilad Es-sudan », idem, P : 125.

⁴⁸⁰ - Polet, Jean. Tegdagoust IV. op.cit, P : 213.

⁴⁸¹ - جماعة من الباحثين، الصحراء والساحل، مرجع سبق ذكره، ص: 181.

وكانت حجارة البناء معدة نسبياً في بعض الحالات كما يظهر من الرغبة في صقل الوجه الداخلي لهذه الحجارة، ومن الملاحظ قيام جدران حجرية فوق قاعدة طينية والعكس كذلك⁴⁸² إلا أن تفضيل الحجارة يلاحظ في المراحل التاريخية الأكثر ازدهاراً للمدينة.

لقد لوحظ أن مشاكل الأسقف أدت إلى ضيق الغرف وهو ما ذكرته سابقاً، لأن الأخشاب لم تكن بالطول الكافي لتغطية مساحات عريضة، وعلى هذا الأساس شيدت منازل بأوداغست من طرف البنائين متفاوتة في الطول والعرض، فمنها ما لا يزيد على مترين ونصف، وفي بعض الحالات النادرة صممت غرف فسيحة اعتمدت في تثبيت السقف على مجموعة من الأعمدة وسط الجدران الأربعة، و حول عمود مركزي مربع القاطع، يقصر المسافة التي يتحتم أن تمتد عليها العارضات الخشبية ويزيد من قوة التحمل لديها⁴⁸³.

(5) التبليط والطلاء:

وجدت في بعض الأماكن طلاء طيني أحمر اللون وتارة طلاء طيني أبيض اللون، ويستعمل هذا الطلاء في حماية الجدران من تأثير العوامل الطبيعية الخارجية، ويزيد في تماسك الجدران ويستخدم في العناية الجمالية للمنزل⁴⁸⁴.

وزيادة على تبليط أرضية بعض الغرف بقوالب من الطين المجفف أو الحجارة المهذبة بغية تحسين الحياة داخل المنزل فإن الوقاية من تأثير السيول على الجدران استدعت تغطية أجزاء أكثر تعرضاً للمياه، بصفائح صخرية ملصقة على الجدران بواسطة طبقة سميكة من الطين⁴⁸⁵.

⁴⁸²– Devisse, Jean, Stratigraphie et architecture, idem, P : 213.

⁴⁸³–Polet, Jean. Tegdagoust IV. op.cit, P : 235.

⁴⁸⁴–Ibid, P : 214.

⁴⁸⁵– Devisse, Jean. La question d'Audagust, op.cit, P : 122.

خامساً: المقابر

لا يخفى على الدارس ما لهذه المدينة من أهمية تاريخية ويتجلى ذلك في الكم الهائل من المعلومات التي كشفت عنها البحوث الأثرية في موقع آوداغست، وعلى الرغم من ذلك ما زالت هناك حاجة إلى مواصلة الأثريين لأبحاثهم لحل الإشكالات القائمة خاصة في الفترة التي كانت تحت الحكم المرابطي بالإضافة إلى التراكمت على مستوى المدينة الميتة (المقابر) وما تزخر به من معلومات تفيد الدارس رغم انتشارها في محيط المدينة الأثرية.

المبحث الثالث: أدوار المدينة

المطلب الأول: الدور السياسي

كانت السلطة السياسية في مدينة آوداغست تقوم على النظام القبلي، شأنها في ذلك شأن كل القبائل البدوية، خاصة العربية منها، وقد تحدث ابن خلدون عن السلط السياسية في المجتمعات القبلية فقال: "...إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة، فلا بد من عصبية أقوى من جميعها تغلبها وتستمتعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى، وإلا وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع".⁴⁸⁶ وهذا النظام القبلي هو ما ينطبق بشكله على القبائل الصنهاجية التي كانت تسكن الصحراء وكل قبيلة لها رئيسها ولها عصبية قوية إلا أن ذلك لم يمنع المصادر أن تتفق حول هذه النقطة المتمثلة في كون الملك انفرد في قبيلة لمتونه دون منازع وأنها تمكنت من السيطرة على القبائل الأخرى كأكدالة ومسوفة... إلخ"⁴⁸⁷.

ويأخذ هذا النظام السياسي النظام الملكي الوراثي الذي ينتقل بواسطة السلطة من الأب إلى الابن، كما يعتمد هذا الحكم على سياسة تقليدية تعتمد على الوجهاء⁴⁸⁸.

⁴⁸⁶ - ابن خلدون، المقدمة، مرجع سبق ذكره، ص: 174.

⁴⁸⁷ - نفسه.

⁴⁸⁸ - نفسه.

وكانت قوة هذا الملك محصورة في قوة رؤساء القبائل والاعتماد عليهم، وقد تنهار السلطة عند تمرد أعضاء المجلس وعدم رضاهم بما يمارسه الملك، وقد حدث هذا التمرد في سنة 306هـ / 918م على تميم بن الأثير عن طريق ثورة شيوخ صنهاجة فقتلوه ولم يجتمعوا على أحد بعده... مدة مائة وعشرين سنة،⁴⁸⁹ كما تعلو مراكز شيوخ القبائل إذا كانت القبيلة قوية مثل ما ذكره ابن حوقل عن شيخ قبيلة مسوفة في القرن العاشر الميلادي فأطلقت عليه لقب "الملك" مع أن هذا الشيخ خاضع لسلطة أوداغست آنذاك، فقال عنه: "...ولهم ملك تكبره صنهاجة وسائر أهل تلك الديار لأنهم يملكون تلك الطريق..."⁴⁹⁰ وكان رؤساء تلك القبائل يدير كل واحد منهم شؤون قبيلته وتقديم الرأي والمشورة للملك، ويقوم كل واحد بتعبئة القبيلة في الوقت المناسب خاصة أيام الحروب، لأن الغزو يمثل مصدراً هاماً من مداخل المملكة⁴⁹¹.

وقد أكدت المصادر التاريخية أن ملوك أوداغست ينتمون جميعاً إلى قبيلة لمتونه وينحدرون من أسرة ورتنطق،⁴⁹² ثم استقرت في بيت تلاكاكين، فاعتبره ابن خلدون أول ملك لصنهاجة الصحراء.⁴⁹³ حتى استمرت في ذريته إلى سقوط ملك أوداغست وتولى أحفاده قيادة الدولة المرابطية فيما بعد، يذكر ابن أبي زرع أن أول ملوك الصنهاجيين هو يتلوتان فكتب يقول: "...وأول ملك منهم بالصحراء يتلوتان بن تلاكاكين الصنهاجي اللمتوني..."⁴⁹⁴.

وتتفق المصادر على قوة الدولة الصنهاجية في حكمه واتساع نفوذها في عهده، ولد سنة 142هـ / 759م وتوفي 222هـ / 837م وعمره ناهز 80 سنة، طالت فترة حكمه 65 سنة

⁴⁸⁹ - ابن أبي زرع، روض القرطاس، مصدر سبق ذكره، ص: 120.

⁴⁹⁰ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 120.

⁴⁹¹ - ابن أبي زرع، روض القرطاس، مصدر سبق ذكره، ص: 120.

⁴⁹² - ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، م6، ص: 373.

⁴⁹³ - نفسه.

⁴⁹⁴ - ابن أبي زرع، روض القرطاس، مصدر سبق ذكره، ص: 371.

وذلك يرجع إلى أن حكمه بدأ وهو في ريعان شبابه، تجاوز ملكه الصحراء ليشمل مناطق سودانية وذلك بفضل قوة جيشه الذي كان يقدر بمائة ألف مقاتل⁴⁹⁵.

ولكن هذه المملكة لم تدم طويلاً بعد ملك تينيروتان سنة 931م حيث سقطت في أواخر القرن العاشر الميلادي خلال تاريخ غير محدد، وقد ذكر البكري أنه كان رأس السلطة فيقول: "وكان صاحب آوداغست في عشر الخمسين وثلاثمائة تينيروتان بن ويسنو بن نزار، رجل من صنهاجة وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان كلهم يؤدي إليه الجزية وله جيش قوامه مائة ألف نجيب...⁴⁹⁶.

ويجزم بعض الباحثين أن المملكة سقطت في عهده لأنه لا يعلم هل هي سقطت في عهد هذا الملك أم في عهد خلفه، ولا تتفق المصادر أيضاً على الأسباب التي جعلت المملكة تنهار، فابن أبي زرع ذكر أنها سقطت في عهد الملك تميم بن الأثير فقال عنه: "...فقتلوه وافترق أمرهم... مدة مائة وعشرين سنة"⁴⁹⁷ ولم يحدد ابن حوقل تاريخ سقوط هذه المملكة واقتصر على ذكر أن هذا السقوط يعود إلى غزو خارجي استهدف العاصمة وذكر أن الملك تمكن من صدّه...⁴⁹⁸ وهذا الحديث يظهر فيه تناقض.

⁴⁹⁵ - ابن أبي زرع، روض القرطاس، مصدر سبق ذكره، ص: 120.

⁴⁹⁶ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 159.

⁴⁹⁷ - ابن أبي زرع، روض القرطاس، مصدر سبق ذكره، ص: 121.

⁴⁹⁸ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.



صورة رقم 25 : صورة مشنقة مصممة في سكن ملك آوداغست

arabic.sputniknews.com تاريخ الزيارة: 2018/07/06.

إلا أن بعض الباحثين يرى أن سقوط مملكة آوداغست راجع إلى عوامل داخلية من أبرزها الصراعات الداخلية التي عاشتها المنطقة خصوصاً في الفترة التي يكون فيها نفوذ السلطة ضعيفاً بحكم ملك عاجز عن السيطرة في فترته مما يستفحل فيه أمر هذه الصراعات، وتضعف إبان الفترات القوية من طرف السلطة الحاكمة الشيء الذي أدى إلى قوة الصراعات وخمودها لتظل قائمة⁴⁹⁹، وتتمثل تلك الصراعات في اصطدام القبائل الصنهاجية على الإمكانات الاقتصادية بالمنطقة والمتمثلة أيضاً في السيطرة على المصالح والطرق التجارية والمراعي.⁵⁰⁰

⁴⁹⁹ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 120.

⁵⁰⁰ - النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مصطفى أبو ضيف احمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص: 377.

وبالإضافة إلى الدور الذي لعبته أوداغست في المجال التجاري الذي أدى إلى التنافس مع القوات الخارجية، حيث يشند هذا الصراع إلى أن يبلغ درجة المواجهة المسلحة، ليحاول كل طرف الانفراد بالنفوذ في المنطقة والسيطرة على المنافذ التجارية، رغم أن الدويلات في إفريقيا الشمالية كانت تركز على العصبية الزناتية المشهورة بالخلافات العميقة والتاريخية مع قبائل صنهاجة وكذلك مملكة غانة التي تركز على العصبية السوننكية وديانتها الوثنية، هذا التنافس ميز العلاقات الخارجية لمملكة أوداغست في معظم تاريخها مما لعب دوراً أساسياً في زعزعة النظام، وتكوين سلطة في أواخر القرن العاشر الميلادي قادرة على مواجهة التحديات الخارجية وتقاوم الصراعات الداخلية فأدى ذلك إلى سقوطها على يد التحالف الغاني الزناتي⁵⁰¹.

لينتقل الأمر من أيدي الصنهاجيين من طور المملكة إلى نمط جديد يمهد لقيام دولة (المرابطين) بعدما تشكّنت أمر الصنهاجيين في الصحراء وافترقت كلمتهم ليتوحدوا من جديد لقيام مشروع يتمثل في الحركة المرابطية في الصحراء .

فكيف كان ذلك؟

وهل الأرضية الصحراوية ساعدت بدورها على قيام الحركة المرابطية لتصل إلى مشروعها؟ أم أن قبيلة لمتونه بقيت تتطلع إلى الرجوع إلى مكانتها القيادية؟

و إذا كانت مدينة أوداغست عاصمة مركزية للقبائل الصنهاجية التي سكنتها منذ القدم، فإن موقعها الاستراتيجي جعل منها مكان استقرار للجاليات التجارية القادمة من مختلف البلاد والذي انتقلت إليهم السلطة من السكان الأصليين بمساعدة من مملكة غانه الوثنية، مما أدى إلى لفت الأنظار عند الوهلة الأولى من التحرك الجهادي المرابطي في المدينة، والذي استهدف الحكم الوثني، إضافة إلى السيطرة على المنافذ الاقتصادية (أوداغست وسجلماسة).

⁵⁰¹ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 375.

ويرى الباحثون أن الجاليات التجارية الزناتية والعربية لها الفضل في نشر الإسلام في المدينة، وهو ما يبرر وجود المساجد فيها، حيث ذكر البكري نقلا عن الوراق ما نصه: "...بها جامع و مساجد كثيرة أهلة في جميعها بمعلمي القرآن..."⁵⁰².

يفيد هذا النص وجود الإسلام في مدينة آوداغست رغم الحكم الوثني الغاني المسيطر، والذي كان من أولويات الغزو المرابطي الذي استهدف المدينة للقضاء على الوثنية واجتثاث المذهب الإباضية وإحلال المذهب المالكي مكانها، وقد تجسد ذلك في دخول المرابطين المدينة سنة 1059م، الذي أشارت إليه البحوث الأثرية ومثله بالهجوم العنيف الذي تعرض له الحي الصناعي بالمدينة و قد تمت السيطرة المرابطية على مدينة آوداغست وعملت على تثبيت قواعد المذهب المالكي بالمدينة وعاشت بعد ذلك تحت ظل الحكم المرابطي يتواصل عطاؤها المعرفي في نشر المذهب المالكي حسب الباحثين، وقد تغيرت عقليات سكان المدينة تحت ظل الحكم الجديد على جميع المستويات ، الاقتصادي والاجتماعي والديني، حيث ازدهر التبادل التجاري نظر لما تتمتع به الطرق التجارية وحلت السلطة المرابطية محل السلطة الغانية، وانتشر المذهب المالكي بالربوع الصحراوي على نطاق واسع، سواء في البوادي أو في الحواضر، ودرس القرآن وكتب المذهب المالكي في المساجد والرباطات.

وقد قصرت معاول الأثريين عمّا خلفته الدولة المرابطية من شواهد مادية في المدينة إبان الفترة التي سيطرت عليها، ولعل ذلك يعود إلى عدم اهتمامهم بما قدمته الدولة أثناء حكمها، لكن الدارس والمتمعن لا يخفى عليه أن المدينة (آوداغست) واصلت دورها من نظيراتها الشمالية والجنوبية، مما يؤكد أهميتها الاقتصادية والسياسية والدينية تحت الحكم المرابطي إلى أفول نجمه.

⁵⁰² - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص:158.

المطلب الثاني: الدور الاجتماعي

ذكرت المصادر التاريخية أن آوداغست كانت عاصمة لقبائل صنهاجة⁵⁰³ المنتشرة في المجال الصحراوي منذ القدم وقد استقطبت فئات مختلفة من سكان المنطقة والتجار الوافدين مكونة بذلك تشكيلة اجتماعية خاصة .

أولاً: سكان المدينة (فئات المجتمع)

1- السادة

كانوا يعرفون في اللغة الصنهاجية بـ"إيماجيقان" أو أمازيغ ويتمثل دور هؤلاء في القيادتين السياسية والعسكرية، وتتشكل من مجالس القبائل وتحديد مواقفها من القضايا العامة أو المطروحة، تجنباً للرجوع إلى العامة ويحتكرون الأنشطة التي ترفع من مستوى الدخل، كما يقومون بخدمات هامة على مستوى القبائل⁵⁰⁴.

ومن الثروات التي كان يعتمد عليها الأسياد، ما ينتجه العبيد من عملهم فقد ذكر القزويني أن عبيد مسوفة كانوا يقومون باستخراج الملح وبيعه من مملحة تغازة ويحتفظون بالأرباح لأسيادهم⁵⁰⁵.

ومن بين الخدمات التي يقدمها الأسياد للقبيلة توفير الحماية للأفراد والذود عنهم بالسلاح في وجه الأعداء.

2- فئة العامة:

تتكون هذه الفئة من الأحرار الخاضعين لحماية السادة، ولا تتمتع بالوصول إلى الجد الأعلى للقبيلة نسباً، فهذا الانتماء المزعوم يكون بواسطة الاحتماء والتحالف والانضواء تحت لواء

⁵⁰³ - الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مصدر سبق ذكره، ص : 3.

⁵⁰⁴ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مصدر سبق ذكره، ص: 122.

⁵⁰⁵ - القزويني، آثار البلاد و أخبار العباد، مصدر سبق ذكره، ص: 26.

القبيلة نظراً لكوارث حلت بهذه المجموعات جعلتها تحتمي بالأخرى، مثل الهزيمة وما إلى ذلك من المسائل التي تحتم طلب الحماية⁵⁰⁶.

وتستخدم هذه الفئة في نشاطات عضلية بمدينة آوداغست، كالعمل في البساتين ورعي الحيوانات والقيام بالمهام المتعلقة بقطعان الحيوانات التي ترعى بضواحي المدينة لملّاكها من أصحاب الأموال في المدينة، وأخذ المياه من الآبار بطريقة تناسب الفترة الزمنية الوسيطة، أي بالدلاء التي هي عبارة عن آلة يؤخذ بها الماء من البئر، وهذا يختص بالآبار ذات العمق الطويل، ولما تغير وضع آوداغست أواخر القرن العاشر الميلادي - وبعد انهيار ملك صنهاجة والسيطرة الغانية وبمساعدة التجار القائمين بالعملية التجارية بمدينة آوداغست تحول المجتمع الصنهاجي إلى خليط من السكان معظمهم من زناتة الذين دخلوا بعد الاحتلال العسكري للمدينة من طرف مملكة غانه، وأصبحت التشكيلة الاجتماعية في هذه الفترة خليطاً من مختلف القبائل إذ يقول البكري: "...وسكانها أهل إفريقية وبرقجانة ونفوسة وكواثة وزناتة ونفزاوة و نبدٌ من سائر الأمصار..."⁵⁰⁷.

يوحي هذا النص بالاستقرار الاجتماعي والاقتصادي الذي شهدته المدينة إبان القرن العاشر الميلادي وأدى إلى التنوع في الثقافات والعادات والتقاليد، الشيء الذي أدى إلى احتكاك وامتزاج داخل المدينة بين شعوب مختلفة⁵⁰⁸ وقد أدى ذلك أيضاً إلى تداخل لغوي نتج عنه انتشار بعض اللهجات، وبدخول الإسلام المنطقة دخلت اللغة العربية بوصفها هي الحاضرة الأساسية للعلوم الشرعية إلى جانب بعض اللهجات المحلية المستعملة في تلك المدينة، وقد

⁵⁰⁶ - زكرياء محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد و أخبار العباد، دار صادر بيروت، 1969، ص: 26.

⁵⁰⁷ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 158.

⁵⁰⁸ - نفسه.

تحدث بعض الباحثين المحليين عن موضوع اللهجات التي نتجت عن التعايش داخل المدن، وذكر من بينها لهجة "أزير" الأكثر انتشاراً والتي طغت لفترة طويلة على المدن الوسيطة⁵⁰⁹.

ورغم احتضان مدينة آوداغست لدولة إسلامية عزيزة الجانب⁵¹⁰ بقيت وظيفتها ثانوية عند بعض الباحثين، ويرى البعض الآخر أهمية هذه المدينة من الناحية الثقافية، وأن لها دوراً كبيراً في نشر الإسلام والثقافة العربية⁵¹¹.

3- فئة الصناع:

تميزت فئة الصناع في مدينة آوداغست بصناعاتها المتطورة، وقد كشفت عنها البحوث الأثرية وحددت أماكن وجودها ضمن حي صناعي، وقد أشار البكري في حديثه عن تصفية الذهب في آوداغست وعزله عن الشوائب وتحويله إلى سبائك⁵¹² وكانت هذه المجموعة من الصناع تمثل فئة شبه مغلقة، وقد وفرت هذه الفئة الاكتفاء الذاتي لمدينة آوداغست⁵¹³.

4- فئة الرقيق:

يرى بعض الباحثين⁵¹⁴ أن هذه الفئة لم يتعرض أفرادها للبيع ولا للشراء، لكنها تنتقل ملكيتها من فرد إلى آخر عن طريق الإرث، وكانت هذه المجموعة تتوفر على الملكية الخاصة عكس العبيد، وتتمثل الواجبات المنوطة بهذه المجموعة بالدفاع عن الأراضي وشرف القبيلة تحت إمرة السادة، كما كانت تقوم بحاجيات القبيلة من الأعمال اليدوية، ويقدم أفرادها الإتاوات

⁵⁰⁹ - عبد الودود / عبد الله، مقال، ديناميكيات تشكل الهوية في فضاء بلاد شنقيط - أزواد، مجلة مختبر الدراسات والبحوث التاريخية حول موريتانيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مصادر كراسات التاريخ الموريتاني، العدد (6) 2017، ص: 87-88.

⁵¹⁰ - الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، مرجع سبق ذكره، ص: 67.

⁵¹¹ - عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين، مرجع سبق ذكره، ص: 157.

⁵¹² - Mauny, Raymond. Tableau Géographique, op.cit. P : 6.

⁵¹³ - سعدون عباس نصر عبد الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985، ص: 15 و 16.

⁵¹⁴ - نفسه.

للأسياد ولا يقتصر تقسيم الهرم السكاني للقبيلة على هاتين الفئتين فقط، بل هناك فئات أخرى في النسيج الاجتماعي.

ويتأثر المحيط الصحراوي بموجات من الجفاف وما يطرحه من صعوبات تؤدي إلى تغيير موازين القبائل المستقرة، فتقوم عمليات نهب وسطو على الثروات الحيوانية واستخدام العنف وتنظيم الغارات على بعض المناطق، وتشارك في ذلك فئات من القبيلة، كما تتعرض الحواضر الصحراوية للغارات، وبالمقابل تقوم بعض القبائل برد تلك الهجمات الموجهة وتشارك فيها القوة العسكرية النشطة في المحيط القبلي.⁵¹⁵

وقد تنتمي إلى القبيلة أسر وأفراد قد انحطت مكانتهم الاجتماعية وهم من نفس القبيلة نتيجة لأخطاء ارتكبوها أو ارتكبها أجدادهم، وتعتبر هذه الأخطاء مخلة بأعراف الجماعة، وتصبح هذه الفئة تؤدي المغارم إلى فئة السادة وظلت هذه الحالة سائدة إلى مجيء المرابطين، فقاموا بدعوة الحق ورد المظالم.⁵¹⁶

5- فئة العبيد:

وتعتبر فئة العبيد في مدينة آوداغست من أكثر الفئات عدداً فقد ذكرت بعض المصادر وفرة هذه الفئة إلى درجة أن الرجل الواحد في المدينة يمتلك ألف خادم، وهذه الفئة يحصل عليها سكان المدينة من الممالك السودانية عن طريق الحروب⁵¹⁷، وقد شهدت المدينة ازدهارا اقتصاديا كبيرا نتيجة العلاقات التجارية التي ربطتها مع سجماسة، حيث ذكر ابن حوقل أنه رأى صكا بيد أحد التجار في سجماسة يطالب به تاجرا من آوداغست⁵¹⁸ ويحمل الصك

⁵¹⁵ - الناني الحسين، صحراء الملتمين، مرجع سبق ذكره، ص: 86.

⁵¹⁶ - سيد محمد الخليفة الكنتي، الرسالة القلاوية، مصدر سبق ذكره، ص: 61.

⁵¹⁷ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 168.

⁵¹⁸ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.

مبلغ اثنين وأربعين ألف دينار، وهذا الرقم الخيالي إن دل على شيء إنما يدل على ثراء هاتين المدينتين⁵¹⁹.

ثانياً: العادات والتقاليد بأوداغست

كانت مدينة أوداغست ضمن محيطها الصحراوي تعتمد على ثروات حيوانية هائلة قد ذكرناها سلفاً، مما يفرض عليها الاعتماد على تلك الثروة في نظامها الغذائي كباقي سكان الصحراء من البدو والحضر، وقد ذكر شيخ الربوة أن رحل الصحراء يعتمدون على مواشيهم بقوله: "...وأموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن..."⁵²⁰ فهذا الغذاء قد يستفيد منه سكان مدينة أوداغست في نمطهم الغذائي لأن سكان المدينة في إحدى فتراتهما كانوا قبائل صنهاجة المعتمدين على ثروتهم الحيوانية كمصدر أكل وشرب، ويعتمدون على صوفها لينسجوا منه الخيام للسكن والثياب واللباس، وقد احتكت المدن الصحراوية بالشمال وجنوب السودان، حيث انتقل النمط الغذائي بحكم التأثير والاستفادة من المواد المستوردة إضافة إلى الخبرات التي انتقلت واستقرت نتيجة الظرفية الاقتصادية المغربية للمدينة لموقعها الرابط ببلاد السودان من جهة وبلاد الإسلام الأخرى، وظلت الوظيفة الثقافية للمدينة قائمة بدليل ما ذكره البكري بقوله: "...وبها جامع ومساجد كثيرة أهلة، في جميعها المعلمون للقرآن..."⁵²¹ فهذه الصفة التي أطلقت عليها تبرز الوظيفة الثقافية التي ذكرها الكاتب مما يوحي أن هؤلاء السكان كانوا مهتمين بقراءة القرآن وما يترتب على تلك القراءة من تدريس الأمور الشرعية الأخرى، ونقلت السيطرة المرابطية على المدينة الأهداف التي دخلوا من أجلها والمتمثلة في اجتثاث المذاهب الموجودة في المدينة قبلهم بالإضافة إلى بقايا الوثنية، وهذا هو الهدف الذي قامت من أجله الحركة المرابطية التي نشرت الإسلام السني في المنطقة ككل، إضافة إلى توغل المرابطين في الشمال والجنوب.

⁵¹⁹ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.

⁵²⁰ - شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مصدر سبق ذكره، ص: 316.

⁵²¹ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 167.

1 - أنماط المعيشة:

كان بعض أولئك التجار الذين استقروا ينقلون نمط حياتهم من مواطنهم الأصلية بما في ذلك عاداتهم الغذائية، فيظل هذا النظام المدني مرتكزاً على الحبوب والفواكه المزروعة في المدينة، ولا أدل على ذلك من الشهادات التي أوردتها هذه المصادر العربية الوسيطة، إذ يقول البكري نقلاً عن الوراق (النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي) عن مدينة آوداغست يقول: "... وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة أيضاً، وبها جنان حناء لها غلة كبيرة وبها آبار عذبة..."⁵²².

فهذه الزراعة التي ذكر فيها بعض الفواكه دليل على إدخال بعض الأنماط الغذائية المستجلبة عن طريق الخبرات الوافدة من الشمال خاصة أن دولة المرابطين في الصحراء نعمت بمجال مدني أرحب وأوسع الشيء الذي يؤدي إلى انتقال الخبرة من الشمال إلى الجنوب عن طريق التجار القادمين من الشمال والمستقرين بآوداغست، في الوقت الذي انتقلت فيه خبرات بلاد السودان أيضاً إلى مدينة آوداغست بحكم الموقع الذي تتمتع به المدينة وأنها قريبة من مدينة كومبي صالح عاصمة غانه.

وهذا ما ذكره البكري في انتقال الخبرة من اليد العاملة في مجال الطبخ إلى مدينة آوداغست حيث يقول: "...وبها سودانيات طبابخات محسنات ... يحسنن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزيات والقطائف وأصناف الحلويات وغير ذلك..."⁵²³.

وهذا ما يوضح أن المدينة كانت تعتمد على أنماط متحضرة من الأطعمة الطيبة المختلفة تنقل إليها من المناطق المجاورة لتستقر بها وتندرج ضمن نمطها الغذائي، وأن أنواع الحلويات لا يتم استخدامها إلا في المدن المكتظة بالسكان القادمين من المدن التي وصلت في تلك المرحلة إلى تحسين أنماط المعيشة بالترف والراحة والتحضر، ولعل هذا ما حصل

⁵²² - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره. ص: 167.

⁵²³ - نفسه، ص: 158.

في هذه المدينة التي استقطبت الكثير من التجار المالكين لثروات هائلة من ذهب وحيوانات وخدم... إلخ.

وقد اشترك أهل البدو والمدن في بعض الأطعمة خاصة المنتجات الحيوانية، حيث كشفت البحوث الأثرية بقايا عظام الأغنام والأبقار بكميات كبيرة مما اعتبر دليلا على كثرة استهلاك لحومها، أما الإبل فأقل كمية من ذلك، كما لوحظ أيضا كميات من بقايا عظام الطيور مما يدل على استهلاكها هي الأخرى⁵²⁴.

2- أنواع الملابس:

تحدثنا عن الملابس بالصحراء عموما وعن ما أوردته المصادر التاريخية في شأنها، وبحكم موقع مدينة أوداغست بقلب الصحراء، فإن نوعية الملابس المذكورة هي نفسها المستعملة من طرف سكانها، وكانت الملابس تجلب إلى المدينة عن طريق المبادلات التجارية من شمال إفريقيا والأندلس، حيث يقول البكري ما نصه: "...ويتجهز إلى أوداغست بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمرة والزرقة..."⁵²⁵، وكانت هذه الملابس تصل إلى بقية بلاد الصحراء وكان جنود المرابطين يلبسون في زيهم الرسمي ملابس إضافية مثل الغفارة القرمزية وعمامة ذات ذؤابة⁵²⁶ ".

3- مكانة المرأة:

وصفت المرأة في محيطها الصحراوي بأوصاف عديدة ميزتها عن باقي النساء في محيطها الإقليمي وقد تحدثت عن ذلك بمدينة أزوكي ولم تكن المرأة بمدينة أوداغست استثناء عن محيطها الصحراوي، بل عرفت الاهتمام من طرف ذويها والحرص على جمالها المتمثل

⁵²⁴ - Mauny, Raymond. Tableau Géographique, op.cit op. cit. P :163.

⁵²⁵ - ibid P:164.

⁵²⁶ - حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس - عصر المرابطين والموحدين، ط.1- مكتبة الخانجي بمصر، 1980، ص: 438.

عندهم في تلك الفترة في تسمينها، وتعتبر السمينة لديهم رمزا للثراء وارتفاع المكانة داخل المجتمع.

وقد نقل البكري عن الوراق في حديثه عنهن ما نصه: "... قال محمد بن يوسف أخبرني أبو بكر أحمد بن خلوq الفاسي شيخ من أهل الحج والخير قال أخبرني أبو رستم النفوسي وكان من تجار آوداغست أنه رأى منهن امرأة راقدة على جنبها وكذلك يفعلن في أكثر حالهن إشفاقا من الجلوس على أردافهن، ورأى ولدها طفلا يلعبها فيدخل تحت خصرها..."⁵²⁷.

وهذا الوصف الذي وصفها به المصدر هو السمينة أو البدانة المعروفة في هذا المجتمع بأنها ضرب من ضروب الجمال وهو عادة متوارثة عندهم وأن هذه المرأة لا بد وأن تكون سمينة، ومقياس أيضا للغنى وكثرة المال لدى ذوبها.

كما وصف البكري نساء صنهاجة الصحراء في تببين جمالهن تمشيا مع مقاييس الجمال في تلك الفترة فقال عنهن: "... جوار حسان الوجوه بين الألوان، مثنيات القدود لا تتكسر لهن نهود لطاف الخصور ضخام الأكتاف..."⁵²⁸ وتشير بعض المصادر إلى زواج التجار المغاربة بالنساء من المدن التجارية⁵²⁹.

المطلب الثالث: الدور الاقتصادي

لقد لعبت مدينة آوداغست دوراً تجارياً هاماً أثناء تجارة القوافل فقد تركز بها المنتج الصحراوي، وارتبطت بالمدن الشمالية ومدن غرب إفريقيا كما كانت المدينة ترتبط بأوليل بواسطة طريق من الغرب إلى الشرق، وهذا الطريق يربطها بشبكات الطرق بالمنطقة من

⁵²⁷ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 159.

⁵²⁸ - الونشريسي، المعيار المغرب و الجامع المغرب، ج5، خرجه جماعة فقهاء باشراف الدكتور محمد حاجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية، 1981 ص: 116.

⁵²⁹ - نفسه.

أوليل إلى نول لمطة وممالك حوض نهر السنغال، كما كانت ترتبط أيضاً بمختلف المدن السودانية الواقعة إلى الجنوب منها والواقعة أيضاً على حوض النيجر⁵³⁰.

كما كانت أسواق مدينة آوداغست هي الملتقى التجاري ونقطة التمرکز للمواد التجارية التي تنتجها بلاد الصحراء بشكل عام، وأهم هذه المواد في تلك الفترة الملح، والعنبر، والجلود، والصمغ العربي،⁵³¹ وقد رفع من مستواها التجاري الموقع الجغرافي الذي حظيت به حيث اعتبرت نقطة الالتقاء بين المغرب وبلاد السودان، فأصبحت بذلك مكان لتجميع مواد المنطقتين، الشيء الذي جعل منها مستقراً للجاليات التجارية من السودان والعرب والبربر... إلخ⁵³².

وقد ذكر ابن حوقل أن تجار الكوفة والبصرة وبغداد كانوا يتجهون إليها انطلاقاً من سجلماسة، وكان من بينهم الأثرياء نتيجة لنشاطهم التجاري⁵³³ وكما أشارت المصادر إلى كثرة القيروانيين بها⁵³⁴ ويذكر البكري في قوله: "...وكان يسكن هذه المدينة زناته مع العرب وكانوا متباغضين متدابرين وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير كان للرجل منهم ألف خادم وأكثر،⁵³⁵ وإذا كان معظم سكان آوداغست ظلوا حتى منتصف القرن (الرابع الهجري/العاشر الميلادي) من الصنهاجيين، فسرعان ما تغير هذا الوضع في أواخر القرن العاشر الميلادي بعد انهيار دولة الصنهاجيين في الصحراء بكاملها والتي كانت هذه المدينة عاصمة لهم، وأصبحت ساكنة هذه المدينة من زناته وإفريقية وتم ذلك بعد استيلاء غانة عليها عسكرياً⁵³⁶.

⁵³⁰ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص : 176.

⁵³¹ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 65.

⁵³² - الونشريسي، المعيار المغرب، مصدر سبق ذكره، ج 5، ص: 116.

⁵³³ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ... ص: 65.

⁵³⁴ - الونشريسي، المعيار المغرب، مصدر سبق ذكره، ج 5، ص: 116.

⁵³⁵ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 168.

⁵³⁶ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص : 97.

ويقول ابن سعيد المغربي: "... وفي سنة (446هـ، 1054م) استسلمت آوداغست للمرابطين الذين كانوا أخضعوا سجلماسة، وبعد قتال عنيف أصبحت المدينة نهياً للخراب والدمار، وبعد أن كانت مزدهرة بفعل الحركة التجارية وتزخر بالعدد الكبير من المساجد والمدارس والأسواق، وكانت ترتبط بالمغرب إبان العصور الوسطى، ومن أشهر المنتوجات المتبادلة العبيد والذهب"....⁵³⁷.

وقد ذكر الكاتب ازدهار المدينة في جميع القطاعات ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أنها كانت من كبريات المدن الوسيطة وهي مركز تجاري رابط بين الشمال الإفريقي وجنوب السودان، وهي أكبر المدن بصحراء صنهاجة وتستقطب أكبر جالية تجارية في المنطقة من مستوى الأعراق، أما المدارس والمساجد والأسواق فشأنها في الازدهار يفوق ما عاشته نظيراتها من المدن خلال العصر الوسيط، يقول البكري: "...وأهلها جميع الأمصار وقد استوطنوها لكثرة خيرها ونفاق أسواقها وتجارها"....⁵³⁸.

كما يقول أيضاً: "...لهم أسواق حافلة عامرة الدهر كله لا يكاد يسمع الإنسان فيها صوت جليسه لكثرة غوغاء الناس، تجارتهم إنما هي بالتبر ليست عندهم فضة"....⁵³⁹.

تؤكد هذه الموصفات ازدهار الأسواق في المدينة وتبرز مكانتها التجارية التي حظيت بها في العصور الوسيطة، ولأهميتها تعاقبت عليها فترات عمرانية حددها البحث الأثري.

وقد ذكر ابن حوقل في أهمية آوداغست التجارية وما وصل إليه تجار المنطقة من سعة في الرزق ونشاط في القوافل بين مدينة سجلماسة وآوداغست مما يعكس أهمية الطريق الرابط بين المدينتين وما ينجم عنه من كثرة الأموال مع اختلاف تجار المناطق في ذلك الوقت، مما يدل على ازدهار المدن في تلك الفترة.

⁵³⁷ - ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ط (1)، 1970، ص: 54.

⁵³⁸ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 164.

⁵³⁹ - عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص: 113.

وقد ساهمت القبائل الصنهاجية في الرفع من المستوى الاقتصادي لمنطقة الصحراء ككل ومدينة أوداغست على الخصوص وذلك بالقيام بدور الحراسة لتلك القوافل فجمعوا الضرائب والأحمال والجمال، مما عاد بالنفع الكثير لهذه القبائل وساعدوا في الاستقرار فأصبحوا أرباب نعم وأموال وتجاراً مياسير⁵⁴⁰.

كما ارتفعت الصناعات في المدن الصحراوية كالسكر الذي نعم أكثر الأرض بصناعته، وفي الجانب الثقافي فقد ساعد أبو بكر بن عمر كعادته في نشر الإسلام فنشر الرباطات في المدن وبنى المساجد بكثرة عدد الداخلين في الإسلام، وأدت سيطرة المرابطين على حقول الذهب الغنية بالسودان - وهي أهم مصادر الاقتصاد في ذلك الوقت - إلى التمكن الاقتصادي المتمثل في السيطرة على المدينتين الحيويتين في تلك الفترة⁵⁴¹.

وكان لاستتباب الأمن وانتشار التجارة لدى المرابطين ونشر الدعوة والمراكز الثقافية الأثر البالغ في تكوين الحضارة الممتدة بين الأندلس والمغرب والصحراء⁵⁴².

يقول ابن حوقل وكانت القوافل تجتاز المغرب إلى سبلماسة وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق، فهم أولاً دهم وتجاراتهم دائرة ومفردتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرياح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سائغة قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة حال⁵⁴³.

فهذه الثروة التي تحدث عنها ابن حوقل بانبهار، لم يصاحبها تطور عمراني يعكس ما حازته هذه المدينة من ثروة، ولعل البحوث الأثرية التي أنجزت بها في السنوات المذكورة سابقاً لم تتمكن من إخراج الكنوز الأثرية التي حوتها هذه المدينة إذا ما قدرت بما تزخر به من موارد تجارية خلال العصور الوسيطة.

⁵⁴⁰ - ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، مصدر سبق ذكره، ص: 156.

⁵⁴¹ - نفسه.

⁵⁴² - عصمت عبد اللطيف دندش، مرجع سبق ذكره، ص: 114.

⁵⁴³ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 67.

أولاً: التجارة

لقد ساهم الموقع الاستراتيجي لمدينة آوداغست في تنشيط الحركة التجارية بين الشمال الإفريقي والجنوب السوداني، وظلت تحافظ على دورها التجاري طيلة بقائها في المنطقة، وذلك لكونها تزخر بالكثير من السلع التي يزداد عليها الطلب في المناطق التجارية المجاورة

(1)الذهب:

تعتبر بلاد السودان المورد الأساسي لهذه المادة فقد كانت مدينة آوداغست معروفة بأسواقها التي تستقر بها جاليات من صناع هذه المادة يعرفون بالمهارة في صناعته، وكان هذا الذهب ينسب إلى آوداغست كما قال البكري أثناء حديثه عن مدينة آوداغست: "...ويجلب منها العنبر المخلوق...والذهب الخالص خيوطاً مفتولة وذهب آوداغست أجود من ذهب أهل الأرض وأصحه"⁵⁴⁴ وهذه النسبة التي ذكرها البكري لآوداغست في الذهب عبارة عن الذهب المصنوع فيها فقط، فلا تحتوي هذه المدينة عليه حسب المنقبين، ويرجع بعض الباحثين إلى جودة تصفيته من طرف صناع المدينة ومهارتهم⁵⁴⁵.

فهذه المجموعة من الصناعات تربطهم علاقة وطيدة مع تجار الذهب فكانوا يتولون تخليص الذهب الخام المجلوب من بلاد السودان من الشوائب وجميع ما يتعلق به من المواد الخارجة عن نوعيته ويختارونه على معيار جودته، ويدققون أوزانه بواسطة موازين خاصة به، كانت متوفرة لديهم فإذا تمت عملية الانتقاء والجودة يهيئونه للتصدير على شكل خيوط مفتولة أو سبائك أو حلي، فينقل إلى المغرب ومصر ومنهما إلى مختلف مناطق العالم الأخرى⁵⁴⁶.

(2) سباخ الملح:

عرفت مادة الملح رواجاً تجارياً خلال العصر الوسيط، ولعب دوراً أساسياً في المبادلات التجارية في منطقة غرب الصحراء والسودان الغربي، فكان سكان منطقة الصحراء يقومون

⁵⁴⁴ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 186.

⁵⁴⁵ - نفسه.

⁵⁴⁶ - Mauny, Raymond. Tableau Géographique, op.cit, P : 73.

باستخراجه لبيعه في بلاد السودان،⁵⁴⁷ وكانت القوافل القادمة من الشمال تتوقف بالممالح لشرائه، وقد عرفت هذه الممالح رواجاً تجارياً كبيراً،⁵⁴⁸ وتعتبر مملحة أوليل من أقدم الممالح استغلالاً، وقد ذكر ابن حوقل في القرن العاشر أن هناك ممالح أخرى قديمة مثل تانتال⁵⁴⁹.

كما يعتقد بعض الباحثين أن مملحة تغازة تم استخراجها خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي ما بين 1020م و 1040م⁵⁵⁰ وكانت هذه السباخ المتناثرة بالصحراء تحت سيطرة القبائل الصنهاجية، وتلبي هذه الكميات المستخرجة من الملح حاجيات السودان الغربي من جهة والمغرب من جهة أخرى،⁵⁵¹ كما كانت سبحة أوليل لها طريق خاصة تربطها بمدينة أوداغست ليبيع بها الملح المستخرج من هذه السبحة، حيث وصلت حمولة الجمل الواحد خلال القرن العاشر الميلادي في الأسواق السودانية 200 و 300 دينار ذهب⁵⁵² هذه المادة الهامة التي دعمت اقتصاد مدينة أوداغست بشكل خاص كما رفعت من المستوى الاقتصادي للصنهاجيين فكانت ركيزة من الركائز التي عولوا عليها لجمع الأموال بصحرائهم.

وقد تولت مملكة أوداغست احتكار هذه المادة في أسواقها المحلية وكانت تتم المبادلات عن طريق المقايضة بالتبر (الذهب) إذ يقول البكري: "...وتبايعهم بالتبر وليست عندهم فضة"⁵⁵³ علماً بأن التبر لا يستخرج من مدينة أوداغست ولا من الأراضي الصحراوية إنما يستورد من بلاد السودان الغربي عن طريق المبادلة بالملح⁵⁵⁴.

(3) الرقيق:

⁵⁴⁷ - Idem.

⁵⁴⁸ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 171.

⁵⁴⁹ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.

⁵⁵⁰ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 171.

⁵⁵¹ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.

⁵⁵² - نفسه.

⁵⁵³ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 158.

⁵⁵⁴ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.

كانت أسواق آوداغست تصدر الرقيق إلى الشمال لأن هذه التجارة تجلب إليها من السودان ليتم التبادل في هذه العملية، وقد ذكر البكري في حديثه عن أحوال آوداغست أن لها أموال عظيمة بقوله: "...وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير..."⁵⁵⁵.

(4) النحاس:

هذه المادة التي عرف اكتشافها منذ فترة قديمة من بين المواد المعدنية التي استخدمت في تطور البشرية، وقد لعبت دوراً كبيراً في التاريخ الاقتصادي العالمي والإفريقي بوجه خاص، فهو معدن جذاب ببريقه واختلاف ألوانه، فخوله ذلك منافسة الذهب في مناطق مختلفة من القارة⁵⁵⁶.

وقد عرفت صحراء صنهاجة كغيرها من المناطق المحيطة بها استغلال هذا المعدن (النحاس)، فقد اكتشفت الآثار فترات تم فيها استخدام هذا المعدن، وأولاهما حددت بالألف الثانية قبل الميلاد، ويتعلق هذا الأمر بمناجم بآبير، وإن كانت الشكوك تحوم حول دقة المعلومات بهذه المرحلة، خلافاً للمرحلة الثانية التي تعود إلى الفترة الواقعة بين 800 ق.م و 300 ق.م، وهي الفترة المعاصرة لاستغلال مناجم النحاس في اكجوجت وهي مدينة من موريتانيا الحالية،⁵⁵⁷ ويذكر في بعض المدن الأخرى أم اكجار في كوركول بين المجرية و امبود وكلها مدن صحراوية معاصرة وتقع بموريتانيا الحالية أيضاً⁵⁵⁸ وقد ذكر بعض الباحثين تصدير هذه المادة من المغرب إلى الصحراء عن طريق القوافل في العصر الوسيط، لأن المغرب يتوفر على مناجم للنحاس مثل، منجم تيحمامين الذي يقع على طريق سجلماسة⁵⁵⁹، ومنجم آخر في تنودان الواقعة بين درعة وسجلماسة، فقد تم العثور في

⁵⁵⁵ - البكري، المسالك والممالك، ج2، ص: 863.

⁵⁵⁶ - الناني الحسين، "صحراء الملمثين"، مرجع سبق ذكره، ص: 174.

⁵⁵⁷ - Vanacker, Claudette, Tegdaoust II, op.cit, P : 139.

⁵⁵⁸ - Idem P : 141.

⁵⁵⁹ EL Alaoui, Abdelaziz, Le Maghreb et le Commerce Transaharien. op.cit P : 71.

صحراء صنهاجة على قطع كثيرة من النحاس ذات أشكال مختلفة من ضمنها سبيكة يصل وزنها إلى ما يقارب 10 كلغ، كما اطلع على حمولة قافلة يبدو أن أهلها هلكوا في أعماق الصحراء، ربما من العطش وتزيد حمولتها على 2000 قطعة⁵⁶⁰.

وقد أكد البكري تصدير النحاس من المغرب إلى آوداغست فكتب يقول: "...ويتجهز إلى آوداغست بالنحاس المصنوع"⁵⁶¹ وهذا ما يوحي أن النحاس كان يستورد إلى آوداغست على شكل حلي أو أواني ... إلخ، لعل تلك الفترة لم يتح للصناع تصنيع النحاس محلياً، لكن التحليلات المخبرية أكدت أن بقايا النحاس المغربي تتطابق عيناتها مع النحاس الصحراوي، وكانت بعض المناجم النحاسية تمون سوق آوداغست بالنحاس حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، وهذه المناجم قريبة نسبياً من سوق آوداغست، وهي مناجم: تجالت أم أكجار ومناجم أكجوجت وكذلك أيور⁵⁶².

وتدل وفرة الأفران التي كانت مستخدمة في تصفية النحاس بآوداغست على استخدام النحاس بكثرة وهذا ما تؤكد اكتشافات الحي الصناعي في نفس المدينة⁵⁶³، وقد ورد هذا الموضوع بالتفصيل سابقاً في هذا البحث، وهذه السبائك النحاسية المرصعة عثر عليها في تكداوست، مما يدل على وجود صناعة متطورة، ويرى فريق البحث في تكداوست أن الخزفيات ذات الشكل النصف كروي التي أطلق عليها اسم "المرصعة" كانت تقام فيها عملية المزج التي بقيت على جنبات البوائق الداخلية وتضاف إلى سبيكة واحدة⁵⁶⁴.

كما توجد بجانب النحاس في آوداغست صناعات حجرية مثل المواد الحجرية.

5) مواد مختلفة بآوداغست:

⁵⁶⁰ – EL Alaoui, Abdelaziz, Le Maghreb et le Commerce Transaharien. op.cit P : 71.

⁵⁶¹ – البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 159.

⁵⁶² – Vanacker, Claudette, Tegdaoust II, op.cit, P : 144.

⁵⁶³ – مجموعة أبحاث أثرية، تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص: 12.

⁵⁶⁴ – الألييسكو، المعجم الموحد للمصطلحات الآثار والتاريخ، تونس، 1993، ص: 116.

اكتشفت بعض الحجارة المختلفة في آوداغست في عمليات التنقيب التي شملت المدينة، وإن كانت قد ظلت ناقصة النتائج نظراً لعدم شموليتها، فقد عثر على حجر كريم يسمى الخلقيدونية وهو حجر شفاف وجد بكميات هامة في مواقع الحفر بآوداغست، ويعتقد "دفيس" أنه هو الحجر الذي سماه البكري تاسنمت⁵⁶⁵ كما اكتشفت عينات من العقيق الصنف الذي يجلب من أعالي مصر؛⁵⁶⁶ كما تم جلب بعض الأحجار الأخرى إلى المنطقة عن طريق التبادل التجاري منها الأمازونية، من تيبستي وقران⁵⁶⁷ كما عثر في مدينة آوداغست على سلسلة من الفضة، وكانت المدن الوسيطة الصحراوية تعتمد على الفضة المغربية وذلك بدليل عدم وجود صناعات ومعادن من الفضة في الصحراء فقد دخلت المبادلات التجارية واعتمدت المنطقة على تصديرها من الشمال⁵⁶⁸.

(أ) الخزف:

قد ذكرنا سابقاً المواد الخزفية ودورها في التبادل بين المدن التجارية، إلا أننا سنبين باختصار أهمية هذه المواد على مستوى مدينة آوداغست، فقد أورد الباحثون الأثريون تواجد هذه المواد بكثرة في المدينة،⁵⁶⁹ كما لوحظ منها تركيز على حليها بشكل كبير وبعينات مميزة مما يوحي أن فئة التجار الموجودة بآوداغست آنذاك كانت رفيعة الذوق والمستوى، مما يرغب التجار على جلب هذه المادة وإن كانت صعبة الحمل، وتتمثل في مختلف الأدوات المنزلية المستوردة من الشمال، مما يميز مقتنيات هؤلاء عن الأدوات المصنوعة محلياً،⁵⁷⁰ وذلك أن آوداغست كانت تمثل إضاءة المجتمع الصحراوي على المستوى المدني والحضري أيضاً⁵⁷¹.

⁵⁶⁵ – Devisse, Jean. Histoire Générale de l'Afrique – Projet de l'UNESCO. Paideuma, vol. 22, 1976, P : 449.

⁵⁶⁶ – Ibidem, P : 449.

⁵⁶⁷ –البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 153.

⁵⁶⁸ – ibid, P : 435.

⁵⁶⁹ – مجموعة أبحاث أثرية ، تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص: 12.

⁵⁷⁰ – EL Alaoui, Abdelaziz, LE Maghreb et Le commerce Transsaharien op.cit, P: 14.

⁵⁷¹ – الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 177.



صورة رقم 26 : نماذج من الحلي المستعملة بمدينة آوداغوست

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

وتتشترك هذه الأدوات الفخارية الموجودة في آوداغوست آنذاك مع الأدوات المصنوعة في مراكش وقلعة بني حماد، وقرطاج، ومصر، والأندلس، كما يلاحظ تواجد لأسرجه الخيل بآوداغوست متشابهة بأسرجه في ليبيا ومصراتة، وطرابلس⁵⁷².

ب) الزجاج:

تواجدت المواد الزجاجية بكثرة بأطلال آوداغوست ولا شك أنها كانت مستوردة من الشمال وبصفة خاصة المغرب وإفريقية، ومصر،⁵⁷³ وقد عثر على مواد زجاجية ذات ألوان وزخارف وأشكال مختلفة ومن أهم هذه الأدوات القوارير، والأواني، والكؤوس، والقداح⁵⁷⁴.

فضلاً عن جميع أشكال الحلي الزجاجي،⁵⁷⁵ وعثر في حفريات تكداوست على أقداح تشبه أشكال عثر عليها بتونس في موقع⁵⁷⁶، كما تشابهت عينات أيضاً بموقع الفسطاط تشابه

⁵⁷²–Tegdaoust, Recherches sut Aoudaghost, op.cit, P: 278.

⁵⁷³– Mauny, Tableau Géographique, op.cit, P: 372.

⁵⁷⁴ – Devisse, Jean. Histoire Générale de l'Afrique , op.cit. P: 447.

⁵⁷⁵–Vanackr, Tegdaoust II, op.cit, P :168.

أدوات زجاجية عثر عليها بحفريات تكداوست (آوداغست)، وقد مكنت المكتشفات الزجاجية في حفريات آوداغست ومناطق في شمال إفريقيا من الاعتقاد بأن الزجاج الذي كان من بين المواد التجارية الأخرى يدخل في مبادلات تجارية كانت قائمة بين مصر وصحراء صنهاجة عبر إفريقية⁵⁷⁷.

كما استخدم الزجاج المستورد من طرف الصناع المحليين في مجال صناعة الحلي الزجاجي، الذي كان مهماً وعليه الطلب كثير نتيجة أناقته⁵⁷⁸.

ويظهر من خلال الحفريات أن التقنيات الزجاجية انتقلت صناعتها من إفريقية إلى آوداغست، فعثر على أفران توفر درجات حرارة تصل 1000°C ، وتتجاوز تلك الحرارة أحياناً وكان وجود هذه الأفران في آوداغست مرتبط بصناعة الزجاج ويتم الاتفاق بين هذه الأفران بأخرى عثر عليها بصبرة المنصورية بتونس، مما جعل بعض الباحثين يعتقد أن هذه الصناعة نقلت إلى آوداغست من تونس⁵⁷⁹.

ج) الصدف وقشور بيض النعام:

تتميز فترة التعمير الثالث بكثرة صدف النعام المصنوع بأشكال مختلفة وهو عبارة عن جويهرات مستديرة ومسطحة وشناشن صغيرة وهو موجود بكثرة، صنعها بعض الحرفيين العاملين حول الساحة الكبيرة المشتركة يبيعون الأشياء في حانوت يفتح على الشارع⁵⁸⁰.

د) الغنبر:

⁵⁷⁶–Tegdaoust II, op.cit, P: 166.

⁵⁷⁷– Vanackr, Tegdaoust II, op.cit, P : 168.

⁵⁷⁸– Devisse, Jean. Histoire Générale de l'Afrique. op.cit. P :448.

⁵⁷⁹–Ibidem. P: 457.

⁵⁸⁰– الناني الحسين، صحراء المثلثين، مرجع سبق ذكره، ص: 183.

أشارت المصادر العربية الوسيطة بوفرة هذه المادة على شواطئ الأطلسي بصحراء صنهاجة وجزيرة أيوني القريبة من مملحة أوليل، مما يحتم وجود هذه المادة في أسواق آوداغست نظراً للطريق الرابط بين أوليل وهذه المدينة والذي تجلب منه مادة الملح بكثرة، وكانت هذه المادة تصدر من الأسواق في اتجاه الشمال، وذلك للحاجة الماسة إليها في صناعة العطور والشموع والصابون، وفي مجال الطب، والصيدلة، فحسب ما أوردته المصادر عن مادة العنبر من الفوائد أنها "تقوي الذاكرة، وتنمي المواهب الذهنية وتنشط الدم والقلب، كما تكتسي أهمية لكبار السن نتيجة مفعولها الجيد للتدفئة"⁵⁸¹.

ومما يدل على ذلك ما ذكره البكري في قوله: "...ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم..."⁵⁸².

وكانت الصحراء تصدر الكثير من هذه المادة (العنبر) نظراً لحاجة المغرب في مجالات الصناعات المختلفة، فبذلك كانت هذه المادة تأخذ طريقان تصدر بواسطتها عن طريق القوافل نحو الشمال، أولاهما هو الطريق الساحلي الذي يربط أوليل بنول لمطة،⁵⁸³ أما الطريق الثاني فهو الطريق الرابط بين آوداغست وسجلماسة، وبذلك تتم عملية التصدير من أسواق آوداغست في اتجاه سجلماسة، ويحمل من مناطق إفريقيا الشمالية باتجاه الأندلس⁵⁸⁴.

هـ) الصمغ العربي:

وهو عبارة عن مادة نباتية تنبت في الأشجار وخصوصاً أشجار القثاد (أوزوار) باللهجة الحسانية وكانت هذه المادة من مواد التجارة التي تصدر إلى المغرب والأندلس للاستخدام في صباغة النسيج، وتضاف أيضاً لتلميع وصقل الثياب بعد الانتهاء من الصناعة والحياسة، وقد ذكر البكري أن الأشجار التي تنبت هذه المادة كثيرة في مدينة آوداغست، فقال:

⁵⁸¹ – EL Alaoui, Abdelaziz, LE Maghreb et Le commerce Transsaharien, op.cit, P : 105.

⁵⁸² – بكري، عبدالله بن عبدالعزيز، المسالك و الممالك، دار الغرب الإسلامي. 1992 م ج 2، صص 848-850.

⁵⁸³ – Mauny, Tableau Géographique, op.cit, P : 428.

⁵⁸⁴ – الناني الحسين، صحراء المثلثين، مرجع سبق ذكره، ص: 183.

"...شرف عال ومشرف على آوداغست فيه طير كثير ... وفيه أشجار الصمغ الذي يجلب إلى الأندلس يصمغ بها الديباج..."⁵⁸⁵ فيبدو أن أسواق آوداغست هي المعنية بتصدير مادة الصمغ إلى الشمال، لأن الصمغ العربي كانت أشجاره منتشرة في أرجاء الصحراء ومستخدمة في التصدير إلى الأندلس وإلى مختلف المناطق الأوربية في القرون الموالية للفترة الوسيطة⁵⁸⁶.

(و) الودع:

ذكرنا وجود عينات من الحجارة الكريمة في مدينة آوداغست وقد عثر على هذه المادة المسماة "الودع" أيضاً بأسواق آوداغست وهي عبارة عن نوع من الأصداف يوجد أساساً في المحيط الهندي وجزر المالديف وقد تم استخدامه كعملة في بعض المناطق من العالم في الفترة الوسيطة، من أهمها الصين والهند وبلاد السودان، وكان يصل إلى إفريقيا الشمالية عن طريق الشرقيين والأوربيين⁵⁸⁷.

وقد تم العثور على وثائق تتعرض لعمليات تسويقية في شمال إفريقيا تفيد أنه كان يصل موانئ بلاد إفريقيا بانتظام خلال القرن الحادي عشر الميلادي، كما كان يستقبله ميناء طرابلس في فصل الخريف وظهر الودع كمادة تجارية ذات وزن في الصادرات الشمالية إلى آوداغست، في أسواقها خلال القرن التاسع والعاشر الميلاديين⁵⁸⁸ وقد تم العثور على قافلة هلكت في الشمال فوجدت حمولتها بأعماق الصحراء، تم التمييز فيها بين ما يقارب 3260 عينة من تلك الأصداف المستخدمة في ذلك العصر كعملة، أي بنسبة 90% من عينات الودع الموجودة في حمولة القافلة⁵⁸⁹.

⁵⁸⁵ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 183.

⁵⁸⁶ - R.Mauny، Tableau Géographique، op.cit، P: 379.

⁵⁸⁷ - EL Alaoui، Abdelaziz، op.cit، P: 88.

⁵⁸⁸ idem P :89.

⁵⁸⁹ - Idem.

ز) الشب:

توجد هذه المادة في الصحراء بكثرة ، وهي عبارة عن معدن حجري نادر،⁵⁹⁰ ويستخدم في الصباغة، يقول المثل الحساني "الشب الداخل كل اصباغة" بمعنى أن هذه المادة لا غنى للصباغة عنها، وقد ذكر القزويني وجود الشب بالقرب من مملحة تغازة،⁵⁹¹ كما يوجد على طول الطريق الرابط بين تادمكة وغدامس⁵⁹² وتستجلب هذه المادة إلى الشمال نظراً لانتشار صناعة النسيج، وما تضيفه هذه المادة للرفع من تلك المصانع، كما كان هذا المنتج ينقل من أسواق المدن الصحراوية في اتجاه سجلماسة ومنها إلى المغرب وتجتاز لتصل إلى المناطق الأوربية⁵⁹³.

ح) الجلود:

لقد عثرت البحوث الأثرية أن الحيوان المسمى بـ"اللمط" من الحيوانات البرية وهو من أسرة الظباء⁵⁹⁴ ظل هذا الحيوان يصطاد طيلة تعمير آوداغست، وأن لحوم هذا الحيوان كانت تدخل النظام الغذائي للسكان هناك، وقد كان هذا الحيوان مطلوباً طيلة الفترة الوسيطة للحصول على جلده الذي يستخدم من طرف المقاتلين بعد دبغه ويقطع إلى قطع دائرية تعرف بالدرق اللمطية⁵⁹⁵.

وانتشر هذا الحيوان بكثرة في صحراء صنهاجة، خاصةً بمدينة آوداغست بشكل خاص، يقول البكري: "...والحيوان الذي يعمل منه الدرق حوالي آوداغست كثيراً جداً...".⁵⁹⁶

⁵⁹⁰ - القزويني، مصدر سبق ذكره، ص: 25.

⁵⁹¹ - نفسه.

⁵⁹² - R.Mauny، Tableau Géographique، op.cit، P : 380.

⁵⁹³ - EL Alaoui، Abdelaziz، op.cit، P : 105.

⁵⁹⁴ - Idem.

⁵⁹⁵ - R. Mauny. Tableau Géographique، op.cit، P: 362.

⁵⁹⁶ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 159.

وهذا ما يدلنا على كثرة هذا الحيوان بنواحي أوداغست حتى أصبح يدخل العادات الغذائية ويشكل صناعة في المدينة، أي تدبغ وتصنع فيبييعها التجار ويحملون جلود اللط من الصحراء إلى شمال إفريقيا، إذ من المؤكد أن ورشات كانت موجودة بمدينة أوداغست، وقد وصفت المصادر دباغة تلك الجلود في هذه المصانع فيقول القزويني في معرض حديثه عن حيوان اللط: "...يدبغ جلده في بلادهم باللبن وقشر بيض النعام سنة كاملة"⁵⁹⁷.

كما يضاف إلى ذلك جلود الضأن التي كانت تصدر إلى تلمسان وجلود الفنك⁵⁹⁸، ولا تساوي أهميتها أهمية جلود اللط وقد أشار البكري إلى كثرة حيوان الفنك في صحراء صنهاجة، وتحدث عن تصدير جلوده إلى مختلف مناطق العالم الإسلامي حيث يقول: "...ودواب الفنك أكثر شيء في هذه الصحراء ومنها يحمل إلى جميع البلاد..."⁵⁹⁹.

(ط) المواد الحجرية:

وهذه الأدوات عديدة ومتنوعة فهذه الحجارة المستعملة (الصلصال، كلس، قليدونية، والعقيق وأمازونيت) أما من حيث الأشكال المكتشفة (أدوات، مغازل، جواهر، ... إلخ) هذا في فترة التعمير الثاني والثالث والرابع⁶⁰⁰.

كما توجد بعض الأدوات (من الصلصال، والكلس) فمنها الرحي والمهاريس والمصاقل المختلفة ومنها فؤوس حجرية⁶⁰¹.

بالإضافة إلى صناعة الحلي من العقيق الأحمر والأمازونيت، وهي عادة جواهر من أشكال مختلفة، وفص وخواتم أعواد⁶⁰².

⁵⁹⁷ - القزويني، آثاب البلاد و أخبار العباد، مصدر سبق ذكره، ص: 58.

⁵⁹⁸ - الفنك: هو ثعلب الصحراء و يطلق عليه أحيانا الحصيني و هو ثعلب صغير الحجم يعيش في الصحراء الكبرى شمالي إفريقيا و بعض أجزاء

شبه الجزيرة العربية تاريخ الزيارة: 2019/04/02. <https://www.google.com>

⁵⁹⁹ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 171.

⁶⁰⁰ مجموعة أبحاث أثرية ، تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص: 12.

⁶⁰¹ - نفسه، ص: 29.

وعلى العموم فإن أسواق مدينة آوداغست كانت تزخر بمختلف المواد التي تم تبادلها تجارياً بين شمال إفريقيا والسودان، وحوض البحر الأبيض المتوسط، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ازدهار المدينة في الفترة الوسيطة.

ثانياً: الزراعة في مدينة آوداغست:

لقد مورست الزراعة خلال العصر الوسيط في غرب الصحراء واعتمدت على شكلين أحدهما موسمي يركز على مياه الأمطار التي تتساقط على المنطقة في الفترة الصيفية وتراجع الفيضانات النهرية، كما يعتمد النوع الآخر من الزراعة على مياه الآبار ويتركز أساساً في الواحات الصحراوية، وتقع مصادر المياه التي تعود إلى العصر الوسيط في تلك المناطق بالقرب من الوديان، وكانت الحقول محاطة بجدران صغيرة من الحجارة تفصل بين القطع الأرضية المتجاورة فيما بينها، ويوجد هذا النوع من الزراعة في خرائب القرى، كما عثر على آلات مرتبطة بالزراعة كالرحى التي كانت تستخدم لطحن الحبوب، وقد تأكد في بعض المناطق الزراعية عن طريق البحوث أن جل المزارعين في منطقة الصحراء من القرويين ويتقنون الزراعة بشكل دقيق وأنهم تمكنوا من التغلب على الكثير من المصاعب التي تواجههم منها السيول التي كانت تقضي على الكثير من الحقول ويرجع ذلك إلى قربها من سفوح الجبال، كما حظيت منطقة النهر بالنصيب الأوفر من الزراعة كما ذكره البكري: "يزرعون مرتين في العام مرة على ثرى النيل إذا خرج عنهم ومرة على ثرى"⁶⁰³.

1) الزراعة المطرية:

مارس سكان آوداغست كغيرهم من سكان الصحراء الزراعة، لكن اعتمادهم كان أكثر على الزراعة المطرية التي كانت تشمل محاصيل مختلفة، كالدخن والذرة والقمح واللوبياء.

⁶⁰² - مجموعة أبحاث أثرية، تكداوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص: 12.

⁶⁰³ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 171.

وقد ذكر ياقوت نقلا عن المهلبى الذي كان يكتب في القرن 10م، أنهم يمارسون أنشطة زراعية متنوعة خلال فصل الصيف الذي تتساقط الأمطار خلاله، فيقول: "...وأماهم في الصيف يزرعون عليها القمح والدخن والذرة واللوبياء والنخيل ببلدهم كثير⁶⁰⁴.

ومع ذلك لم يكن هذا الإنتاج كافيا لسكان المدينة بل ظلت ساكنة المدينة تستجلب القمح والزبيب والتمور من سجلماسة والذرة والعسل من السودان، وكان استهلاك القمح مقصور على الملوك والأثرياء وكبار التجار لندرته وارتفاع أسعاره بينما أغلبية السكان يستهلكون الذرة.

و قد شاركت أوداغست بإنتاجها الزراعي في تنمية السوق المحلية إلا أنها لم توفر اكتفاءً ذاتياً على مستوى الإنتاج الزراعي، ويعود ذلك إلى عدم توفر الوسائل الزراعية المتاحة في تلك الفترة، أو إلى كثرة سكان المدينة مما لا يستطيع الإنتاج سد حاجياتهم، وظلت تعتمد في منتجاتها الزراعية على القوافل القادمة من المناطق الأخرى.

(2) الزراعة المسقية (زراعة النخيل)

انتشرت زراعة النخيل في شمال الصحراء نظرا لوفرة المياه الجوفية في هذه المنطقة وقربها من السطح⁶⁰⁵.

وينطبق ذلك على تواجد النخيل في مدينة أوداغست، وقد ذكرت الروايات العربية وجود أعداد من النخيل هامة حول تلك المدينة، وقد كشفت نتائج البحوث الأثرية ما يدل على أن المياه الجوفية كانت قريبة من سطح الأرض خلال القرن السابع الميلادي إلى القرن الحادي عشر الميلادي، وهذا ما يثبت وجود واحات من النخيل بالمدينة، وقد تغير المناخ بعد تلك الفترة، مما أثر على أعداد النخيل⁶⁰⁶.

⁶⁰⁴ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سبق ذكره، ص: 278.

⁶⁰⁵ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 158.

⁶⁰⁶ - الناني الحسين، صحراء المثلثين، مرجع سبق ذكره، ص: 28.

وقد مارس السكان أشكالاً من الزراعة في هذه الواحات، و اشتملت على أنواع مختلفة من المحاصيل⁶⁰⁷.

ثالثاً: الثروة الحيوانية في مدينة آوداغست:

إذا أردنا الحديث عن الثروة الحيوانية لمدينة آوداغست؛ فلا يمكن أن نقوم بعزلها عن باقي المنطقة الصحراوية والتي ظلت مهذاً لمختلف الثروات الحيوانية من إبل وبقرة وغنم ... إلخ؛ ذلك أن سكان المنطقة الصحراوية عرفوا بالانتمية الحيوانية والترحال خلف الانتجاع باستثناء سكان المدن التي نحن بصدد دراستها حيث شهدوا نوعاً من الاستقرار، لكن مدينة آوداغست نالت نصيبها من الثروة الحيوانية،⁶⁰⁸ حيث كانت ترعى حول المدينة التي يضرب أهلها خيامهم في ضواحيها للاستمتاع والاستجمام في الفترات الخصبة، و تعتبر الإبل أهم ثروة حيوانية في الصحراوية، وقد اشتهرت صحراء صنهاج بكثرة قطعان الإبل.

ويكون السؤال المطروح هنا هو: متى وصل الجمل إلى الصحراء؟

(1) الإبل:

اختلف المؤرخون في وصول الجمل إلى الصحراء، فمعظمهم ذهب إلى أن الجمل استجلبه الرومان إلى القارة الإفريقية خلال القرن الميلادي الأول، وجل هؤلاء مؤرخون غربيون.

ومنهم من أرجع وجود الجمل إلى عهود قديمة في القارة وأنه كان متوحشاً وطليقاً،⁶⁰⁹ ويشير البعض إلى أن وجوده مرتبط بقدومه من الجزيرة العربية أثناء الهجرات التي انطلقت منها اتجاه المنطقة في عصور غابرة⁶¹⁰.

⁶⁰⁷ – البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 168.

⁶⁰⁸ – الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 21.

⁶⁰⁹ – عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج (1)، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ص: 98.

⁶¹⁰ – 37. Vicent, Montei, Essai le Chameau au Sahara, occidental. Centre IFAN – Mauritanie – Saint-Louis – paris, 1952. P: 128.

ومهما يكن فإن وجود الجمل في الصحراء لم يكن وليد فترة محددة، بل نتيجة تراكمات لحقب عديدة.

والذي يهمني في الإطار هو التنبيه على كثرة الإبل في مدينة آوداغست خلال الفترة الوسيطة، لأعزز المقولة بأن جيش الملك تيولوتان بن تلاكاكين كان يتجهز بمائة ألف جمل في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي⁶¹¹.

وقد ذكر ابن حوقل خلال القرن العاشر الميلادي أن أخت ملك آوداغست كانت تمتلك بمفردها 1500 جمل، حيث قال: "...وكان رعاتها مائة ومع كل راع منهم مائة وخمسون جملاً..."⁶¹² ويضيف الرحالة ابن حوقل أن الإبل كثيرة بآوداغست فيقول: "...وعندهم من الجمال الكثير في براريهم وسكان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب..."⁶¹³.

كما يذكر البكري أيضاً أن الجيش المرابطي الذي توجه نحو سبلماسة خلال منتصف القرن الحادي عشر الميلادي كان من بين ما يمتطيه أفراد هذا الجيش ثلاثون ألف جمل،⁶¹⁴ وهذا ما يؤكد تواجد الإبل بكثرة فائقة في الصحراء وخاصة بمدينة آوداغست بالإضافة لاكتساب المدن من وظيفتها التجارية التي تعتمد على تواجد الجمل كسفينة للصحراء تقوم عليها التجارة عبر الصحراء كمقوم أساسي لاستمرارية هذه القوافل، وقد اتخذت المدينة تربية الإبل للتحكم في التجارة⁶¹⁵ فقد ذكر الإدريسي أيضاً: "...أن لأهل آوداغست جمالاً ومنها يتعيشون"⁶¹⁶.

⁶¹¹ – Vicent, Montei, Essai le Chameau au Sahara, occidental. op.cit. : 128.

⁶¹² – ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.

⁶¹³ – نفسه، ص: 95.

⁶¹⁴ – البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 166.

⁶¹⁵ – حمدان جمال، جغرافية المدن، مرجع سبق ذكره، ص: 46.

⁶¹⁶ – الإدريسي، نزهة المشتاق، مرجع سبق ذكره، ص: 108.

وقد وصف بعض الباحثين المعاصرين، أجدادهم الصنهاجيين الصحراويين برعاة الإبل الكبار، وهذا الوصف ينم عن تقاليد وتوريث لوظيفة الرعوي⁶¹⁷، ولعل هذا وصف لهم بامتلاك ناصية الإبل، ودرابنتهم بالمسالك بين المغرب وبلاد السودان بالإضافة إلى تحويلهم لكافة مدنهم إلى موانئ تجارية صحراوية وهكذا تكون الإبل عصب حياة سكان المدينة لاعتمادهم عليها في الدفع بنشاطهم التجاري التي تقوم عليه.

(2) حيوانات أخرى:

أما فيما يخص الحيوانات الأخرى أي الأبقار والغنم والخيول والحمير فيبدو أن مدينة آوداغست أخذت منها النصيب الأوفر، فقد ذكر البكري في حديثه عن المدينة أن سعر المتقال الواحد بعشرة أكباش⁶¹⁸، هذا ما يوحي بكثرة الغنم ووفرته في نواحي المدينة، وقد تجلب إليها من المناطق الصحراوية المجاورة بغية شراء أصحاب الأغنام حوائجهم من الأسواق ويتم التبايع داخل تلك الأسواق ويوحي ذلك أيضاً بتدني أسعار الحيوانات، كما يدل ذلك على خصب المنطقة ولعل أهم دليل على كثرة الحيوانات حول مدينة آوداغست⁶¹⁹، ما أفادت به الدراسات الأثرية التي أقيم بها في موقع تكداوست "آوداغست" حيث تبرز كميات كبيرة من العظام المكسرة من مختلف الحيوانات والكثير من عظام الأبقار والأغنام مما يعكس الاستهلاك المحلي للمدينة في مجال الأغذية، أما كميات لحوم الإبل فوجدت بنسبة قليلة.

وعلى العموم تكون مدينة آوداغست لا تقل شأنًا عن إقليمها الصحراوي والمتميز باحتضان أعداد كبيرة من الثروة الحيوانية بمختلف أنواعها من إبل وبقر وغنم وخيول، وقد ذكرت أسرجة تدل على وجود الخيول بالمدينة إلا أنها بكميات أقل.

⁶¹⁷ - أحمد مولود / أيده، المدن الوسيطة المندثرة، مرجع سبق ذكره، ص: 67.

⁶¹⁸ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مرجع سبق ذكره، ص: 166.

⁶¹⁹ - Devisse, Jean. Tegdaoust III. op.cit. P: 353.

المطلب الرابع: الدور العلمي والفكري

يعتبر الباحثون مدينة آوداغست من أهم المراكز التجارية الصحراوية مكانة في المجال الصحراوي وقد أدت دوراً كبيراً في نشر الإسلام والثقافة العربية، وكانت عاصمة صنهاجة في القرن الرابع الهجري واستولت عليها مملكة غانة الوثنية بعد ذلك حتى استطاعت الحركة المرابطية استردادها بقيادة عبد الله بن ياسين فأصبحت منطلقاً للدعاة المرابطين في اتجاه السودان⁶²⁰ ويرجع ذلك إلى موقعها الجغرافي والتجاري آنذاك للقوافل الصحراوية⁶²¹.

وتمت السيطرة على مدينة آوداغست من طرف المرابطين الذين كانت تدفعهم عاطفة الحماس العقدي المتمثل في نشر المذهب المالكي في غرب إفريقيا في تلك الفترة وقد شحذت همهم من لدن مرشدهم الديني عبد الله بن ياسين الجزولي القائم على تعليمهم وتوجيههم.

ويضيف الباحث حماد الله ولد السالم في هذا الاتجاه، أنه رغم المصاعب التي تلقاها الداعية الجديد (ابن ياسين) فإن مسار هذه الدعوة أفضى إلى تطورها بسرعة، فمن دعوة إصلاحية إلى حركة جهادية اندلعت في الشمال محطمة القوة الزناتية ومنهية سيطرة الجنوب البدعية من مختلف الدعوات المنحرفة بقوله: "...ثم كرت جنوباً لتدك آوداغست على سكانها دكاً..."⁶²²، وهذا الدك الذي ذكره حماد الله يرى من وجهة نظره أنه عقاباً لسكان مدينة آوداغست على قبولهم لسلطان مملكة غانة (كومبي صالح) الوثني، إلى أن ينتهي بقوله: "...لتصبح دولة قائمة بين مراکش والصحراء في سياق معروف..."⁶²³ وعلى ذكر "دك" آوداغست على سكانها فهو يطابق بالرأي ذلك الدمار الذي صرح به الفريق الأثري، كما يرى

⁶²⁰ -حسن أحمد محمود، قيام الدولة المرابطية، مرجع سبق ذكره، ص: 78.

⁶²¹ - نفسه.

⁶²² - حماد الله ولد السالم، مدن القوافل، مرجع سبق ذكره، ص: 112.

⁶²³ - نفسه.

أن قيام الدولة المرابطية لم يكن وليد الصدفة أو تفسير بسيط ذهب إليه بعض الباحثين وذلك في ما ذكرناه أنها وليدة الحجة المعروفة لدى المصادر التاريخية ليحيى بن إبراهيم الكدالي وما ترتب على ذلك من أحداث مصاحبة، حيث يقول: "...فنحن لا نميل إلى التفسير البسيط لقيام "المرابطين"، بل نعتقد أن الحركة هي امتداد طبيعي لدولة الأنباط الصنهاجية التي كانت في آوداغست، لأن الدولة لا تظهر إلا في وسط "متمدن" أو متحضر لمدينة أو وادي تمر به قوافل التجارة..."⁶²⁴.

فيتبين من خلال هذا الطرح أن الباحث ذهب إلى القول بأن دولة الأنباط التي كانت قائمة قبل قيام الدولة المرابطية هي التي ساهمت في نجاح هذا المشروع الذي لا يمكن أن يقوم إلا من وسط "متحضر" أو متمدن، وذكر في هذا المضمار أن هذا المشروع المرابطي انطلق من حيث التنظيم والتهيئة السياسية والدينية من مدينة أرتنني حيث يقول: تمت مرحلة الدعوة الأولى لابن ياسين بين صفوف اكدالة 430هـ - 445هـ وانتهت بطرده في تلك المرحلة، وقد ذكر الباحث أن تأسيس مدينة "أرتنني" في شمال بلاد الحوض الحالية في الشرق الموريتاني، وأمر ابن ياسين أن يوحد بناؤها بحيث تكون بيوتها متساوية في الشكل والمضمون.⁶²⁵

وبما أن المرابطين كانوا يطمحون إلى بناء مشروع يتمثل في قيام دولة في الغرب الإسلامي الإفريقي يكون منطلقها الصحراء، فلم يخف أن هذه الدولة استتدت في تأسيس دعائمها على الوسط الحضري وتمكنت من الاستقرار الذي يخول بناء المشروع العقدي ونشر المذهب المالكي إن كان ذلك هدفاً بالدرجة الأولى لدى الفقهاء المالكيين للقضاء على جيوب الوثنية من جهة وأصحاب الملل والنحل الأخرى⁶²⁶.

⁶²⁴ - حماد الله ولد السالم، مدن القوافل، مرجع سبق ذكره، ص: 112.

⁶²⁵ - سيد محمد الخليفة الكنتي ت (1242هـ / 1826م)، من نصوص التاريخ الموريتاني، تحقيق حماد الله السالم، ط 2007م الجديدة، مؤسسة الشيخ امرييه رب لإحياء التراث والتبادل الثقافي، مطبعة المعارف، الرباط، 2007، ص: 76.

⁶²⁶ - نفسه.

وتتجلى فكرة التمدن لدى المرابطين في الصحراء في أول استقرار تم في "أرتنني" إضافة إلى توجيه عبد الله ابن ياسين الزعيم الديني للحركة المرابطية ليحيى بن عمر اللمتوني قائد الجيوش المرابطية في تلك الفترة بالاحتفاء في "أزكي".

كما تبرز هذه البحوث الآثار المحطمة والتي يعتقد أنها استهدفت عن قصد من الجيش المرابطي لإضعاف هذا المركز الصناعي المعدني القائم وإذا كان الهدف عند المرابطين منه السيطرة على أوداغست فكيف يتم هذا التحطيم بالشكل المتحدث عنه من طرف الأثريين؟، لأن المحافظة على منشآت المدينة أولى عند أصحاب الهجوم كما وصفهم فريق البحث، في الوقت الذي لم يتبين حال المدينة بعد سيطرة المرابطين عليها ولا ندري ما هي الأسباب التي منعت المنقبين من إبراز ما أضافه المرابطون وما خلفوه من إرث مادي في هذه المدينة؟ وهل التجاهل لهذا الإرث المرابطي على مستوى مدينة أوداغست كان عن قصد؟

هذه الإشكالات استوقفتنا في هذه المرحلة لمعرفة ما كتبه الفريق البحثي القائم على التنقيب خلال السنوات التي ورد ذكرها سابقاً أي 69، 70، 71، 73 بتل تكدأوست الأثري بموريتانيا الحالية،⁶²⁷ وهذا الدخول المرابطي لمدينة أوداغست الذي ذكرته المصادر التاريخية والسيطرة على المدينة مدة 10 سنوات⁶²⁸ فقد تحاشت الباحثة بيرتي (Berty) اقتراح تفسير لمظاهر الانقطاع العمراني واعترفت بصعوبة تعرف الأركيولوجيا على أثر الفترة المرابطية التي ربما لم تزد على عشر سنوات في رأيها، غير أن عمل هذه الباحثة اقتصر على دراسة منزل واحد،⁶²⁹ ويتحدث البكري عن حروب المرابطين في الصحراء وتقتيلهم لبعض سكانها المسلمين من العرب والشمال الإفريقي، لا شيء سوى أنهم قبلوا أن يعيشوا تحت طاعة ملك غانة وحكمه في تلك المدينة التي يرى المرابطون أنها كانت محتلة من طرف سلطة

⁶²⁷ - مجموعة أبحاث أثرية ، تكدأوست رقم II، مرجع سبق ذكره، ص: 8.

⁶²⁸ - ربيير فرني، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، ، مرجع سبق ذكره، ص: 197.

⁶²⁹ -Vanacker, Claudette, Tegdaoust II. op.cit. P : 139.

وثنية⁶³⁰، ويرى بعض الباحثين أن غزو المرابطين لآوداغست له معاني ودلالات عديدة أي أنه يمثل ثأر الصحراويين من جاليات التجار المغربية بهذه المدينة لتحالفها مع عدوهم التقليدي ملك غانة، وسلبهم النفوذ والسلطة التي كانوا يمتلكونها بهذه الحاضرة وقد يعلل من جهة أخرى بالصراع العقائدي بين المرابطين السنيين والمالكيين وجاليات التجار من الخوارج الإباضيين أو أنه بالمفهوم الخلدوني صراع بين البدو والحضر⁶³¹.

المطلب الخامس: التراجع الاقتصادي واندثار مدينة آوداغست

لقد تضافرت عوامل عدة أدت إلى التحكم في حياة المدن وفي نشأتها وازدهارها وكذلك في اندثارها، فيعتقد ابن خلدون: "أن العمران كله من بداوة وحضارة وسوق له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً..."⁶³² هذا الاندثار الذي أدى إلى خراب كلي للمدينة وحتى الفترة الحالية 1440هـ، وأن العوامل التي أدت إلى اندثار المدينة متعددة، ومن أهمها، عوامل اقتصادية وبشرية وطبيعية نذكر منها:

أولاً: العامل الطبيعي:

يرى بعض الباحثين المحليين أن موجة الجفاف التي ضربت الصحراء خلال القرن الخامس الهجري تسببت في اندثار بعض المدن والقرى التي كانت قائمة في منطقة الصحراء وتراجع حجم البعض الآخر، فهذه الموجات التي تعرضت لها البلاد في المرحلة الثانية من العصر الوسيط وندرة المياه أخفت بعض المدن كآوداغست وكذلك بنكلايين⁶³³ وكانت هذه الأخيرة موجودة في منطقة كانت حتى بداية القرن الخامس الهجري، وتوفي بالقرب منها رئيس لمتونة محمد بن تفاوت المعروف بتارشينا وهو يقود آنذاك الحلف الصنهاجي لتحرير آوداغست من سيطرة غانة، وكان معظم سكان هذه القرية (بنكلايين) من قبيلة بني وارث

⁶³⁰ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 164.

⁶³¹ - Lewicki , Tadeusz. L'origine Nord-Africaine de Bafour , Actes du deuxième, congrès international d'études des cultures de la méditerranée occident, Alger, 1978. P : 207.

⁶³² - ابن خلدون، العبر، ج 1، 1973، مرجع سبق ذكره، ص: 661.

⁶³³ - الناني بن الحسن، مقالة تحت عنوان: مظاهر ندرة المياه في موريتاني خلال العصر الوسيط، مجلة مصادر التاريخ الموريتاني، العدد (6)، 2017، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الصفحات، ص: 26-79.

الصنهاجية⁶³⁴ ويعتقد أن سبب اختفائها كان الجفاف الذي ضرب المنطقة خلال الفترة التي تميزت بتراجع كميات المياه المتساقطة وتراجع كميات الأمطار الجوفية مما أدى إلى عجز الآبار التي كانت تزود المدينة بالشرب عن توفير حاجيات حيواناتها من المياه، فاضطروا للهجرة عنها، وهذا ما حصل في منطقة الجنوب الشرقي من بلاد الصحراء حيث يقول الناني الحسين: "...اختفت أكبر وأشهر مدينة عرفت هذه المنطقة وهي مدينة أوداغست بسبب ندرة المياه، فقد وصفتها المصادر العربية الوسيطة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين بكثرة الآبار ذات المياه العذبة وأن تلك الوفرة مكنت من امتلاك البساتين ذات المزروعات المتنوعة فضلاً عما كان يوجد بها وحولها من قطعان الماشية ذات الأعداد الكبيرة..."⁶³⁵.

فقد وصف البكري وضع المدينة قائلاً: "...وفي ست وأربعين غزا عبد الله بن ياسين أوداغست، وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير وأشجار الحناء وهي في معظم كشجر الزيتون"⁶³⁶.

وقد عثرت بعض فرق البحث الأثري في أطلال المدينة على قنوات صرف المياه وخزانات يعتقد أنها كانت مستخدمة في ري مزروعات البساتين التي تتحدث عنها المصادر المكتوبة⁶³⁷، أما وضعية أوداغست خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي فيقال عنها: نضبت الآبار فيها وأصبح سكانها يتزودون بالماء من الآبار التي حفرت في مجرى وادٍ يبعد عنهم مئات الأمتار⁶³⁸ وهذا يعني أن مياه الأمطار هي التي تزود المخزون الجوفي للمياه التي يعتمد عليها سكان المدينة، هذه المدينة التي وصفتها المصادر بأنها كبيرة وكانت تستقبل قوافل التجارة العديدة خلال السنة، وتعد وسائل نقلها من الجمال

⁶³⁴ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 351.

⁶³⁵ - الناني الحسين، مقالة سبق ذكرها، مظاهر ندرة المياه، ص: 30.

⁶³⁶ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 344.

⁶³⁷ - نفسه، ص: 355.

⁶³⁸ - Serge, Robert, Archéologie et Bilad Es-sudan, idem, P : 51.

بعشرات الآلاف يصحبها الآلاف من التجار والعمال، فمن المحتمل أن هذا الضغط الكبير والكم الهائل من السكان وحيواناتهم ومزارعهم والقوافل التي تنزود من مياه المدينة، قد أحدث استنزافاً لهذا المخزون الضعيف أصلاً بسبب تراجع كميات الأمطار المتساقطة سنوياً حتى وصل هذا الوضع إلى حالة لا يمكن الصبر عليها من طرف السكان فهجروا مدينتهم بشكل تدريجي⁶³⁹، وغدت هذه المدينة تنتقل من مرحلة ازدهار إلى تراجع مرحلي لتصل إلى الاندثار.

ثانياً: العامل الاقتصادي:

إن تزويد مملكة غانة من مملحة أوليل جلب العائدات الضخمة إلى سوق المدينة، وأدى احتكار أوداغست لهذه المادة (الملح) بغانة إلى استغلال منجم ملح "تانتتال" الذي يرى بعض الباحثين أنه كرس عزلة أوداغست وكان من أعظم أسباب القوة لدى مملكة غانة، بالإضافة إلى انتقال التجار من نفس المدينة للاستقرار بغانة ثانياً⁶⁴⁰.

وكذلك تحول الطريق عن هذه المدينة تتبعاً لنقاط المياه أدى إلى ازدهار بعض الطرق التجارية الأخرى، ونظراً للضعف الذي أصاب المحور التجاري الغربي وضعف السلطة السياسية التي كانت قائمة وتخلي معظم التجار عن السير بتجارتهم إلى أوداغست مما أثر على اقتصادها.

ثالثاً: العامل البشري:

تمثل في النزوح الذي تسببت فيه الظروف الطبيعية الآتفة الذكر، حيث ارتحل الكثير من سكان المدينة في اتجاه مدينة كومبي صالح المجاورة مما أدى إلى قلة الوجود السكاني في مدينة أوداغست.

⁶³⁹ - الناني الحسين، مقالة سبق ذكرها، مظاهر ندرة المياه، ص: 32.

⁶⁴⁰ - أحمد مولود أيد، المدن الوسيطة المندثرة، مرجع سبق ذكره، ص: 84.

ومما سبق يمكن القول إن هذه المدينة الزاخرة بالشواهد الأثرية القائمة حتى عام: 1440هـ لم تحظ بالقدر الكافي من البحوث الأثرية التي من شأنها أن تكشف عن الكثير من الشواهد المادية التي حوتها خلال فتراتها العمرانية خاصة في الفترة المرابطية وعلى هذا الأساس أرى ضرورة استمرارية مواصلة البحوث الأثرية في هذه المدن التاريخية الوسيطة لاكتشاف ما ينير طريق الباحث، ويمكن من الحصول على المعلومات العلمية، رغم ما قدمته البحوث الأثرية السالفة من معلومات وشواهد علمية هامة.

الفصل الرابع: مدينة كومبي صالح (غانه)

المبحث الأول: النشأة والتطور

المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي

أولاً: الموقع

تقع أطلال مدينة كومبي صالح (غانه) على الطريق الرابط بين الحوض الموريتاني وواد النيجر، ضمن سهول تفصل بين كثبان الحوض شمالاً والأراضي الصخرية المرتفعة جنوباً، وتمثل هذه السهول جزءاً من "واكادو" المهد التاريخي لإمبراطورية غانه⁶⁴¹، وقد وقعت في الحوزة الترابية الموريتانية حالياً بموجب التقسيم الاستعماري الفرنسي سنة 1944م و تبعد عن العاصمة الموريتانية انواكشوط: 950 كلم كما تبعد عن مدينة تمبديغة 60 كلم و تقع على خط الطول 7 و 58 غرباً، وخط عرض 15 و 46 شمالاً.

ويوجد بموقع المدينة خرائب لبنانيات ضخمة مشيدة بالحجارة على امتداد واحد كلومتر مربع، وتحيط به مقبرتان كبيرتان تتقارب فيهما المدافن على امتداد 2 كلم⁶⁴² ويتمتع هذا الموقع بأهمية خاصة في إفريقيا الغربية.

وقد حسم الباحث ر. موني (Mauny.R) موقع مدينة غانه سنة 1951 حيث تأكد انطلاقاً من الخزف الإسلامي المطلي إضافة إلى بعض العناصر المادية الأخرى، أن موقع مدينة غانه يتطابق مع ما وصفه البكري في جنوب شرقي موريتانيا على بعد 60 كلم جنوب مدينة تمبديغة، ولا يخلو هذا الموقع من الامتيازات المطلوبة في أهمية المدن، وتقع مدينة كومبي صالح بموقعها الاستراتيجي في أقصى شمال المناطق السودانية على الحدود الجنوبية لمناطق الصحراء⁶⁴³.

⁶⁴¹ زيارة للمتحف الوطني الموريتاني لوحة خاصة بمدينة كومبي صالح رقم 14، بتاريخ: 2018/12/24

⁶⁴² - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 261.

⁶⁴³ - أحمد مولود أيده، المدن الوسيطة المنثرة، مرجع سبق ذكره، ص: 89.

ثانيا: نشأة مدينة كومبي صالح

يرى بعض الباحثين المحليين أن مدينة كومبي صالح (غانه) المندثرة تأسست في القرن الثالث الميلادي من طرف قبائل صنهاجة التي كانت تسكن المنطقة وعلى امتداد دلتا النهر إلى المحيط الأطلسي، وقد تمت سيطرة قبائل المانديه الوثنية عليها خلال القرن السابع الميلادي حيث برزت قوى عظمى مهيمنة على المنطقة متخذة كومبي صالح عاصمة لها ، باسطة نفوذها على مدينة أوداغست وتينبكتو.

ويعتقد الباحثون أن الشطر الإسلامي من مدينة كومبي صالح هو الذي ما زالت آثاره بارزة على السطح، وهو الذي استفاد من عمليات الحفر⁶⁴⁴ في الوقت الذي ما زال مجال المدينة الخاص بالمباني الملكية مجهولا، وذلك لغياب عمليات التنقيب في هذا الموقع، وقد افترض الباحث موني(Mauny) بناءً على ما ذكره البكري في قوله: "...ومدينة غانة مدينتان سهيلتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة... ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة، والمساكن بها متصلة"⁶⁴⁵ و قد قدرها موني(Mauny) بأن المدينتين تبعدان عن بعضهما البعض حوالي 11 كلم، كما يذكر أن مدينة الملك مدفونة على عمق عشرة أمتار تحت سطح الأرض قرب البئر المعروفة باسم " دالي" الواقعة إلى الشمال بانحراف قليل إلى الشرق من أطلال كومبي صالح الحالية (الشطر الإسلامي)، وعلى بعد 10 كلم منها⁶⁴⁶، أما الشطر الإسلامي من المدينة فهو الذي وصفه البكري بقوله "... مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا أحدها يجتمعون فيه، ولها المؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم وحولها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات..."⁶⁴⁷

⁶⁴⁴ - نفسه، ص: 262 .

⁶⁴⁵ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 175.

⁶⁴⁶ - Mauny, Raymond. Les siècles obscurs de l'Afrique Noire, Op. cit. p : 149.

⁶⁴⁷ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 174.

ويلاحظ الكثير من التطابق بين ما تقدمه الأركولوجيا من معلومات مع ما ورد في المصادر الوسيطة⁶⁴⁸.

كما تذكر الروايات الشفهية السودانية بخصوص تأسيس المدينة، أن سكانها وافدون من الشمال وتذهب هذه الأساطير إلى أن أصولهم فرعونية، ويعتقد البعض أن مؤسسي المدينة من اليهود القادمين من الشام، إلا أن هذه الروايات لا تحمل دلائل يمكن الاعتماد عليها، وقد ذكر الإدريسي في القرن 6هـ/ 12م أن ملك غانة هو صالح بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب⁶⁴⁹ ويرى بعض الباحثين أن صالحا هذا هو الذي نسبت إليه المدينة في الاسم وأن الملك انتقل إلى هذه الأسرة بعد نهاية الحكم المرابطي الذي غزا غانة سنة 469هـ/ 1077-76م⁶⁵⁰.

ثالثا: إشكالية التسمية

ورد اسم غانه كاسم للملك وأطلق على عاصمة البلاد، وقد استخدم هذا الاسم حسب ظروف تاريخية معينة، فهي سمة لملوكهم واسم لبلد أوكار، وقد تحدث محمود كعت عن ملوك غانه الأوائل فقال: "... وقيمغ هو الذي بدأ السلطة في تلك الجهة، ودار إمارته غانه، وهي مدينة عظيمة في أرض باغنه..."⁶⁵¹ ويبدو أن صاحب النص يتحدث عن مدينة (قنب) فحرف اسم قنب، إلى كومبي ثم بعد ذلك إلى الصالح أو صالح وهذا الاسم قد يكون اسم عائلي لأحد حكامها بعد الفتح المرابطي التي تعرضت له، وربما تكون الإضافة تقاؤلا أطلق على كومبي صالح⁶⁵² ويرى بعض الباحثين أن كلمة كومبي صالح محل بحث علمي متواصل وذلك للوقوف على حقيقة هذه التسمية حيث تبين لدى البعض الآخر أن الكلمتين تمثلان التقسيم الديني للمدينة.

⁶⁴⁸ - Sékéné, Mody, Histoire de l'Afrique occidentale moyen Age et Temps moderne du ville sa présence Africaine, paris, 1960. p :17.

⁶⁴⁹ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 22.

⁶⁵⁰ - الزهري، كتاب الجغرافية، مرجع سبق ذكره، ص: 182.

⁶⁵¹ - محمود كعت، تاريخ الفتاش، تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص: 38.

⁶⁵² - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 261.

يقول ياقوت في تعريف غانة ما نصه " ... غانة بعد الألف نون، كلمة عجمية، ... وهي مدينة كبيرة في جنوب بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان، يجتمع إليها التجار ومنها يدخل في المفازات إلى بلاد النبر ولولاها لتعذر الدخول إليهم لأنها في موضع منقطع عن الغرب من بلاد السودان، فمنها يتزودون وإليها...⁶⁵³ .



صورة لعملية حفر في مدينة كومبي صالح
المرجع: المتحف الوطني الموريتاني تاريخ الزيارة: 2019/02/03

صورة رقم 27 :

أما الرواية الشفهية السودانية، فقد أجمعت هي الأخرى على اعتبار كومبي هي مدينة غانة التي كانت تتكون من ثلاثة أجزاء، كومبي كالاتي، كرسي الملك، وكومبي صالح وهي مدينة تجار المسلمين، وكومبي ديوفي: المدينة الخاصة بالمواشي والعبيد.

(1) مدينة غانة الوثنية:

⁶⁵³ - ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي، معجم البلدان، ج(4) دار صادر بيروت، 1977، ص: 183.

ورد ذكر هذه المدينة في المصادر العربية القديمة، فقد ذكرها اليعقوبي في القرن (3هـ/9م) باسم مملكة غانة⁶⁵⁴، وعرفت بأنها أول بناء سياسي كبير في السودان الغربي، واتخذتها القبائل السونونكية دولة توجد بين أعالي نهر السينغال والنيجر في منطقة يطلق عليها واغادو، وهذا الاسم "غانة" الذي يطلق على الملك والعاصمة احتفظت به خلال فترات متعددة⁶⁵⁵، وقد ذكر البكري في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أن مدينة "غانة" مدينتان مدينة الملك السوداني، ومدينة التجار المسلمين⁶⁵⁶، أما ابن حوقل فقد وصف ملك غانة بأنه الأغنى في الأرض بفضل ذهبه⁶⁵⁷.

ولم تكن كومبي صالح بأحسن حظ من مثيلتها أوداغست في الذاكرة الجماعية المحلية، بل نالت قسطها من النسيان، إلا أن ذكر هذه المدينة ورد عند الباحثين السودانيين المؤرخين فحددوا أن الاسمين هما كومبي ديوفي و"كومبي صالح"⁶⁵⁸، واستخلصوا من هذه الأسماء قراءات متعددة منها كنبى، كمب، كومبي.

ولم تحظ مدينة الملك الوثنية بالبحوث الأثرية، بل تم الاعتماد في أخبارها على ما ذكره البكري حيث قال: "فهي تبعد ستة أميال من مدينة التجار المسلمين وتسمى بالغابة، مبانيهما متصلة أو مبنية بالحجارة وخشب السنط، وللملك قصر وقباب، وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور، وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك، وحول مدينة الملك قباب وغابات يسكن فيها سحرتهم..."⁶⁵⁹ هذا الوصف الذي ذكر به البكري كاف لمعرفة بعض الشواهد التاريخية على وجود هذه المدينة والمتمثلة في شقها الوثني الذي كان قائما، لكن الأركيولوجيا لم تقف على شيء من بقايا هذه المدينة

⁶⁵⁴ - اليعقوبي، البلدان، مصدر سبق ذكره، ص: 144.

⁶⁵⁵ - ربير فرني، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، مرجع سبق ذكره، ص: 176.

⁶⁵⁶ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 175.

⁶⁵⁷ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 408.

⁶⁵⁸ - محمود كعت، تاريخ الفتاش، مصدر سبق ذكره، ص: 43.

⁶⁵⁹ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 175.

حتى الساعة، ، ولا تسعفنا المصادر بما يدل على أسباب هذا الاختفاء، ولعل بعض الباحثين يرى أن أسباب الاختفاء تعود إلى التحرك المراتبي الذي كان يهدف إلى القضاء على الوثنية وما يترتب على ذلك من أنماط معيشة في هذه المدينة كتعاطي الجماعات الساكنة بها للكثير من أمور السحر كعقيدة ثابتة لدى السودانيين في غرب إفريقيا ككل.

وعرفت غانة بالخصوص نصيبها من ذلك، علاوة على تفشي ما يناقض العقيدة الإسلامية التي تستهدف تطهير المجتمعات من تلك الشوائب المعيشة.

(2) مدينة غانه الإسلامية (مدينة التجار)

يرى بعض الباحثين أن الأطلال الموجودة اليوم في مدينة كومبي صالح هي بقايا غانه الإسلامية (مدينة التجار) التي أخذت مكانة المدينة الوثنية المعروفة "بالغابة" والتي كانت تسكنها الجماعات السوننكية، ويعيش بها الملك الوثني بما تحتويه من طقوس وعادات تنافي الإسلام، الشيء الذي أتاح التعايش بالمدينة الجديدة "كومبي صالح" وقد ساعد دخول المرابطين سنة 469هـ/1077م على الاحتفاظ بالمدينة التجارية وتوطيد دعائمها التجارية، مما نتج عنه خراب المدينة الوثنية والتحول عنها إلى "كومبي صالح".

ويرى بعض الباحثين أن المعالم الأساسية في الشطر الذي حدده البكري كافٍ أن يساعد على البحث عنه للتعرف عليه، وينطبق ذلك على القبور أيضا للملوك التي يميز شكلها عن بقية مدن غرب إفريقيا، وتوجد تلك القبور داخل الغابة المقدسة التي توجد على مشارف المدينة "...وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم ولتلك الغابات حرس، ولا يمكن لأحد دخولها ولا معرفة ما فيها، وهناك سجون الملك، فإذا سجن فيها أحد انقطع عن الناس خبره"⁶⁶⁰، وكانت قبور الملوك على شكل أكوام مخروطية الشكل، تشبه القبور الفرعونية، إلا أنها تختلف عنها

⁶⁶⁰ – Mauny. Siècles Obscurs.op.cit. p150

لكونها مشيدة بالأخشاب والتراب بدلا من الحجارة، ويتحدث البكري عن طريقة تشييد تلك القبور ومراسيم دفن ملوك "غانة"⁶⁶¹، فيقول: "...إذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج، ووضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش، فأدخلوه في تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة، وأدخلوا معه رجالا ممن كانوا يخدمون طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة، وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة ثم اجتمع الناس حولها حتى لا يصل إلى ذلك الكون إلا من موضع واحد"⁶⁶²، ويبدو من خلال تغير حدث على هذه القبور أنها تعرضت للنهب بعد فقدانها لقدسيتها، فتغير شكلها الهرمي إلى شكل مسطح بفعل التآكل مما يجعل حظ التعرف على الجزء الملكي منها ضئيلا⁶⁶³.

وظلوا يقدسون أسلافهم ويجعلونهم مصدر عاداتهم وتقاليدهم، كما يرون في معتقداتهم أنه من حاد عن ما سنه الأجداد من تقاليد أوقعوا به الشر، ومن التزم بذلك أحاطوه بالرعاية ووجهوه إلى الخير، مما جعلهم يتقربون إلى أسلافهم بالذبائح عند القبور، وظلوا ملتزمين بعبادتهم حتى منتصف القرن 11م حيث وصف البكري المجتمع الغاني بقوله: "...وهم يذبحون لموتاهم ويقربون لهم الخمر..."⁶⁶⁴.

كما تسعى بعض الجماعات الصغيرة إلى التميز داخل المجموعة الكبيرة، وذلك بتنوع المعبود لدى السودانيين في غرب إفريقيا، ولا يكاد يوجد أي تصرف في حياتهم مهما كانت قيمته إلا نابع من موقف ديني حتى على مستوى الأعمال الفنية مثل الحجارة المنحوتة والتي توجد في السينغال، وتونديارو، والماندي⁶⁶⁵... إلخ".

⁶⁶¹ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، نفس المدر، ص: 175.

⁶⁶² - نفسه، ص: 176.

⁶⁶³ - Mauny. Siècles Obscurs. Op. cit. . p : 384.

⁶⁶⁴ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب ، مصدر سبق ذكره، ص: 173..

⁶⁶⁵ - Mauny. Tableau Géographique. Op. cit. p : 520.

وكان العامة يرجعون إلى السحرة بوصفهم الممثلين لطبقة رجال الدين فيزودونهم بالتماائم والطلاسم الوثنية ويتمتمون بتعاويز يعتقدون أنها طاردة للشر وبإمكانها إصابة العدو بمكروه يحدده الساحر، كما تستخدم لجلب الخير والسعادة⁶⁶⁶، مما يسمح بالقول إن السحر لعب دورا هاما في حياة سكان غرب إفريقيا⁶⁶⁷، كما كان الاحتكاك الذي حدث بين سكان الصحراء والسودانيين عن طريق التنقل التجاري أثر بالغ في تغيير المعتقدات الدينية، حيث انتقلت المجوسية إلى غرب إفريقيا كما أشارت بعض المصادر الوسيطة إلى ذلك، فكان بعضهم يعبد القمر، والبعض الآخر يعبد النار ويحرص على بقائها مشتعلة أبدا، وقد خصها بعض الملوك السودانيين بحراسة مشددة حتى لا تخمد، واعتبروا هذه النار المشتعلة رمزا لحياتهم وبقاء سلطانهم⁶⁶⁸. بالإضافة إلى انتقال الديانتين النصرانية واليهودية عن طريق العلاقات التجارية، إلا أنها لم تنتشر على نطاق واسع بل ظلت محصورة في حيز جغرافي ضيق وخلال فترة وجيزة⁶⁶⁹، وهذا ما يوضح مدى ترابط المنطقتين ببعضهما عن طريق الصلات التجارية العريقة، وقد انتقلت المجوسية كديانة إلى السودان عن طريق أفراد صنهاجة الوافدين إلى بلاد السودان قبل دخول الإسلام، إلى أن أقدم الجيش الأموي في صدر الإسلام على فتح غانة، وحافظ على خصائصه باستثناء ما يتعلق بالدين⁶⁷⁰.

ومما سبق، يمكن القول إن هذه الديانة التي انتشرت في بلاد السودان والمختلفة على معبودها حسب مناطقها والمنطقة في الشرك دفعت بالمرابطين إلى استهداف السودان بشكل عام لنشر تعاليم الإسلام والقضاء على تلك الأصنام والأوثان المنتشرة في جميع المدن بما في ذلك مملكة غانة، وقد اتخذت الدولة المرابطية الجهاد للسيطرة على بعض المدن التجارية بوصفها هي عصب الحياة في السودان ليتم من خلالها نشر المذهب المالكي على أكبر رقعة وقد تم

⁶⁶⁶ - حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام - مرجع سبق ذكره، ص: 53.

⁶⁶⁷ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 296.

⁶⁶⁸ - نفسه.

⁶⁶⁹ - نفسه، ص: 44.

⁶⁷⁰ - ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، المجلد: 6، ص: 371.

لهم ما أرادوا من خلال بناء المساجد في تلك المدن ونشر التعاليم الدينية وتدريس القرآن، وقد قاد الأمير المرابطي أبو بكر بن عمر جيوش المرابطين في اتجاه السودان رافعا راية الجهاد حتى استشهد في تلك البلاد سنة 468هـ ودفن في تكانت في مكان يعرف بـ"مكسم بوبكر بن عامر".

(3) مدينة المواشي(كومبي جوفي):

يعتقد الباحثون أن مدينة المواشي هي مرابض الحيوانات والفئات المهمشة اجتماعيا والتي كانت عادة سائدة في المدن الوسيطة، حيث تفرض المدينة على أصحاب الحرف والأنشطة المزعجة للسكان(الصباغة والحدادة وإبواء المواشي) الابتعاد عن وسط النسيج الحضري، وذلك استجابة لفتاوى فقهاء مالكيين تقرر ضرورة إبعادهم، وإذا ما صح الاعتقاد الذي افترضه مونى(mauny) استنادا إلى حفريات مكتشفة(حجارة وبنائات طينية) في موقع قريب من كومبي صالح فإنه يمكن القول إن الأطلال المكتفة تعود لمدينة كومبي جوفي و أن مدينة كومبي صالح كانت تشترك مع بعض المدن الإسلامية في هذه القرارات.

المطلب الثاني: تصميم المدينة

أولا: العمارة الدينية

1- المسجد

شكلت المساجد بكومبي صالح استثناء للقاعدة القائلة إن نتائج الحفريات تتطابق مع وصف المصادر الوسيطة وذلك أنه لم يعثر إلا على مسجد واحد من بين تلك المساجد الاثني عشر التي ذكرها البكري⁶⁷¹، ويقع هذا المسجد على جانب الطريق الرئيسي قبالة الساحة الكبيرة شرقا، وقد ذكر أحد هواة الإركيولوجيا أن أجزاء من محراب الجامع ما تزال قائمة سنة (1914م) مع أن جدرانه منهارة، أما الباحث مونى الذي قام بأول حفريات أثرية بكومبي

⁶⁷¹ - ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، المجلد: 6، ص: 175.

صالح سنة (1949م) فقد ذكر أن المحراب لم يعد ظاهرا وأن أنقاض هذا البناء استوت مع الأرض⁶⁷²، و حددت الدراسة أبعاد مساحته التي تبلغ 46 مترا طولا و 23 مترا عرضا، فهو يشكل مستطيلا يتألف من جزأين، بيت الصلاة بالإضافة إلى صحن مكشوف⁶⁷³، وقد اهتم فريق تكداوست سنة (1971م) بوضع مخطط لهذا المعلم، كشف فيها عن أجزاء هامة من المحراب، لكن هذه النتائج لم تنتشر بعد⁶⁷⁴، ويشكل المحراب عقدة تحيط بمداخله من الجانبين كرأس لأعمدة صغيرة، كما كشفت البحوث الأثرية عن الرواقين الأماميين من أروقة بيت الصلاة وهما صنفان من كراسي الأعمدة التي كانت تحمل السقف وهي عبارة عن قواعد صلبة من حجارة النضيد تعلوها رقبات أسطوانية من الحجارة، ويبدو أن الأعمدة غير قادرة على الصمود كثيرا لرفع السقف فلا تتحمل ذلك كثيرا، وقد حفظت المنطقة المحاذية لجدار القبلة من الخارج بالتبليط خوفا من تأثير السيول، وقد وضعت على جدار القبلة من الخارج والداخل ألواح مزخرفة برسوم وكتابات، كما يتألف هذا المخطط الجامع من بيت للصلاة وصحن⁶⁷⁵. ورواق يطل على ذلك الصحن.

⁶⁷² – Mauny. Tableau Géographique p.27.

⁶⁷³– Ibidem.

⁶⁷⁴– Ould Cheikh, Abdel Wedoud et LAMARCHE B., Deux villes anciennes de Mauritanie : Ouadane et Chinguetti, Nouakchott, 1995. p :17.

⁶⁷⁵ – محمد عبد العزيز مرزوق، الفن الإسلامي، مطبعة اسعد، 2015، ص: 399.



صورة رقم 28 : أطلال مسجد كومبي صالح

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

و يستلهم المسجد تصميمه من الجوامع المغربية، و ذهب الباحث موني (Mauny) إلى أن الصحن المكشوف يدل على تأثره بالجوامع الموجودة في الصحراء والسودان⁶⁷⁶.

2- الكتاتيب (دور المحاضر)

لم تكن الكتاتيب (دور المحاضر) إلا جزءا من المساجد في تلك الفترة خاصة وأن المدرسين للقرآن والعلوم الدينية الأخرى كانوا يقيمون الدروس في المسجد أو بجواره في الأماكن القريبة منه، ولم تساعد البحوث الأثرية التي أقيمت بهذه المدينة على اكتشاف تلك الأماكن ويعود ذلك إلى عدم البحث في هذا المجال مما صعب الوصول إلى معلومات مفيدة.

ثانيا: العمارة السكنية

1- المنازل:

لقد تحدثت المصادر التاريخية عن مدينة كومبي صالح ودورها كمركز تجاري هام أثناء الفترة الوسيطة وعن قوة العمران والاستقرار وصلابة البنيان الذي قاوم عاديات الزمن على

⁶⁷⁶– Mauny ,Tableau Géographique. p : 473.

مدى قرون عديدة⁶⁷⁷، كما ساهمت الطبيعة الصخرية التي تمتعت بها المدينة باستخدام الحجارة في البناء بشكل واسع، وتمكن البنّاءون من إعداد قطع (الشست)⁶⁷⁸ وإعدادها وتقطيعها بسهولة على امتداد تاريخ المهن الخاصة بالبناء واقتلاع الحجارة مستقيمة على شكل ألواح، ومكنت هذه الحجارة من إعداد جدران وأبنية جميلة⁶⁷⁹.



صورة أثرية لمنزل مكشوف في مدينة كومي صالح
المرجع: المتحف الوطني الموريتاني، تاريخ الزيارة: 2019/02/03

صورة رقم 29 :

وقد أخذت المدينة الطابع الحضري الذي يميزها عن غيرها حيث كشفت معاول الأثريين عن أجزاء متفرقة منها تمثلت في الكثير من الأبنية المصممة على أنساق مختلفة، وأثبتت البحوث الأثرية التي أنجزت سنة (1949 . 1951م) قد أثبت أن الحفريات تتطابق في الوصف مع ما ورد في المصادر الوسيطة⁶⁸⁰.

⁶⁷⁷ لوحة بالمتحف الوطني الموريتاني بنواكشوط خاصة بمدينة كومي صالح، نفس الزيارة السابقة.

⁶⁷⁸ الشست: حجر توجد منه عينات بالمتحف الوطني أطلعت عليها في نفس الزيارة السابقة وهو عبارة عن صخر مرن يمتاز باللينة وسهولة التقطيع وهو من الصخور ذات المظهر المميز.

⁶⁷⁹ - لوحة بالمتحف الوطني الموريتاني بنواكشوط خاصة بمدينة كومي صالح، نفس الزيارة السابقة، 2019./10/08 .

⁶⁸⁰ - Mauny. Tableau Géographique ... op. cit. p : 473.



صورة أثرية لأطلال مدينة كومي صالح
المرجع: المتحف الوطني الموريتاني، تاريخ الزيارة: 2019/02/03

صورة رقم 30 :

وأكدت هذه الدراسات الأثرية، على كثافة عدد المنازل وتلاصق بعض جدرانها فيما بينها، وقد أحصت الباحثة " برتية " أكثر من ستين مجموعة من الوحدات السكنية تفصل بينها الطرق والممرات⁶⁸¹.

وكانت بها مبان ضخمة، مكونة من عدة طوابق وغرف وكانت هذه الطوابق خاصة بالسكن⁶⁸²، وكانت أرضية الغرف مبلطة بألواح صخرية مرصوفة بشكل دقيق وهي متراصة لكن لا يلاحظ أي ترابط فيما بينها إلا بالتأمل الشديد، و يبلغ طول الصخرة التي تشبه اللوح 2م⁶⁸³ وكانت غرف المنازل واسعة وجدرانها مرتفعة⁶⁸⁴.

2- الطرق والممرات:

⁶⁸¹– Mauny. Tableau Géographique ... op. cit. p : 473.

⁶⁸²– Sékéné, Mody. Op. cit. p : 17.

⁶⁸³– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 175.

⁶⁸⁴– Sékéné, Mody. Op. cit. p : 17.

كانت مدينة كومبي صالح كبيرة و تتوفر على شوارع رئيسية متسعة⁶⁸⁵ وتتفرع من هذه الشوارع ممرات ثانوية تسهل عملية التنقل داخل المدينة، وقد برز مخطط المدينة المعماري من خلال المنطقة الأثرية حيث وجدت نواة المدينة المركزية، تتفرع منها ثلاث طرق غير مستقيمة ذات اتجاهات متعددة، ويقع الشارع الرئيسي في الجزء الجنوبي ويتجه نحو الساحة الكبيرة، ثم يعرج قليلا إلى الجهة الجنوبية الشرقية، ويبلغ عرض هذا الشارع 12 مترا، وترتبط الطرق الثلاثة بشبكة الممرات.

3- السوق والسور

توجد السوق المركزية للمدينة في الساحة الكبيرة على جانب الشارع الرئيسي التي كانت المحلات التجارية على امتداده، وهذه الساحة يمكن أن تكون مكان إناخة الإبل وإفراغ حمولة القوافل، وحمل البضاعة، وكذلك التموين، وعثر في هذا المكان على أدوات للكيل والأوزان تنتمي لنفس الأصناف الموجودة ببلاد الغرب الإسلامي في العصر الوسيط⁶⁸⁶.

ونظرا للنقص الحاصل في النتائج التي قدمتها البحوث الأثرية التي أجريت على موقع المدينة فلم يعثر على بقايا السور بشكل واضح ورغم ذلك فقد ذكر الباحث موني (Mauny) أنه وقف على بقايا السور للمدينة لكن الصور الجوية التي قام بها لم تؤكد ذلك⁶⁸⁷، إلا أن الباحثة صوفي برتييه (s) (Berthier) أكدت أن المدينة كان يحيط بها سور ما زالت بقاياه واضحة في الجهة الجنوبية الغربية⁶⁸⁸.

4- مواد البناء

⁶⁸⁵– Ki-Zerbo, Joseph. Histoire de l'Afrique Noire. D'hier à Demain . In: Revue française d'histoire d'outre-mer, tome 61, n°222, 1er trimestre 1974. pp. 158-159.

⁶⁸⁶–Mauny. Tableau Géographique ... op.cit. p : 384 .

⁶⁸⁷– Ibidem.

⁶⁸⁸– Sophie, Berthier. Recherches archéologiques sur la capitale de l'empire de Ghana : étude d'un secteur d'habitat à Koumbi Saleh, Mauritanie : campagnes II-III-IV-V (1975-1976)-(1980-1981). Archeopress, 1997.p :1.

تميزت العمارة في المدن الصحراوية باستخدام الحجارة في البناء، واللافت للانتباه في مدينة كومبي صالح بالذات هو اعتمادها على البناء بالحجارة خاصة وأن الموقع الذي تميزت به المدينة ينتمي جغرافيا لبلاد السودان في تلك الفترة الوسيطة قبل أن تكون ضمن الحوزة الترابية لموريتانيا الحالية، ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا تعتمد هذه المدينة على الحجارة في البناء؟ في الوقت الذي يستخدم اللبن والطين كأساس للبناء تركز عليه العمارة السودانية⁶⁸⁹، خلافا للعمارة العربية والبربرية الصحراوية التي توظف الحجارة في البناء.

تعتبر أطلال كومبي صالح هي الموقع الوحيد ببلاد السودان الذي استخدم الحجارة بشكل كبير في إعمار المدينة، ويبدو أن هذا الاستخدام راجع إلى العمارة التاريخية المحمولة عن طريق التجار القادمين من مستوطناتهم للاستقرار في هذه المدينة التجارية نظرا لتحكم الظروف المناخية في الجوانب العمرانية وما أملت الحضارة السودانية من تأثير طبع المدينة بطابع الخاص.⁶⁹⁰

وقد اتحدت المدينتين المتقاربتين أعني كومبي صالح وأوداغست على مستوى التقنيات المستخدمة في بناء الحجر، إلا أن النمط المعماري لمدينة كومبي صالح كان تقنيا النمط المعماري في مدينة أوداغست، ويتجلى ذلك في ثلاثة جوانب، ويعتبر ذلك من نضج التجربة الحضرية لمدينة كومبي صالح⁶⁹¹.

5- الخصائص المعمارية للمدينة

(أ) الزخرفة:

استخدمت كوى حجرية ذات الأشكال الهندسية كسجل زخرفي معماري متميز، في صفوف متراصة ومتراتبة أحيانا في واجهة المنازل، وفي داخلها، وبالمنشآت العامة.

⁶⁸⁹ - محمد عبد العزيز مرزوق، الفن الإسلامي، مرجع سبق ذكره، ص: 394.

⁶⁹⁰ - Berthier. Recherches Archéologiques . op. cit. p:103.

⁶⁹¹ - Ibid. P :45.



صورة رقم 31 : صورة كوة حجرية بكومبي صالح

المرجع: المتحف الوطني الموريتاني تاريخ الزيارة: 2019/02/03

كما وجدت مساحات مبلطة بواسطة حجارة النضيد وعتيبات وأرضيات وأعمدة وسلالم.

يبرز تباين ألوان الحجارة في الواجهات، إذ يضيفي التباين غير الحاد بين الأحجار المستخدمة في البناء ذات اللون البني والفاتح، رونقا جماليا فريدا على تلك الواجهات.

وأبرز هذه العناصر المعمارية "كوى" ذات الأشكال الهندسية المثلثة، والمربعة، والمستطيلة، وقد ورثت الحواضر المحلية المتأخرة (ولاتة، تيشيت، وادان وشنقيط)⁶⁹²، التراث الثقافي المعماري لمدينة كومبي صالح.

وانتشرت "الكوى" المثلثة انتشارا واسعا كتراث ثقافي معماري، مما يوحي بأن ظهورها كان في وقت لاحق للقرن 5هـ/11م، هذا ما اتضح من خلال المستوى العمراني الثاني أي بداية دخول العمارة العربية والبربرية إلى موقع كومبي صالح، بعد انتقال الجاليات التجارية إليها من آوداغست⁶⁹³، مما أصاب الباحث (ر) موني (R) Mauny ، بالذهول من التشابه الحاصل في أنماط العمران بين المدينتين (كومبي الصالح وأوداغست) ويرجع ذلك إلى نقل الجاليات التجارية لعمارة آوداغست المتأثرة بالعمارة الشمالية المنقولة هي الأخرى من طرف تجار

⁶⁹² - محمد عبد العزيز مرزوق، الفن الإسلامي، مرجع سبق ذكره، ص: 184.

⁶⁹³ - Mauny. Etat actuel . op. cit. p : 472.

الشمال المستوطنين بها كمرحلة أولى لتصل في المرحلة الثانية إلى كومبي صالح معتمدين مادة الحجارة⁶⁹⁴، ونفس التقنيات عن طريق رصها بدون ملاط، باستثناء المؤسس عليها والتي يتم ربطها عن طريق مواد طينية، وقد توفرت في هذه المنطقة عينات من الحجارة الجيدة وتطورت حسب المستويات العمرانية، وقد اتخذت تقنيات لهندسة الحجارة وصقلها وتجهيزها لتناسب البناء المطلوب⁶⁹⁵، بالإضافة إلى النقوشات وشمسيات الزجاج، و يعتبر الإرث الذي خلفته مدينة كومبي صالح من النقوش والزخارف الحجرية " للكوى " ذات الأشكال المختلفة⁶⁹⁶ كنزا استفادت منه المدن الصحراوية التي نقل إليها لاحقاً.

وقد تميزت مدينة كومبي صالح عن نظيراتها من المدن الصحراوية في العصر الوسيط بزخرفة " الكوى " الحجرية، وقد انتشرت في المدن العتيقة المتأخرة، وهي عبارة عن امتزاج المؤثرات الحضارية العربية والسودانية، وقد اختلفت أسماؤها مع أشكالها حيث سميت " الكوى " ذات الشكل المربع أو المستطيل " كوة " وهو اسم عربي فصيح، أما الكوى ذات الشكل المثلث " كناكا " وهذا الاسم يمكن أن يكون بلهجة سودانية⁶⁹⁷، وتوجد في الواجهات كزخرفة، وفي داخل المنازل ، وفي الأعمدة، وقد استخدمت لزخرفة الأماكن العامة أيضاً وقد ينتمي ذلك الاستخدام للمستوى العمراني الثالث لمدينة كومبي صالح، وبالإضافة إلى ذلك الزخرف الجمالي، فهي أساس التهوية، فضلاً عن جعلها مكاناً لوضع بعض الأغراض الصغرى للاحتفاظ به عند الحاجة، وقد ميزت صوفي برتية الباحثة في هذا المجال⁶⁹⁸ من خلال حفرياتها، أربعة أشكال من "الكوى" بكومبي صالح:

. كوى مستطيلة أو مربعة متراسة على ظاهر الجدران.

⁶⁹⁴ – Mauny. Etat actuel . op. cit. p : 472.

⁶⁹⁵ –Berthier. Recherches Archéologiques . op. cit. p : 102.

⁶⁹⁶ –Ibidem.

⁶⁹⁷ – أحمد مولود أيده، المدن الوسيطة المنذرة، مرجع سابق، ص: 66.

⁶⁹⁸ – Berthier. Recherches Archéologiques . op. cit. p : 40 .

. كوى مثثلة متراصة على ظاهر الجدران.

. كوى مستطيلة تحتوي على خلفية متأخرة عن ظاهر الجدران، ويعتبر هذا الشكل الأكثر انتشارا بكومبي صالح.

. كوى مكونة أشكالا مركبة وتجمع أنماطا متراكبة.

وقد أشارت الباحثة صوفي برتييه إلى أن هذه الزخارف هي رواسب من الفن الصحراوي للعصر الحجري القديم التي استخدمت في زخرفة "قرى اظهر تيشيت" التي بلغ عددها 250 قرية عرفتها المنطقة خلال تلك الحقبة الزمنية⁶⁹⁹.

وقد رأى الباحث (ر) موني (R) Mauny أن الأنماط الثقافية المعمارية في بلاد الصحراء والساحل والتي انتقلت من المدن الوسيطة إلى المدن المتأخرة، إنما هي نموذج من العمارة الشمالية الإفريقية البدائية، قبل دخول المؤثرات الفنية الأندلسية، إذ كانت بعزلتها تتقي عدوى المؤثرات الخارجية⁷⁰⁰، ومنذ الحكم المرابطي في القرن (5هـ/11م) تعززت المثاقفة بين بلاد المغرب والصحراء والأندلس لتنتقل المؤثرات الفنية الأندلسية إلى المغرب ومنها إلى الصحراء⁷⁰¹.

إلا أن بعض الباحثين لم ير أي تأثير بالفن الأندلسي في المدن الصحراوية الوسيطة، بل كانت المؤثرات التي جلبت إلى هذه المدن أقواها تأثيرات الفن المغربي بالدرجة الأولى خلال الفترة المرابطية، ولعل ذلك يرجع إلى الاستيطان الذي شهدته هذه المدن من طرف بعض التجار القادمين من الشمال، وذلك ما شهدت عليه بعض المقتنيات المادية التي وجدت في هذه المدن أكثرها بالتحديد الأواني الخزفية والحلي⁷⁰²... إلخ.

⁶⁹⁹ – Mauny. Tableau Géographique ... op. cit. p :57 .

⁷⁰⁰ – Ibid. p : 490.

⁷⁰¹ –Marcais. l'Architecture Musulmane d'Occident. Paris .A.M.G. 1955. P : 187.

⁷⁰² –Berthier. Recherches Archéologiques . op. cit. p:34.

وقد كشفت " صوفي برتييه (s) (Perthier)"، عن تأثير كومبي صالح في بعض جوانبها العمرانية السكنية بعمارة إقليم المزاب في المغرب الأوسط، وهذا ما أكدته أبحاث ليفيسكي (Leviski) على عمق الروابط التجارية الروحية بين التجار في غانة والتجار في المزاب في العصر الوسيط⁷⁰³، فقد كانت حاضرة وارجلان (وركله الحالية) أعظم حواضر المغرب الأوسط وله صلات تجارية ثابتة مع غانة وهذه الروابط من الممكن أن تعزز فكرة انتقال وانتشار تلك الأنماط المعمارية مع تجار القوافل⁷⁰⁴.

ب) المواد الخزفية والزجاجية

والى جانب الفن المعماري المتميز في مدينة كومبي صالح، فقد وجد الكثير من شظايا الخزف، والأواني المتعددة الأشكال والأحجام المتميزة بالرقعة والطلاء، وهذا الشكل صنفه الأثريون بأنه صناعة محلية إضافة إلى أشكال مستوردة من شمال إفريقيا والأندلس⁷⁰⁵.



صورة رقم 32 : خزفيات من كومبي صالح

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

كما استعمل أهل هذه المدينة الزجاج المحلي والمستورد في صناعة حلي النساء (الخرز) مما يدل على النشاط الحضري الذي وصلت إليه المدينة في تلك الفترة، ويبرز ما احتوت عليه من الطاقة الإنتاجية وحجم الاستهلاك في إطار اقتصاد مفتوح على الخارج بواسطة

⁷⁰³ - أحمد مولود أيده، المدن الوسيطة المندثرة، مرجع سبق ذكره، ص: 101.

⁷⁰⁴ - نفسه

⁷⁰⁵ - زيارة للمتحف الموريتاني يوم: 2019/02/04.

القوافل التجارية، كما اكتشف العديد من الآلات الزراعية الحديدية التي تشبه الآلات المستعملة في الساحل الإفريقي في الفترات المتأخرة، وكذلك بعض القطع المستعملة بتجهيز الخيول⁷⁰⁶، مما يفهم منه أن الحديد والفرس وفرا لإمبراطورية غانة الوسائل الضرورية للسيطرة على إمبراطورية زراعية ذات ميول تجاري.



صورة رقم 33 : صورة خزفية (قدر ماء) كومبي صالح

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

ثالثاً: المقابر

يتجلى عظم حجم المدينة المندثرة من خلال مقبرتين كبيرتين في أطرافها خارج النسيج الحضري، توجد الأولى شمال غربي المدينة، وتمتد نحو 1600 متر على 800 متر، وقد درس بها الباحث (ر) موني (R) Mauny و(ب) توماسي (Tomassi) معلماً جنائزياً ذو خصائص معمارية فريدة (القبر ذو الأعمدة⁷⁰⁷)، أما المقبرة الثانية فتقع جنوب شرقي أطلال المدينة وتمتد نحو 700 متر على 4000 متر تقريباً، ويطلق على هذه المقبرة اسم مقبرة "الصحابي" رفيق الأمير أبي بكر بن عمر الذي سقط أثناء غزو المرابطين للمدينة سنة 469هـ/76-1077م⁷⁰⁸ و يطلق عليه حالياً قبر الصحبي.

⁷⁰⁶ - مجموعة الشواهد المادية المذكورة في الصفحة توجد بالمتحف الموريتاني تم إطلاعي على القطع الأثرية (الأواني، والحلي، وآلات الحديد الزراعية) ألواح الشست تحمل عبارات دينية وهندسية، وزرد مكتشف عن طريق الصدفة.

⁷⁰⁷ - أحمد مولود أبده، المدن الوسيطة المندثرة، مرجع سبق ذكره، ص: 106.

⁷⁰⁸ - الهادي الدالي، الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الإسلامية بغرب إفريقيا، دار حنين للطباعة والنشر، بيروت 1996، ص: 28.

المبحث الثاني: أدوار المدينة

المطلب الأول: الدور السياسي

تتميز الحالة السياسية لغانة قبل الإسلام بنظام حكم مركزي لكن بعض المناطق، كانت تتميز بوجود حكم وراثي يقتصر على أسرة واحدة تتوارث حكم المنطقة، كما كانت بعض المناطق إن أتيحت لها الفرصة تعلن استقلالها عن السلطة في العاصمة كومي كالاتا⁷⁰⁹، وكانت أول حكومة قامت في غانة من البيض حوالي القرن الأول الميلادي ثم صارت ذات بأس وقوة خلال القرن الرابع الميلادي⁷¹⁰.

وتذكر بعض الروايات في المصادر أن جماعة من المهاجرين من البيض الساميين قدمت من الشرق أو من شمال إفريقيا أو من برقة بصفة خاصة، ثم استقرت في منطقة أوكار وسط مجموعة من الزوج تتكلم لغة " الماندي " وأغلب هذه المجموعة من السوننك، وكان نزوح هذه المجموعة أقرب إلى الهجرة السلمية واختلطت بالسوننكيين الوطنيين حتى تغير لونها بطول الزمن، ويقول السعدي عن حكام غانة الأوائل "... وهم بيضان في الأصل غير أن الشك يدور حول أصولهم الغامضة، هل هم من اليهود أم من البربر؟"⁷¹¹.

وقد ذكر السعدي في معرض حديثه عن سلطان غانة وحكامهم الأوائل فقال: "... وأول سلطان في تلك الجهات هو قيمغ ودار إمارته غانة وهي مدينة عظيمة في أرض باغنه، وقيل إن سلطتهم كانت قبل البعثة النبوية الشريفة⁷¹²، ورغم اختلاف الآراء حول هؤلاء البيض فإن البعض يرجح أنهم من البربر الذين اختلطوا بالزوج وكانت صلتهم قديمة، ثم إن أهل غانة أنفسهم يقولون إن أسرة بربرية كانت تحكم بلادهم منذ زمن بعيد، وفي نهاية القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، استطاعت أسرة من سوننك وهي أسرة "سيسي" طرد

⁷⁰⁹ - الهادي الدالي، الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الإسلامية بغرب إفريقيا، دار حنين للطباعة والنشر، بيروت 1996، ص: 28.

⁷¹⁰ - حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص: 96.

⁷¹¹ - عيد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص: 9.

⁷¹² - نفسه.

أسرة البيض الحاكمة دولة كيمغ، وكانت هذه الأسرة الجديدة تتحكم في منطقة واكادو⁷¹³، و في هذا الباب يقول محمود كعث: "...ثم أفنى الله ملكهم وسلط أرادلهم على كبرائهم من قومهم واستئصالهم، وقتلوا جميع أولاد ملوكهم حتى بقروا بطون نسائهم ويخرجون الأجنة ويقتلونهم"⁷¹⁴.

وبذلك استتب الأمر لأسرة "سيسي" وانتهى حكم البيض.

وقد أطلق لقب قيمغ أو ملك الذهب على جميع حكام غانة التي هي أرض الذهب منذ عهد الحكومة الأولى حتى اختفاء غانة من مسرح الأحداث.

خضعت لهذه الإمبراطورية عدة أماكن منها مدينة ولاته وامبارة وكوغة، وبهذا التوسع كانت لها رقعة جغرافية كبيرة، بحيث شملت جميع المساحات الواقعة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسي وكذلك بعض القبائل الصحراوية الجنوبية، وقد استمرت أسرة السوننكه في حكمها لإمبراطورية غانة حتى القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي⁷¹⁵، إذا ما استثنينا من ذلك الفترة التي سيطر المرابطون على غانة (469-480هـ) (1076-1087م).

وأشهر أسماء الملوك المتعاقبين على سلطة غانة:

ينتجوي دكورو حكم حوالي (147هـ-790م)

. تكلان حكم في مطلع القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي

. ثلوتان: وهو ابن تكلان وكان يحكم حوالي (223هـ-837م)

. بيسي: توفي حوالي (456هـ - 1063م)

⁷¹³ - الهادي الدالي، الإسلام واللغة العربية، مرجع سبق ذكره، ص: 26.

⁷¹⁴ - محمود كعث، تاريخ الفتاش، مرجع سبق ذكره، ص: 42.

⁷¹⁵ - إبراهيم طرخان، إمبراطورية غانة، مرجع سبق ذكره، ص: 26.

. تكامنين: وهو ابن أخت بيبي وحكم غانة حوالي: (456هـ - 1063م)⁷¹⁶

ويتحدث البكري عن ملوك غانة فيرى أن ابن الأخت هو الوريث للملك بعد خاله.

وقد ذكر أيضا أن لها جيشا عظيما يصل إلى مائتي ألف منهم رماة أزيد من أربعين ألفا⁷¹⁷.

المطلب الثاني: الدور الاجتماعي

لقد تعايشت المجموعات الصنهاجية في الصحراء خلال الفترة الوسيطة مع المجموعات السودانية التي تشكل امتدادا بشريا للشعوب السودانية المختلفة في الغرب الإفريقي، وظلت المدينة تحوي هذه المجموعات المختلفة الأعراق، لكن التداخل والتقارب بين المنطقة الصحراوية والمناطق السودانية المجاورة لها أدى إلى شكل من التفاهم والتعايش وارتباط المصالح التجارية والرعية وانتشار الدعوة داخل الشعوب التي شاركت في التغيرات التي عرفتها صحراء صنهاجة خلال الفترة المدروسة⁷¹⁸، ومن بين الشعوب السودانية التي تعايشت إلى جانب الصنهاجيين، نذكر على سبيل المثال "السونكة" و"الفلان" ...، وبما أن المجموعة الأولى تعتبر هي الأكثر حضورا في غانه (كومي صالحي) سنتعرف عليها باختصار لنبين التشكيلة الاجتماعية داخل هذه المدينة وما ترتب عن ذلك من عادات وتقاليد.

أولا: سكان المدينة

1) السونكة:

تعتبر مجموعة السونكة من أكبر المجموعات التي يتشكل منها السودان الغربي، وقد عرفت هذه المجموعة من بين الشعوب السودانية بأدوارها السياسية والاقتصادية، فهم مؤسسو إمبراطورية غانه السودانية وعاصمتها "قنب" التي تقع في الحزام الملاصق للأطراف

⁷¹⁶ - إبراهيم طرخان، إمبراطورية غانة، مرجع سبق ذكره، ص: 27.

⁷¹⁷ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 175.

⁷¹⁸ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 67.

الجنوبية للصحراء قرب مملكة آوداغست الصنهاجية، وقد تحدث ابن حوقل عن تجاور عاصمتي المملكتين فقال "...وملك آوداغست هذا يخالط ملك غانة..."⁷¹⁹.

ولعل السونكيين اختاروا هذا الموقع تعزيزا لمكانة المملكة التجارية، حتى يسمح لها بمنافسة المراكز الصنهاجية آنذاك، وإلى جانب هذه المجموعة مجموعات أخرى نذكر منها:

(2) الفلان

حملت مجموعة الفلان تسميات مختلفة منها: (الفولة، الفلانة، الفولبه أو الفولبه جيره)، هذه التسميات المختلفة يحملها شعب واحد أطلقت عليه من طرف جيرانه، واستقرت هذه المجموعة في منطقة السودان الغربي في فترة متقدمة من العصر الوسيط، وامتزجوا بشعوبها، فأخذوا لغاتها⁷²⁰، واعتبرهم بعض الباحثين جزءاً من الزنوج، في حين نفى البعض الآخر انتماءهم إلى هذا العنصر البشري.

و قد تميزوا عن باقي المجموعات الزنجية الأخرى بمميزات منها:

وضوح البشرة وصفائها و الرؤوس المستطيلة، ويختصون كذلك بنمط عيشٍ يميزهم عن باقي الشعوب الزنجية⁷²¹، وهو أن النمط الذي تعيش عليه مجموعة الفلان، يرتكز على الرعي والترحال، بدلا من الأنشطة المرتبطة بالاستقرار، وهذا ما تشترك فيه معهم القبائل الصنهاجية في الصحراء⁷²²، حيث اعتبر أحد الكتاب المحليين أن أصلهم صنهاجيون ولا يستبعد المؤرخ الموريتاني المختار بن حامدن ذلك، فيعتبر أنهم عرب ينتسب معظمهم إلى الجيش العربي الذي أرسله بنو أمية لنشر الإسلام في غانة، وقد كانت مجموعة منهم

⁷¹⁹ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.

⁷²⁰ - عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية، المؤسسة العربية الحديثة، الطبع والنشر والتوزيع القاهرة، 1961، ص: 56.

⁷²¹ - Ki-Zerbo, Joseph.op.cit.

⁷²² - عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية بإفريقيا الغربية، المؤسسة العربية الحديثة، الطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1961، ص: 60.

متمركزة في حوض نهر السنغال وتحمل اسم " الفامان"⁷²³ كما يرى بعض الباحثين أن أصولهم صحراوية وأنهم استوطنوا منطقة الصحراء منذ القدم، ثم انتقلوا نتيجة التغيرات المناخية إلى الجنوب، فأصبحوا على اتصال بغانة وشعوبها⁷²⁴.

(3) قبائل صنهاجة:

تسكن القبائل الصنهاجية في المجال الصحراوي منذ القدم وقد انتشر منها العديد بالمدن الوسيطة، ومن أشهر هذه القبائل بالصحراء لمتونة ومسوفة واكدالة، وقد عرفوا بسيطرتهم على الممالح الصحراوية وحمائتهم للقوافل ومرافقتها للاستدلال، إلى جانب المجموعات الزنجية بكومبي صالح وجدت المجموعات الصنهاجية حسب مصالحهم التجارية.

(4) مجموعة التجار

لقد تحدثنا عن المجموعة الزنجية التي شكلت معظم سكان مملكة غانة، وكان أغلبها سوننكة الذي يعتبرهم بعض الباحثين مؤسسين لإمبراطورية غانة بالدرجة الأولى، وإلى جانب ذلك مجموعة الفلان والتي تحدثنا عن أصولها سابقا وإلى جانب هؤلاء تسكن مجموعات التجار القادمين من جميع بقاع العالم يركضون وراء مصالحهم التجارية وقد طاب لهم المقام في مدينة " كومبي صالح" التي ذكرنا أن أطلالها ما زالت قائمة إلى اليوم 1440هـ، وقد شملها البحث الأثري الذي أقيم في نفس المنطقة، ويتضح من خلال التعمير الذي وصلت إليه تلك المدينة، أن التشكيلة الاجتماعية المعمرة وصلت إلى مستوى رفيع من الازدهار كما تشهد على ذلك المنازل التي أجريت عليها البحوث، كما يذكر أن الجاليات التجارية التي كانت مقيمة بأوداغست في فترة ازدهارها نزحت نحو كومبي صالح نتيجة الأوضاع الأمنية والطبيعية التي شهدتها المدينة، و استقرت بها وهذا ما ذكره الإدريسي من أن التجار قدموا

⁷²³ - المختار حامدن، الجزء الجغرافي ، مرجع سبق ذكره، ص: 8.

⁷²⁴ - Sékéné, Mody. Op. cit.p. P: 121.

من آوداغست مملكة صنهاجة سابقا، وانتقلت جالياتها التجارية التي كانت تستوطنها، وخرجت إلى مدينة غانة، بحثا عن الأمن فقال: "إن عامر المدينة قد غدا قليلا"⁷²⁵.

فمن هذا يُفهم أن تجار آوداغست نزح منهم الكثير إلى غانة لتعمير مدينة التجار المسلمين، التي سميت (كومبي صالح)، وكشفت الدراسة الأثرية عن الطابع المعماري الذي يؤكد مدى الاحتكاك الحاصل في المدينة والنتائج عن التفاعل بين الحضارة العربية الإسلامية مع العمران السوداني، وخاصة إقليم المزاب في المغرب الأوسط⁷²⁶.

وعلى العموم، فإن مدينة كومبي صالح احتضنت مجتمعا متعايشا نتيجة الظروف الاقتصادية النشطة في المدينة، وقد تولد عن هذا الوضع وجود لغات مشتركة، كما انتشرت اللغة العربية بهذه المنطقة مع دخول المرابطين، ويعود ذلك إلى نشر لغة الدين الإسلامي باللسان العربي، مما نتج عنه نوع من الانسجام داخل إطار العقيدة التي أصبحت سائدة في البلاد المفتوحة، وبها انتشرت المساجد وامتد الإشعاع العلمي في مدن المنطقة حتى عرفت به في القرون اللاحقة بالفترة المرابطية، تمثل في ظهور مراكز علمية مشهورة في منطقة الصحراء، كشنقيط، ولاتة، تيشيت، ودان وتينبكتو.

ثانيا: العادات و التقاليد

اتخذت هذه المجموعات داخل المدينة بعض العادات التي ميزتها عن غيرها حيث كان النظام السائد في المملكة قبليا، يقوم على القبلية، وتتفرع القبيلة إلى عدة عشائر، وكان الملك الغاني يمثل رئيس القبيلة، ويساعده مجلس يتكون من الوزراء وحكام المقاطعات، ويمثل الملك أعلى قمة في الهرم الاجتماعي⁷²⁷، كما يستقبل العامة الملك بالانحناء ووضع التراب على الرؤوس، وفي هذا المضممار يقول البكري "... فإذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم، ونثروا التراب

⁷²⁵ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 180.

⁷²⁶ - Berthier. Recherches Archéologiques . op. cit. p. 34.

⁷²⁷ - نعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، مكتبة اطلس، 2019، ص: 37.

على رؤوسهم، فتلك تحيتهم له⁷²⁸، وهذه التحية التي تقدم إلى الملك إن دلت على شيء فإنما تدل على الخضوع التام له.

وكانت من عاداتهم الاجتماعية إيقاد النار للملك الوثني والذي يخرج بعد عشاء كل ليلة ليسامر قومه ولا يخرج حتى تجتمع عليها ألف حزمة من الحطب، ويتم إشعالها مرة واحدة حتى تشرق البلاد كلها، ثم يجلس الملك على منصة من الذهب الأحمر ، وتقدم الآلاف من اللوائم، فيأكل الجميع إلا هو، ومتى تم الأكل يقوم الملك ويدخل، أما هم فلا يدخلون حتى تصبح الحزم رمادا⁷²⁹.

وكان الملك الغاني يتدحرج على الأرض المحروقة ليجلب لها الخصب⁷³⁰، ويتحلى بالأقراط والقلائد، ويلبس القبعات المطرزة ويمشي في موكب من أبناء الأمراء حتى يضمن ولاء المقاطعات⁷³¹.

ومن العادات الاجتماعية التي ميزتهم عن غيرهم أنهم إذا سرق أحدهم أو قتل قام إليه أمينهم وسقاه قدرا من الماء، فإن أخرجه من جوفه علم أنه بريء، وإن لم يستطع ذلك ألقيت عليه التهمة.

(1) أنماط المعيشة

لقد ظلت أنماط المعيشة شبه موحدة بين سكان الصحراء ككل بشقيها البدوي والحضري نظرا للانسجام الحاضر بين التشكيلة الاجتماعية في الفترة الوسيطة ولم تكن مدينة كومبي صالح إلا مثالا على ذلك لاحتوائها على قبائل الزنوج (سوننكه) وقبائل صنهاجة ومجموعات من التجار الوافدين على المدينة من مناطق متفرقة، كانت المعيشة تتركز لدى هؤلاء على ما

⁷²⁸ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 175.

⁷²⁹ - الهادي الدالي، تاريخ انتشار الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص: 33.

⁷³⁰ - الفيتوري عطية مخزوم، دراسات في تاريخ الشرق، مرجع، سبق ذكره، ص: 243.

⁷³¹ - نفسه.

تجلبه القوافل من منتوجات زراعية إضافة إلى المنتوجات الحيوانية المتوفرة بالصحراء آنذاك وما عمله السكان من زراعة وإن كانت لا تغطي حاجات المدينة الأساسية، وقد اعتمد السكان على استعمال القمح والذرة وباقي أنواع الحبوب المستجلبه من السودان.

(2) الملابس

أما فيما يخص عاداتهم في اللباس فيلبس الملك أحسن اللباس من القطن وكذلك ولي عهده، أما بقية العامة فيتفاوتون حسب أحوالهم، فمنهم من يلبس القطن، ومنهم من يلبس الديباج⁷³²، وكذلك الحرير، وهم جميعا يحلقون لحاهم ونساؤهم يحلقن شعورهن، كما يتحلى الملك بحلي النساء في العنق والذراعين، ويجعل على رأسه الطراوير المرصعة بالذهب، وعليها عمائم القطن الرفيعة⁷³³.



صورة رقم 34 : قميص من حفريات كومبي صالح

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

(3) مكانة المرأة:

تعتبر المرأة في المجتمع الغاني الوثني، سلعة تباع لزوجها، ولذلك كانت تشكل لذويها سلعة تجارية، كما عرف لديهم تعدد الزوجات. أما النساء الجميلات فمن نصيب الطبقة الغنية،

⁷³² - قادري سهيله، انتشار الإسلام في السودان الغربي، مذكرة لنيل شهادة الاجازة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة مولاي طاهر (سعيدة)، الجزائر، 2016-2017، ص: 25.

⁷³³ - نفسه، ص: 26.

كما عرف في المجتمع الغاني قبل دخول الإسلام انتشار الطلاق والزنا، وانتشار الدعارة وما إلى ذلك من العادات المألوفة لديهم⁷³⁴.

المطلب الثالث: الدور الاقتصادي

لقد شكل موقع غانة الذي ذكرنا سابقا موقعا تجاريا استراتيجيا ساهم بدوره في اجتذاب جالية تجارية كبيرة في العصر الوسيط من العرب والبربر الوافدين من المغرب الأقصى والأوسط وباقي البلاد الإفريقية الأخرى، بحثا عن مادة الذهب، إلا أن المعلومات شحيحة عن هذا الوجود الذي حصل في منطقة غانة لم تمدنا المصادر بالمعلومات الكافية، فابن حوقل الذي يعتقد أنه زار المنطقة في حدود سنة 340هـ/951م، لا يذكر شيئا عن وجود التجار المسلمين بغانة، بل يكتفي بالقول: "إن ملك آوداغست يخالط ملك غانة مشيرا إلى أن ملك غانة أيسر من على وجه الأرض من الملوك"⁷³⁵ وكان التجار القادمون من الشمال يفضلون الإقامة بآوداغست نظرا لتأثير المناخ خاصة في فترة الخريف إذ يعتقد الباحثون أن التجار القادمين من المشرق وشمال إفريقيا كانوا ينسحبون من مدينة غانه ليستقروا في المدن الصحراوية الأخرى بعيدا عن تأثيرات المناخ⁷³⁶ الذي لم يتعودوا على خصائصه في المنطقة السودانية تاركين المجال أمام من يعرفونه من التجار الصحراويين، وقد ذكر البكري بعض مميزات المناخ الذي كان يسود مدينة غانة خلال ذلك الموسم وتأثيراته على التجار فقال: "...وغانة بلدة مستوية... لا يكاد يسلم الداخل فيها من المرض عند امتلاء زرعهم يكثر الموت في غربائها عند استحصاد الزرع"⁷³⁷، إلا أن موقعها الجغرافي مع ذلك كان أقل خطرا على حياة التجار الشماليين من المدن السودانية الأخرى، وكان هؤلاء التجار يستفيدون من فترة الجفاف أكثر من غيرها واستقر معظمهم في المدينة في انتظار استلام أثمان بضائعه من التجار السودانيين وذلك لتسويقها في المناطق السودانية المنتجة للذهب مقابل

⁷³⁴ - قادري سهيله، انتشار الإسلام في السودان الغربي، مرجع سبق ذكره، ص: 26.

⁷³⁵ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.

⁷³⁶ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 263.

⁷³⁷ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 176.

أرباح للتجار السودانيين⁷³⁸، وقد وصفت المصادر العربية الوسيطة أهمية مدينة غانة (كومبي صالح) وحيويتها التجارية والدور الذي كانت تلعبه في غرب إفريقيا، واجتذاب التجار من مختلف الآفاق، فقد وصفها الإدريسي بقوله: "... هي أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا، وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها"⁷³⁹، كما وصفها البعض الآخر بكونها "... من أعظم مدائن العالم وأكثرها معتمرا..."⁷⁴⁰ وبالإضافة إلى ما وصفته المصادر الوسيطة لهذه المدينة، فقد بينت البحوث الأركيولوجيا الخطوط العريضة لبعض أوجه الأنشطة التجارية التي كانت قائمة بمدينة غانة (كومبي صالح) خلال هذه الفترة، فكشفت البحوث الأثرية كما ذكرنا سابقا أن السوق المركزي للشطر الإسلامي من كومبي صالح كان يقع في وسط المدينة وكانت الحوانيت تصطف على طول الشوارع الرئيسية⁷⁴¹ وفي وسط المدينة إلى جانب السوق كانت هناك ساحة متسعة خالية من المباني، يرجح أنها كانت مخصصة لاستقبال القوافل الكبرى الوافدة إلى المدينة، إذ كانت تتاخ بها الجمال وتحط عنها البضائع أو عن سواها من وسائل النقل المستخدمة هناك، قبل أن توجه إلى الأماكن التي توضع بها أي (المخازن) كما تؤدي هذه الساحة الوظيفة المقابلة و هي كونها مكان للتصدير من نفس المدينة، تتطلق منها القوافل الصادرة من تلك المدينة في اتجاهات مختلفة⁷⁴²، وغالبا ما تتم المساومات بين كبار التجار خارج السوق، أو تبرم داخل المنازل، فيتخذونها مكانا معهودا لعقد الصفقات الكبرى بين أصحاب القوافل والتجار المقيمين في المدينة بشكل دائم أو موسمي، ويتولى التجار الكبار توزيع البضائع بعد شرائها من أصحاب القوافل على أصحاب الحوانيت أو يبيعونها للتجار السودانيين⁷⁴³، الذين كانوا يتولون نقلها في اتجاه المدن الجنوبية السودانية، وكانت مدينة (كومبي صالح) هي المركز

⁷³⁸ – Mauny. Tableau Géographique ... op. cit. p : 384.

⁷³⁹ – الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ج(6)، ص: 412.

⁷⁴⁰ – ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، ص: 38.

⁷⁴¹ – Mauny . Tableau Géographique. Op .cit .p 384

⁷⁴² – Ki-Zerbo, Joseph.op.cit.

⁷⁴³ – Mauny. Tableau Géographique. Op. cit. p : 384.

الرئيسي لالتقاء التجار القادمين من الشمال والتجار القادمين من الجنوب، ولذلك أخذت الريادة بوصفها تمثل النقطة المركزية الأساسية في المنطقة بين المدن⁷⁴⁴، حيث تركز المواد التجارية الشمالية لتجعلها تحت تصرف تجار الجنوب القادمين من السودان لتكرر نفس الدور مع المواد الجنوبية لتضعها تحت تصرف تجار الشمال⁷⁴⁵.

التجارة

تعتبر مدينة غانة (كومبي صالح) إحدى الأسواق التجارية الكبرى التي عرفت منطقة الصحراء إبان الفترة الوسيطة، وقد ساعد الوضع السياسي للمنطقة بفضل التسامح الذي صدر من طرف ملوكها، على استقرار جالية تجارية كبيرة قادمة من أنحاء العالم، بالإضافة إلى المنافذ المفتوحة لهذه المدينة على باقي المناطق السودانية الأخرى، مما أدى إلى جلب التجارة الرائجة في تلك الفترة من السودان وكان أهمها الذهب الذي يستورد من مناطق سودانية متفرقة، لينتقل عبر القوافل إلى شمال إفريقيا، وكذلك الرقيق الذي يشكل مساهمة كبيرة في الإنتاج الزراعي، والتنمية الحيوانية آنذاك، إضافة إلى كميات كبيرة من العسل⁷⁴⁶، والعاج السوداني، وذلك لكثرة الفيلة في المنطقة السودانية في الغابات الاستوائية، وكذلك التوابل والفلفل والشب والزيتون النباتية⁷⁴⁷، ويحدث التبادل أيضا في الألبسة والمواد الغذائية والأدوات والمعادن مثل الفضة والنحاس...

وهذه المبادلات التجارية ظلت مستمرة خلال الفترة الوسيطة في نفس المدن المدروسة كأوداغست وكومبي صالح، وكان من أهم هذه السلع الذهب الذي كان يستخرج من بلاد السودان بكثرة، ويوجد في مناطق متعددة، في غرب إفريقيا خاصة في السنغال ومالي وغينيا

⁷⁴⁴– Mauny. Tableau Géographique. Op. cit. p : 384.

⁷⁴⁵– الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 264.

⁷⁴⁶– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 158.

⁷⁴⁷– Mauny. Tableau Géographique. Op. cit p : 379.

وساحل العاج وبوركينا فاسو وغانة ونيجيريا، ولكن المواقع تتفاوت من حيث الأهمية⁷⁴⁸، وقد ركز الباحثون على معرفة أربع مناطق كانت تنتج الذهب بكميات كبيرة، وظل إنتاجها متواصلا خلال قرون عديدة وهي: بامبوك الواقعة بين أعالي السنغال والغاليمبي، وبوري الموجودة عند مصب رافد تينسكو في نهر النيجر، ومنطقة لوبي في الفولتا (بوركينا فاسو) ومنطقة الإشانتي في ساحل الذهب (غانة)⁷⁴⁹ ولأهمية هذه المادة التجارية وارتباطها بالتبادل التجاري في منطقة إفريقيا الغربية بين الشمال والجنوب، وحضورها في أسواق المدن الصحراوية الوسيطة، سوف نتحدث عن أهميتها من الناحية الاقتصادية في تلك الأسواق وعن مساهمتها في ازدهارها خلال الفترة المدروسة.

1) مادة الذهب:

عرفت هذه المادة التجارية الهامة منذ الفترات الزمنية القديمة في بلاد إفريقيا، وكانت الكميات التي تستخرج منها سنويا متواضعة نسبيا، حتى القرن 7 ق.م حيث عرفت بعد ذلك تزايدا مستمرا، فمثلا منذ وصول العرب الفاتحين إلى شمال إفريقيا، ودخولهم مع السودان في علاقات تجارية مبكرة، اهتم الكتاب العرب بمنطقة غرب إفريقيا، فأطلق عليها بعضهم اسم " بلاد الذهب" فكتب عنها الفزاري المتوفى سنة 790م وغيره⁷⁵⁰، وقد أثبتت غانة قدرتها على التحكم في أطراف إمبراطوريتها وتوفير الأمن في غرب إفريقيا وهيمنتها على تجارة الذهب، فازداد بذلك تشجيع تنقل القوافل إلى المنطقة التي كانت خاضعة لنفوذها، وفرضها لسلطتها على الممالك المجاورة لها، فساعد ذلك على مضاعفة إنتاج الذهب⁷⁵¹، حيث أصبح منتشرا يتداول بين الناس، فارتبط لقب الأسرة الأولى التي اعتلت عرش مملكة غانة

⁷⁴⁸ – Mauny. Tableau Géographique. Op. cit p :294.

⁷⁴⁹ – عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام، ص: 211.

⁷⁵⁰ – Mauny. Tableau Géographique. Op. cit p : 300.

⁷⁵¹ – الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 278.

بهذه المادة التي كان هؤلاء الملوك يسيطرون على المناطق التي تمتلك احتياطا هاما من هذه المادة، فلقب " كيمغ" يعني بلغة السودان هناك "... ملك الذهب، كيهو، الذهب".

وكان الملوك يشرفون على احتكار تجارة الذهب مثلما احتكر التجار الشماليين وتجار الصحراء لمادة الملح، فاحتكار ملوك السودان للذهب ذكرته بعض المصادر حيث قال عنه البكري ما نصه "...وإذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك وإنما يترك منها للناس التبر الدقيق، ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون..."⁷⁵².

وكانت الشعوب السودانية هي المعنية بمعرفة أماكن استخراج الذهب وتضفي حوله الكثير من الغموض، لذلك هيمن طابع الأسطورة التي تقول إن الأرض تثبته، والتي وردت من طرف معظم الكتاب المسلمين حول دخول هذه المادة السودانية للأسواق الشرقية⁷⁵³، وتحسنت معارفهم حولها بشكل تدريجي إلى أن تمكنوا من تحديد بعض مواقعه ومعرفة بعض أشكاله وطريقة استخراجه، وقد ذكر البكري أحد مواقع الذهب التي كانت خاضعة لمملكة غانه، فقال: "... وأفضل الذهب في بلاده مكان بمدينة عيارو..."⁷⁵⁴، كما أشار إلى استخراجه، كذلك من منطقة تقابل مدينة "يرسني" على الضفة اليسرى لنهر السنغال، وكان بعض التجار من قبيلة " بنو تغماتة" وهم مختصون بتجارة التبر في تلك الفترة ينقلونها منها إلى "يرسني" وقد حددت بلاد ونقارة واعتبرت أهم منطقة بغرب إفريقيا تنتج الذهب، حتى قال عنها الإدريسي "... وبلاد ونقارة هذه هي بلاد التبر المشهورة... وهي جزيرة طولها ثلاثمائة ميل وعرضها مائة وخمسون ميلا، والنيل يحيط بها من كل جهة في سائر السنة"⁷⁵⁵.

⁷⁵² - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 177.

⁷⁵³ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مصدر سبق ذكره، ص: 279.

⁷⁵⁴ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 177 .

⁷⁵⁵ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 39.

ويعتبر البكري موقعين هامين من مواقع إنتاج الذهب خلال القرن 11م، هما غيار ويرسني، كما ذكر الإدريسي موقعين آخرين هما تكرور ونقارة، ويرى الكتاب أن هذه المناطق في الجزء الغربي من بلاد السودان⁷⁵⁶ وخاصة قرب ضفاف الأنهار ومصب روافدها⁷⁵⁷.

وقد وصف الإدريسي الطريقة التي يستخرج بها ذهب السودان مبينا ارتباطه بضفاف النهر، حيث قال: "... فإذا كان في شهر أغسطس وحمي القيظ وخرج النيل وفاض وغطى هذه الجزيرة، أو أكثرها، وأقام عليها مدته التي من عادته أن يقيم عليها ثم يأخذ في الرجوع فإذا أخذ النيل في الرجوع، فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر، وما يخيب منهم أحد، فإذا عاد النيل إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر، وتاجر بعضهم بعضا⁷⁵⁸.

وهذا يوحي أن الباحثين عن الذهب كانوا ينتظرون تراجع فيضانات الأنهار التي تخلف مياهها وراءها الطين الذي يكون في الغالب ممزوجا بالذهب في المواقع المعدنية، فيتم غسل ذلك الطين من قبل النساء، ليتخلص دقيق الذهب من حبيبات الرمل وفق طريقة فنية خاصة، وهذه الميزة مشتركة بين جميع المواقع التي يستخرج منها الذهب خلال الفترة الوسيطة، هي وجودها قرب ضفاف الأنهار ومصاب الروافد⁷⁵⁹، وعملية استخراج الذهب تتم عن طريق حفر الآبار التي قد يصل عمقها إلى عدة أمتار في تربة حمراء صلبة، يتم رفع الأتربة والحصى بواسطة أواني تجذب خارج البئر بواسطة حبال، ويتم غسل تلك الأتربة ليبقى التبر خالصا⁷⁶⁰.

⁷⁵⁶ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 281.

⁷⁵⁷ - نفسه.

⁷⁵⁸ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 39.

⁷⁵⁹ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 281.

⁷⁶⁰ - EL Alaoui. Op .cit. p :92.

ويرتبط البحث عن مادة الذهب في السودان بتراجع الفيضانات ويعتبر ذلك الارتباط من بين الأسباب التي جعلت بعض الكتاب المسلمين يعتقدون أن تربة بلاد السودان تنبت الذهب مثلما تنبت التريبات الأخرى الأعشاب والأشجار والبقول والخضروات، باعتقادهم أن هذه التربة تنبت الذهب عند تراجع الفيضانات وأن هذا هو السبب في ثراء غانة، وقد كتب ابن الفقيه المتوفي سنة 903م، فقال "... وبلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتا في الرمل كما ينبت الجزر، ويقطف عند بزوغ الشمس"⁷⁶¹.

وكان أكثر ما يوجد عند الناس من الذهب هو الدقيق، وفي حالة عثورهم على كتلة ذهبية كبيرة متماسكة مهما كان حجمها، فإن صاحبها يوصلها إلى الإمبراطور الذي كان يمتلك حق حيازتها، لا يأخذها الملك بأنها ملك شخصي له بل يأخذها ليحفظها للآلهة باعتباره في نظر الرعية أقرب لها⁷⁶²، ويقول البكري في هذا الصدد "... وإذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك، وإنما يترك للناس هذا التبر الدقيق..."⁷⁶³ "والندرة تكون من أوقية إلى رطل، ويذكر أن عنده منه ندرة كالحجر الضخم..."⁷⁶³.

ويقوم التجار بنقل الذهب من مناطق إنتاجه المختلفة في غرب إفريقيا إلى المدن الساحلية السودانية، ومنها إلى المدن الصحراوية، لذلك نجد جاليات عربية إسلامية، خلال فترة مبكرة من وصول العرب إلى المغرب في مدن غانة، ویرسني وغيارو وملل، وكوغة والوكن.. إلخ⁷⁶⁴، ومن هذه المدن كان يحمل إلى الصحراء وشمال إفريقيا، وكانت هذه المادة تنتقل ملكيتها من التجار السودانيين، إلى تجار الإيراد والتصدير في المدن الساحلية، فيتولى أولئك تصديره إلى شمال إفريقيا، ليوضع تحت تصرف ورشات سك العملات التي كانت تستهلك كميات هامة منه، بينما يتم التصدير أيضا إلى أسواق المشرق الإسلامي الذي كان يحتاج

⁷⁶¹ - ابن الفقيه، البلدان، تحقيق يوسف الهادي، ط الأولى، الناشر: عالم الكتب - بيروت، ص: 114.

⁷⁶² - Ki-Zerbo, Joseph.op.cit.

⁷⁶³ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 176.

⁷⁶⁴ - Ki-Zerbo, Joseph.op.cit.

إلى كميات كبيرة من هذه المادة لتنفيذ بعض الإصلاحات الاقتصادية الذي لم تسد حاجته ما وفرت الكنوز الفرعونية، ولم يكن ذلك كافيا لسد تلك الفراغات ولا تحقيق الأغراض.

وقد مكنت استمرارية إنتاج كميات من مادة الذهب إلى تدفق القوافل المحملة من الشرق والشمال، كما تزايدت الكميات المنتجة في القرن 10م⁷⁶⁵.

وكانت غانة (كومبي صالح) مكان تجميع الذهب السوداني الذي يعد للبيع والتصدير إلى الشمال، ويرجع ذلك إلى قوة كيانه السياسي آنذاك في غرب إفريقيا بالإضافة إلى موقعها الجغرافي المجاور للصحراء، حتى أصبحت مكانا لتوافد باعة الذهب من مختلف الجهات التي توجد بها معادن الذهب حيث قال البكري في القرن 10م ما نصه "... وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من الأموال المدخرة من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم"⁷⁶⁶.

وأسهم قرب مدينة كومبي صالح من آوداغست في جعل هذه الأخيرة مركزا تجاريا هاما في الصحراء يستقبل الذهب ليساهم في عملية تصديره إلى الشمال، وأشاد البكري أيضا في معرض حديثه عن جودة الذهب المجذوب من آوداغست، فقال "... ويجلب منها... الذهب الإبريز الخالص خيوطا مفتولة، وذهب آوداغست أجود من ذهب أهل الأرض"⁷⁶⁷، وهذا ما لم توجد عليه دلائل أثرية من أن آوداغست كانت لديها معادن مختصة باستخراج الذهب بل في الواقع أنها كانت تستورده من عاصمة غانة (كومبي صالح) رغم أنه كانت لديها مصانع مرتبطة بالذهب، خاصة بتصفيته من الشوائب، لأن التبر كان يصل إليها خاما وكان هؤلاء الصناع القائمون على هذه التصفية يتثبتون أيضا من وزنه⁷⁶⁸، بحيث أن الفريق الأثري الذي قام بعملية التنقيب في آوداغست عثر على " ميزان" لوزن الذهب وهو الآن "بالمتحف

⁷⁶⁵ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 283.

⁷⁶⁶ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 159.

⁷⁶⁷ - نفسه.

⁷⁶⁸ - Mauny. Tableau Géographique. Op. cit p : 3.

الوطني الموريتاني"، وبعد التثبيت من نوعية مادة الذهب يصاغ على شكل خيوط مفتولة، ويرى بعض الباحثين أن هذه الخيوط المفتولة عبارة عن أساور حلزونية ذات وزن كبير⁷⁶⁹، وأن ثمن الذهب الذي كان يمر بمراحل الفحص والتقنين أعلى بكثير من الذهب الخام. وكانت هذه الصياغة سواء مفتولة أو سبائك أو غيرها تساعد التجار على حمله ونقله بأمان عبر الرحلة التجارية المعهودة، فيحول من دقيق الذهب إلى قطع متماسكة تمكن التاجر من أن ينقش على تلك القطع علامة معروفة تميز ممتلكاته⁷⁷⁰.

وتتم المقايضة في بلاد السودان في هذه المادة (الذهب) بواسطة ما يسمى بالتجارة الصامتة، وعندما يصل التجار المغاربة إلى غانة (كومبي صالح) يتواصلون مع زملائهم وعملائهم من الغانيين الذين في انتظارهم، فيخرج الجميع نحو أعالي السنغال في أماكن معلومة، حيث يضرب التجار طبولهم إعلانا عن وصولهم محملين بالبضائع، ثم يضعون هذه البضائع بأكوام على شاطئ النهر⁷⁷¹، ويختفون وحينئذ يخرج الزنوج ويضعون بجوار كل كومة ما يرونه مساويا لها من الذهب، ثم يختفون، فيظهر التجار فإذا اقتنع التاجر بقيمة ما وضع من كمية الذهب حملها وانصرف وتنتهي أيضا العملية بدق طبول النهاية، وإذا لم يقتنعوا بكمية الذهب الموجودة لم يقربوا المكان ويبقوا في حالة الاختفاء حتى يتم الاقتناع بين الجانبين⁷⁷²، ويحمل الذهب عن طريق القوافل، وتتخذ طرق حفظه من الضياع بطريقة محكمة، كما يتدخل الصانع التقليدي في هذه العملية لصياغته على أشكال متعددة خوفا عليه من الضياع، ويجعل في بعض الأحيان اسم صاحبه للمحافظة عليه، ولذلك تكون عملية التحويل من الدقيق إلى قطع متماسكة أو مفتولة.

⁷⁶⁹ - الناني الحسين، صحراء الملتمين، مرجع سبق ذكره، ص: 283.

⁷⁷⁰ - نفسه، ص: 284.

⁷⁷¹ - حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص: 98.

⁷⁷² - نفسه، ص: 99.

وتمر القوافل بالصحراء، وإذا سقطت الأكياس بها دقيق فيكون ذلك سبب الضياع ويصعب العثور عليه عندما يندس في الرمال، أما الخيوط المفتولة والسبائك فإنها أشهر في الاطلاع عليها في حالة الضياع⁷⁷³.

وكان عدد القوافل المحملة بمادة الذهب، والمتجهة إلى شمال إفريقيا لا يتجاوز قافلة واحدة سنويا تتكون في الغالب من 40 إلى 50 جملا، حمولة الجمل الواحد منها ثلاثة قناطير من الذهب أي 42.5 كلغ * 3 = 127.5 كلغ، وكانت تلك القوافل تتميز عن سواها من القوافل التي تشدد عليها الحراسة وهي عابرة للصحراء⁷⁷⁴، كما أن مادة الذهب يحصل عليها من الذهب السوداني عن طريق المقايضة ببضائع صحراوية أو شمالية، أهمها في تلك الفترة الملح الحجري، وكذلك بعض البضائع الصحراوية، لكن هذه البضائع لا تساوي قيمة مادة الذهب النفيسة، وفي هذا الصدد يقول المقرئ "... تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له..."⁷⁷⁵.

وعلى العموم، فقد كانت مادة الذهب من أهم المواد التجارية التي قامت عليها التجارة عبر الصحراء، كما أنها كانت تتركز في إمبراطورية غانة وبالتحديد مدينة كومبي صالح التي تشملها هذه الدراسة، ويبدو أن السياسة القوية التي حظيت بها غانة وسط محيطها الجغرافي والمحافظة على الأمن والتسامح الذي شاع في ملوكها الوثنيين، مما حفز على استقرار التجار القادمين من مختلف المناطق طلبا في الأرباح، وقد وصلت المدينة أوج ازدهارها خلال القرن العاشر الميلادي، والقرن الحادي عشر، الذي عرفت فيه المدينة سلطة المرابطين الجديدة التي يذكر أنها دكت الجانب الوثني للمدينة، وسببت له الخراب، لتنتشر

⁷⁷³ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 284.

⁷⁷⁴ - Mauny. Tableau Géographique. Op. cit . p : 375.

⁷⁷⁵ - الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس، تحقيق، دار إحسان عباس، ج 8، دار صادر، بيروت، 1968، ج5، ص: 206.

المذهب المالكي في الربوع الصحراوي بالإضافة إلى أجزاء كبيرة من بلاد السودان، وقد تم لها الكثير مما كانت تصبو إليه.

(2) تجارة الرقيق:

تعتبر أسواق المدن الصحراوية محط رجال التجارة عبر الصحراء منذ القدم، وقد عرفت هذه الأسواق رواجاً على مستوى عينات هامة من البضائع المستوردة والمصدرة من شمال إفريقيا إلى جنوبها، ومن بين تلك البضائع الهامة في العصر الوسيط تجارة الرقيق، فمن المعروف أن سكان غرب إفريقيا كغيرهم من شعوب العالم الأخرى، مارسوا هذه الظاهرة الاجتماعية، حيث كانت الحروب التي عاشتها بلاد السودان رافداً أساسياً لتوفير أعداد كبيرة من الأسرى يؤول حالهم إلى الاسترقاق، كما أن بعض الملوك السودانيين ينظمون حملات عسكرية ضد بعض الشعوب السودانية مما يوفر حاجيات هؤلاء من العبيد لاستخدامهم في المجالات الزراعية، ويبيع بعضهم للتجار القادمين من الشمال⁷⁷⁶، وكانت هذه الحملات العسكرية توجه دائماً إلى الغابات الاستوائية للحصول على أعداد هامة من الرقيق⁷⁷⁷.

ولذلك تجمع الكثير منهم في المدن السودانية مثل غانة (كومبي صالح) وتكرور وغيرهما لتعرض هذه المجموعات على التجار، حيث يصف الإدريسي شعب لملم، فيقول "... والغالب عليهم الكفر والجهالة، وجميع أهل بلاد لملم، إذا بلغ أحدهم الحلم وشم وجهه صدغاه بالنار، ذلك على علامة لهم⁷⁷⁸"، ويقول أيضاً "... وأهل سلي وتكرور وغانة يغيرون على بلاد لملم، ويسلبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم فيبيعونهم للتجار الداخلين إليهم فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار⁷⁷⁹، كما سادت بعض العادات في المجتمعات السودانية بغرب إفريقيا شكلت إحدى مصادر الرقيق، وقد ذكرها البكري بقوله "... وحكم أهل هذه البلاد

⁷⁷⁶ –Mauny. Tableau Géographique. Op. cit . p:337.

⁷⁷⁷ – EL Alaoui. Op. cit. p :91.

⁷⁷⁸ – الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 33.

⁷⁷⁹ – نفسه ، ص: 34.

المذكور قبلها من بلاد السودان أن يخير صاحب السرقة في بيع السارق أو قتله...⁷⁸⁰، كما يشير أيضا إلى مكان للرقيق في غرب إفريقيا، وذكر أن التجار السودانيين يجلبون منه الرقيق، فقال "... ومن يرسني يجلب السودان العجم المعروفين بنو نغمارته...⁷⁸¹."

كما تقدم أعداد كبيرة من أبناء السودانيين عبيدا للملوك السودانيين⁷⁸²، وذكر ابن حوقل أثناء سرده للمواد التجارية التي كان يصدرها المغرب إلى المشرق، فيقول "...الخدم المجلوبون من بلاد السودان والخدم المجلوبون من أرض الصقالبة إلى الأندلس...⁷⁸³ ويشير الإدريسي إلى أن تجار المغرب الأقصى كانوا ينقلون العبيد من مدينة تكرر، فيقول "... ومدينة تكرر أكبر من مدينة سلى وأكثر تجارة وإليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز، ويخرجون منها التبر والخدم⁷⁸⁴، ومن الواضح أن أوداغست انتقلت من عاصمة صنهاجة إلى مدينة محتلة من طرف غانة، ومعظم سكانها خلال النصف الأول من القرن 11م، ويبدو أن هذا التاريخ هو الذي تغيرت فيه وضعية أوداغست فانتقلت من عاصمة لصنهاجة- ومعظم سكانها منهم- إلى مدينة تحت السيطرة الغانية وأصبح جل سكانها متحالفين مع إمبراطورية غانة السودانية، وهؤلاء التجار يمتلكون أعدادا هامة من الرقيق، حيث يقول البكري "... وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير، كان للرجل منهم ألف خادم وأكثر..."، وهذا ما يوحي بأن هذه الكمية كثيرة بالنسبة لخدمة الشخص الواحد لأن ذلك يتجاوز أغراضه في طلب الخدمة، مما يفهم منه وجود تجار مستقرين في انتظار قدوم قوافل تبحث عن ذلك...".

⁷⁸⁰ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 173.

⁷⁸¹ - نفسه، ص: 177.

⁷⁸² - EL Alaoui. Op. cit. p: 96.

⁷⁸³ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 95.

⁷⁸⁴ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 156.

ويرى بعض الباحثين أن تجارة الرقيق عبر الصحراء، خلال العصر الوسيط فيها مبالغة في حجمها، وأنها كانت محدودة نتيجة ضعف الطلب في شمال إفريقيا على الرقيق السوداني⁷⁸⁵.

فالمخاطر التي تتعرض للمجموعات التي تعبر شمالا منها العطش، والضرائب الباهظة التي تفرض عليهم، وكذلك السلب والنهب، وهروبهم في الطريق وتعرضهم للموت، وبهذه الأسباب، يرى البعض أن هذه التجارة لم تكن على المستوى الكبير بالحجم المتوقع عنها وذلك لعدة اعتبارات معينة منها على سبيل المثال⁷⁸⁶:

. غياب وسائل نقل ضخمة قادرة على حمل أعداد كبيرة من العبيد الذين كان عبورهم يخلق مشاكل كبيرة لعدم تكيفهم مع منطقة الصحراء، وما يرتبط بتلك البيئة من صعوبة وإعياء الكثيرين منهم من قطع المسافات الطويلة⁷⁸⁷.

. إن الأنشطة الاقتصادية في الشمال لم تكن تتطلب يدا عاملة مستوردة، وإذا كانت هناك حاجة في استيراد العبيد فتبقى للفئة المترفة، ومع ذلك فإن العبيد القادمين من السودان لم يكونوا قادرين على المنافسة في هذه الأسواق خلال الفترة المتوسطة، حيث كان العبيد المسلمون والمسيحيون يباعون في هذه الأسواق وفي أوروبا أيضا بأثمان أقل بكثير من تلك التي كان الرقيق السوداني يباع بها في أسواق المدن الصحراوية آنذاك قبل أن تحمله القوافل نحو الشمال⁷⁸⁸، فلم يتجاوز ثمن الجارية القادمة من المغرب والأندلس دينارا واحدا أو نصف دينار⁷⁸⁹، أما ثمن الجارية السودانية تباع في آوداغست بمائة دينار⁷⁹⁰،. ويلاحظ أن أكثر العبيد الموجهون إلى الشمال جوارى يعملون في المنازل أو سرايا للسادة⁷⁹¹.

⁷⁸⁵ –Devisse, Jean. Histoire Générale de l'Afrique. cit. p:412.

⁷⁸⁶ – الناني الحسين، صحراء الملتمين، مرجع سبق ذكره، ص: 87.

⁷⁸⁷ – نفسه.

⁷⁸⁸ – نفسه.

⁷⁸⁹ –EL Alaoui. Op. cit. p: 9.

وعلى العموم فإن هذه التجارة اكتست أهمية في العصر الوسيط في أسواق المدن الصحراوية نتيجة الموقع الجغرافي الرابط بين جنوب السودان والصحراء، إلا أن بعض الباحثين لم يبالغ في كثرة رواجها نتيجة للمنافسة التي لقيتها في أسواق الشمال علاوة على صعوبة قطع هذه المسافات الطويلة.

ومن هذا المنطلق يمكن القول إن تجارة الرقيق لم تكن رائجة بين الجزء الشمالي الإفريقي، وجنوب السودان، ويعود ذلك إلى صعوبة الصحراء وطول المسافة بين الطرفين مما يترتب عليه مخاطر لا تتحملها التجارة، لأن المطلوب هو الربح عند التجار وليست الخسارة، بل ظلت تزخر بها المنطقة الصحراوية أكثر لأن الطبيعة الجغرافية للمنطقة، كانت تتطلب اليد العاملة أكثر من اللازم، لأن سباخ الملح الموجودة في الصحراء يعمل بها الكثير من اليد العاملة، وهو مطلوب لاستخراج هذه المادة الرائجة، إضافة إلى قطعان الماشية الكثيرة التي تحتضنها الصحراء ولا بد من الإقامة على انتجاعها، كما تستخدم اليد العاملة في أنواع الزراعة القائمة في تلك المدن الصحراوية لزيادة الإنتاج المستهلك من زراعة الحبوب والخضروات والنخيل...إلخ.

وهذه الأنشطة الاقتصادية والموارد التجارية، فرضت اقتناء الكثير من الرقيق للرفع من مستوى الإنتاج التجاري، وهذا ما أشار إليه البكري⁷⁹² في حديثه عن مدينة أوداغست وعن ملك الرجل الواحد فيها لألف خادم.

(3) مادة الملح:

⁷⁹⁰ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 158.

⁷⁹¹ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 287.

⁷⁹² - نفسه.

لعبت هذه المادة دورها في التجارة عبر الصحراء إلى جانب المواد الأساسية الأخرى حيث بلغت أوج ازدهارها لأنها أخذت مكانة متميزة في التبادل التجاري خلال الفترة الوسيطة، وذلك أنها شكلت الند لمادة الذهب ذات القيمة الهامة، في الأسواق العالمية.

لقد اكتست مادة الملح أهميتها في الأسواق السودانية، لأن هؤلاء لا غنى لهم عنها ويستعملونها بشكل كثير، فبالإضافة إلى استهلاكها في النمط الغذائي لديهم، فتستعمل لأغراض أخرى من بينها حماية بعض الأطعمة من التعفن، ولذلك أصبحت هي التي يتم التبادل بها مع الذهب وكذلك الرقيق، وتوجد هذه المادة على نقاط مختلفة من صحراء صنهاجة، فقد ذكر الباحثون أسماء سبعة أوليل، سبعة اجل، سبعة تغازة وكانت هذه الممالح كلها في ملكية قبائل صنهاجية، ونجم عن استغلالها بعض الصراعات التي هددت استمرارية القوافل برمتها⁷⁹³.

يتم استغلال الملح من هذه السباح الصحراوية بواسطة متخصصين في العملية، حيث يستخرج على شكل ألواح تتفاوت من حيث السمك والوزن والنوعية، وتمتد هذه الممالح على مساحات شاسعة نسبيا تصل إلى عشرات الكلومترات المربعة، وهذه الطبقات تتوالى على عمق قائمتين⁷⁹⁴، وبما أن الملح كان مادة تجارية صحراوية تسيطر قبائل صنهاجة على استخراجها وبيعها، فإنها كانت حيوية لسكان المنطقة، ومارست هذه القبائل قدرا من الاحتكار لها، فكانت القوافل تنقل الملح إلى المراكز التجارية الصحراوية الأكثر تقدما في اتجاه الجنوب لتخزينه والتحكم في تصديره إلى بلاد السودان، للحصول على ارتفاع أسعاره⁷⁹⁵، وكانت الموازين الكبرى غائبة في الأسواق التجارية التي تباع فيها هذه المادة، وكانت وسيلة القياس للوح الملح، هي الشبر، وفي هذا الإطار يقول الونشريسي في وصفه

⁷⁹³ -Devisse Tegdaousti. Op. cit. p:114.

⁷⁹⁴ - الونشريسي، المعيار المعرب، مصدر سبق ذكره، ص: 137.

⁷⁹⁵ - نفسه 272.

لأهل الصحراء وألواح الملح في بلادهم "... قدرها بالشبر فيقولون خمسة أشبار في طول كل لوح منها وثلاثة أشبار في عرضه، وفي الغلظ على الوسط لا رقيقة جدا ولا غليظة جدا، على المتعارف بينهم في الغلظ والرقعة"⁷⁹⁶.

وكان لوح الملح، يقطع إلى 12 قطعة متساوية في الغابات الاستوائية لتكون عملة يتم على أساسها التبادل، وتعتبر قطعة الملح هي الوحدة الأساسية لتلك الوحدة محليا وتسمى "الكوكتلا"⁷⁹⁷، وهذا ما أشارت إليه المصادر العربية حيث قال البكري ما نصه "... وتجارة أهل بلد كوكو بالملح وهو نقدهم..."⁷⁹⁸ ولعل هذا ما يفسر ندرة الملح في بلاد السودان، واهتمام سكانها الكبير به، كما يبين ابن حوقل أهمية هذه المادة النفيسة بالنسبة للسودانيين، حيث قال في حديثه ما نصه "...الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام فإنه لا قوام لهم إلا به..."⁷⁹⁹، وهذه الحاجة الماسة التي وردت لدى البكري فسرّها الكثير من الباحثين بأنهم مرتبطين فسيولوجيا به، ويتضح ذلك لديهم فيما استخدمه السودانيون في العصر الوسيط، حيث اتخذوه في الكثير من الاستخدامات كعلاج الكثير من الأمراض بنقص هذه المادة لديهم، كما يستعملونه لأمراض الحيوانات أيضا وهذا ما يعني أن كميات كبيرة تجلب من تلك الأسواق الموجودة في الصحراء في اتجاه السودان⁸⁰⁰.

وقد لعبت مادة الملح دورا أساسيا في أسواق المدن الصحراوية من الناحية الاقتصادية، حيث فسحت المجال أمام سكان هذه المدن لاستجلاب الأرباح الطائلة من بلاد السودان، مما شجع رواج هذه الممالح وعودتها بالنفع على مختلف المجتمعات الصحراوية بما فيها القبائل الصنهاجية التي كانت تحكم المنطقة، وكانت السلطنات السودانية تولي اهتماما كبيرا لهذه المادة، حيث قامت بتخفيف الضريبة التي كانت تفرضها إذا ما قورنت مع الضرائب التي

⁷⁹⁶ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 183.

⁷⁹⁷ - Mauny. Tableau Géographique. Op. cit . p:360.

⁷⁹⁸ - ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص: 98.

⁷⁹⁹ - نفسه.

⁸⁰⁰ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 274.

تفرضها على المواد الأخرى، وهذا ما حدثنا عنه البكري في معرض حديثه عن إمبراطورية غانة (كومبي صالح) فقال: "... ولملكهم على حمار الملح دينار في إدخاله البلد، وديناران في إخراجهم، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل، وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل..."⁸⁰¹

ومما سبق، يمكن القول إن مادة الملح تتمتع بأهمية خاصة لدى السودان لاستخدامها في الكثير من الأغراض الخاصة، مما نتج عنه ارتفاع أسعارها حتى عادت مادة الذهب الأكثر أهمية، ولعل ذلك عائد إلى طبيعة المناخ السوداني الذي يفرض على السكان استعمال الملح بكميات هائلة إذا ما قورن بغيره من البلاد الأخرى.

4) بعض المواد التجارية الأخرى:

كانت السوق التجارية بمدينة غانة (كومبي صالح) تعج بالكثير من البضائع، كما تحدثت بعض المصادر العربية عن ذلك ومن بينها تجارة الأحجار الكريمة، حيث كانت هذه التجارة تزد من الشمال الشرقي لإعادة تصديرها إلى الأسواق السودانية، كما تصدر إلى سوق (كومبي صالح) من مدينة آوداغست، فقد عثر الباحثون أثناء حفريات آوداغست على عينات عديدة كانت تصل إليها من المغرب الأقصى، وفيها النادر من الحجر الجليل الكبير، فإذا وصل إلى أهل غانة هذا الحجر يتغالون في شرائه، وهو أجل عندهم من كل علق يقتنى⁸⁰²، ومن المواد التجارية المستخدمة أيضا في سوق نفس المدينة النحاس، ويستورد إليها من الشمال ويصدر إلى السودان، وتستخدم هذه المادة من طرف السودانين لأغراض مختلفة، لعل من أهمها مسامير نحاسية وكانت تصدر إلى غانة (كومبي صالح) من طرف آوداغست، وكذلك الأواني النحاسية التي كانت تستورد من فاس⁸⁰³، كما كان السودانيون

⁸⁰¹ - البكري، المسالك والممالك، مصدر سبق ذكره، ص: 356.

⁸⁰² - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 34.

⁸⁰³ - Mauny. Tableau Géographique. Op. cit . p :337.

يصنعون معظم حلبيهم من هذه المادة وكان سكان الغابات الاستوائية يصنعون منها التماثيل للعبادة⁸⁰⁴.

(5) تجارة الخيول

كانت الخيول تصل من منطقة الشمال موجهة إلى ملوك السودانين، وكانت تتال أثمان باهظة من طرف هؤلاء الملوك، وتستغل هذه الخيول من طرف التجار القادمين في قوافلهم من الشمال لتصل إلى المراكز التجارية وتتخذ من طرف الملوك بأثمان يجني التجار أرباحا كبيرة من الصفقات المتعلقة بها، إلا أنها قليلة في تلك الأسواق إذا ما قورنت مع الطلب عليها في البلاد الأخرى، فمصاعب عبورها للصحراء، وخاصة طول المسافة وندرة المياه والعلف، كانت من بين العوائق التي اعترضت سبيل التوسيع في هذا المجال التجاري في هذه السلع التجارية.⁸⁰⁵ وقد ذكر محمود كعت عن أحد ملون غانة (كومبي صالح) فقال "... ويقال إن له ألف خيل مربوطة إذا مات واحد منها في الصباح جاء بآخر عوضا عنه قبل المساء، وفي الليل كذلك، ولا ينام أحدها إلا على زريبة، ولا يربط إلا بحرير في عنقه وفي رجله ولكل منها آنية من النحاس يبول فيها لا يقطر من بوله على الأرض قطرة إلا في الإناء، لا في ليل ولا في نهار، ولا ترى زبلا واحدا تحت واحد منها ولكل منهم من الخدم ثلاثة أنفس⁸⁰⁶، يجلسون تحته واحد منهم يقوم بعلفه، وواحد بسقيه، وواحد منهم موكل على رصد بوله وحمل زبله⁸⁰⁷.

وعلى العموم، أولت المدينة أهمية لتربية الخيول خاصة على مستوى خيول الملك، فقد استعمله للركوب والتجول عليه في شوارع مدينة كومبي صالح، ويستعملون الأسرجة من

⁸⁰⁴ -ibid .P :348.

⁸⁰⁵ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 277.

⁸⁰⁶ - محمود كعت، تاريخ الفتاش، مصدر سبق ذكره، ص: 41.

⁸⁰⁷ - نفسه.

الحديد ولجوم الخيل، وقد كشفت عنها البحوث الأثرية التي أقيمت بالمنطقة وتوجد بالمتحف الوطني الموريتاني.



صورة رقم 35 : سرج مكتشف في كومبي صالح

المتحف الوطني انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2019/10/08 بعدسة الباحثة

وتواصلت أهمية الخيول، حتى أن الإدريسي ذكر أن ملك غانة علي بن الحسن المنسوب للبيت الشريف العلوي " أن له تبرة واحدة خلقها الله خلقة تامة من غير أن تسبك وهذه اللبنة في قصر الملك ووزنها رطلا من ذهب نفث فيها ثقب وتربط به فرس الملك وهي من الأشياء المغربية التي لا توجد عند غيره⁸⁰⁸، ومن هذا النص نستنتج أن الخيول لها مكانة خاصة بالمدينة توارثتها السلطات الحاكمة للمملكة ظلت قائمة لتكشف الآثار عن دلائلها وشواهدا الواضحة والاهتمام الذي نالته من ملوك غانة يوحي بندرتها وعدم استخدامها كثيرا، فظلت تستخدم بشكل خاص. وقد عكست مستوى الثراء للمنطقة.

المطلب الرابع: الدور العلمي والفكري

لقد دخل الإسلام مدينة كومبي صالح و فيها ديانات متعددة من أشهرها الوثنية التي كانت سائدة في الغرب الإفريقي وقد تميزت بها مدينة " الغابة" وهي الشطر الذي يسكنه الملك، وقد تنوعت ظاهرة تعدد المعبود في غرب إفريقيا والتي تسعى من خلالها المجموعات الصغيرة للتميز داخل مجتمعاتهم وتتحكم بالتصرفات والمواقف الدينية في حياة السودانيين، مهما كانت قيمة هؤلاء، وتطبع الأعمال الفنية، مثل الحجارة المنحوتة في السينغال وكيبى،

⁸⁰⁸ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سيق ذكره، ص: 24.

والماندي... إلخ، كما لوحظ انتشار للأقنعة في منطقة غرب إفريقيا حيث ظلت منتشرة إلى عهد قريب⁸⁰⁹.

كما لعب السحر في هذه الظاهرة أهمية بالغة تمثلت في انتشار رجال الدين عند وثنيي إفريقيا الغربية، يمدون العامة بالتائم والطلاسم الوثنية، ولديهم تعاويذ يعتقدون أنها طاردة لشياطين الشر، كما يمكنها إصابة العدو بمكروه يحدده الساحر، وكانوا يستخدمونها لجلب الخير والسعادة⁸¹⁰، الشيء الذي يظهر من خلاله أن السحر كان يلعب دورا هاما في هذه المدينة

بعد مراسم الدفن التي حددها البكري والتي ذكرناها سابقا والمتمثلة في دفن الأمتعة مع صاحبها، "... ثم يخندقون حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد"⁸¹¹... ويدخل هؤلاء الملوك بعد الوفاة في إطار الأسلاف الذين كانوا يُعبدون، والتي تشكل عبادتهم إحدى دعائم الديانة الوثنية في إفريقيا الغربية قبل دخول الإسلام، وهؤلاء الأجداد هم المؤسسون لتقاليد الجماعة وأعرافها وتركوا على إثرهم لأجيالهم تلك التقاليد والعادات، وموت الأسلاف لا تعني لدى الأبناء فناء كلياً وإنما تبقى أرواحهم تراقب تصرفات الأبناء، فمن حاد منهم عن ما سنه الأجداد أوقعوا به الشر، ومن التزم أحيط برعاية الأجداد يعلموه الخير والنجاح في حياته⁸¹²، هذا ما دفع بالأبناء إلى التقرب إلى الأسلاف بالذبائح عند قبورهم، ويؤدوا عباداتهم حتى منتصف القرن 11م، هذا ما ذكره البكري حيث قال: "... وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمر..."⁸¹³. بينما كانت مجموعات سودانية أخرى تعتقد بأن الإله يراقب سلوك البشر، ليحاسب المستقيم على حسن سيرته ويعاقب المخطئ على عمله،

⁸⁰⁹ - الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 176.

⁸¹⁰ - الناني الحسين، صحراء الملتمين، مرجع سبق ذكره، ص: 260.

⁸¹¹ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 176.

⁸¹² - نفسه.

⁸¹³ - نفسه.

وبذلك يعبدون الإله ويقيمون له القرابين⁸¹⁴، وتوجد جماعات أخرى تعبد بطريقة تختلف عن الطريقة السالفة الذكر حيث قامت هذه المجموعات بصناعة بعض التماثيل الخشبية أو المعدنية وعبادتها⁸¹⁵، وتعتبر عبادة الأصنام العبادة الأكثر انتشارا في بلاد السودان، وقال البكري في هذا المضمرة: "... وكانوا على ما سار السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم"⁸¹⁶، وتختلف أشكال الأصنام وطبيعتهم من مجموعة إلى أخرى، حيث توجد عند البعض على أشكال تماثيل بشرية⁸¹⁷، وفي وصف البكري لإحدى الممالك السودانية تدعى مملكة الدمدم فيقول عنها: "... وإذا سار سائر من بلاد كوكو على شاطئ البحر غربا انتهى إلى مملكة يقال لها الدمدم، يأكلون من وقع إليهم... وفي بلدهم قلعة عظيمة عليها صنم في صورة امرأة يتألهون به ويحجونه"⁸¹⁸، شأنها في ذلك شأن الغرب الإفريقي، وكان ذلك هو الاعتقاد السائد ويتلخص في الإحيائية في الاعتقاد أن كل الأشياء لها أرواح، وأن مصدر قوة الطبيعة هو إله أعلى وأعظم من كل الآلهة الأخرى يوهبها القوة، وفي هذا الإطار يتداول المانكي هذه الأسطورة بصفة خاصة ومفادها أن الإله أول ما خلق من الأحياء يتمثل في طفلين توأمين حلت روحاهما في الكائنات المتناثرة في الطبيعة فدبت الحياة في البشر والحيوان والنباتات نتيجة لذلك⁸¹⁹.

قد تفرقت المجتمعات السودانية حول هذه الأساطير، وكانت شعائرها الدينية متنوعة، ورغم ذلك فإنها نصب كلها في الإيمان بوجود الإله الأعظم، مع عدم الاتفاق على صفاته، ولا الطريقة التي يتم التقرب إليه بها، وما إذا كانت عبادته إلزامية أم اختيارية، فيرى بعضهم أن

⁸¹⁴ - إبراهيم طرخان، إمبراطورية غانة، مرجع سبق ذكره، ص: 27.

⁸¹⁵ - Mauny. Tableau Géographie. Op .cit . p : 520.

⁸¹⁶ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 172.

⁸¹⁷ - نفسه.

⁸¹⁸ - نفسه.

⁸¹⁹ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 295.

الإله غير مهتم بحياة الأرض وما يدور فيها، وأنه العلاقة بين البشر وإله الأرواح الأقل أهمية منه، وهي بالنسبة لهم أحق وأولى بالعبادة منه ما دامت إرادته كذلك⁸²⁰.

كما كانت مجموعات أخرى تختار معبودها من عناصر الطبيعة بحيث كان المعبود يختلف من منطقة إلى أخرى، تبعا لاختلاف المناخ وما يوفره من مقومات العيش مثل ما حصل في مملكة غانة (كومبي صالح) التي كانت حدودها تمتد إلى الصحراء وتقع فيها " غانة الوثنية" وهي العاصمة، وهؤلاء كانوا يعبدون " الثعبان" معتقدين في أنفسهم أنه يملك القدرة على إنزال المطر مقابل تقديم قربان له، وهذا القربان يتمثل في قربان بشري، وهو عبارة عن فتاة بكر يتم اختيارها كل سنة عن طريق القيام بقرعة، وتُجمل هذه الفتاة وتقدم إلى الثعبان في مغارته بالغابة المقدسة المشرفة على العاصمة ليلتها، ويعرف هذا الثعبان لدى السكان باسم "بيدا"⁸²¹ فأضافوا إليه اسم المملكة عندهم "وغاد" ليصبح اسم الثعبان "واغادو بيذا" بمعنى إله بلاد واغادو(غانه)، وكان مسؤولا في وجهة نظر هؤلاء السكان عن الناحية الأمنية بالإضافة إلى توفير المياه عن طريق إنزال المطر، فيقوم هذا الإله في ما يعتقد سكان غانة بحراسة أموالهم وحمايتهم من كل مكروه وحراسة كنوزهم ومختلف ثرواتهم⁸²².

وكان لديهم رجال دين يسهرون على أداء الشعائر، ويبدو أن هذه الشعائر كانت تمارس بالغابة الواقعة قرب مكان إقامة الملك ويعتقد أن هذه الغابة كانت مأوى للكثير من الثعابين التي يقع الاختيار على أحدها من طرف الكهنة، ويصف البكري ذلك في حديثه عن غانة بقوله: "...وحول مدينة الملك قباب وغابات يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يقيمون دينهم⁸²³، وكانت هذه الثعابين آمنة من طرف سكان غانة، لأنهم يعظمونها ويحرمون قتلها، ويعتقدون أن ذلك يجلب لهم المصائب⁸²⁴ وهذا النوع من العبادة ينطبق على جميع ممالك السودان

⁸²⁰ - حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة، مرجع سبق ذكره ، ص: 53.

⁸²¹ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 295.

⁸²² - نفسه.

⁸²³ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 173.

⁸²⁴ - حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة ، مرجع سبق ذكره، ص: 41.

كما هو الحال في غانة، فقد وصف البكري إحدى هذه الممالك تسمى " زافقو " فقال: "... بلد زافقو، وهم صنف من السودان يعبدون حية كالثعبان العظيم ذا عرف وذنب، رأسه كرأس البخت وهو في مغارة بالمفاضة، وعلى فم المغارة عريش وأحجار ومسكن قوم متعبدين معظمين لتلك الحية، ويعلقون نفيس وحر المتاع على ذلك العريش، ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب، وهم إذا أرادوا إخراجهم إلى العريش تكلموا كلاما وصفروا صفيرا معلوما فيبرز لهم.."⁸²⁵.

وقد اتخذت الوثنية في غرب إفريقيا أشكالاً عديدة، منها عبادة الملوك، الذين كانت القضايا المرتبطة بخصوبة الأراضي الزراعية وانتظام تساقط الأمطار تخضع لمشيئتهم، حسب معتقد بعض الجماعات السودانية، مما أدى إلى عدم تركهم الملوك يموتون ميتة طبيعية وإنما يتم قتل الواحد منهم إذا تقدمت بهم السن، أو أصيب بمرض قاتل عن طريق سقيه السم أو خنقه "خنقا مقدسا"، ثم تحنط الجثة⁸²⁶، ومن مظاهر التقديس لدى ملوك السودان وخاصة ملوك غانة التي حظي ملوكها بالتقديس من طرف رعاياهم، فقد أصيب الملك "بسى" في آخر عمره بالعمى، فكان يكتنم ذلك عن أهل مملكته ويريهام أنه يبصر، وتوضع بين أيديهم أشياء فيقول: هذا حسن وهذا قبيح، وكان الوزراء من حوله يخفون ذلك عن الرعية ويلغزون للملك بلغة لا تفهمها العامة⁸²⁷، وتظهر مراحل التقديس عند شعوب غانة فيما يخص الملك حتى في مراسم الدفن، وهذا التقديس لدى الشعوب السودانية يشبه إلى حد ما تقديس الفراعنة عند قدماء المصريين⁸²⁸.

وقد غزا المرابطون مدينة كومبي صالح سنة : (469هـ/76-1077م)، وقد أدى هذا الغزو إلى الخراب الكلي للمدينة الوثنية المسماة بـ "كومبي كالاتا" التي كان يحميها الملك حتى أن

⁸²⁵ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق، ص: 174.

⁸²⁶ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 296.

⁸²⁷ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 104.

⁸²⁸ - الناني الحسين، صحراء الملثمين، مرجع سبق ذكره، ص: 296.

الأركيولوجيا لم تقف على أي أثر لموقع المدينة⁸²⁹، خلافا لما حدث مع الشق الآخر من المدينة وهو الشطر الإسلامي المسمى بكومبي صالح، فلم يتضرر من جراء ذلك، وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن المرابطين فتحوا كومبي صالح بواسطة معاهدة مع التجار " الأجانب" المقيمين في المدينة وأعطوهم الأمان، ولعل هذا يرجع حسب رأيهم إلى منح فرصة أمام التجار الصنهاجيين الموجودين في المدينة، لأن الصنهاجيين يشكلون العصبية المرابطية⁸³⁰، مما فتح آفاقا تجارية جديدة للدولة المرابطية واكسبها حظوة أوفر في السيطرة على مدينة غانة (كومبي صالح) بوصفها إحدى الموارد التجارية الأساسية والنافذة التجارية المفتوحة على بلاد السودان، حيث الموارد الاقتصادية المغربية (كالذهب، والرقيق...)، وهي السوق الكبرى لمبادلات الشمال والجنوب، الشيء الذي يساعد الدولة المرابطية على مواصلة التوسع، وكسب الموارد اللازمة لذلك.

وهذا الحكم لم يدم أكثر من عشر سنوات، حيث خفت قبضة الدولة المرابطية بعد اغتيال الأمير أبي بكر بن عمر سنة 480هـ/1087م، من طرف السودانيين بسهم مسموم⁸³¹، حسب رأي البعض الذي يرى أن المصادر أحجمت عن ذكر هذا الشق الصحراوي من الدولة المرابطية، ويرى الباحثون المحليون نقيضا لهذا الرأي، إذ يعتبرون الدولة المرابطية استمرت بعد وفاة الأمير أبي بكر بن عمر، ولا يسمح لنا المقام بالخوض في تفاصيل ذلك الجهاد الذي قام به المرابطون اتجاه السودان، لنشر المذهب المالكي ولا تسليط الضوء على الصمت الذي فرضته المصادر في تلك الفترة الزمنية على منطقة الصحراء، ولا الانشغال الذي شهده المؤرخون والكتاب في الجزء الشمالي من الدولة ولا الأحداث الجسام التي وقعت على أرض الأندلس، لعل هذه العوامل كلها أدت إلى شح المعلومات في الجزء الجنوبي الصحراوي، الذي كان السودان مسرحا لعملياته الجهادية، وظلت المدن السودانية تسقط

⁸²⁹ - ريبير فرني ، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، مرجع سبق ذكره، ص: 15.

⁸³⁰ - أحمد مولود أيدو، المدن الوسيطة المندثرة، مرجع سبق ذكره، ص: 46.

⁸³¹ - الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مصدر سبق ذكره، ص: 78.

الواحدة تلو الأخرى، لتتوسع الرقعة الجغرافية للحكم المرابطي في السودان إلى أن شملت أجزاء من النيجر.

وبفعل تنامي الفتح الإسلامي في المناطق المجاورة، خاصة مدينة آوداغست ذات الصلة التجارية القائمة بينها وبين غانة في تلك الفترة وانتقال التجار عبر هذه المناطق التجارية، دخل الإسلام إلى مملكة غانة لكنه لم ينتشر، بل كان ضعيفا فلم تستطع مدينة آوداغست رغم إسلامها في تلك المرحلة، وهي تحت نفوذ البيض من قبيلة لمتونه، إضافة إلى جماعات من الشعوب الزنجية، خاصة السوننكي، ورغم ما ذكره بعض الباحثين من أن ملك آوداغست تيبوتان كان شديد الحماس لنشر الإسلام، وليس ذلك من أهل آوداغست فحسب، بل بين الزوج المجاورين لمملكته من الجنوب، ويمكن التصور أن الفترة التي كانت آوداغست خلالها لملوك غانه كانت فرصة لمزيد من انتشار الإسلام، على نحو ما تكرر في التاريخ من أن المغلوب إذا كان أعلى حضارة من الغالب، أضفى عليه حضارته فانتصر المغلوب فكريا، وإن كان قد هزم عسكريا⁸³²، فأصبح الملك يعتمد على المسلمين لأنهم أكثر كفاءة وأعلى مستوى من سواهم.

ويقول البكري في هذا المضمار "... وكان تراجم الملك من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله، وأكثر وزرائه"⁸³³ ويتضح من إشارة البكري هذه أن الملك الوثني يؤثر المسلمين على غيرهم، مما زاد انتشارهم في أرجاء الإمبراطورية الغانية، وأثناء حديث البكري عن ذلك يقول "... وكثر المسلمون بإمبراطورية غانة، فأصبحت هناك بلاد خاصة بهم مثل مدينة "يرسنى"..⁸³⁴، وعن هذا الانتشار المذكور، أصبحت العاصمة شطرين: شطر للمسلمين وهو المسمى (كومبي صالح)، وشرط للملك الوثني وهو (كومبي كالاتا)، وقد تحدثنا عن ذلك سابقا، وإن كان هذا الموضوع يهتما أكثر فيما يخص تلك المدينة المسلمة والمسماة

⁸³² - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 175.

⁸³³ - نفسه.

⁸³⁴ - نفسه.

(كومبي صالح)، والتي عاشت بدورها مع شق العاصمة الوثنية تحت إمرة الملك الغاني الوثني، رغم أن الفتح الغاني تأخر بشكل ملحوظ عن الذي تعرضت له آوداغست التي لا تبعد كثيرا عن غانة من حيث الموقع الجغرافي، علاوة على العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين المنطقتين، فمن اللافت للانتباه هو توجه الدولة المرابطية بعد دخول آوداغست سنة (446هـ/1055م)⁸³⁵ إلى الشمال نحو سجلماسة، الشيء الذي حدا بالمرابطين إلى التوغل داخل المغرب الأقصى وإهمال جنوب السودان برهة من الزمن حتى عودة القائد أبي بكر بن عمر إلى الصحراء، مستأنفا الجهاد في بلاد السودان من جديد، ولا يسمح لنا المقام بالخوض في هذا الموضوع كثيرا لأن الأهم لدينا هو دخول المرابطين لغانة (كومبي صالح)، وما صاحب ذلك من تأثير وتأثر على الجانب "المدني".

يبدو أن هذا الغزو المرابطي لم يكن له هدف الاستيلاء على هذه المناطق قصد الاستقرار، مما يتولد عنه تغيير في جوانب الحياة على جميع المستويات، بل كان قصده نشر المذهب السني⁸³⁶، بما يحمله في طياته من اجتثاث للعقائد الوثنية من جهة، والقضاء على مذهبي الإباضية والصفيرية اللذين انتشرا في تلك البلاد عن طريق بعض التجار⁸³⁷، وإذا كان هذا هو ما قصده الجهاد المرابطي، فإن ذلك يتطلب تحولات ملموسة أو جوهرية تعاطت معها المجتمعات التي كانت تتخبط في ظلمات الكفر والجهل.

ولعل انتشار الإسلام بين تلك الشعوب وما صاحبه من تغيرات أخلاقية من شأنها أن تمد الشعوب المعتقدة للإسلام، بالعقيدة الإسلامية واكتساب نظم أخلاقية جديدة كالمعاملات التجارية الخالية من أنواع الغش والنهب والسلب، كما كان متفشيا في بعض المجتمعات التي تدين بغير الإسلام.

⁸³⁵ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 175.

⁸³⁶ - عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام، مرجع سبق ذكره: 115.

⁸³⁷ - نفسه.

يقول دندش " ...خرج الأمير أبو بكر بن عمر على رأس جيش من المرابطين وكان ابنه يحيى على رأس جيش آخر، وكانت وجهة الجيش هذه المرة محددة إذ كان الهدف إمبراطورية غانة، نفسها، تقدمت الجيوش المرابطية في أراضي إمبراطورية غانة، تستولي على مدنها الواحدة تلو الأخرى، وكان الأمير أبو بكر يخير أهل البلد المفتوح، إما اعتناق الإسلام، وإما الحرب، وأخيرا ضاق الحصار على عاصمة غانة، فسقطت في أيدي المرابطين عام (469هـ - 1076م)، وقتل عدد كبير من السوننكي، واعتنق بقية السكان الإسلام⁸³⁸، وتترتب على إمبراطورية غانة من بعد هذا الدخول المرابطي أن تتصاع لأوامر المرابطين، إلا أن الملك استمر في حكمه بعد سماح أبي بكر بن عمر بذلك، وقد أصيب الملك بضربة أصبح بعدها ضعيفا، وقتل معظم رجاله المخلصين، أثناء الهجوم على العاصمة، ومن المحتمل أن هذا الملك قد اعتنق الإسلام في نظر بعض الباحثين، وإلا لما وافق أبو بكر على ترك حكم الغانيين باسم المرابطين⁸³⁹.

وقد نتج عن امتزاج التقاليد الإسلامية التي انتقلت عن طريق المرابطين، بالعادات الزنجية المحلية، نمطا جديدا من التعايش عبارة عن ظهور تقاليد جديدة محلية، عند الملوك والرعية شبيهة بالمظاهر الإسلامية العربية⁸⁴⁰، وقد ذكره الإدريسي لدى حديثه عن ملوك بني صالح، فقال في وصف أحدهم ما نصه "...ومن سيرته قربه من الناس، وعدله فيهم.. وله جملة قواد يركبون إلى قصره، في صباح كل يوم ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه، فإذا وصل إلى باب القصر سكت، فإذا اجتمع إليه جميع قواده، ركب وسار يتقدمهم، ويمشي في أزقة المدينة، ودوائر البلد، فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر تصدى له، فلا يزال حاضرا حتى يقضي مظلمته، ثم يرجع إلى قصره، ويتفرق قواده، فإذا كان بعد العصر، وسكن حر

⁸³⁸ - عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام ، مرجع سبق ذكره، ص: 116.

⁸³⁹ - نفسه، ص: 118.

⁸⁴⁰ - نفسه، ص: 152.

الشمس، ركب مرة ثانية، وخرج وحوله أجناده، فلا يقدر أحد على قربه، ولا على الوصول إليه، وركوبه مرتين مسيرة معلومة وهذا مشهور من عدله...⁸⁴¹.

وهذه الأسرة التي حكمت غانة (كومبي صالح) منذ القرن الرابع هجري تدعي الانتساب إلى الأصول العربية، وإلى البيت العلوي، حيث ينسبون إلى ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن أبي طالب⁸⁴².

وقد ورد ذكر ملك هؤلاء في المصادر العربية، ويدعي أنهم وصلوا إلى الملك عن طريق المصاهرة التي حدثت مع الأسر المالكة السوننكية، التي كانت تمنح الملك لابن الأخت، وصف الإدريسي قصر الملك فقال "... وله قصر على ضفة النيل قد أوثق بنيانه، وأحكم إتقانه، زينت مساكنه بضروب من النقوشات والأدهان وشمسيات الزجاج، وتتصل المملكة بأرض ونقارة وهي بلاد التبر⁸⁴³.

ويقول "... والذي يعلمه أهل المغرب الأقصى علما يقينا لا اختلاف فيه أن له في قصره لبنة من الذهب وزنها رطلا من ذهب تبرة واحدة خلقها الله خلقة تامة من غير أن تسبك في نار، ولا تطرق بآلة، وقد نفذ فيها ثقبا وهي مربوط لفرس الملك، وهي من الأشياء المغرية التي ليست عند غيره، وهو يفخر بها على سائر السودان⁸⁴⁴.

وهذه النظم الإسلامية الجديدة، بدأت بانتشار المساجد في المنطقة. وقد قام الأمير أبو بكر بن عمر كعادة المرابطين، بنشر بناء الرباطات، وبناء المساجد، فكثر عدد الداخلين في الإسلام، وقد ترك الأمير أبو بكر بن عمر إمبراطورية غانة لابنه أبي يحيى، يتابع نشر الإسلام بها، يقول صاحب الحلل الموشية: "... وأسلم أهل غانة وحسن إسلامهم عند خروج

⁸⁴¹ -الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص: 6.

⁸⁴² - نفسه، ص: 591.

⁸⁴³ - نفسه، ص: 22.

⁸⁴⁴ - نفسه، ص: 24.

الأمير أبي يحيى بن الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني⁸⁴⁵، وهذا الانتشار المذكور للمساجد، من شأنه أن يكون له تأثير مباشر على جميع الجوانب، فالمسجد بوصفه مؤسسة إسلامية قائمة، يترتب على وجودها الكثير مما يتضمنه من استقرار جماعي يحمل في طياته نشأة مدينة تدار من خلال هذه المؤسسة الدينية والجماعة التي تقوم بالصلاة، من شأنها أن تقوم بالتغيير الذي يعود إلى المجتمعات بتقويم السلوك الديني ويقوم بالدور التدريسي للأحكام الشرعية المنشودة، ولعل هذا الانتشار كان المقصود منه: نشر المذهب المالكي في أرجاء السودان، وهذا ما حصل، وتعد السيطرة المرابطية على مملكة غانة، عاملا محفزا على نشر الإسلام، مما دفع قبائل سوننكة للعمل على نشره، وقاموا بالدور الكبير لإرساء دعائمه داخل بقية القبائل الوثنية الأخرى⁸⁴⁶، إضافة إلى الدعاة الوافدين إلى بلاد غانة الذين يختلطون اجتماعيا مع قبائل الزنوج مما أحدث تغيرات على السلوك العام نتيجة التأثير الذي يحدث جراء الاحتكاك الحاصل بين الشعوب، والذي نجم عنه تغير في العادات والتقاليد، وحتى نمط العيش⁸⁴⁷، كما ساعد انتشار الإسلام في هذه المناطق على اكتساب سلوك جديد تنقاسمه هذه الشعوب بالتساوي، لتصبح أخلاقا معيشة داخل المدن، كما اكتسبوه من المعاملات الإسلامية فيما يخص التجارة، ولعل هذا التعايش الذي حصل بين تلك الفئات داخل المراكز التجارية زاد مستوى الازدهار الذي عاشته مدن المنطقة، بما في ذلك مدينة كومبي صالح وما وصلت إليه من ازدهار، كما أن العامل الديني له القدرة على توطيد العلاقات واستقرار المدينة، وقد أخذت مدينة غانة كومبي صالح قسطها من ذلك.

المطلب الخامس: التراجع التجاري واندثار كومبي صالح

لقد أدى التسامح الذي ميز ملوك غانة إلى تشييد مدينة كومبي صالح وازدهارها من طرف التجار المسلمين الوافدين إليها من جهات متعددة، الشيء الذي أدى إلى تعايش تلك

⁸⁴⁵ - الحلل الموشية، مصدر سبق ذكره، ص: 89.

⁸⁴⁶ - عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص: 154.

⁸⁴⁷ - نفسه.

الجاليات العربية والبربرية والسودانية، مما نتج عنه انصهار في الثقافات، وإفراز لهجات محلية تشكلت من بين تلك اللغات اللهجة " الأزرية" التي ظلت تحكم التعامل التجاري بين السودانيين والتجار في أوداغست وكومبي صالح⁸⁴⁸، ولم تخضع مدينة كومبي صالح في خرابها إلى ما خضعت له نظيرتها أوداغست من عوامل أدت إلى خراب هذه الأخيرة⁸⁴⁹.

يرى بعض الباحثين أن وضع التجار المسلمين، كان أفضل بكثير مع السودان من جيرانهم الصنهاجيين الصحراويين، وإذا كان افتراض الباحث موني صحيحا بشأن آل صالح الذين حكموا كومبي صالح عن طريق السلالة الغانية التي أطاح بها المرابطون، في الوقت الذي ساعد انتمائهم إلى الشرف على البقاء في الحكم⁸⁵⁰.

وتظهر المؤشرات أن هذه الشعوب تعاضمت مشاعر العداء بينها حتى مطلع القرن 7هـ/13م، وبدأت المدينة في التراجع، وضاع التسامح بين السكان السودانيين والعرب والبربر، وأحست الجاليات التجارية بذلك العداء، وقامت قبائل الصوصو سنة 601هـ/1203م بقيادة "سوماتغوروكانتى" باجتياح المدينة، ولم تؤرخ المصادر العربية لهذا الاجتياح، إلا أن مؤرخ السودان الغربي دولا فوس (Dolafosse) أورد تاريخ الاجتماع المذكور أعلاه، وهذا ما اعتمده الرحالة الألماني " هنري بارت" ولم يرد ذكر المصدر عن أحدهما، وقد ذكر ابن خلدون في معرض حديثه عن غانة دون تحديد تاريخها، فقال "... ثم اضمحل ملك أصحاب غانة، وتغلب عليهم الصوصو المجاورين لهم من أمم السودان واستعبدوهم وصيروهم في جملتهم..." ولم يدم هذا الحكم طويلا حسب ما ذكره دولا فوس⁸⁵¹، ثم دخلت قبائل الماندينغ بعد ذلك واجتاحت المدينة وخربتها وألحقها بمملكة مالي⁸⁵²، وقد ذكر ابن خلدون هذا الحادث فقال: "... ثم إن أهل مالي كثيرو أمم السودان في نواحيهم تلك،

⁸⁴⁸ - أحمد مولود/ أيده، المدن الوسيطة المندثرة، مرجع سبق ذكره، ص: 106.

⁸⁴⁹ - نفسه.

⁸⁵⁰ - نفسه.

⁸⁵¹ - ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، ص: 413.

⁸⁵² - أحمد مولود/ أيده، المدن الوسيطة المندثرة، مرجع سبق ذكره، ص: 107.

واستطاعوا التغلب على الأمم المجاورة لهم، فتغلبوا على الصوصو، وملكوا جميع ما بأيديهم من ملكهم القديم⁸⁵³، وانحرفت الطرق التجارية في تلك الفترة عبر مسارات أخرى أكثر أمناً، مما عزز عوامل الاضمحلال التي توالى على هذه المدينة، ولم تبق منها سوى أطلال تبدو معالمها شاهدة على عظم حضارة قديمة وتنبئ أن ما خفي منها ربما أعظم بكثير مما يتراءى للناظر وهو يسير بخطى ثابتة على تاريخ دفين لا يعرف كنهه.

⁸⁵³ - ابن خلدون، العبر، نفس المصدر السابق، ص: 414.

الباب الثاني: المدن الصحراوية الوسيطة الحية

الباب الثاني: المدن الصحراوية الوسيطة الحية

تعتبر الصحراء الجنوبية جزءاً من الغرب الإسلامي الذي خضع لتأثيرات مختلفة إبان العصر الوسيط ومن أهم تلك الأحداث انتشار المذهب المالكي في الفترة المرابطية حوالي القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وقد نشأت حركة المرابطين في الصحراء في سياق تاريخي مشهود، وبعد أن أخذت هذه الحركة على عاتقها العملية الجهادية التي اعتبرت فتحاً للمدن الموجودة بالصحراء، بدءاً بأوداغست العاصمة الصنهاجية والمدينة الصحراوية الأثرية التي اتجهت منها شمالاً بدءاً بسجلماسة المدينة التجارية المغربية ليتواصل ذلك الفتح في الشمال وتنتهي بتأسيس الجزء الشمالي من الدولة المرابطية الذي حكمه الأمير يوسف بن تاشفين كخلف للأمير أبي بكر بن عمر الذي عاد إلى الصحراء قصد استتباب الأمن فيها، ولسنا بصدد سرد تلك الأحداث بقدر ما نحن بصدد تأثير هؤلاء على الجانب المدني للصحراء، فقد كان المجال الصحراوي في مرحلة الدولة المرابطية مسرحاً للعمليات الجهادية في اتجاه الجنوب السوداني من جهة حيث كانت أزوكي العاصمة المرابطية هي المنطلق لذلك ولم تكن المدن الصحراوية الوسيطة بمنأى عن هذه الفتوحات، فقد تم فتحها بطرق شتى وبوسائل متنوعة.

عرفت هذه المدن عند الباحثين المحليين بمدن القوافل التجارية، وقسموها إلى قسمين: قسم مندثر ويتكون من: (أوداغست، وكمبي صالح، أزوكي)، وقسم حي و يتكون من: (ولاته، وادان، تيشيت، وشنقيط)⁸⁵⁴ ولقبوها بالجيل الثاني.

ويرى الباحثون أن المدن الصحراوية الوسيطة الحية ورثت الكثير من الخصائص المتعلقة بوظائفها التجارية فضلاً عن خصائصها المعمارية⁸⁵⁵ عن المدن الصحراوية الوسيطة المندثرة وقد خضعت المدن الصحراوية الوسيطة الحية للسيطرة المرابطية في الجزء الجنوبي

⁸⁵⁴ - أحمد مولود أيده الهلالي، مدن موريتانيا العتيقة، قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط، الطبعة 2014، الطباعة والإخراج الفني: دار أبو رقرق

للطباعة والنشر، الرباط، ص: 56.

⁸⁵⁵ - نفسه.

من الدولة المرابطية، ولم يحظ الجزء العمراني للمدن الصحراوية بأي اهتمام في الفترة الوسيطة من طرف الباحثين خلافاً لما ناله الجزء الشمالي للدولة المرابطية، الشيء الذي يحتم علينا الرجوع إلى ما دونته المصادر المحلية والبحوث الحديثة ، للكشف عن جوانب الحياة المدنية التي كانت قائمة في الفترة الوسيطة التي عاشت بها أطلال تلك المدن، ولعل الموروث المادي لتلك المدن انتقل عن طريق تعاقب أجيال المدن لنجد من بين ثناياه ما يدلنا على ماضي المدينة في الفترة الوسيطة في الوقت الذي تفتقد فيه تلك المدن دراسة أثرية تكشف عن مكونات جوانب المدن الأثرية.

هذه المدن التي عاشت في الفترة الوسيطة وحافظت على حياتها رغم التحول التجاري من القوافل إلى الموانئ وما صاحب ذلك من تغيرات فرضت هجرة الكثير من سكانها و بقيت تصارع الخراب حتى اعتمدت ضمن التراث العالمي من قبل منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) بتاريخ: 1996/12/07م.

وقد ذكر ابن حبت في مخطوطه عن الجهاد الذي قام به أبو بكر بن عمر لإخضاع تلك المدن وفتحها فقال: "...فلما عزم أبو بكر بن عامر على المسير راود قوماً على الخروج معه من نسل عقبة المستجاب تبركاً بهم وهم أربعة رجال، محمد بن عبد الله جد مدلس وابن أخيه عبد الرحمن بن أبو بكر جد تركز وسيد محمد الكنتي جد كنت وعبد الله جد ادقزنبو ونزلوا المالحه⁸⁵⁶.

وهي مدينة عظيمة فيها آسوانك وإفلاان وكثير من البربر وهي مسيرة يومين من وادان فقاتل حتى ملكها عنوة ثم نزل وادان وبها آسوانك وملكها عنوة أيضاً ثم جهز جيشاً إلى آبير وفيه طوائف من الخلق فيها أجناس من السودان فقاتلهم قتالاً شديداً حتى سالموه وأسلموا كلهم⁸⁵⁷.

856 - أحمد بن حبت، تأليف الأسباب غير معنون، مصدر سبق ذكره، ص: 4.

857 - نفسه.

وهذا يوحى بأن الأمير أبا بكر بن عمر وجيشه وجدوا هذه المدن قائمة بعمارتها وسكانها ودخلوها عنوة ونشروا الإسلام بها وأول ما يقوم به القائد بعد هذا الدخول هو بناء المساجد التي انتشرت بأسبابهم في هذه الربوع؛ كما ذكر محمد امبارك اللمتوني في أرجوزته ذلك الفتح حيث قال:

وقام منهما إلى وادانا وبعضهم مات وبعض دانا
ثم إلى شنجيط العظيم ذات الحصون والكفر الصميم⁸⁵⁸

وهذا ما يوحى بغزو المرابطين لهذه المدن وفتحها كما تذكر بعض المرويات في تيشيت أن عبد الرحمن بن الغيث، قاد جيوش المرابطين وفتح بها واحة تيشيت وسيطر على المنطقة وقضى على الفلول المنبثقة من المنطقة ودكوا حصونها⁸⁵⁹.

وسقط شهيداً في إحدى المعارك وقبره معروف بتيشيت وهذا ما يدل على سيطرة المرابطين على واحة تيشيت في وقت ما من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي⁸⁶⁰ الشيء الذي أضاف إلى تلك المدن الموجودة آنذاك تحولاً في اتجاه أنماط جاء بها الإسلام إلى سكان المنطقة كبناء المساجد وانتهاج السلوك الإسلامي وما يترتب على ذلك من تنظيم داخل طبقات المجتمع كما هو الحال في باقي مدن الصحراء وبواديها إضافة إلى ما وصلت إليه الدولة من بلاد السودان، كما أن السيطرة التي شهدتها الصحراء الجنوبية من طرف الدولة المرابطية تحت قيادة أبي بكر بن عمر ومنه إلى الأمراء الذين حكموا بعده من شأنها أن تبسط نفوذها على تلك الرقعة الأرضية بما تحتويه من مدن وغيرها، والسيطرة على الأسواق التجارية والطرق، إلا أن الوضعية الصحراوية في تلك الفترة لم تسمح بنقل معلومات وافية عن خريطة الدولة المرابطية في جزئها الجنوبي، بل ظل الاهتمام كما بينا سالفاً ينصب

⁸⁵⁸ - اللمتوني، نظم اللمتوني، مصدر سبق ذكره، ص: 23.

⁸⁵⁹ - حماد الله ولد مياي، مدينة تيشيت رسائل وأشعار بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، جمع وتقديم وتحقيق دار الطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص: 23.

⁸⁶⁰ - نفسه.

على الجزء الشمالي نتيجة ضخامته من الناحية العمرانية والبشرية آنذاك، حتى اشتغل الكتاب به في تلك الفترة عن غيره، وظلت الكتابة مقتصرة على فتوحات الدولة خلال فترة أبي بكر بن عمر.

ولم تذكر لنا المصادر التاريخية العربية أي شيء عن هذه المدن خلافاً لما حدث مع المدن الأثرية السالفة الذكر، ولم يوجد إلا ما دونه الفقهاء خلال القرنين الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي و الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، وإن كانت لا تعدو مجرد تدوين للروايات الشفهية مما يدعو لإخضاعها للتحري تقادياً للخلط الذي قد تدفع الروايات للوقوع فيه⁸⁶¹.

⁸⁶¹ - أحمد مولود أيد، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 86.

الفصل الأول: مدينة ولاته

المبحث الأول: نشأة المدينة وتصميمها

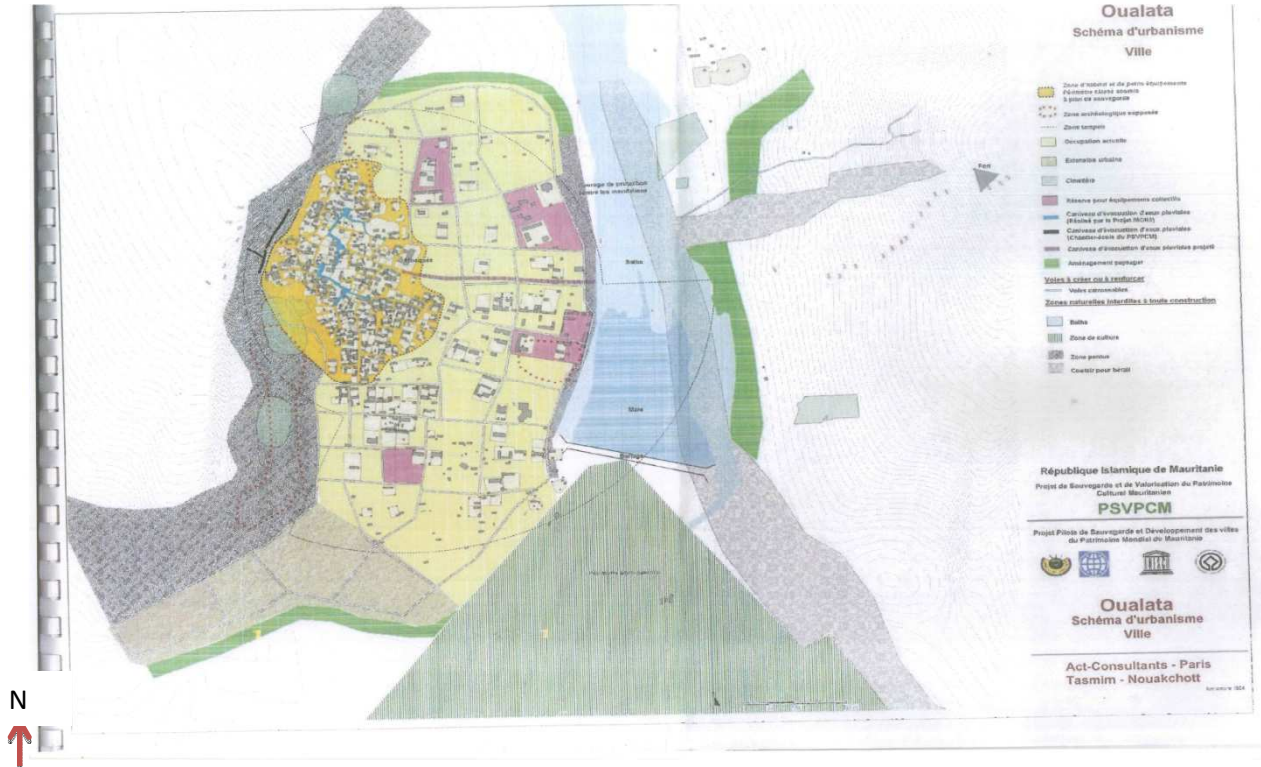
المطلب الأول: الإطار الجغرافي و التاريخي

أولاً: الموقع

تقع مدينة ولاته ضمن المجال الصحراوي المسمى اليوم بموريتانيا وتعد من المدن العتيقة التي لها مكانتها المتميزة، وتوجد في الشرق من البلاد بولاية الحوض الشرقي على بعد 120 كلم شمال مدينة النعمة عاصمة الولاية، وتبعد 1300 كلم شرقي العاصمة السياسية للبلاد نواكشوط.

شيدت المدينة بين منحدرين هما: أظهر ولاته والباطن على مستوى 280 مترا تحت مستوى سطح البحر، تحيط بها المرتفعات من الجهات الأربع عند تقاطع دائرة العرض 17.17° شمال الدائرة الاستوائية و 7.1° غرب خط الاستواء وتحيط بالمدينة الهضاب من جميع الجهات وأرضها سهلة وخصبة، ويذكر بأنها على أبعاد متساوية بين المدن التاريخية الثلاث المحيطة بها تينبكتو وكالا في مالي جنوبا، وتيشيت في موريتانيا شمالا وتبعد عن الحدود المالية 140 كلم شمالا⁸⁶².

⁸⁶² - بشيري / محمد، "ولاته الماضي والحاضر والمستقبل"، محاضرات أقيمت في مهرجان ودان، الاتحاد الموريتاني للنشر والتوزيع، ص: 151.



مقياس الخريطة
0 - 50 - 100 - 200m

خريطة رقم 5: خريطة توضح الحي القديم بمدينة ولاته.

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

يتميز المناخ في مدينة ولاته بالحرارة الشديدة صيفا والبرد القارس شتاء وأمطار صيفية لا تتجاوز 150 ملم وتتساقط عليه أمطار شتوية محدودة (الرش) لمدة أيام متتالية، (أردانه)، وقد منحها موقعها الجغرافي مكانا آمنا هاما عبر تاريخها الطويل، ويبدو أن اختيار الموقع كان لأغراض دفاعية وللمراقبة العسكرية التي كانت تتم بطريقة سهلة⁸⁶³.

ثانيا: نشأة مدينة ولاته

من الصعب أن نحدد تاريخ نشأة مدينة ولاته لتضارب الروايات حول الموضوع، إذ تذكر بعض الروايات أن تأسيسها وإعمارها يقوم على مجموعة من الأسر القادمة من غانه بعد سقوطها على يد الصوصو⁸⁶⁴، ويقول محمد الأغظف ولد الداو: "... ويربط بعض المخطوطات المحلية تأسيسها بحملات عقبة بن نافع الفهري وأن ابنه العاقب تخلف فيها إلى

⁸⁶³ - بشيري / محمد، "ولاته الماضي والحاضر والمستقبل"، ص: 151..

⁸⁶⁴ - Delafosse, Maurice. Haut-Sénégal-Niger..op.cit. P:56.

أن توفي ودفن بـصحن مسجدها، ومن المتداول حسب بعض الروايات لمدينة ولاته أن القبر الذي بـصحن المسجد قبر تابعي، وينقل المرواني بن الطالب عبد الله النفاع الولاتي عن أبي الحسن الصغير من شرحه لاختصار البرادعي للمدونة أن عقبة بن نافع هو الذي فتحها وبنى مسجدها...»⁸⁶⁵.

وترتبط رواية التأسيس الثالثة بقدوم أحد أبناء موسى الكاظم إليها فاراً من بغداد، ويبدو من خلال هذه الروايات الشفهية تضارب في تاريخ التأسيس للمدينة، إذ تجزم الرواية الأولى التي تستند على قدوم بعض السكان من غانه إلى أن تأسس المدينة سنة (601هـ - 1203م)،

وقد يكون قبل ظهور الإسلام أو بعده بقليل، وتذكر بعض الروايات التاريخية المتداولة عن سكان المدينة (مهاجيب) أن الإسلام والعلم أنتشر في هذه المدينة على يد جدهم العالم المسمى يحيى الكامل⁸⁶⁶، ويعتقد أنه وصل المدينة حسب بعض الباحثين المحليين في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وقد أخذ المختار بن حامد بهذا الرأي بينما يرى بعض الباحثين المحليين في مدينة ولاته أن هذه الرواية تختلف مع بعض الروايات التي يتناقلها ثقة من أهل ولاته أن مسجد ولاته بني على رأس القرن الثاني الهجري.

ثالثاً: إشكالية التسمية

حملت هذه المدينة عبر فترات الزمنية تسميات متعددة (بيرو، ايولاتن، ولاتن، ولاته) ويبدو أن هذه الأسماء أطلقت على هذا المركز التجاري لفترات زمنية مختلفة، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: ما هي الأسباب أو الدوافع وراء تعدد هذه الأسماء؟

يصعب على الدارس إدراك هذا التعدد في الأسماء المختلفة التي أطلقت على هذا المركز التجاري، نظراً لعدم الاحتفاظ بالكثير من المخطوطات المحلية والتي كان ينتظر منها حل بعض الإشكالات العالقة لدى الباحثين، وكل ما هو موجود لدينا لحل هذه الأسئلة هي

⁸⁶⁵ - محمد الأغظف الداه، ولاته بين التاريخ المشرق وتحديات، مقالة سبق ذكرها، ص: 74.

⁸⁶⁶ - نفسه.

نصوص تتحدث عن هذه المدينة بوصفها مركزاً حضرياً بالمنطقة، فزيارة ابن بطوطة لها في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي يذكرها باسم (ايولاتن)⁸⁶⁷ ويذكر أن بها شركة تجارية لأجداد المقري (أحمد بن محمد)⁸⁶⁸.

وقد ورد ذكرها عند ابن خلدون باسم (ولاتن) في القرن الرابع عشر الميلادي، كما ذكرها ابن الحاج المتوكل في القرن السادس عشر الميلادي، ووردت باسم بيرو حيث قال: "...لما دخل سني علي تينبكتو خاف الناس فرجع كل لبلده الأصلي فرجع أهل بيرو إلى بيرو..."⁸⁶⁹ كما وردت لدى السعدي بهذا الاسم أيضاً في قوله: "...كتب الفقيه محمود بن عمر لأخيه الفقيه عبد الله وهو في تازخت⁸⁷⁰ قرية قرب بيرو، فأمره أن يأتي لتينبكتو فكتب إليه أنه لا يأتيها وبقي في تازخت إلى أن توفي رحمه الله⁸⁷¹".

وفي نفس الحديث يقول التينبكتي ما نصه: "...عبد الله بن عمر بن محمد بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي كان فقيهاً حافظاً زاهداً ورعاً ولياً صالحاً... درس في ولاتن وتوفي بها سنة 969هـ..."⁸⁷² وهذا ما يوحي أن الأسماء تعددت لدى الكتاب فتارة (بيرو) وتارة (ولاتن).

ويقول التينبكتي: "...وفي سنة 873 للهجرة دخل سني علي على تينبكتو 4 رجب الفرد في السنة الرابعة من توليه السلطنة وعاث فيها فساداً عظيماً فحرقها وكسرها وقتل خلقاً كثيراً، ولما سمع آكلٌ بمجيئه أحضر ألف جمل ورحل فقهاء سنكري عليها إلى بيرو ومشى فيهم

⁸⁶⁷ - ابن بطوطة، تحفة النظائر، ج (2)، مصدر سبق ذكره، ص: 286.

⁸⁶⁸ - ميمونة بنت سيدي، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ تحت عنوان المدن الموريتانية القديمة وسبل انقاذها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، سايس، السنة الجامعية (2011-2012م) (1432/1433هـ) ص: 22.

⁸⁶⁹ - محمود كعت، تاريخ الفتاش، مصدر سبق ذكره، ص: 29.

⁸⁷⁰ - تازخت قرية تقع قرب مدينة ولاته على بعد ميلين وكانت قرية علم ودين كانت لها مغرم على أهل ولاته وأضر ذلك أهلها بأهلها حتى ارتحل بعضهم إلى مدينة تينبكتو وقد خرجت هذه القرية على يد أولاد يونس ونزح بعض سكانها إلى مدينة ولاته walata.in2cub.net int

indexphc 16 h زيارة الموقع الساعة 2020/08/12

⁸⁷¹ - السعدي، تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص: 30.

⁸⁷² - التينبكتي أحمد باب بن أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الدياج، طرابلس، ليبيا، ط2، 2000، ص: 30.

الفقيه عمر بن محمد أقيت وأولاده الثلاثة المباركون الفقيه عبد الله والفقيه أحمد وهو أكبرهم والفقيه محمود⁸⁷³.

وفي نفس السياق يتحدث البرتلي فيقول: "...عمر بن محمد أقيت رحل إلى ولاته لما رحل إليها فقهاء سنكرى من أجل خوفهم من الظالم الفاجر سني علي لما دخل تينبكتو في 4 أو 5 رجب الفرد عام 873هـ⁸⁷⁴.

وهذه الكتابات الواردة في تلك المسميات المختلفة تدل على أن هذا المركز التجاري الصحراوي حمل هذه الأسماء المختلفة عبر الفترات الزمنية، وفي هذا المضمار يتحدث الباحث محمد الأغظف ولد الداه حيث يقول: "... إيلولتن، ولاتن، ولاتة" الأمر الذي يطرح فرضية أن الأسماء الثلاثة قد تكون لمسمى واحد دخل عليه شيء من التحوير بمرور الزمن، وإن هذه المسميات المختلفة تدل على أهم مركز حضري في المنطقة، وهو محصور ضمن رقعة جغرافية ضيقة، مساحتها: (3 كلم في 3 كلم) أي 9 كلم مربع من تارخت حتى مدينة ولاته الحالية وأحوازاها، وذكر أن السيول الجارفة كشفت سنة 1967م عن الكثير من الآثار⁸⁷⁵، ثم إن إيلولتن بلغة الطوارق معناها: طرف الجبل أو منحدر الجبل، والشريط المذكور يقع في منحدر جبلي⁸⁷⁶.

وذكر أيضا أن بيرو كانت اسماً قديماً لولاته لكن سكان المدينة يرون أن بيرو تقع شرقي مدينة (ولاته) الحالية، أما السعدي فكان يسميها بيرو إذا تحدث عن السودان، ويسميها ولاتن إذا كان الحديث عن البيض، ولا تخرج إشكالية الخلاف على هذه التسمية دائرة الشك إلا ببراهين قاطعة لعل البحوث الأثرية هي الحل لها، كما يرى البعض أن سر هذا الخلاف

⁸⁷³ - التينبكتي أحمد باب بن أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طرابلس، ليبيا، ط2، 2000، ص: 30.

⁸⁷⁴ - البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد الكتاني، محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1402هـ-1982م، ص: 28.

⁸⁷⁵ - محمد الأغظف الداه، ولاتة بين التاريخ المشرق وتحديات، مقالة سبق ذكرها، ص: 71.

⁸⁷⁶ - نفسه، ص: 72.

على التسمية ناتج عن التغير الذي طرأ على البنية السكانية وتركيبها العرقية نتيجة الهجرات المستمرة من طرف البيض والسود بعد سقوط مملكة غانه على يد الصوصو سنة (1024م) إضافة إلى انتشار الإسلام.

ويمكن القول من خلال ما سبق إن هذه الأسماء المتعددة أطلقت كلها على ذلك المركز التجاري الذي ازدهر في الفترة الوسيطة وقد اشتهر على الأرجح باسم مدينة (ولاته) التي ما زالت قائمة حتى اليوم.

المطلب الثاني: تصميم المدينة

أولاً: العمارة الدينية

1) المسجد

إن الدارس للعمارة الدينية بولاته يصطدم بندرة المعلومات التي تساعد على تاريخ معالم المدينة، وترجع بعض الروايات المحلية تاريخ بناء مسجد ولاته إلى القرن الثاني الهجري حسب رواية الكنتي بالرسالة القلاوية، والذي يرجع تأسيس ولاته إلى العاقب بن عقبة واعتبار هذه الرواية أن العاقب قبره موجود بصحن المسجد⁸⁷⁷، في الوقت الذي تختلف مع رواية التأسيس لدى مجموعة "لمحاجيب" الذين لا يقبلون ذلك و يرون أنهم أسسوا المدينة مع قدوم جدهم يحيى الكامل إليها⁸⁷⁸.

ورغم تضارب الروايات حول تأسيس المسجد فإن الأطلال ما زالت قائمة تشي بقدم المسجد و تفسير تلك الفترة الزمنية التي قضاها يصارع من أجل البقاء حتى وصلت إليه أيادي الأثريين و تحققت من قدمه، وسواء كشف الأثريون عن حقيقة حقبة التأسيس أم لا ، فإن عاديات الزمن لم تسمح ببقائه ليعكس مرحلة التأسيس، فعوامل التعرية التي تعاقبت عليه من سيول جارفة و رياح عاتية أدت إلى تعرض المسجد لعدة ترميمات مما أخفى ملامح القدم

⁸⁷⁷ - الكنتي سيد محمد الخليفة، الرسالة القلاوية، من نصوص التاريخ الموريتاني، مصدر سبق ذكره، ص: 57.

⁸⁷⁸ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 431.

فيه، وقد تعرضت أجزاء منه لعملية الدفن بسبب الرمال، ويقع بمهبط المرتفع الذي تقع عليه المدينة، الشيء الذي صعب ولوج بعض مداخل المسجد.



صورة رقم 36 : مسجد ولاته بعد الترميم

المرجع: <http://www.google.com/amp/s/www.alitthad.ae/articleamp/13050/2011>

تاريخ الزيارة: 2019/03/02

والدارس لواقع هذه المعلمة الدينية يلاحظ أنه تعرض لكثير من الانهيارات الجزئية والكلية، ويحتوي المسجد على بيت للصلاة وهو عبارة عن قاعة مستطيلة⁸⁷⁹، ومحراب ومنبر، وقد أشارت بعض المصادر الولائية إلى أن المحراب لم يندثر، والصحن جنوب بيت الصلاة ضمن حوزة الحائط الذي يحف بالمسجد والمئذنة، ويبدو من خلال الأرشيف أن

المئذنة خضعت لانهيار وربما تكون المئذنة الأولى وهي التي نشر بول مارتين سنة 1920م، وتتألف من طابقين متراكبين أحدهما يعلو مستوى سقف بيت الصلاة وتبدو المئذنة الأولى أطول من الثانية⁸⁸⁰.

⁸⁷⁹ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 433.

⁸⁸⁰ - Marty, Paul. « Études sur l'Islam et les tribus du Soudan », Tome 3, Hachette Bnf, Paris, 1920-1921.P:346.



صورة رقم 37 : مسجد ولاته بعد خضوعه لترميمات سابقة

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

ويشير الشاعر الولاتي محمد المختار ولد محمد يحيى لقدم هذا المسجد بقوله:

وكان أب المساجد في الصحاري مساجدها طرا له بنات
بمرصوص البناء بنياه بأن له جدر عظام راسيات
وأحجار طين مثل جير كذا خشب عراض راسيات

(2) الكتاتيب (دور المحاضر)

عرفت مدينة ولاته بالكثير من الدور التي كان يدرس بها طلاب العلم وتسمى "دور التلاميذ" وتعددت هذه الدور بتعدد المجموعات و كان لكل مجموعة "دار للتلاميذ" ولها مشايخها من فقهاء وعلماء ومنها على سبيل المثال محطرة لمحاجيب، ومحطرة لقلال، ومحطرة بارتيل، ودار اتلاميذ أهل بورده، وقد اندثرت حسب سكان المدينة هذه المنازل و اندرست وورثتها محطرة امحمدي بن سيدي عثمان التاكاطي الولاتي⁸⁸¹، اشهر من درس بها أحمد واعمر الولي، الذي أخذ عنه العالم ابن الأعمش والحاج الحسن الزيدي ومن أشياخها اند عبد الله

⁸⁸¹ https://m.facebook.com- تاريخ الزيارة: 2019/03/07.

الذي أجاز الشيخ سيدي المختار الكنتي في أصول الفقه وقد قال أحد الفقهاء في طلب العلم وتحصيله⁸⁸².

أخي لن تال العلم إلا بسة سأنيك عن تحصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد ولغة وارشاد استاذ وطول زمن

ثانيا: العمارة السكنية

1- المنازل

(أ) المسكن في ولاته

تميزت مدينة ولاته بتصاميمها المختلفة عن نظيراتها من المدن العتيقة، وقد درست الباحثة دومنيك جامونييه (Dominic Jamonin) عند زيارتها لمدينة ولاته نهاية الخمسينيات من القرن العشرين نماذج من التصاميم الأصلية للمساكن بهذه المدينة، وذلك أن التصاميم السكنية أصبحت قليلة بفعل التغيرات التي لحقت بها، إلا أن البحوث الأثرية رصدت المؤثرات السودانية والمغربية في السكن الولاتي القديم⁸⁸³، ويعود ذلك إلى وقوع المدينة على تخوم بلاد السودان فضلاً عن ارتباطه عبر العهد الوسيط بشبكات تجارية مغربية مثل سجلماصة وتلمسان، ويمكن رصد مؤثرات مغربية أندلسية بعمارة المسكن الولاتي، ويتجلى ذلك في بعض الزخارف الجدرانية، ويبدو أن البعض الآخر وافد من الحضارة السودانية من مدن مختلفة، مثل: جنة، تينبكتو⁸⁸⁴.

تشارك مدينة ولاته في بعض العناصر السكنية مع نظيراتها من المدن الأخرى ويرجع ذلك إلى الصلات بين تلك المدن وأنها تتأثر بنفس المؤثرات إضافة إلى عوامل مختلفة بسيطة واختلاف في بعض التسميات تنتقل من مدينة إلى أخرى، ويبرز البيت الولاتي أو المنزل تلك

⁸⁸² - تاريخ الزيارة: <https://m.facebook.com/2019/03/07>.

⁸⁸³ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 499.

⁸⁸⁴ - <https://m.facebook.com/2019/03/07>. تاريخ الزيارة: 2019/03/07.

المؤثرات التي تسربت جراء اختلاف المكونات السكانية خلال الفترة الوسيطة، والتي يرجعها بعض الباحثين إلى انتقال جاليات من مدينة (كومبي صالح) بمملكة غانه لتستقر بنفس المكان مكونة اللبنة الأساسية لهذه المدينة، بيد أن هؤلاء الوافدين من مختلف الأعراق من عرب وبربر وزنوج (سوننكة) وفدوا بموروثهم الحضاري حاملين معهم الخصائص والأنماط العمرانية بمدينتهم إضافة إلى النشاط التجاري الذي أدته المدينة في الفترة الوسيطة وقد ساعد عليه تحول الطريق التجاري في اتجاه تينبكتو لاحقاً ، مما ساعد على الاستقرار التجاري بالمدينة الذي كان له الأثر البالغ على النمط المعماري، وعلى هذا الأساس تميزت هذه المدينة بخصائص معمارية تمثلت في تكوين عناصر للبيت الولاتي تتجسد في وجود تصميم للحجرات الرئيسية وحجرات ثانوية تؤدي وظائف خاصة، حيث ينقسم البيت الولاتي إلى غرف أساسية هي:



صورة رقم 38 : تصميم البيت الولاتي

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

- السكفة: وهي حجرة واسعة يمكن أن تؤدي دور قاعة الاستقبال، كما أنها متعددة الوظائف.

حجرة النوم : تحتوي على فرش منصوبة فوق مصاطب عريضة مبنية بموازاة أعمدة السكفة المزخرفة غالباً بكوى مثلثة يوضع بها قنديل زيتي للإضاءة ليلاً أو من خلال كوى صماء بجدار الغرفة، ويسمى (سنند) له باب مفتوح واسع.

- الدرب: وهو حجرة ذات أبواب مفتوحة تستخدم في فترة الصيف.
- المخزن: وهو حجرة تكون بجانب (السكفة) للمحافظة على الأمتعة، وتتعدد حسب وضعية صاحب المكان إذا كان تاجراً أو ميسور الحال يمكن أن تكون المخازن متعددة حسب الحاجة، إضافة إلى حجرات ثانوية.
- المطبخ: وهو غرفة صغيرة مربعة الشكل تطل على صحن المسكن وهو مهياً بصورة بسيطة⁸⁸⁵.

والمطبخ الولاتي يسمى (فلي) وتتصب على سقفه مدخنة تسمى (تافه) مصنوعة من الفخار، ويكون في طرف المسكن لغرض إبعاد الروائح المنبعثة منه عن داخل المنزل⁸⁸⁶.

- المرحاض: وهو عبارة عن مقصورة مرتفعة يتم ولوجها عن طريق سلم مبني يؤدي إليها إذ يقع في مستوى منتصف ارتفاع الغرفة⁸⁸⁷ في حدود مترين تقريباً، وترتكز قاعدتها على جذوع نخل متراسة ينتصب مقعد الراحة ، ويتم إفساح الفراغ السفلي من المقصورة لاحتواء النفايات، ويحتوي الجزء السفلي على منفذ للتفريغ (الزكرة) وهي فتحة أسفل خزان بيت الراحة لتفريغه توصل بصفيحة من الحجارة وتطل على الشارع بحيث يمكن نزعها وتفريغ محتواها كلما دعت الحاجة لذلك.

⁸⁸⁵– Monteil, Charles. Une cité soudanaise. Djenné, métropole du delta central du Niger Société d'Éditions Géographiques, Maritimes et Coloniales – Paris – 1932. P :188.

⁸⁸⁶– Échallier, Jean-Claude. Sur quelques détails d'architecture du Sahara , Le Saharien, n° 42 et 44, Paris, 1966-1967. P : 16.

⁸⁸⁷– أحمد مولود أيده، ، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 491.

- حظيرة الحيوانات: اكتسحت هذه الظاهرة المدن الصحراوية الوسيطة جرياً وراء نظيراتها بالعالم الإسلامي⁸⁸⁸ حيث لم تخل من مكان مخصص لإيواء الحيوانات الأليفة الذي عادة ما يكون بالصحن الثاني للمنزل ولا ينطبق هذا الأمر على جميع المساكن بل ملاك بعض الحيوانات فقط ويعرف عند أهل ولاته (بحوش تمزة). ويضم كافة أنواع الحيوان بالإضافة إلى مأوى الحمام المنزلي.
- مدخل المنزل: وهو عبارة عن مدخل رئيسي يفتح باب المسكن على الصحن مباشرة منعرجاً إلى اليمين حيث يحجب من في المنزل عن أعين المارة وهو يفصل بين الباب والصحن وهو بمثابة حجرة انتظار (كتو)⁸⁸⁹ (فم الدار)، وهي مهياة في ولاته بواسطة مصطبتين بأطرافها، تمكن الزائر من الانتظار جالساً، بموقع منعرج الزاوية في الاتجاه المعاكس للصحن، وهذا ما يلتبس فيه مستوى عالياً من التحضر، حيث أن المارة لا تستطيع أن تطلع على ما يجري داخل المنزل وهي ميزة مدنية بحتة وتعكس مستوى التحضر لهذه المدينة⁸⁹⁰، ويتميز المدخل الولاتي بزخارف سنتحدث عنها لاحقاً.

⁸⁸⁸ - أحمد مولود أيد، ، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 492.

⁸⁸⁹ - نفسه، ص: 495.

⁸⁹⁰ - نفسه، ص: 476.



صورة رقم 39 : نماذج من مداخل البيوت الولاتية

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

- الصحن: يشكل الصحن عنصراً ثابتاً في العمارة السكنية لهذه المدينة فهو يؤمن التهوية والإضاءة بعيداً عن إطلالة المنزل على الشارع مباشرة، كما يمثل المتنفس الخاص بالمسكن، بالإضافة إلى كونه النواة التي تتوزع حولها المرافق والحجرات.



صورة رقم 40 : صحن البيت الولاتي مفروش بأسرة قديمة (تبريت وخبطة)

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

يرى بعض المعماريين أن سكان هذه المدن لا يدخلون في المنازل إلا في الصباح الباكر والقيلولة وخاصة في الفصول التي تشتد فيها الحرارة، وتقوم النساء ببعض الأعمال بها كما تكون مكان اللعب لدى الأطفال⁸⁹¹.

ويطغى النموذج ذو الصحن الواحد اليوم على جميع المساكن في هذه المدن، أما النمط المعماري للمنزل خلال الفترة الوسيطة فيشتمل على صحنين اثنين⁸⁹²، فالصحن الأول يتم الدخول إليه من المدخل الرئيسي وهو صحن خاص بسكان المنزل أما الصحن الثاني فيتم الدخول فيه عن طريق المدخل الخلفي، وهو خاص بالحيوانات ويضم بعض المخازن أحياناً، ويكاد صحن المسكن بهذه المدن يكون خالياً من أية عناصر معمارية ما عدى الحجرات المطلة عليه.

ويتم التنقل من صحن إلى آخر عن طريق ممر مسقف ويدخل التجار من الباب الخلفي، ويختص بالمعاملات التجارية وذلك باعتبار أن ملكية المنزل ذي الصحنين للتجار، ويتنوع شكل هذه الصحنون ما بين مربع ومستطيل وهو الأكثر شيوعاً، وقد خلص الباحث موني⁸⁹³ إلى تطابق أنماط العمارة السكنية بموقعي أوداغست وولاته بشكلها المستطيل وصحنها المفتوح متأثرين بالعمارة المغربية⁸⁹⁴، كما يوجد هذا الشكل بتونس والجزائر⁸⁹⁵.

وهذه التأثيرات القادمة من الشمال تأثر بها جيل مدن الصحراء الوسيطة المندثرة (أوداغست وأزوكي وكومبي صالح) كما ورثتها المدن الوسيطة الحية بالصحراء، وهذا ما تجلى في

⁸⁹¹ - أحمد مولود أيدو، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص 478.

⁸⁹² - نفسه، ص: 477.

⁸⁹³ - Mauny . Etat actuel..., op.cit. P :471.

⁸⁹⁴ - Bourdieu, Pierre. La maison ou le monde renversé, Esquisse d'une théorie de la pratique. Précédé de « Trois études d'ethnologie kabyle », sous la direction de Bourdieu Pierre. Librairie Droz, 1972. p : 45-59. P :45.

⁸⁹⁵ - الدولاتي عبد العزيز، المدن العربية التقليدية بين الأصالة و المعاصرة، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، تونس 1985، ص: 209.

ظهور المنازل ذات الصحنين حيث يلاحظ أن المنزل ذا الصحن المفتوح منظم لدرجات الحرارة.

تعتبر العمارة السكنية بالمدن الوسيطة الحية امتداداً لما خلفته نظيراتها المندثرة في نفس المنطقة، فقد أخذت هذه المدن طابعها الخاص بحكم محطات القوافل التجارية التي امتدت كشریان متدفق في مختلف الجهات، وقد نتج عن ذلك إنشاء مدن أو مراكز تجارية شكلت أسواقاً في هذا المجال الصحراوي الذي كان يربط بين الشمال الإفريقي والجنوب السوداني لتنشيط التبادل التجاري بين المنطقتين، لتؤدي هذه المدن أدواراً اقتصادية وسياسية وثقافية، وقد تميزت العمارة السكنية لهذه المدن الصحراوية بطابع خاص شاركت فيه تلك التأثيرات الوافدة من مناطق متعددة، وفي ظل الحكم المرابطي الذي بسط نفوذه على المنطقة الصحراوية، ليشمل أكبر جزء من بلاد المغرب الأخرى والأندلس، وقد أثر التوسع المرابطي على جميع المستويات بما فيها بعض التصاميم والتقنيات المعمارية، وهي ثمرة للتأثيرات التي نتجت عن الاحتكاك بين الجهات في ظل الحكم المذكور.

أخذت العمارة السكنية في المدن المذكورة نمطاً معمارياً شبه متجانس من خلال وحدة تصاميمها وتوظيفها لنفس المواد والتقنيات، كما أنها تشترك في جل التفاصيل المعمارية⁸⁹⁶ ويبدو أن هذا التجانس استتقته من المؤثرات الوافدة من المناطق الشمالية، وقد حملها أساساً التجار الذين استوطنوا تلك المدن التجارية وكانوا يفضلون تشييد منازلهم على طريقة مواطنهم الأصلية، إضافة إلى توظيف بعض التقنيات المعمارية المحلية، وقد برز هذا النمط العمراني أكثر بمدينة ولاته، وانفردت به عن باقي المدن الأخرى.

2- الطرق والممرات

⁸⁹⁶ - الخولي محمد بدر الدين، المؤثرات المناخية والعمارة العربية، بيروت 1975م، ص: 45.

تعاقبت فترات متعددة على هذه المدن مما أدى إلى صعوبة معرفة الممرات بأحياء المدن العتيقة التي أصاب أغلبها الخراب، ويبدو أنها تميزت بطرق غير متسعة، وذلك على منوال ما هو سائد في المدن العربية والإسلامية العتيقة⁸⁹⁷ ويعلل بعض الدارسين ذلك بتذليل نفوذ أشعة الشمس الحارقة إلى الممرات لحماية المارة من أشعتها، إضافة إلى الحفاظ على الجانب الأمني، ولا تتسع هذه الممرات إلا لسير أنواع الدواب وأكبرها حجماً الإبل، وتسود هذه الظاهرة في كافة المدن الوسيطة.

وتتقسم الممرات بمدينة ولاته إلى ممرات رئيسية وأخرى فرعية تنطلق من المسجد الجامع في اتجاه أطراف المدينة ويبدو ذلك أكثر وضوحاً في ولاته من المدن الوسيطة الحية الأخرى، وقد أخذت المدينة بعض المسميات التي تنطلق على تلك الممرات أغلبها يسمى بالمجموعة التي توجد بكثرة في أحد الأحياء المجاورة لها.

ويبدو أن الطريق العتيق الذي يسمى (اكدنو) هو أقدم ممر في المدينة، وهو منحوت في سلسلة صخرية بطريقة يتبين من خلالها ما وصل إليه الإنسان الولاتي من تطويع الطبيعة الصخرية لصالحه، وينتقل الطريق بسلاسة نحو الأسفل بفعل موقع المدينة بسفح الجبل في اتجاه الأسفل حيث الطبيعة الرملية⁸⁹⁸.

⁸⁹⁷ - الموسوي مصطفى عباس، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، بغداد، 1982، ص: 228.

⁸⁹⁸ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 492.



صورة رقم 41 : حي اكدنو بولاته

صورة من موقع الأخبار إنفو، تاريخ الزيارة: 2019/11/06

3- السوق و السور

السوق: مكان عام يلتقي فيه البائعون والمشترون لبيع وشراء المنتجات والأوراق المالية أو المقايضة والخدمات إما مباشرة أو من خلال وسطاء وقد يكون السوق في الهواء الطلق أو داخل مباني، وقد وجدت الأسواق منذ انخراط البشر في التجارة، وللحديث عن السوق بمدينة ولاته في الفترة الوسيطة يجد الباحث صعوبة في ذلك نظرا لندرة المصادر التي تتحدث عن هذه الفترة ، وقد تحدث ابن بطوطة عن زيارته لولاته، فوصف ذلك بقوله: "... ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم في رحبة وتكفل السودان بحفظها وتوجهوا إلى الفاربا حسين، وهو جالس على بساط سقيف، أعوانه بأيديهم الرماح والعصي وكبراء مسوفة من ورائه ووقف التجار بين يديه.⁸⁹⁹ ويبدو من خلال هذا النص أن الرحبة التي وضعت فيها أموال التجار بحراسة من أعوان نائب السلطان تأمينا للبضائع وبحضور رجال من مسوفة سكان المدينة، وقد اتسعت سوق مدينة ولاته إبان فترة ازدهارها تستوعب مختلف البضائع الصادرة من الشمال، كالقماش والملابس والنحاس والفضة والأفرشة والتمر والزبيب والبخور والعطور، وما إلى ذلك من السلع القادمة من المدن الشمالية بالإضافة إلى الذهب، والحبوب والعسل

⁸⁹⁹ - ابن بطوطة، تحفة النظائر، مصدر سبق ذكره، ج (2) ، ص: 689.

المستوردة من الجنوب السوداني، علاوة على الملح الذي هو منتج من سبخ الصحراء والجلود وعينات الحبوب التي تحصد في المنطقة وقد اتسع السوق لما يفد عليه من أسواق من المدن الصحراوية الأخرى كوادان وتيشيت حيث اتسعت سوقها أيضا للمبيعات وبنيت المحلات التجارية بالإضافة إلى مخازن كبيرة توجد بمنازل بعض التجار، تخزن فيها البضاعة لوقت الحاجة وهذا إن دل على شيء إنما يدل على الثراء الذي وصلت إليه المدينة إبان فترة الازدهار وقبل تراجع تجارة القوافل.

4- مواد البناء والزخارف

تعتبر العمارة تفاعلا بيئيا بين الإنسان ومحيطه، ولذلك تبقى رهينة المحيط الذي يأويها إضافة إلى المواد الموظفة فيها، وتؤثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية والدينية تأثيرا بالغا على مستوى العمارة، وكذلك الأبعاد البيئية والمناخية، كما أن عمارة مدينة ولاته كانت أكثر ارتباطا بالحضارة السودانية وما يميزها من تصاميم ومواد مستعملة⁹⁰⁰.

- الحجارة: استخدمت مادة الحجارة في مباني مدينة ولاته، لكن الحجارة ليست بنفس الجودة التي تتميز بها الحجارة بمدينة تيشيت.

كما كان استعمال الحجارة في الإرث المعماري الذي تركه المرابطون في المعالم التي شيدها كالقصرية بمدينة أزوكي وكذلك مدينة مراكش، وظلت تحتفظ بها المدينة إلى وقت قريب⁹⁰¹

المواد الطينية: إن المواد الطينية متوفرة بعينات رفيعة بهذه المدينة ويحتوي على خامات متنوعة وقد اتخذ هذا الطين بصمته المميزة في تلك المدينة وصبغها بصبغة خاصة، وقد اتخذ هذا الطابع شكله خلال الفترات الزمنية بولاته وحافظت عليه كموروث معماري متميز،

⁹⁰⁰ - Monod, Théodore . Sur Quelques constructions anciennes au Sahara occidental, société géo-archéologie, Oran, 1948. P : 21.

⁹⁰¹ - أحمد مولود أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 224.

وظل استخدام الطين كمادة لطلاء الجدران الداخلية والخارجية وتقنية معمارية متوارثة وما زالت متواصلة حتى اليوم⁹⁰².

وتعتبر مدينة ولاته أكثر المدن تعرضا للأمطار لذلك اتخذت مادة الطين كطلاء للحفاظ على الجدران من تأثير الأمطار وذلك باتخاذ كميات طينية تحول بين الفجوات التي تكون على مستوى الحجارة لمنعها من تسرب الماء داخل الجدران لوقاية تلك المنازل من الانهيار⁹⁰³.

ويلاحظ اعتماد المدن المندثرة على دعائم سائدة لتقنية الجدران من الخارج وقد انتشرت هذه التقنية بمدينة آوداغست وبعض المدن السودانية الأخرى⁹⁰⁴، وينتشر هذا النمط العمراني بمدينة ولاته وهو يقوم على تقوية الجدران الخارجية من أن تسقط أو تتحرف في حال تهطل أمطار غزيرة خاصة في السنوات الرطبة ولذلك يتم تهيين مجالات للصرف، رغم تهيئة بعض المجال للصرف وهي عبارة عن فتحات بالجدران تعلو السطح في ولاته، وفتح زوايا صغيرة في أسفل الجدران وتسمى "الزكره"⁹⁰⁵.

وينقسم الطين إلى أنواع منها:

- الطين الأحمر: وتستخدم هذه المادة للملاط، كما يستعمل في عملية الزخرف
- الطين الأبيض: يوجد بكميات كبيرة بالمدينة ويستخدم في الطلاء داخل البيوت
- الطين الأصفر: وهو أصفر اللون ويسمى باللغة المحلية (تمنكه) ويستخدم في الطلاء أيضا للغرف من الداخل قبل أن تلون بالطين الأبيض.
- مادة الخشب: تشكل مادة الخشب إحدى مكونات البناء وتوظف في إقامة أسقف

المنازل

⁹⁰² - أحمد مولود أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 224.

⁹⁰³ - نفسه، ص: 366.

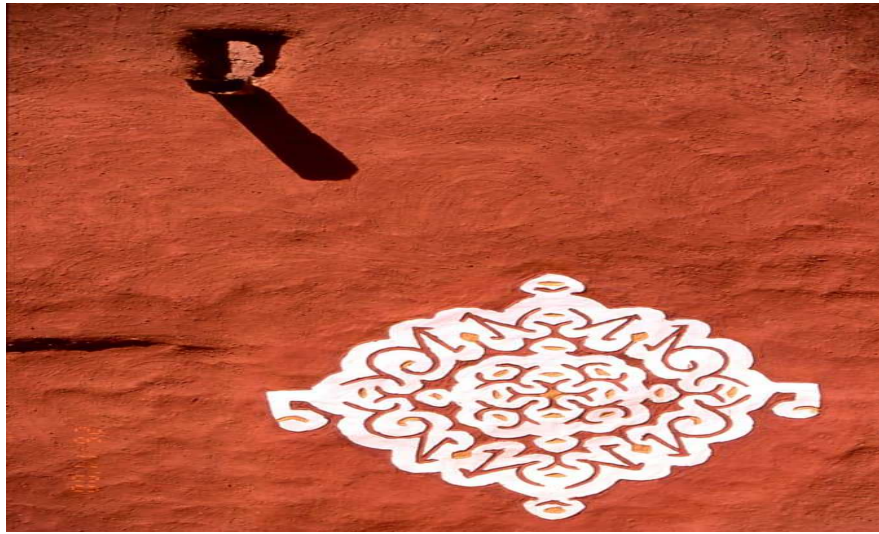
⁹⁰⁴ - Puigaudeau. Arts et Coutumes des Maures II, Hespéris-Tamuda, tome IX. 1968.P : 107.

⁹⁰⁵ - أحمد مولود أيده، موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 352.

وكذلك الأبواب والنوافذ، ويستخدم الشجر المحلي في انتاج الخشب مثال: شجرة الطلح، شجرة الزقوم (تيشط ...) ⁹⁰⁶.

- الزخارف

تتمتع مدينة ولاته بزخارف مهمة تميزها عن غيرها، وتوظف داخل المسكن الولاتي وخارجه عند المدخل والصحن تأخذ هذه الزخارف عدة أشكال، نظراً لإعادة تشكيلها كل مرة بما يضمن تنوعها وجعلها تختلف من شكل زخرفي إلى آخر عند كل توظيف، وتتباين ألوان زخرفة الجدران بدورها تبعاً لموقعها، فالجدران الخارجية والصحن تكسى بطلاء أحمر بينما يتم رسم الزخرف بلون أبيض، أما جدران الغرف الداخلية فبلون أحمر على خلفية بيضاء، ويعتبر الحرفيين العارفين بهذه الزخرفة أن هذا النمط أكثر جمالاً ⁹⁰⁷.



صورة رقم 42 : طرحة من زخارف ولاته

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

⁹⁰⁶- أحمد مولود أيده، موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 340.

⁹⁰⁷- نفسه، ص: 543.

وتتشكل هذه الزخارف بولاته عدة (طرحات)⁹⁰⁸ تمثل أنماط زخرفة محدودة بالإضافة إلى عناصر تكميلية أخرى⁹⁰⁹، ولذلك تؤكد في هذا السياق على التميز بين مختلف الطرحات وتختص الأماكن بالأشكال التي تناسبها، أي فيما يختص بالغرف داخل السكن علاوة على ما يناسب المدخل وجدران الحصن، ويوجد شكل يميل إلى صورة الصليب ضمن أشكال الزخرفة ويطلق عليها محلياً (أرويكجات أو بولقرينات).



صورة رقم 43 : صورة توضح أشكال الزخارف الولاتية

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

وقد تساءلت الباحثة بيغادو (Puigadeau) عن: كيف أمكن لسكان ولاته التعرف على هذا الشكل؟

وهذه الأشكال يشبهونها بأذن البغلة: (أذن الكرك) معتبرة أنهم لم يروا بغلة، مشيرة إلى اكتشافهم لهذه الصور عن طريق الرسوم⁹¹⁰ التي تزين الزرابي المصرية والتي حملها ركب

⁹⁰⁸ – الطرحة: تطلق هذه الكلمة على أشكال الزخارف بمدينة ولاته، ومن بينها الطرحة (البيضاء) (طرحة مشيعة) (طرحة المدخل)، كما تطلق عليها أسماء (امرأة كبيرة) (وصغيرة وامسولفة) و (العرباء)، ويخلو مسجد هذه المدينة من الزخارف. أحمد مولود أيده، مدن موريتانيا، مرجع سبق ذكره، ص: 543.

⁹⁰⁹ – نفسه.

⁹¹⁰ – Puigadeau. Arts et Coutumes des Maures II. Op. Cit. p. 408.

ملك مالي: منسى موسى إلى مملكته. وتتوزع هذه الزخارف كما قلنا سابقاً في مواقع متعددة من المسكن الولاتي.

زخرفة المدخل: هذه الزخرفة عبارة عن (طرحة) الحنك المسماة المشيمعة ويتم تجسيدها باعتماد رسم بلون أبيض على أرضية باللون الأحمر ضمن مساحات متتالية محاذية لإطار المدخل عن يمينه ويساره وهي ذات مركز مربع تتفرع منه أشكال جزئية (أذن الكرك) يمتد من مركز الزخرفة إلى شبه صليب⁹¹¹.

الطرحة البيضاء: وهي عبارة عن إكليل زخرفي منقوش بلون أبيض على أرضية باللون الأحمر على واجهة جدران الحجرات المطلة على الصحن، ويتم رسمها بواسطة سكين أو أداة حادة، وتعرف باللغة المحلية باسم (بركت لحبارة)⁹¹² وتمثل الدائرة الوسطى الإكليل الذي ينطلق منه (جوف الطرحة) ويتوسط شكل شبيه بالصليب (أرويكيچ بولقرينات) (ودعة) وغيرها من المسميات التي لا يتسع المقام لذكرها.

ويبدو أن الإكليل الزخرفي للطرحة البيضاء ذا قرابة بمشبكات كلاسيكية على شاكلة بعض أنواع الزخرفة المعروفة بالمغرب الأقصى، فقد قامت الباحثة جاك مونييه (Jack.Mauny)⁹¹³ بمقارنة بعض مكونات الإكليل الزخرفي بولاتة بنظائر أخرى من الفن المرابطي كانت قد عثر عليها في حفريات مراكش بحصن يوسف بن تاشفين تتشكل مكوناتها بما يماثل هذه المكونات من حيث تفاصيلها وشرائط الطرحات والأشكال التي تطابق النمطين معاً من خلال الألوان الأحمر الفاتح مع الأبيض، وهذه الزخارف الموظفة في المشبكات بمراكش العاصمة المرابطية تتشابه مع الألوان المستخدمة في زخارف مدينة ولاته⁹¹⁴.

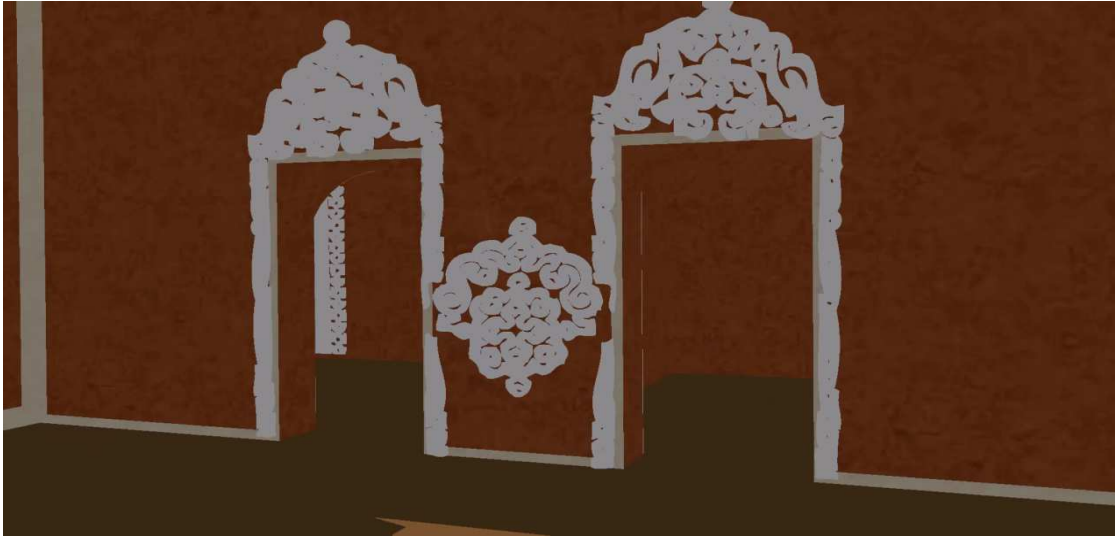
⁹¹¹ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا، مرجع سبق ذكره، ص: 543.

⁹¹² -Puigaudeau, Arts et Coutumes des Maures II. P :408.

⁹¹³ -أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 547.

⁹¹⁴ - نفسه.

وهذا التقارب الذي ذكرته الباحثة يوحي بأن الأشكال الزخرفية لها صلة بالزخرفة المرابطية خاصة وبذلك يمكن القول إن مدينة ولاته نالت هي الأخرى نصيبها من الدولة المرابطية ويعود ذلك إلى التأثيرات المدنية التي انتقلت حيثياتها إبان امتداد الحكم المرابطي على الصحراء وما واكب ذلك من سيطرة على المنافذ التجارية التي من شأنها أن تسمح بتتقل التجار بين المدن الشمالية والصحراوية لتتنقل جوانب الحياة المدنية السائدة إبان الفترة الوسيطة.



صورة رقم 44 : نموذج من الطرحات الولائية

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

وأورد أحمد مولود أن زخرفة إكليل الطرحة البيضاء تختزل من خلال حجمها الكبير جوانب من الملحمة التاريخية التي سطرها المثلثون المرابطون خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي في التجارة والفن والدين⁹¹⁵.

ويرى كذلك في ملاحظته على الطابع العام بين مدينة ولاته ومراكش (عاصمة المرابطين) الشمالية في مستوى استخدامهم لون المغرة الأحمر، كطاء مهيم على جدران أبنية هاتين المدينتين، وكأن ولاته استلهمته من عمارة مراكش (الحمراء)، مع أن هذه الصبغة ورثتها

⁹¹⁵ أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 548.

مراكش من مدينة أغمات⁹¹⁶ والتي تعنى بتعبير البربر المكان المصبوغ، ويبدو أن هذه الصبغة الحمراء قد تسربت إلى العمق الصحراوي إذ توهي بألوان حمرة المغرة التي تخيم على جدران ولايته بقرابة محتملة بمدينة أغمات، ومن المحتمل وجود علاقة بين المدينتين، وهذه العلاقة ربما مرت عبر مراكش على أيدي المرابطين الصحراويين أو أحفادهم⁹¹⁷.

ويتميز الفن الولائي بألوان زخارفه المتأنتية من تنوع ألوان الطين التي تتوفر عليها المدينة، بكميات كبيرة وبألوان مختلفة حيث تصطبغ به جدرانها ويضفي هذا التزاوج بين الألوان نوعاً من الانسجام، أما عن طريق تحضير الطين الأحمر الذي يستعمل كتكسية للجدران فيتم عن طريق مادة الصمغ العربي (العلك)، الشيء الذي يعزز تماسك مادة الطين ويجعلها أكثر التصاقاً بالجدران⁹¹⁸.

وقد شبهت الباحثة (Denise) بعض شرائط الطرحات التي تؤطر الزخارف الداخلية بعمارة ولايته السكنية بشرائط موظفة بالمدخل المسمى سانت آتين بمسجد قرطبة، وأن هذه الزخارف وافدة من الأندلس إلى الصحراء عن طريق القوافل⁹¹⁹ وتحتكر النساء هذه الخدمة ويجسدنها دون الرجال، وترى أوديت دي بيغادو⁹²⁰ (Puigadeau) أن هذه النسوة يدركن أنهن يجسدن رسوماً لرموز رجال ونساء وذلك يتضح من خلال الأسماء التي تحملها بعض تلك الأشكال المرتبطة ببعض جوانب الحياة.⁹²¹ وتفترض الباحثة بيغادو (Puigadeau) أن أسماء الزخارف ربما ترتبط بمخزون من الطقوس والممارسات المتعلقة بالواقع⁹²².

⁹¹⁶ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 548.

⁹¹⁷ - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة 1974، ص: 204.

⁹¹⁸ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 568.

⁹¹⁹ - Meunié, Jacques D. « Cités caravanières de Mauritanie — Tichite et Oualata ». In: Journal de la Société des Africanistes, 1957, tome 27, fascicule 1.

⁹²⁰ Puigadeau. « Arts et Coutumes des Maures II », Hespéris-Tamuda, tome IX. 1968.

⁹²¹ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 556.

⁹²² - نفسه.

ويرى هنري تارس (Henri Terrasse) أن الغرب الإسلامي لم يتلق تأثيرات فنية من المشرق منذ وقت متأخر من العهد الوسيط، فقد تلقى التأثيرات خلال هذه القرون من المغرب والأندلس حيث يتغذى على إبداعاته ومن مخزونه الفني المحلي وقد شهدت منطقة الصحراء خلال القرن الخامس والسادس الهجري / الحادي عشر الميلادي أكبر تيار للمبادلات الفنية بين المغرب والأندلس، لتصل إلى ولايته ضمن حركة التبادل التجاري والتقني التي بدأت تدخل المغرب من الأندلس أثناء الحكم المرابطي.

■ طرحة (السكفة):

تتم تهيئتها بمدخل الغرفة الرئيسية (السكفة)، وهي عبارة عن شكل مركب بالانطلاق من شرائط زخرفة تمتد من جهة واجهة المدخل وصولاً إلى أسفل إطار باب المدخل من حيث الأشكال، ويتم تشكيل هذا الزخرف من خلال الائتلاف بين (ودعة الطرحة) و(أذن الكرك) ضمن الشريط الذي يؤطر الباب مباشرة، ويتوج مدخل السكفة بإكليل زخرفي يطلق عليه (طرحة ثلاثة)⁹²³ يتوسطها شكل يشبه الصليب ويقوم حول أطرافها وأعلى منها عنصر مقوس يطلق عليه (رأس الطرحة) يربطها بشريط حواف (طرحة لوديعات) التي تتدلى من جوانبها إلى أن تصل حدود الباب من الأسفل وبحدودها يوظف نموذج مصغر من الصليب في حدود الزوايا غير المكتظة بالزخارف⁹²⁴.

■ القطعة الحمراء:

هذه القطعة الحمراء أهم الزخارف الداخلية وأكثرها دقة تتخذ لتزيين الجدران الرئيسية (السكفة) ويتطلب هذا العمل فريق من النساء المتخصصات في هذا العمل ويتم إنجازها باللون الأحمر على خلفية بيضاء وتتشكل هذه الزخارف من عدة عناصر من الزخرفة مثل

⁹²³ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 556.

⁹²⁴ - نفسه.

(رأس الطرحة) و(أذن الكرك) و(ودعة الطرحة) إضافة إلى (أروكيح بولقرينات) ويتم توليد هذه الأشكال⁹²⁵.

وتوظف زخرفة (القطعة الحمراء) شرائط عمودية جنباً إلى جنب تمتد من الأعلى إلى الأسفل، ومنها على سبيل المثال (طرحة معلقة) و(طرحة لوديعات) و(طرحة الحلقة)، وتتألف هذه الطرحات من أشكال مضاعفة (الطرحة المكفية) (والطرحة لكبيرة)⁹²⁶ وتتخلل هذه الشرائط وريادات يطلق عليها في التعبير المحلي (ودعة الطرحة) وتوظف داخل الحجرات وعلى الأبواب والنوافذ والأعمدة، وهذا الشكل مستوحى من شكل وريادات مربعة كانت رائجة التوظيف في الفن المرابطي.

5- المقابر

تقودنا دراسة مساكن الأحياء بالمدن الصحراوية خلال العصر الوسيط والمعروفة اليوم باسم المدن العتيقة إلى التعرف على مساكن الأموات والمتمثلة في المقابر وما تحويه هذه المدن من مدافن، وفي هذا السياق يقول لويس ممفورد (Memor Louis) هي الأورمة التي نشأت منها كل مدن الأحياء إذ أن كل مدينة تبدأ بمركز حضري ينبض بالحياة وينتهي إلى مدفن⁹²⁷.

وينطبق هذا على جميع المدن، ففي محيط ولايته توجد : 16 مقبرة مما يوحي على قدم إعمار هذه المدينة وحجم السكان خلال القرون الخالية، وتوجد مقبرة لقبيلة مسوفة التي صادف سكانها قدوم الرحالة ابن بطوطة للمدينة خلال النصف الأول من القرن 14م في زيارته إلى مالي⁹²⁸.

⁹²⁵ – Meunié, Jacques. Cités caravanières de Mauritanie. Op. Cit.

⁹²⁶ – Ibidem

⁹²⁷ – ممفورد لويس، المدينة على مر العصور؛ أصلها تطورها ونشأتها، تعريب إبراهيم نصحي، القاهرة، 1964، ص: 95.

⁹²⁸ – نفسه.

تتعدد إذن المقابر بولاتة منها مقبرة حوش القبور شمال المدينة ومقابر قدنك وكنبصني في الناحية الشمالية ومقبرة الطارف والمنزلة، إضافة إلى قبر الشيخ سيد أحمد البكاي المنقول من البطحاء، ويبدو أن هذه المدافن الأخيرة امتداد لقرون ماضية.

المبحث الثاني: أدوار المدينة

المطلب الأول: الدور السياسي

لقد كان غياب التدوين لدى المجتمع الصحراوي عائقا كبيرا أمام الباحث في تاريخ المراكز الحضرية القائمة إبان الفترة الوسيطة، مما يحول دون التطرق لمجموعة من القضايا، ولم تسلم مدينة ولاته من هذا الإشكال بل تعاني مع أخواتها المدن الوسيطة الحية من قلة المعطيات المتوفرة، ويبقى الاطلاع على الدور السياسي الذي يطبع المدينة ناقصا، لصعوبة ذلك في تلك الفترة ، ولم أجد إلا ما ذكره الباحثون من تبعية المدينة لمملكة غانه، ثم بعد ذلك لمملكة مالي حيث ذكرها ابن بطوطة بقوله "... ونائب السلطان بها فربا حسين، ... وهو جالس على بساط سقيف، وأعوانه بين يديه ..." مما يدل على أن نائب السلطان في تلك الفترة تحت سيطرة مملكة مالي، ويبدو أن سلطة المدينة انتقلت إلى قبيلة لمحاجيب التي دام لها النفوذ فيما بعد، وكانت تتمركز السلطة في يد مجلس أعيان المدينة (جماعة الحل والعقد) وهو عبارة عن تمثيل محلي لأحياء المدينة يختص كل حي بمجلس يدير هذا المجلس شؤون الحي ويجتمع ممثلو الأحياء تحت زعامة حي لمحاجيب المختص بإدارة شؤون المدينة كلها، ويصدر المجلس القرارات المصيرية وهي ملزمة للجميع، أما الوظائف الروحية فكانت الإمامة حصرا على (الإمامات) بني اندغ محمد وبعد انتقالهم لتينبكتو أصبحت في أولاد الفقيه عثمان إلى عهد قريب⁹²⁹.

⁹²⁹ - الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي، فتح الشكور، مصدر سبق ذكره، ص: 54.

المطلب الثاني: الدور الاجتماعي

أولاً: سكان المدينة

شهدت مدينة ولاته (بيرو) استيطاناً لمجموعات بشرية متنوعة عبر تاريخها الطويل الممتد منذ قرون ويعود ذلك إلى أهمية موقعها المتميز والذي يشكل نقطة عبور إلى ذهب السودان، وفي هذا الشأن يقول السعدي في إطار حديثه عن نشأة تينبكتو "... وكان السوق في بلد بيرو (ولاته) ... إليه يرد الرفاق من الآفاق وسكنه الأخيار من العلماء والصالحين، وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلاد، من أهل مصر، ووجلة، وفزان، و اغدامس، وتوات، ودرعة، وتافلات، والسوس، وفاس، وبيضة، إلى غير ذلك"⁹³⁰.

وفي هذا الشأن يقول الشاعر محمد الحسن:

من بعد شد رحال القاصدين لها من كل قطر ومن بدو ومن حضر

(1) سوننكه

تعتبر قبيلة سوننكه من أكبر وأشهر القبائل الزنجية التي وجدت بالمدينة وقد حكمتها مملكة غانه الوثنية قروناً عديدة، ويذكر أن ولاته (بيرو) يعود تعميرها إلى أسر من قبيلة سوننكه قادمة من كومبي صالح (غانه) بعد تحول الطريق التجاري في اتجاه مدينة ولاته وظلت هذه القبيلة متواجدة بنفس المدينة إلى مجيء جد قبيلة لمحاجيب يحيي الكامل فغادر السكان الأصليون ولاته حسب الروايات الشفهية لدى سكان أهل ولاته.

وقد ذكر ابن بطوطة في زيارته لولاته أن سكانها في تلك الفترة قبيلة مسوفة حيث يقول: "... وأكثر سكانها من مسوفة ..."⁹³¹.

⁹³⁰ - عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص: 55.

⁹³¹ - ابن بطوطة، تحفة النظائر، ج (2)، مصدر سبق ذكره، ص: 689.

وبذلك يكون وجود مسوفة بمدينة ولاته يفيد أن مدن الصحراء في الفترة الوسيطة كانت تحتضن قبائل صنهاجة المتواجدين بنفس المجال إضافة إلى قبائل زنجية مع أقليات من التجار القادمين من مدن المغرب ومصر.

(2) لمحاجيب

يعتقد أنهم أول من سكن ولاته من البيض تذكر الرواية الشائعة التي اعتمدها ابن حامد وساقها بقوله: "... يطلق هذا الاسم على ثلاث قبائل تظاهرت وتعاقدت في ولاته وهم: أولاد الفقيه عثمان بن محمد بن يحيى بن نومر أو تنمره، آل اندعلي ونسبهم إلى محمد بن الحنفية وهم أحوال المحاجيب وقضاتهم قديما، قدموا أول ما قدموا إلى ولاته وتازخت ثم صاروا إلى تنبكتو، و الإمامات ونسبهم إلى سعيد بن العاص الصحابي وكانوا يتولون إمامة الصلاة حتى انقرضوا، عاش هؤلاء البطون الثلاثة قرونا في ولاته وتازخت⁹³² وقامت لهم هنالك دولة علم ودين ودنيا وكان منهم أئمة وعلماء ومدرسون ومفتون ورؤساء مشهورون.

وقد تواصل استقطاب مدينة ولاته للسكان طيلة مسيرتها التاريخية، حيث التحقت بقبيلة المحاجيب بعض القبائل المختلفة التي تسكن الصحراء الجنوبية (موريتانيا الحالية) نظرا لمكانة المدينة التجارية والعلمية التي أهلتها لذلك.

(3) لقلال

من القبائل التي سكنت ولاته، قبيلة لقلال حيث سكن بعض فروعها وبالتحديد أولاد سيدي وأولاد موسى ، وقد ذكرت حوليات ولاته بعض علمائهم المشهورين بالمدينة إبان القرن السادس الميلادي من بينهم الحاج بوبكر بن الحاج عيسى.

(4) بارتيل

⁹³² - ابن بطوطة، تحفة النظائر، ج (2)، مصدر سبق ذكره، ص: 689.

سكنت مجموعة من قبيلة بارتيل بولاته ويرتبط نسبهم حسب ما ورد في بعض المصادر المحلية بالأنصارية، ويقول اللمتوني⁹³³:

وبارتيل مع أجفك الخطط من نسل خزرج من غير ما شطط

(5) إديلبه

تنحدر مجموعة إديلب من قبيلة تجكانت، وقد وصلت هذه المجموعة إلى ولاته في القرن السابع عشر الميلادي، عبر موجات متواصلة ومن أشهر أسرها، أهل المواق وأهل النفاع وأهل الكصري.

(6) أولاد داود

تنحدر قبيلة أولاد داود من القبائل العربية (بني معقل التي تسكن بالصحراء الجنوبية (موريتانيا) ويذكر أنهم وصلوا مدينة ولاته متأخرين.

كما وصل الشرفاء الحسنيون أبناء سيد حمو بن الحاج قادمين من اتوات عبر السودان⁹³⁴.

ومع تعدد الوافدين إلى مدينة ولاته حدث تمازج بينهم وبين السكان الأصليين حتى تكون مجتمع شبه حضري ينعم بنوع من الوحدة والانسجام والتكامل، الأمر الذي ضعف الولاء القبلي أمام الولاء الحضري، حيث أصبح الولاتي يفضل النسبة إلى المدينة بدل القبيلة⁹³⁵.

ثانيا: العادات والتقاليد

العادات هي أعراف يتوارثها الأجيال لتصبح جزءا من سلوكهم وغيهم، وتستمر ما دامت تتعلق بالمعتقدات على أنها موروث ثقافي.

⁹³³ - محمد أمبارك اللمتوني، نظم اللمتوني، مصدر سبق ذكره، ص: 19.

⁹³⁴ - زيارة الموقع: Mawdoo3.com h4 18/08/2020

⁹³⁵ - محمد الأغظف ولد الداه، : ولاته بين التاريخ المشرق وتحديات، مقالة سبق ذكرها، ص: 47.

أما التقاليد فهي مجموعة من قواعد السلوك التي تنتج عن اتفاق مجموعة من الأشخاص وتستمد قوتها من المجتمع، وتدل على الأفعال الماضية القديمة الممتدة عبر الزمن والحكم المتراكمة التي مر بها المجتمع و يتناقلها الخلف عن السلف جيلا بعد جيل، وهي عادات اجتماعية استمرت فترات طويلة حتى أصبحت تقليدا، ويتم اقتباسها من الماضي إلى الحاضر ثم المستقل، فهي بمثابة نظام داخلي لمجتمع معين.

ومن العادات الاجتماعية في مدينة ولاته، إرسال الخطبة مع جماعة من الرجال إلى أهل الخطيبة في النهار ويطلبونها لوالدها كما تذهب جماعة من النساء بالليل أيضا تطلبها من أمها ويكون ذلك وسط حفل من الطبول والزغاريد ويسمى (قرسو)، وبعد ذلك تتم مراسيم الزواج.

وفي حالة وقوع الطلاق فلا يلزم توثيقه عند القاضي ولا إمام المسجد بل تكفي كتابته عند أي أحد من عامة الناس بحضور شاهدين و قد يكتفى به شفها⁹³⁶.

ومن العادات الدينية المتوارثة لدى الولاتيين تنظيم مواسم دينية تقام في المساجد تعظيما لشهر رمضان والأعياد الدينية، تتعش بالتلاوة القرآنية والمديح والأهازيج⁹³⁷.

و هناك أنماط معيشة خاصة بأهل ولاته وأنواع من الألبسة، وكذا إسهامات للمرأة الولاتية ميزتها عن نظيراتها داخل محيطها الصحراوي.

(1) أنماط المعيشة

⁹³⁶ - إبراهيم بن أحمد فال، التراث الثقافي والمعماري لمدينة ولاته التاريخية ط1، 2021، دار كنوز التراث، الدار البيضاء، ص: 129 .
⁹³⁷ - نفسه.

كانت مدينة ولاته من بين المراكز الصحراوية الوسيطة التي عاشت الظروف الاقتصادية السائدة بالمنطقة التي تتحسن نسبيا في أوقات الرخاء ويتدنّى في فترات الأزمات، ويصعب تحديد أنماط العيش داخل مدينة ولاته في الفترة الوسيطة في غياب بحوث أثرية في المدينة من شأنها أن تكشف عن الحقب الزمنية الماضية للمدينة، إلا أن ابن بطوطة ذكر أثناء زيارته لهذه المدينة التي أطلق عليها اسم (إيولاتن) في القرن (7هـ / 14) فقال "...وفيها يسير نخيلات، يزرعون في ظلالها البطيخ... ولحم الضأن كثير بها..."⁹³⁸

وفي هذه الإشارة يتضح من كلام الرحالة ابن بطوطة أن الزراعة محدودة بهذه المدينة، لكن لحوم الضأن بها كثير مما يفيد باتساع المجال الرعوي حول المدينة.

وقد ساعد المدينة انفتاحها التجاري الذي أوجده موقعها على المسالك التجارية التي أدت إلى نشاط سوق المدينة وجلبت حاجيات السكان من بضائع ومواد غذائية، وقد تميزت مدينة ولاته عن نظيراتها تيشيت ووادان وشنقيط بإعداد بعض الوجبات من أهمها ما يلي:

. وجبة: المون ودي دي: تتكون هذه الوجبة من مادة الذرة مع إضافات تضمن طريقة الطهي وتعد على شكل خبز مستدير، مع تحضير مرق من دقيق لحم الحيوان المجفف (القديد) مع إضافات من التوابل.

⁹³⁸ - ابن بطوطة، تحفة النظائر، ج (2)، مرجع سبق ذكره، ص: 689.



صورة رقم 45 : وجبة: المون و دي دي

صورة من النت.

كما تحضر بدقيق القمح أو الدقيق الأبيض ويحضر لها مرق من اللحم مع إضافات التوابل.

. الدقن: وهو عبارة عن شربة تحضر من دقيق الذرة بالإضافة إلى بعض المكملات وهو

شربة مميزة معروفة لدى الولايتين⁹³⁹.

(2) الملابس

من الصعب تحديد ملابس مدينة ولاته في الفترة التي كان يطلق عليها اسم "بيرو" ويعود ذلك إلى ندرة المصادر إذ يبدو أنها ظلت رهينة الملابس التي تنتمي إلى عناصر التجارة الصحراوية المتبادلة بين منطقة الشمال الإفريقي والجنوب السوداني.

وقد شكلت البيصة (وحدة من القماش) والبنكة (وحدة من نسيج السودان) أساسا للتبادل حيث كان يتم تبادلهم من الذهب والملح والودع وصغار المواشي مثل شاة الغنم والحك (جدع الإبل)⁹⁴⁰.

⁹³⁹ - تاريخ الزيارة: 09/06/2019 - <https://www.alavaby.co.uk>

⁹⁴⁰ - 08/05/2019 تاريخ الزيارة : www.arrabita.mal/

وفي شأن التبادل التجاري الذي يشهده المجال الصحراوي عند البدو والحضر يقول الشيخ ماء العينين في رحلته الحجازية: "... إن بلادنا لا يعرف أهلها دينارا ولا درهما فاعتبروا غاية، وقالوا لي بم التصارييف عندكم فقلت بالأنعام والأثواب"....⁹⁴¹ مما يدل على أن الثياب موجودة لأنها أصبحت بديلا عن العملة في بعض المبادلات التجارية وقد ذكر محمد الأمين الشنقيطي ما نصه:.... ومما يأتي به جالب من السودان القماش المعروف بلكحال ويسمونه الأنصاف وأردية يسمونها دماس.

والأنصاف نوع من الملابس من الجيدة وتستجلب عادة كثياب للنساء، ويضيف أن الصمغ يباع كله في فرنسا يبادل بالقماش حيث يقول "... وهذا الجني (الصمغ) يباع كله ويؤخذ عوضه من القماش المسمى عندهم بالخنط و هو أنواع : منه أسود ومنه أبيض ومنه أخضر:" وهذه الألوان التي ذكرت من الملابس هي التي كانت منتشرة في المجال الصحراوي، وبالإضافة إلى نوع من القماش يسمى بالقماش الهاوصي يقايض من طرف تجار مدينة ولاته بالملح والإبل والمنتجات الشمالية المستوردة من تجار من الشمال وكانت الألبسة الموجودة تتناسب وحاجيات سكان مدينة ولاته وظروفها المناخية حالها في ذلك حال سكان المدن الأخرى والمجال الصحراوي ككل، وقد تعددت الأجناس في المدن الصحراوية نظرا لما جلبته الأسواق التجارية⁹⁴²، وكانت أغلب الملابس بيضاء وكذلك العمامة، ويرى بعض الباحثين أن لباس الصوف والقطن كان رمزا للمكانة الاجتماعية المتميزة، و ذكر ابن بطوطة "... وثياب أهلها حسان مصرية... مما يوحي أن أكثرية الملابس لدى القوم كانت مصرية أي مجلوبة من مصر مع صناعة مصرية ويبدو أن الملابس تطورت لدى سكان الصحراء بشقيها البدوي والمدني لكي تتلاءم مع المناخ الصحراوي الذي يتميز بالحرارة الشديدة والبرودة، فكانت "الدراعة" الموريتانية مع السروال والقميص والعمامة للرجال كزي

⁹⁴¹ - محمد الأمين الشنقيطي، الوسيط، مصدر سبق ذكره، ص: 523 .

⁹⁴² - زيارة الموقع www.arrabita.ma 22/08/2020

ظل مستمرا إلى اليوم بينما الملحفة والإزار هما ثياب المرأة الصحراوية، مع اختلافات النوع لدى الملابس فمنها ما يختص بالعامية ومنها ما يتميز به عليّة القوم وسادتهم.

(3) مكانة المرأة

لقد تحدثنا عن مكانة المرأة سابقا في هذه الدراسة وبيننا مدى تمتعها ببعض الحريات التي لا يتمتع بها غيرها من النساء في الربوع الصحراوية ويتأكد ذلك من خلال المرأة الولاتية التي تحدث عنها ابن بطوطة عند مجيئه لهذه المدينة وما شد انتباهه على مستوى علاقتها النوعية بالرجل بشكل يثير الإعجاب، سيما عندما يكون ذلك بإيعاز وعلى مرأى من الفقهاء حراس الدين والقائمين على تطبيقه، فقد ذكر ابن بطوطة في (التحفة) أنه دخل يوما دار الفقيه محمد عبد الله بن ينومر قاضي ولاته بعد استئذانه، فوجد عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن، فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع فضحكت مني ولم يدركها خجل وقال لي القاضي لم ترجع؟ إنها صاحبتني⁹⁴³.

كما ذكر حسن النساء بها حيث يقول "... ولنسائها الجمال الفائق وهن أعظم شأنا من الرجال..."⁹⁴⁴.

كما ذكر ابن بطوطة أيضا عدم ابتعاد المرأة الولاتية عن مدينتها حفاظا على محيطها الجغرافي الأصلي والسكن بمدينتها ولاته حيث يقول في هذا الشأن "... ومن أراد التزوج تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعهن أهلها"⁹⁴⁵.

ولعل هذا المنع من السفر من طرف ذويها محافظة عليها وشفقة من الرحيل والأسفار وخيارا للاستقرار في المدينة.

⁹⁴³ - ابن بطوطة، تحفة النظائر، مصدر سبق ذكره، ص: 777.

⁹⁴⁴ - نفسه.

⁹⁴⁵ - ابن بطوطة، تحفة النظائر، ج (2)، مصدر سبق ذكره، ج (2)، ص: 777.

وعلى المستوى الاقتصادي ساهمت المرأة الولائية في النشاط التجاري داخل مدينتها حيث يمثل فن زخرفة المنازل في المدينة تراثا معماريا قديما حافظ عليه سكان المدينة عبر القرون، وذلك من خلال الإبداع النسوي، إذ ظلت أيادي بنات ولاته، تتفنن في إنتاجه لتلميع المنازل بأشكال الزخرفة كافة والرسم على الجدران من خلال مواد منتجة في المدينة⁹⁴⁶.

ويرى بعض الباحثين المحليين أن هذه المهنة تحولت إلى العاطلات، كما تتمثل هذه الخدمة في المساهمة على المحافظة على التراث وحمايته من الاندثار.

وظلت هذه الزخرفة تتطور وتتعاطاها أجيال ولاته عبر القرون، ويتحدث الباحث مولاي الحسن ولد مولاي عبد القادر أن مدينة ولاته، تتميز عن بقية المدن المعاصرة لها وهي : (شقيط، وادان، تيشيت) بتراث مليئ بالتنوع والثراء، كما أن سكان المدينة حافظوا عليه من دون أن يتأثر بالحدثة التي تتهدد الكثير من المدن العالمية.⁹⁴⁷

ولا تقتصر المرأة الولائية على هذا النشاط بمفرده بل ساهمت في صناعة عجائن، أمثال المكرونات والكسكس اعتمادا على قدراتهم بدل المصانع، كما قامت بتطريز الملابس والأفرشة الملونة من نسيج و صوف.

وظلت تقوم بصناعة الخزف على أشكال عديدة منها القدور وأوعية الماء وبعض أدوات المنازل إلى غير ذلك وما زالت تساعد في دعم السوق المحلية بالصناعات التقليدية حتى اليوم.

المطلب الثالث: الدور الاقتصادي

لقد كانت مدينة ولاته من المراكز التجارية الهامة التي شاركت في تنشيط حركة القوافل على الطرق الرابطة بين إفريقيا الشمالية والسودان الجنوبي (التجارة عبر الصحراء) خلال الفترة الوسيطة، وقد منحها موقعها الجغرافي الانفتاح التجاري والحضاري بعد اندثار أوداغست

⁹⁴⁶ – Independent ;dentarabia.com 4h 200/02/20 زيارة الموقع

⁹⁴⁷ – Ibid.

حيث تحول إليها الثقل التجاري وازداد مركزها بعد سقوط كومبي صالح وانتقال الأسر الثرية السنونكية إلى المدينة.

. التجارة:

تعتبر تجارة القوافل عصب الحياة في الفترة الوسيطة من خلال التبادل التجاري للمواد المستخدمة وتتفاوت هذه البضائع من حيث الكم والقيمة، وتصل مدينة ولاته القوافل المحملة بالبضائع من الشمال الإفريقي (المدن المغربية والأندلس وغرب أوروبا) بأثمان مرتفعة ومن أهمها: الزرابي والأكسية (الأغطية) والثياب والأقمشة وغيرها ولعل من أهمها:

أ. النحاس: يأتي النحاس في شكل قوالب تستعمل في زخرفة السيوف والسروج وتزيين الأبواب، ويدخل في صنع بعض الأدوات المنزلية ويأتي مصنوعا في شكل أساور وأغراض وخواتم وأواني وأباريق وكؤوس مزخرفة وطاسات⁹⁴⁸.

ب . الحديد: يأتي في شكل سيوف ومسامير

ج . الزجاج: كؤوس وأكواب ومرايا وعقود من العقيق كما يأتي المرجان والقرنفل وماء الورد والفواكه المجففة مثل: التين والزبيب والتمر وتصدر هذه البضائع إلى بلاد السودان الواقعة جنوب مدينة ولاته وتعود تلك القوافل من الجنوب السوداني محملة بالبضائع السودانية من أهمها: الذهب، الذي يتناوله صائغ الذهب بولاته لتحويله إلى قوالب لتسهيل حمله وتشتهر ولاته بصناعة الذهب حتى الآن بالإضافة إلى التوابل وبعض المنتجات الزراعية، وتتجمع هذه المنتجات بسوق ولاته لتنتقل إلى مدن الشمال كما يستهلك بعضها في المنطقة خاصة المنتجات الزراعية⁹⁴⁹، كما تتال المنتجات الصحراوية قسطها من التسويق بمدينة ولاته ومن أهمها مادة الملح التي ترتفع قيمتها بالسودان إلى درجة أنهم يتعاملون به كما نتعامل

⁹⁴⁸ - محمد الأغظف ولد الداه، مقال تحت عنوان ولاته لتاريخ المشرق وتحديات الواقع والتطلع للمستقبل، ص: 48 .

⁹⁴⁹ - نفسه.

بالعملة⁹⁵⁰، ويأتي الملح من سباخ تغازة وتاودني وكدية الجل وتنيولك، وتتفاوت قوالب الملح من حيث الجودة والسمك. وقد ساعدت هذه التجارة على تراكم الثروة بأيدي الولايتين فازدهرت حتى ماثلت كبريات مدن العالم الإسلامي في تلك الفترة حيث وصفها الشاعر محمد الحسن⁹⁵¹ في شعره بقوله:

كأنها مصر أو فاس وقرطبه وجلق الشامي في علم ومتجر

وفي هذا الشأن يقول جان دوفيس: "... إن ثروة أهل ولاته أكثر مما يتصور"⁹⁵².

ويرى بعض الباحثين المحليين أن هذا التراكم المالي لثروة سكان ولاته في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وليد تراكمات قديمة.

المطلب الرابع: الدور العلمي والفكري

تضاربت آراء الباحثين في مجال تحديد الإشعاع العلمي والثقافي لمدن الصحراء قديما، نظرا لاختلاف الروايات حول نشأة هذه المدن وارتباط بعضها بمجموعة من العلماء، ارتبطت مثلا مدينة ولاته في بداية عهدها الإسلامي بقدوم يحي الكامل جد قبيلة لمحاجيب، ويفسر بعض الباحثين المحليين انتشار المذهب المالكي في المجال الصحراوي بشقيه البدوي والحضري في نظرهم إلى القائد الروحي للحركة المرابطية (عبد الله بن ياسين) وأن تلك العلاقات بين شمال إفريقيا والمناطق الصحراوية لم تقتصر على المبادلات التجارية فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى تبادل الأفكار والمذاهب⁹⁵³.

وقد ميز بعض الباحثين المحليين الحياة العلمية ببلاد الصحراء إلى فترتين:

⁹⁵⁰ - محمد الأغظف ولد الداه، مقال تحت عنوان ولاته لتاريخ المشرق وتحديات الواقع والتطلع للمستقبل، ص: 48

⁹⁵¹ - نفسه.

⁹⁵² - نفسه.

⁹⁵³ - أبو بكر بن أحمد المصطفى، منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور، دراسة وتحقيق محمد الأمين ولد حمادي، موريتانيا خلال القرن التاسع عشر، ط الأولى 2011، ص: 42.

. فترة الأخذ: وتتميز بالتحصيل العلمي والثقافي

. فترة العطاء: وتتميز بالعطاء العلمي حيث بلغ الإنتاج والتأليف أوج ازدهارهما فيها.

اهتم العلماء في هذه الفترة (فترة العطاء) بترويض المذهب المالكي وملاءمته للواقع الملحي، وعاش في هذه الفترة مجموعة من كبار العلماء تركوا إنتاجا علميا زاخرا، وقد بلغ بعضهم مرتبة الاجتهاد.⁹⁵⁴

وقد أخذت مدينة ولاته نصيبها من العلم والعلماء حيث كانت من أهم المراكز العلمية والثقافية بالصحراء، و أكبر دليل على ذلك هو أن جل علماء تينبكتو من أصول ولاتية من أمثال، سيد أحمد بن أندغ محمد بن أحمد⁹⁵⁵ (بيت الإمامة في ولاته) وسيد محمد بغيغ الونكري التينبكتي⁹⁵⁶ والطالب أبوبكر بن علي بن الشيخ المحجوبي⁹⁵⁷ ومحمد عبد الله بن عمر اندعبد الله⁹⁵⁸ وكل هؤلاء وغيرهم درسوا في مدينة ولاته، ولا يمكن حصر خريجي محاضرها نظرا لقدم عطائها العلمي وانتشاره بين مختلف مكوناتها وطبقاتها، و قد تخرج من محاضرها آلاف الطلاب وحملوا اسمها إلى جميع الأقطار ومما يدل على شيوع العلم وانتشاره ما تذكره كتب التراجم والسير من نواذر الحفظ.

. الدراسة في مدينة ولاته:

⁹⁵⁴ - أبو بكر بن أحمد المصطفى، منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور، دراسة وتحقيق محمد الأمين ولد حمادي، موريتانيا خلال القرن التاسع عشر، ط الأولى 2011، ص: 43.

⁹⁵⁵ - سيد أحمد بن أندغ محمد بن أحمد: فقيه نحوي وقاض له حظ في الأصول والبلاغة، له شرح على الأجرومية سماه "الفتوح القيومة". البرتلي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص: 39.

⁹⁵⁶ - بغيغ الونكري: عالما معلما أخذ عنه الكثيرون أسانيد الحديث و الفقه، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، مصدر سبق ذكره، ص: 42.

- الطالب أبوبكر بن علي بن الشيخ المحجوبي: كان شيخا عالما فقيها نحويا لغويا خطاطا ينحدر من بيت علم وصلاح، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص: 73.

110- محمد عبد الله بن عمر اندعبد الله، قاض عادل له أنكار وأدعية في المساء و الصباح، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص: 81.

تعتمد الدراسة في مدينة ولاته كسائر المدن القديمة وباقي بلاد الصحراء على نظام المحظرة، وتنقسم الدراسة إلى قسمين :

أ. مدرسة قرآنية (المرحلة الأولى):

يتلقى فيها الطلاب تعليم الكتابة والقراءة كمبتدئين وتتواصل هذه المرحلة إلى حفظ القرآن لدى الراغبين في ذلك ويقدم فيها الطالب لشيخه (لمرابط) معونة ذاتية رمزية في الغالب وبعد إكماله حفظ القرآن يقدم أهل الطالب إلى شيخه هدية⁹⁵⁹.

ب . المدرسة الثانية: (محظرة جامعة):

وهي عبارة عن دار يطلق عليها دار "التلاميذ" يفد إليها الطلاب من المدينة وخارجها لتلقي العلوم بمختلف أنواعها ويقوم على تدريس الطلاب في هذه المحظرة شيخ من شيوخ المدينة أو عدة شيوخ حسب الحاجة وكان من واجب الطالب أن يحفظ المتن الذي بصدد دراسته ويستثنى من ذلك علم الحديث فإن حفظ نصوصه لم يكن إلزامياً⁹⁶⁰، وقد اهتمت المحظرة الولائية بمختلف المجالات العلمية حيث نالت كل العلوم نصيبها من التدريس فعلى مستوى النحو درست متونه كألفية ابن مالك وألفية السيوطي (الفريدة) وكذلك احمرار ابن بونه وقد توالى شروح عليها لدى علماء أهل ولاته مثل: شرح الفريدة لمحمد بن علي بن محمد الطالب بوبكر، علي بن الشيخ المحجوب (ت 1137هـ)، وشرح الطالب بن بوبكر ألفية بن الطالب في القرن الحادي عشر الهجري وشرح عبد الله بن سيد أحمد (ت 936هـ) الأجرومية وكذلك شرح حمد بن سيد أحمد بن حندي البرتلي (ت 1286هـ) ومحمد عبد الله بن أبي قف المحجوبي ألفية ابن بون (الاحمرار)⁹⁶¹، كما وضعت شروح النحو لمؤلفات ولاتيين أنفسهم كنحو اليوم والشهر والمنحة الربانية وجمانة الإعراب والعقلية البهية وغيرها،

⁹⁵⁹- أبو بكر بن محمد المصطفى، منح الرب الغفور، مصدر سبق ذكره، ص: 43.

⁹⁶⁰- نفسه.

⁹⁶¹- محمد الأظف ولد الداء، ولاته لتاريخ المشرق وتحديات الواقع والتطلع للمستقبل، مقالة سبق ذكرها، ص: 52.

وكان للصرف نصيبه من الدرس والتأليف فتعددت شروح الالامية و وضعت مؤلفات في التصريف مستقلة وشروح في الشعر أيضا وورد كثير من شرح الدواوين الشعرية والقصائد المديحية⁹⁶².

وعلى مستوى الفقه درس هذا العلم في محاضر ولاته وقدمت لبعض أمهات الكتب شروح حيث وضع الشيخ أحمد التازختي (الولائي) (ت 936هـ) تلميذ الشيخ السنهاوري شرحين لخليل، وشرح الجلاب وابن عساكر وجمع الجوامع للسبكي وشرح الطالب بوبكر بن محمد بن الحاج أحمد المحجوبي (ت 1208هـ) وتداولت الشروح خليلا بالمطولات والمختصرات لعل من أشهرها فتح الجليل على مختصر خليل للقصري بن محمد المختار الإديلي (ت 1235هـ) والتسهيل على مختصر خليل لعبد المالك بن النفاع الداودي (ت 1265هـ) والمعروف بحاشية عبد المالك وقد حظيت رسالة ابن أبي زيد القيرواني بعدة شروح من طرف علماء ولاته من أشهرها الطالب الأمين بن الطالب الحبيب الحرشي (ت 1166هـ) والذي يقال عنه إن الطلبة انتفعوا به كثيرا كما ألف العلامة أنبويه بن باب أحمد كتابه "بلوغ الغاية" في المعتنى به من علوم الدراية في (5555 بيتا) في اختلاف الأئمة ومذاهبهم⁹⁶³.

وفي الأصول نظمت قواعد مذهب الإمام مالك وذاع صيتها بين المشرق والمغرب وشرحت على يد العلامة الفقيه محمد يحيى الولائي، كما ألف نيل السيول على ملتقى الأصول وفتح الودود على مراقي السعود ، والبحر الطامي ذو اللج على بستان فكر المنهج، ولا يمكن أن تحصى تأليف ولاته في العلوم الشرعية والشروح عليها، وقد ألفوا في مجالات علمية أخرى كالتاريخ ، ألف فيه باب كوري وهو من أهل القرن الثامن كتاب الدرر الحسان في تاريخ السودان الذي اعتمد عليه محمود كعت والسعدي في كتابيهما الفتاش وتاريخ السودان، وألف محمد عبد القاضي بن محمد بن عبد الله بن علي بن الشيخ المججوبي (ت 1220هـ) تاريخ

⁹⁶² - محمد الأظف ولد الداه، ولاته لتاريخ المشرق وتحديات الواقع والتطلع للمستقبل، مقالة سبق ذكرها، ص: 58.

⁹⁶³ - نفسه، ص: 52.

علماء تينبكتو كما ألف الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي كتاب فتح الشكور وغيرهم كثير يضيق المقام عن ذكرهم أما في الشعر فألف الكثير في مجاله لدى شعراء ولاته وتناول جميع الأغراض وقد كثرت القصائد الشعرية في الرثاء وعرف بيوتات الشعر في ولاته كآل الإمام عمر ممو المحجوبي وآل الطالب عبد الله النفاع بن أحمد حاج الداودي وآل أمير اليونسي وغيرهم كثير وفي الأدب أهتم أهل ولاته بالأدب وألفوا في مجالاته أيضا حيث ألف الإمام سيدي عثمان بن الإمام محمد بن عبد الله بن الإمام عمر ممو (ت 1299هـ) أطروبة الفتیان وأعجوبة الزمان وهو تأليف في الأدب وأخبار كرام العرب الأول وأيامهم وأشعارهم وله تأليف في الأدب والكرم والشجاعة، كما ألف الإمام أبو بكر بن محمد أسر ابن الشيخ عبد الله ابن أحمد لعويد المحجوبي كتاب اللفائف⁹⁶⁴،

وقد تعددت المكتبات بمدينة ولاته حيث بلغ عدد المخطوطات أكثر من 1582 إضافة إلى آلاف الوثائق⁹⁶⁵.

⁹⁶⁴ - محمد الأقطف ولد الداه، ولاته لتاريخ المشرق وتحديات الواقع والتطلع للمستقبل، مرجع سبق ذكره، ص: 54 .

⁹⁶⁵ - الطالب أحمد بن سيد أحمد بن أطوير الجنة، مقالة، المخطوطات في المدن التاريخية الموريتانية، الواقع والتحديات، مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث والثقافة، العدد 17، 1441هـ، 2019م، الناشر المعهد الموريتاني، ص: 72 . 73 . 74 .

الفصل الثاني: مدينة وادان

المبحث الأول: نشأة المدينة وتصميمها

المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي

أولاً: الموقع

وادان مدينة صخرية تقع بالصحراء الجنوبية في الجزء الشمالي من موريتانيا الحالية، على نحو 500 كلم شمال شرقي العاصمة نواكشوط وتبعد بحوالي: 220 كلم شمالي "أطار" عاصمة أدرار، وهذه المدينة عرفت منذ العصر الوسيط بوقوعها على المحور الغربي النشط بالحركة التجارية⁹⁶⁶، وشيدت كلها من الصخر، و تعتبر مدينة بائية الارتفاع، مبنية على هضبة صخرية مرتفعة ويتدرج فيها البناء على نسق بديع، وتبدأ بيوتات وادان من سفح الجبل متجهة نحو أعلاه وتحيط بها واحات النخيل، بملتقى وادي أغنوان وفرزي وقد بلغت درجة عالية من التحصين بفضل سورها الذي يحتوي على أربعة أبواب تمثل مداخل محورية مما يدل على ما وصل إليه سكان المدينة في المهارة الحرفية⁹⁶⁷.

تعتبر مدينة وادان من أشهر المدن الوسيطة الصحراوية، وقد استفادت من موقعها بجبل لمتونه في الشمال الصحراوي حيث كانت محطة تجارية هامة، لوقوعها على الطرق التجارية في اتجاه المراكز الجنوبية وبالأخص تيشيت وولاته وتيمنكتو، إضافة إلى قرب المدينة من مملحة (اجل)، مما جعل المدينة تحافظ على وجودها وبقائها رغم التحولات التي شهدتها الصحراء، وقد ذكرت المصادر المحلية أقدمية المدينة حيث تعرضت خلال الفترة المرابطية للفتح المرابطي على يد الجيش المرابطي بقيادة أبي بكر بن عمر، فاستسلمت المدينة أمام هذا الفتح، وخضعت للسلطة المرابطية.

⁹⁶⁶ ولد متالي ولد محمد ولد حنن ولد بلول، مقالة تحت عنوان: نبذة عن مدينة وادان، ص: 13.

⁹⁶⁷ نفسه، ص: 14.



خريطة رقم 6: خريطة توضيح الحي القديم بوادان

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

ثانيا: نشأة مدينة وادان

عرف الموقع الحالي لمدينة وادان عمراناً بشرياً منذ القدم وقد أطلق عليه بعض الباحثين المحليين اسم وادان بينما اعتبرها بعض الباحثين مركزاً مكوناً من عدة قرى مثل: تفرلة، وكولان، وتامكونه، وفرني، وكانت تسكن هذه القرى مجموعات بشرية مختلفة منها: الجيتو ولجرامت والنيزامزن والبافور والمانديكة والسوننكة قبل مجيء الإسلام، كما استوطنتها بعد ذلك مجموعات من قبائل صنهاجة الأكثر شهرة بالمنطقة، لمتونه وأكداله ومسوفة⁹⁶⁸.

وعلى هذه القبائل ورد الفاتحون الأوائل في قرية تفرلة وفيها ترك الأخوان الفهريان أبو بكر وعثمان العاقب وثيقة دلت على أنهم صلوا أول جمعة عام 145هـ أو 147هـ مكتوبة على

⁹⁶⁸ - الباحث و الإمام: محمد بن الشيخ، مقالة تحت عنوان: إضاءات على مدينة ودان وماضيها الزاهر، محاضرات أُلقيت في مهرجان وادان، و وثقت بكتاب ونشرت عن طريق الاتحاد الموريتاني للنشر والتوزيع (مؤسسة المدن القديمة)، ص: 162 وما بعدها.

رق الغزال، وقد وقعت الوثيقة بأيدي الفرنسيين مطلع القرن العشرين إبان احتلال المنطقة وهي موجودة في المتحف الفرنسي⁹⁶⁹.

تختلف روايات تأسيس هذه المدينة كما هو حال باقي المدن الصحراوية الأخرى، إذ قلما يحصل اتفاق على تاريخ نشأة المدن، تقول إحدى الروايات أن الحاج الثلاثة قبل توجههم إلى الحج وضعوا ألواحاً خشبية أو رسائل قصد الاستخارة عن مكان فوق الخيار على ثلاثة مواقع، وبعد عودتهم وجدوا اللوح الذي وضع في مكان مدينة وادان الحالية لم يتضرر من شيء، فقرروا الاستقرار به، كما تروي بعض الروايات الأخرى والتي دونتها المصادر المحلية من بينها ابن حبت أن هذه المدينة أسست من طرف المرابطين، ويعود ذلك إلى قدوم أبي بكر بن عمر إلى منطقة آدرار وقيامه بالجهاد، فنزل ترقيبات بناحية وادان وأهلها أزير وآسوانك ففتحها عنوة⁹⁷⁰.

يقول محمد امبارك اللمتوني في أرجوزته:

وقام منهما إلى وادانا وبعضهم مات وبعض دانا

ويقول عبد الودود / الشيخ: لما حضر أبوبكر لمحاربة المارقين بنواحي وادان أسند قيادة جيشه لابن أخيه عثمان بن يحيى بن عمر (الحاج عثمان) وتقدم هذه الرواية بعض التفاصيل المتعلقة بالقرابة بين المؤسسين، إذ تذكر أن الحاج يعقوب هو خال الحاجين علي وعثمان وأن هذين الأخيرين ابنا القائد المرابطي يحيى بن عمر⁹⁷¹.

ومن جهته أشار البكري⁹⁷² إلى اسم الموضع الذي قتل فيه القائد المرابطي يحيى بن عمر والمسمى تفرلة والتي مثلت واحدة من القرى المكونة لمدينة وادان، وبالتزامن مع هذا الحدث

⁹⁶⁹ ابن حبت، مصدر سبق ذكره، ص: 10.

⁹⁷⁰ نفسه.

⁹⁷¹ Oued Cheikh, Abdel Wedoud .Op. cit. P :74.

⁹⁷² البكري، المغرب في ذكر أخبار إفريقيا و المغرب، مصدر سبق ذكره، ص: 168.

كانت منطقة آدرار ونواحي وادان مسرحاً لحركة المرابطين ولذلك يعتقد وقوع مدينة وادان تحت الحكم المرابطي.

كما ذكرت رواية أخرى أن الحاج عثمان والشريف عبد المؤمن تلاميذ القاضي عياض السبتي المتوفي (544هـ / 1149م) اضطرا بعد انهيار الدولة المرابطية بالشمال إلى اللجوء إلى الصحراء مع مجموعة من الفقهاء، وجراء هذا الحدث قاما ببناء مدينتي وادان وتيشيت الوسيطتين الحيتين⁹⁷³.

وأمام هذه الروايات المختلفة و تضاربها يصعب على الباحث معرفة فترة تأسيس المدينة. ويفسر بعض الباحثين هذا الاختلاف بإشكالية الأنساب داخل النسيج الاجتماعي، إضافة إلى بعض الصراعات التي عاشتها المجموعات القاطنة بالمدن على أسبقية التأسيس⁹⁷⁴.

ويرى الباحث بيريونت (P) Bonte أن مقتضيات الأنساب في رواية تأسيس وادان تترجم البحث عن آليات للشرعية باعتبار أن أحد المؤسسين ينحدر من قریش وربط نسب الباقيين بالمرابطين أو عن طريق ارتباطهم الروحي بالقاضي عياض الذي يعتبر نموذجاً مؤثراً في صياغة الرؤى الدينية لدى المجتمعات الصحراوية والسودانية خصوصاً مع تنامي اهتمامها بالمعارف الدينية وكل ذلك يعبر عن صيغ البحث عن الشرعية الاجتماعية والدينية، كما يرى أن وادان تحضر قديماً، و تمثل فيه نفس الإحالات إلى الأصل المرابطي⁹⁷⁵.

ثالثاً: إشكالية التسمية

وردت خلافات في هذه التسمية لدى الباحثين المحليين فمنهم من رد الكلمة إلى أصلها اللغوي حيث قال في لفظ وادان هل هو بالإفراد أم بالتثنية فإن كان بالإفراد "ودان" فقد أورد فيه ياقوت الحموي في معجم البلدان ما نصه " ... ودان بالفتح كأنه فعلا من الود وهو

⁹⁷³ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 116.

⁹⁷⁴ -Bonte, Pierre. L'Emirat de l'Adrar Mauritanien. Harîm, compétition et protection dans une société tribale saharienne, Paris, Karthala, 2008.P :155.

⁹⁷⁵ - ابيير بونت، إمارة موريتانية، ص: 247.

المحبة ، ثلاثة مواضع أحدها بين مكة والمدينة، وودان أيضا مدينة بإفريقيا افتتحها عقبة بن أبي إسحاق الواداني صاحب الديوان في صقيلة ...⁹⁷⁶.

ويرى الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي أن الاسم الأصلي لودان هو "أنولان" ومعناه باللغة البربرية ذو الملاحس، أي التي يأوي إليها الوحش من سباح البيطرون⁹⁷⁷.

ونقل الطالب أحمد بن أطوير الجنة (ت 1265هـ ، 1849م) أن وادان اسم عربي وأنه تنحية لوادين: واد من العلم وواد من النخيل.

المطلب الثاني: تصميم المدينة

أولا: العمارة الدينية

1- المسجد

يعتبر المسجد المعلمة الدينية الأهم في عناصر العمارة السكنية القائمة داخل المدينة، ويرجع ذلك لأهمية الأدوار المنوطة به، ويشير أحد الباحثين إلى أقدمية مسجد وادان المندثر، ولا تكشف الروايات المحلية عن تاريخ تأسيس هذا المسجد بل ظل رهين نفس التضارب والخلافات التي طبعت تأسيس المدينة، مما وقف عائقا أمام تحديد بناء هذه المعلمة الدينية ليبقى الجدل قائما إلى أن تحظى بقسط من البحوث الأثرية التي تمكن من الكشف عن حقيقته، وعلى هذا الأساس سأكتفي بتقديم بعض الصور لهذا المسجد، ونعتمد على ما صاغه إلينا ريمون موني الذي هو أول من لفت الانتباه لهذا المسجد، عند زيارة قام بها لمدينة وادان سنة 1953م، وقد أدرك هذا الباحث أجزاء مهمة من المسجد آنذاك ما زالت قائمة بعمارتها فقام بدراستها، إلا أن هذه الأجزاء بعد نصف قرن من ذلك الزمن قضت عليها عاديات الزمن، فانهارت لغياب العناية بها حتى سنة 2002م⁹⁷⁸.

⁹⁷⁶ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سبق ذكره، ص: 34.

⁹⁷⁷ - الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي، الرسالة القلاوية، مصدر سبق ذكره، ص: 133.

⁹⁷⁸ -Ould cheikh, Abdel Wedoud . Deux villes anciennes de Mauritanie : Ouadane et Chinguetti. P :110.



صورة رقم 46 : مسجد وادان المندثر

الموقع: <https://www.google.com> تاريخ الزيارة: 2019/03/02

ويذكر ريمون موني (R) Mauny وجود مسجد آخر بحي ترقيبات في مرحلة من مراحل إعمار الموقع، ويفترض أنه اندثر كلياً ولم يبق له أي أثر، ويعتقد البعض أنه جنوب الحاضرة، ويرجح أن تأسيسه يعود لفترة التجمعات السكنية السابقة لمقدم الحجاج الثلاثة المؤسسين لوادان.

ويعتقد أن مسجد شنقيط تأثر بعمارة مسجد وادان، فبيت الصلاة بشنقيط يطابق بيت الصلاة بوادان وينطبق ذلك على مستوى المئذنة كما هو واضح في الصورة التالية⁹⁷⁹.

⁹⁷⁹ – Ould Cheikh, Abdel Wedoud. Op. cit. P :110.



صورة رقم 47 : مئذنة مدينة وادان مطابقة لمئذنة مسجد شنقيط

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

وقد رصد ريمون موني ركاماً في الزاوية الشمالية الغربية للمسجد، ويرى أنه كان يمثل ملحقاتاً ربما يحتوي منشأة مادية مخصصة للوضوء⁹⁸⁰.

(أ) صحن المسجد:

يحتوي المسجد على محراب خارجي غير أن هذا المحراب لا يتوسط جدار القبلة بل يميل قليلاً شمالاً، ولا يخلو من وضع قريب من التوازن، مع منبر بيت الصلاة المتأخر عنه، ويتقدم الصحن هذا المسجد بتقدمه على بيت الصلاة وهو صحن ذو شكل منتظم (13م×12م)⁹⁸¹.

وتوحي وضعية المسجد الحالية من انتقاله من مصلى صغير غير مسقوف في المقدمة إلى بيت صلاة متسع في المؤخرة ويبدو أن اعتماد مسجد وادان الثاني المخطط من خلال صحن متقدم على بيت الصلاة قد يعزز فكرة تقدم الجزء الأول الذي يفترض أنه تحول اليوم إلى صحن وذلك قبل أن يبني بيت الصلاة القائم، ويشكل هذا الصحن اليوم مصلى صغير

⁹⁸⁰—Mauny. Notes d'histoire et d'Archéologie. op.cit. P :159.

⁹⁸¹— أحمد مولود أیده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 380.

يتواجد به المصلين لالتقاء الحرارة، ويشترك مسجد وادان وتيشيت في وضعية اشتراك المسجدين في تقدم صحن المسجد على بيت الصلاة⁹⁸² وهذا ما يوحي بما ذهبت إليه بعض الروايات القائلة بتأسيس المدينتين من طرف الشريف عبد المؤمن والحاج عثمان، مما يرد احتمال أن المؤسسين للمدينتين استوحيا ذلك التأسيس من المنطقة التي قدما منها وهي المغرب⁹⁸³.

ب) المحراب والمنبر :

يتميز مسجد وادان عن باقي المعالم الدينية الأخرى بتجويف بدار القبلة مخصص للمنبر، ويعد محرابه أكبر محراب من بين المساجد التي توجد بالمدن الصحراوية حيث يبلغ قطره (1.73م) ويعود هذا الحجم لكونه يجمع بين وظيفتي المحراب والمنبر وقد تمت تهيئة المنبر مؤخرا داخل المحراب بواسطة ثلاث درجات من الخشب تمثل سريرا، يصعد إليه الخطيب لإلقاء الخطبة وتتخلل المنبر ثلاث فتحات مربعة تحاكي في الشكل فتحات موجودة بالمسجد القديم المندثر وتوجد بجانب الفتحات كوتان لوضع الكتب والأغراض وتوجد أسفل ذلك كوتان بحجم أصغر من ذلك، ولعل غياب المنبر في مسجد وادان جاء عن طريق تأثره بالمساجد السودانية في تلك الفترة⁹⁸⁴.

ج) المئذنة:

تختلف مئذنة وادان في بنائها عن مئذنة تيشيت وشنقيط حسب بعض الدارسين وذلك أنها تركز على قاعدة تفترشها وتتطابق مع أسس البناء ويغطي حوافها ردم من الرمال يعلوه كوم من حجارة، وتمثل هذه النقطة نقطة الاختلاف مع أنها تتفق معهما في بعض التقنيات الأخرى.

⁹⁸² - أحمد مولود أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 193.

⁹⁸³ - نفسه، ص: 390.

⁹⁸⁴ - Mouny. Notes d'Histoire et d'Archéologie. Op cit. p:159.

كما ترتكز المئذنة على عمود يتوسطها الهيكل ولا يعلو على سطحها و قد خضعت السلالم لتحويلات دخلت عليها إثر بعض الترميمات بالإضافة إلى تغييرات صعبت توزيع المداخل والمنافذ وكذلك بيت الصلاة مما انعكس على صورة المسجد الأصلية⁹⁸⁵.

وقد لاحظت الباحثة أوديت بيغادو (Odette Pugaudeau) أن مئذنة مسجد وادان تشبه منارة شنقيط وذلك عن طريق وحدة تصميم الشكل الهرمي الناقص ووجود كتائف معلقة تشبه عمام مربعة في مستوى قممها إلا أن هذا الشكل تغير عن ما كان عليه حسب ما بينه الباحث أحمد مولود ولد أيد إثر زيارته المتأخرة للمدينة وعلل ملاحظته بإجراء ترميمات غيرت شكل المئذنة عما كانت عليه سابقا حيث يقول "... ويبدو أن إعادة بنائها شوه صورتها وحولها من شكلها الأصلي: شبه هرمي ناقص إلى رقيقة عفاء بحيث أصبحت -اليوم تبدو للرائي بقوامها الممشوق ذات قرابة بمآذن وادي المزاب ذات شكل شبه المخروطي وقد كانت هذه المئذنة قبل الترميمات المتلاحقة ذات بطن ممتلئ، وعمامة مربعة أنيقة مهيأة بواسطة عدة كتائف معلقة ومتراكبة وذلك قبل أن تتحول -اليوم- إلى مئذنة رشيقة عفاء مما يبرز حجم التشويه الذي تعرضت له بفعل إعادة بناء غير مدروس⁹⁸⁶.

وتبدو المئذنة خالية من الرقة التي طبعت مئذنة تيشيت وشنقيط واقتصرت جدرانها الخارجية على وجود فتحات مربعة (أشباير) وتمثل منافذ للتهوية والإنارة وجلها في الجزء العلوي، كما زينت قمة المئذنة بثلاث مستويات من الكتائف المعلقة تمثل بروز عمامتها المربعة، والمصممة على مسجد وادان القديم والمندثر وكذلك مسجد تيشيت وشنقيط، وإن كانت الكتيفة الثابتة العليا انخفض موقعها في قمة المئذنة الحالية إذا ما قورنت بالمئذنة القديمة المندثرة

⁹⁸⁵ - Puigaudeau, Arts et Coutumes des Maures II. Op. cit. p :403.

⁹⁸⁶ - أحمد مولود ولد أيد، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 391.

في مسجد وادان القديم كما تنصب كل واحدة من أركان زوايا المئذنة الأربعة ببيضة نعامه كما هو الحال في المساجد القائمة بنظيراتها من المدن الصحراوية الأخرى⁹⁸⁷.

د) بيت الصلاة:

يتميز بيت الصلاة بشكل شبه مستطيل غير منتظم الأضلاع يصل امتداده من الشمال إلى الجنوب (14م) وطول الضلع الشرقي (7م) بينما يبلغ الضلع الغربي (15م) بمحاذاة المئذنة المبنية ضمن بيت الصلاة في مؤخرتها إلى اليمين من الرواق الرابع، وعن يسارها الأروقة مما أعطى شكلاً غير منتظم لبيت الصلاة التي يتقدم أمامها صحن مفتوح⁹⁸⁸.

ويتكون بيت الصلاة من ستة أروقة بالنسبة للجزء الممتد إلى يسار المئذنة بينما يقتصر على ثلاثة فقط بالنسبة للجزء المتقدم عليها، وتشغل المئذنة ثلاثة أروقة يمين مؤخرة بيت الصلاة⁹⁸⁹ ويبدو أن تفاصيل حدود البلاطات المتقدمة على المئذنة لم تتضح معالمها حسب المخطط الذي وضعه ريمون موني (R) Mauny⁹⁹⁰ إذ يظهر تعدد المداخل الأمامية ببيت الصلاة في مستوى جدار القبلة، ويعكس بيت الصلاة عناصر معمارية فريدة بالنسبة للعمارة الدينية بالمدن الصحراوية الوسيطة الحية.

ويرى سيرج روبير (Serge. Robert) أن هذه النماذج من الإرث المعماري، لها قيمتها الأثرية، الشيء الذي يستدعي ترميمها، ويلاحظ أن أغلب هذه العقود تم بناؤها بواسطة أعمدة ذات قاعدة مربعة بواسطة حجارة مسطحة مرصوفة بدقة متناهية، وما تزال بعض العقود يحتفظ بطلاء طيني.

2- الكتابيب (دور المحاضر)

⁹⁸⁷ – Puigaudeau, Arts et Coutumes des Maures II. Op. cit. p :403.

⁹⁸⁸ – أحمد مولود ولد أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص:192.

⁹⁸⁹ – نفسه.

⁹⁹⁰ – Mauny. Notes d'Histoire et d'Archéologie, Op.cit. P :175.

تعتبر مدينة وادان خزاناً علمياً هاماً منذ تأسيس المدينة على يد مؤسسيها الأول 'حيث بنيت دور محاضر متصلة بالمسجد العتيق وكانت تستقطب الوافدين من الطلاب من كل المناطق وقد درس بها القرآن وعلومه إضافة إلى مختلف العلوم الأخرى الفقهية واللغوية وكانت نفقات الطلاب ومؤونتهم على سكان المدينة وظل هذا العطاء رغم التحولات التي عايشتها المدينة إبان فتراتهما المتميزة وما زال يتواصل ذلك العطاء العلمي حتى اليوم على يد أحفاد المؤسسين بالمدينة ومن بين تلك المحاضر محطرة أهل أهن التي يقوم عليها إمام المسجد العتيق ومحطرة الناتي ولد طالبنا ولد أهن ومحطرة أحمدو ولد الكتاب وبمب ولد صالح وغيرها⁹⁹¹

ثانياً: العمارة السكنية

سبق وأن قلنا آنفاً في صفحات هذا البحث أن المدن الوسيطة تميزت بتشكيلات معمارية عديدة من بينها وجود أسوار تحميها من غارات الأعداء الخارجية، و توفرت عليه مدينة وادان، حيث يوجد سور على شكل دائرة تمتد من أعلى الجبل غرباً لتنتهي عند سفحه شرقاً، ويفسر علماء الأركيولوجيا سبب بناء السور بطريقة دائرية بأنه مسعى من بناء السور إلى أن تكون عيون المياه بداخله⁹⁹²، ويبلغ سمك حائط السور متراً ونصف المتر بينما يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار في بعض الجهات، وينخفض في بعض الجهات الأخرى، وقد استخدمت الحجارة في بناء السور إضافة إلى مادة الطين و مواد أخرى مستخدمة منه، وللسور أربعة أبواب؛ بوابة في كل جهة من جهاته، وأضخم هذه الأبواب البوابة الشرقية وتسمى "قم المبروك"، وتمثل هذه البوابة مدخلاً رئيسياً للقوافل القادمة من المشرق، بينما تمثل البوابتان الجنوبية والشمالية مصدري دخول وخروج أصحاب المشاغل الخارجية والحيوانات⁹⁹³.

⁹⁹¹ - الإمام محمد الشيخ ولد أحمدو ولد أهن، إمام مسجد وادان العتيق، مقابلة انواكشوط ، 2021/02/20.

⁹⁹² - الإمام محمد الشيخ ولد أحمدو ولد أهن، محاضرات مهرجان المدن القديمة، مقالة تحت عنوان، إضاءات على مدينة وادان وماضيها الزاهر،

ص: 165.

⁹⁹³ - نفسه، ص: 166.



صورة رقم 48 : سور وادان العظيم

<https://www.culture.gov.mr> زيارة الموقع: 2019/07/03م



صورة رقم 49 : جانب من سور وادان

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

1- المنازل

شكل مظهر الخراب في الأحياء القديمة لدى جميع المدن ظاهرة عامة نبه إليها الكثير من الدارسين وشكلت حائلا دون الوقوف على الكثير من خفايا تلك الأحياء وفي هذا السياق

أشار ريمون موني (R) Mauny إلى أن أكثر من نصف الأحياء السكنية بمدينة وادان عند زيارته لهذا الموقع سنة 1953م⁹⁹⁴ كان خراباً، كما ذكر أحمد مولود ولد أيده الذي زار المنطقة سنة 2003م، أن بقايا البناء بوادان المتصاعد مع الهضبة التي تقع عليها هذه الحاضرة، يوحي بآثار مهمة لحضارة عمرانية ما زال رسمها شامخاً⁹⁹⁵.



صورة رقم 50 : أطلال الحي القديم لمدينة وادان

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

ويرى بعض الباحثين المحليين أن هناك جدلية قائمة بين مشهدي الخراب والعمران من خلال تضاد وتبادل الأوضاع بين المشهدين في الوقت الذي يندثر فيه جزء من النسيج العمراني بين مساكن المدن تشيد أجزاء أخرى مع بقاء منظر الخراب على حاله سنوات طويلة، قبل أن تتم إعادة بنائه من جديد⁹⁹⁶، ولعل هذا ما يفسر الملاحظة التي وردت من قبل أوديت دي بيغادو (Pugaudeau Odette) أن فكرة الترميم تكاد تكون غائبة بالنسبة للعمارة بالمدن الموريتانية والواقع أن هذه الوضعية تتبع من ذهنية راسخة لدى جل السكان بهذه المدن وأن المنازل المهجورة منذ زمن طويل تعتبر (مسكونة) أي تتحول إلى مأوى للجن، ولعل هذا

⁹⁹⁴ -Maury. Notes d'Hisstoire. Op. cit. p :152 .

⁹⁹⁵ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، محاضرات مهرجان المدن القديمة، مرجع سبق ذكره، ص :473.

⁹⁹⁶ - نفسه.

الهاجس هو السبب في هجر هذه المنازل من طرف السكان⁹⁹⁷، وتشترك المدن القديمة في الكثير من الخصائص، كما تتحد في بعض الأسماء وتختلف في بعض المسميات لبعض من الحجرات وتعتبر السكفة من أهم غرف المنزل ويبلغ طولها عشرة أمتار وعرضها مترين ولا تتركز على أعمدة وترتبط ببعض من المخازن في مؤخرتها، وهي مخازن مثل (أغرن قفة) بالإضافة إلى ممر خاص بالنساء يسمى كانفل⁹⁹⁸.

وتأخذ هذه المدن أشكالاً عمرانية متشابهة في أكثرها، مما يفهم منه أنها تأثرت بشكل ملحوظ بالعمارة السكنية التي سبقتها في مدن الجيل الأول من الفترة الوسيطة (آزوكي، كومبي صالح، أوداغست)، ويتبين ذلك من خلال التصميمات للبيت الذي كشفت عنها البحوث الأثرية في تلك المدن، كما أن هذه المدن اشتركت في جوانب من عناصر السكن كالصحن وتصميم بعض الغرف وآلات البناء وما إلى ذلك، كما اشتركت هذه المدن الحية في جوانبها المعمارية في شتى المجالات، وقد اختلفت بعض المصطلحات كما اتحدت في جوهرها وسنبين ذلك لاحقاً. وقد أخذت تركيبة البيت الواداني القديم عناصر منها:

. الدرب :

وهو المدخل العام للمنزل مسقوف له باب داخلي يؤدي إلى ساحة المنزل وله باب آخر خارجي، بالإضافة إلى غرفة أخرى يطلق عليها اسم (درب غورة) وهي غرفة مستطيلة على شكل قوس خاص بالشيخ⁹⁹⁹.

. أقبل لمة:

وتضاف إلى الغرف الأساسية بالمنزل غرف ثانوية مثل (أقبل لمة) وهي غرفة للتخزين.

. (الزلكة):

⁹⁹⁷ - الإمام محمد الشيخ أحمد، محاضرات مهرجان المدن القديمة، مرجع سبق ذكره، ص: 172 .

⁹⁹⁸ - أحمد مولود ولد أبيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 474.

⁹⁹⁹ - نفسه، ص: 491.

وتطلق على المطبخ وهو غرفة صغيرة مربعة الشكل تطل على صحن المسكن وتسمى في وادان بهذا الاسم.

. المرحاض:

يوجد المرحاض بأحد جوانب الصحن الأمامي للمنزل وهو عبارة عن مقصورة مرتفعة يتم ولوجها من طرف سلم مبني يؤدي إليها، يقع في مستوى ارتفاع الغرفة في حدود مترين تقريبا وترتكز قاعدتها على جذوع نخل متراصة، ينصب مقعد الراحة وسطها، ويتم إفراح الفراغ السفلي من المقصورة لاحتواء النفايات ويحتوي الجزء السفلي على منفذ للتفريغ (عين زلكه) وهي فتحة أسفل خزان بيت الراحة لتفريغه توصل بصفيحة من الحجارة بحيث يمكن نزعها وتفريغ محتواها كلما دعت الحاجة إلى ذلك¹⁰⁰⁰.

. الصحن

تتميز منازل المدن العتيقة بوجود صحن أو صحنين ما بين المربع والمستطيل وإن كان الشكل المستطيل هو الأكثر انتشارا، وقد لاحظ ريمون موني (R.mauny) هذا التطابق بين العمارة السكنية بموقعي أوداغست وكومبي صالح¹⁰⁰¹.

ويخصص أحد الصحن بالمنزل لإيواء الحيوانات وعادة يكون الصحن الثاني الذي يوجد خلف المنزل هو مكان إيواء الحيوانات الأليفة، وقد احتفظت مدينة وادان ببعض المصطلحات التي تطلق على أجزاء المنزل ويبدو أن هذه الألفاظ تحتاج إلى القاموس المعماري المتعلق بتلك الفترة منها على سبيل المثال (زندرية) وتعني الغرفة التي يوضع بها الماء، (طرمنت) تعني سطح الغرفة كما تطلق (اشكفان) على سلال المنزل، أما فناء المنزل

¹⁰⁰⁰ - الإمام محمد الشيخ أحمد، محاضرات مهرجان المدن القديمة، مرجع سبق ذكره، ص: 474 .

¹⁰⁰¹ - Mauny. Etat actuel.. Op. cit. p:417 .

أو ساحتها تسمى السلة، وهناك نوافذ تضاف إلى تجميل المنزل تسمى (كف الناقة) وتسمى الآلة التي تصرف بها المياه التي تبقى على سطح المنزل (اشتف)¹⁰⁰².

2- الطرق والممرات

يلاحظ في حي المدينة الأثري القديم ممرات ضيقة بين المنازل، حالها في ذلك حال نظيراتها في المدن الإسلامية خلال تلك الفترة، أما الشارع المعروف الآن فيطلق عليه طريق الأربعين عالماً، وتتردد هذه العبارة لدى سكان المدينة جيلاً بعد جيل، ويقال إن هذه الطريق كانت تمر معها مجموعة من العلماء تبلغ هذا العدد، ويرجع ذلك حسب الروايات الشفهية إلى ما وصلت إليه المدينة من الاشتغال بالتدريس وانتشار العلوم الدينية بين طبقاتها، كما تنطلق ممرات في اتجاه المسجد، وأخرى باتجاه الوادي جنوب شرق المدينة.



صورة رقم 51 : شارع الأربعين عالماً بمدينة وادان الأثرية

<https://www.google.com> تاريخ الزيارة: 2018/11/18.

3- سوق وادان

يعرف بعض الباحثين أن السوق هو المكان الحقيقي أو الافتراضي الذي تطبق فيه عمليات الطلب والعرض، إذ توفر تفاعلاً بين البائعين والمشتريين من أجل تقديم الخدمات وبيع السلع

¹⁰⁰² - الإمام محمد الشيخ أحمد، محاضرات مهرجان المدن القديمة، مرجع سبق ذكره، ص: 179.

مقابل المقايضة أو المال كما يعرف أيضا أنه المساحة أو المنطقة التي تحدث فيها العمليات التجارية في مكان واحد أو هو المكان الذي تجلب إليه السلع أو المنتجات من أجل بيعها¹⁰⁰³.

وكانت عملية التبادل التجاري تتم بأسواق المراكز التجارية التي كانت قائمة إبان الفترة الوسيطة وتتوفر مدينة وادان على أسواق إلى جانب نظيراتها التي عاصرتها لكن الخراب الذي حل بالأحياء السكنية القديمة حال دون معرفة الكثير من خفايا الأسواق، ولم يبق في الذاكرة الشعبية لمدينة وادان من أسواق تذكر عدا ساحة عند أحد مداخل المدينة يطلق عليها "قم الحوش" ويبدو أن هذا المكان كان محطة تجارية تتجمع بها القوافل وتتبادل فيها البضائع بدليل وجود بعض الآثار للحجارة على شكل الكراسي والأماكن المرتفعة وما يزال بعضه قائما بينما تعرض البعض الآخر لعملية سطو من طرف سكان المدينة الجدد القادمين من الأحواز وذلك لتكملة منازلهم بتلك الحجارة لأن الحي لا يخضع لعملية حراسة تحمي تلك الآثار¹⁰⁰⁴.

4- مواد البناء

لقد ميز بعض الباحثين بين ثلاثة أنماط فرعية ضمن عمارة المدن العتيقة حيث مثل النمط الأول عمارة المدن بآدرار (وادان، وشنقيط) وهما يعكسان عمارة صحراوية صرفة، أما النمط الثاني فيتميز بالدقة نظرا لجودة الحجارة الموظفة فيه، ورغم ذلك فتظل داخل دائرة الصنف الصحراوي وذلك لوحدة المواد بينها وبين مدن آدرار، ولموقعهم ضمن منطقة أوكار، والنمط الثالث تمثله مدينة ولاته والتي تأثرت ببعض خصائص العمارة السودانية بحكم موقعها بالقرب من بلاد السودان.

¹⁰⁰³ - تاريخ الزيارة: 2021/09/07 - <https://www.google>

¹⁰⁰⁴ - أحمد ولد عبد الله يايه بويه، مقابلة، المولود بشقيط 1969 (ابن مدينة وادان)، صاحب مكتبة قديمة بمدينة وادان تحوي بعض المخطوطات بتاريخ 29/09/2020.

لقد لعبت مواد البناء دورا أساسيا في تشييد المدن الصحراوية ولم تختلف تلك المواد كثيرا بل تكاد تكون مشتركة بين المدن مع وجود خلاقات بسيطة بين جودة بعض المواد واختلاف المسميات التي تطلق عليها من قبل سكان المدن¹⁰⁰⁵.

تتشترك مدن آدرار في عينات من الحجارة الحمراء وقد استخدمت في بناء مدينة وادان ويشكل الطين وسيلة ربط بين تلك الحجارة ويبدو أن وادان لا تتوفر على مورد قريب للطين حيث أشار اببير بونت (Pierre Bonte) إلى ذلك حين قال إن استيراد شحنة من (البانكو) تكفي لطلاء مسكن واحد قد يستغرق جلبها تسعة أشهر¹⁰⁰⁶، والبانكو عبارة عن خليط من طين رطب مدعم بمواد أخرى، وكانت وادان وولاته من بين المدن التي استخدمت البانكو كطلاء للجدران الخارجية وقد أشار بعض الباحثين المحليين إلى استخدامه بمنطقة غرب إفريقيا¹⁰⁰⁷.

وتدخل الأخشاب في عملية البناء بمدينة وادان حيث تستعمل في الأسقف والأبواب، ومن بين تلك الأخشاب المستخدمة جذوع النخيل المقطوعة من واحات المدينة، بالإضافة إلى بعض الأشجار الموجودة بمنطقة آدرار، مثل "إيكنين والطلح وتيشط"¹⁰⁰⁸.

وتحدد التضاريس لكل مدينة تقنيات التأسيس وقد شكل زحف الرمال خطرا متواصلا على بعض المواقع باستثناء مدينة وادان التي كانت على هضبة لا يهددها زحف الرمال الشيء الذي انعكس على طريقة وضع أسس البناء في الحي العتيق بوادان، حيث تركز على قواعد من الحجارة ضخمة الحجم ولا يمكن حفرها ولا زحزحتها من أماكنها، وتتمتع هذه الحجارة

¹⁰⁰⁵ – أحمد مولود ولد أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 319.

¹⁰⁰⁶ – Bonte, Pierre.op cit p:185.

¹⁰⁰⁷ – أحمد مولود ولد أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص : 340.

¹⁰⁰⁸ – نفسه.

بالثبات على الأرض وقد يتراوح امتداد عرض قطعة الحجارة الموضفة في أسس البناء ما بين متر إلى متر ونصف¹⁰⁰⁹.

وقد يتساءل بعض الباحثين المحليين عن الأسباب التي أدت إلى توظيف تلك الحجارة الضخمة في أسس البناء بالنسبة لحي وادان العتيق وقد فسرنا البعض بأنها تعكس بعدا دفاعيا بموقع وادان لأن هذا الصنف من الحجارة يستخدم عادة في بناء المعالم الحربية، وتتوالى الأبنية على جهات الهضبة على أرضية أكثر ليونة وسهولة للحفر وقد تراوحت أساسات البناء بها على عمق ما بين (50-70سم) واستخدمت (حجرة الطرحة) وهي حجارة متوسطة الحجم تتلوها حجارة بالأسس ثم يوضع فتاة الحجارة (توسكس) تملأ به الفراغات بين الحجارة الكبيرة والمتوسطة إلى أن تصل (ملاسة) وهي المرحلة الأخيرة في عملية البناء من خلال ملاط طيني ويتم رفع الجدار بنفس الوتيرة إلى أن يصل إلى مرحلة السقف¹⁰¹⁰.

وتشير بعض روايات البنائين بوادان إلى أن المساكن كان يتم كسو جدرانها من الطين اقتفاء لأثر الأقدمين باستثناء الواجهات فتبقى الحجارة عارية بطلاء خفيف من الطين.

5- المقابر

نظرا لأقدمية الموقع الذي تتربع عليه مدينة وادان الحالية فإن المقابر القديمة منتشرة بمحيطه مما يؤكد أقدمية الموقع، كما يلاحظ في تلك المقابر انحرافا على مستوى الدفن¹⁰¹¹ الشيء الذي يشير إلى إعمارها سابقا أما المدفن الأساسي لسكان وادان الحالي منذ فترة تأسيسه فيقع جنوب شرق المدينة بالوادي، بمهبط الهضبة التي تنتصب عليها مدينة وادان، وهي مقبرة مختلطة تجمع موتى من شتى القبائل الساكنة للمدينة وتقع على امتداد يصل إلى (200م

¹⁰⁰⁹ - أحمد مولود ولد أيد، مدرن موريتانيا العتيقة ، مرجع سبق ذكره، ص: 347.

¹⁰¹⁰ - لبات بن سيد ابلال، مقابلة ، التاريخ 20/11/2019، انواكشوط.

¹⁰¹¹ - محمد الشيخ ولد أحمدو ولد آهن، محاضرات مهرجان المدن القديمة، إمام مسجد وادان العتيق، مقابلة 20/11/2019.

في 300 م) تقريبا ومعظم الشواهد الموجودة بها حديثة مع عدد كثير من الأضرحة التي لا تحتوى على شواهد¹⁰¹².

المبحث الثاني: أدوار المدينة

المطلب الأول: الدور السياسي

لعبت مدينة وادان دورا اقتصاديا وثقافيا وسياسيا في مجالها الصحراوي الذي تنتمي إليه حيث نسجت علاقات روابط داخلية مع نظيراتها من المدن التي عاشت معها طوال الفترة الوسيطة عن طريق القوافل التي تحمل البضائع بين تلك المدن إضافة إلى ما تجلبه التجارة الثلاثية التي تنتقل بين الجنوب السوداني والشمال الإفريقي وقد خضعت المدينة لسلطة القبائل التي استوطنتها منذ نشأتها عن طريق جماعة الحل والعقد التي شكلت الإطار التنظيمي الذي استمرت به المدن المذكورة في هذا المجال الصحراوي والذي شهد غياب سلطة سياسية بعد انتهاء الحكم المرابطي في الغرب الإسلامي، وظلت هذه السلطة الأهلية تمارس نفوذها على تلك المدن، وقد مثلت جماعة الحل والعقد في مدينة وادان من طرف مشايخ وأعيان المدينة بالإضافة إلى تجار القوافل والفقهاء، علما بأن رئاسة المدينة لدى قبيلة إدوالحاج التي لا تنافسها أي قبيلة في تأسيس المدينة¹⁰¹³، وتقوم هذه الجماعة (الحل والعقد) بالسهرة على مصالح المدينة والوصاية على الخطط الدينية وتبحث عن الحلول اللازمة للقضايا المتعلقة بالمصالح العامة وإصلاح ذات البين، والتعاطي مع النزاعات الخارجية، مع ضمان الإجراءات اللازمة لتأمين القوافل التجارية من أعمال الغزو والنهب¹⁰¹⁴.

¹⁰¹² - أحمد مولود ولد أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 200.

¹⁰¹³ - نفسه، ص: 162.

¹⁰¹⁴ - نفسه.

المطلب الثاني: الدور الاجتماعي

يكاد يتم الاتفاق بين الباحثين المحليين في شأن وجود شعوب مختلفة الأعراق في منطقة آدرار منذ القديم ويذكر منها الجيتول والجرمنت والمانديك والسوننكي والبافور القادمين من الشمال الإفريقي، ويقال إنهم من القبائل الليبية التي قدمت في القرن الخامس الميلادي وأزاحوا أغرمان جنوبا وتعزو الروايات المحلية أنهم قاموا بتأسيس المدن كآزوكي وأبير (شنقيط) و وادان¹⁰¹⁵.

وقد تميزوا بخدمة الأرض والاعتماد على الجانب الزراعي وقيل إنهم أول من أدخل غراسة النخيل، وتربية الخيول والموسيقى، وطرق الري المحكمة والصناعات اليدوية¹⁰¹⁶.

وكانت تدين بخليط من اليهودية والإسلام الخوارجي وقد خضعت هذه المجموعة للفتح المرابطي الذي هزمها وشتت شملها في الصحراء ودخل الكثير منها في القبائل الصحراوية¹⁰¹⁷.

كما كانت القبائل الصنهاجية المنتشرة بالصحراء آنذاك تتمركز إلى جانب هؤلاء السكان وقد دارت بينها حروب سابقة مع قبيلة لمتونه حسب بعض المصادر العربية قبل الدخول المرابطي إلى المنطقة، وتذكر الروايات المحلية أن القرى التي كانت موجودة بمدينة وادان والمعروفة باسم تفرلة، وتامكونة وفرني وكولانة تنتمي إلى القبائل الصنهاجية¹⁰¹⁸.

إضافة إلى بقايا جيش أبي بكر بن عمر اللمتوني والذي يقال إن أحد الحجاج الثلاثة المؤسسين لمدينة وادان منحدر من يحيى بن عمر وهو علي اللمتوني¹⁰¹⁹.

¹⁰¹⁵ - أحمد مولود ولد أبيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 200.

¹⁰¹⁶ - أحمد بن سيدي، موريتانيا الماضي المتحرك والمكان المؤثر والصراع ضد الطرد من الزمن، المطبعة العربية بن عروس تونس، الطبعة الأولى 1990، ص: 54.

¹⁰¹⁷ - سيد محمد خليفة، مصدر سبق ذكره، ص: 57.

¹⁰¹⁸ - الإمام محمد الشيخ أحمد ولد أحمد، إضاءات على مدينة وادان ... مقالة سبق ذكرها ص: 163.

¹⁰¹⁹ - محمد المختار ولد أباه، حول تاريخ وادان، مهرجان المدن القديمة الاتحاد الموريتاني للنشر والتوزيع، مرجع سبق ذكره ص: 5.

أولاً: سكان المدينة

1) صنهاجة

تذكر الرواية المتداولة أن السكان الأصليين لمدينة وادان قبيلتان هما: تفتل أو تفرلة وتامكونة أو (كولانه) وهما من أصل مسوفي¹⁰²⁰.

2) السونكة (البمبارة):

تنتشر هذه القبائل في منطقة واسعة تمتد من المحيط الأطلسي حتى النيجر خاصة في دولة مالي والسينغال وغينيا وغامبيا¹⁰²¹.

3) البافور:

هم السكان الأصليون للصحراء حسب بعض الباحثين خاصة مدن آدرار وهم الأجداد الفعليين لشعوب إمران والسونكة من غرب إفريقيا، كانوا يعيشون على صيد الأسماك والزراعة والرعي، فكانوا بذلك مستقرين نسبياً في مناطق أرض البيضان الخصبة آنذاك قبل الصراعات التي عاشوها مع قبائل صنهاجة والمرابطين فانزاحوا بذلك جنوباً نحو أراضي مالي والسينغال¹⁰²².

4) إدولحاج وكنته:

من القبائل التي تعرف بأنها هي المؤسسة لمدينة وادان وتنسب هذه القبيلة إلى الحجاج الثلاثة وهم الحاج عثمان الأنصاري القادم من مدينة "أغمات" والحاج يعقوب المنحدر من ذرية عقبة بن نافع الفهري والحاج علي اللمتوني من أبناء يحيى بن عمر ليلتحق بهم بعد ذلك الحاج عبد الرحمن الصائم.

¹⁰²⁰ - حماد الله ولد السالم، مرجع سبق ذكره، ص: 254.

¹⁰²¹ - محمد مولاي، القضاء ببلاد السودان الغربي من أواخر القرن التاسع الهجري (15 - 18م)، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ والحضارة الإسلامية، تونس السنة الجامعية 2018 . 2019م، ص: 117.

¹⁰²² <https://m.facebook.com>

وبعد قدوم هؤلاء من الحج وقرار تأسيس المدينة شكلوا تجمعاً علمياً وثقافياً واجتماعياً سمي فيما بعد إدوالحاج، ائتلفوا على ظروف الحياة ومتطلباتها آنذاك وعملوا على نشر العلم وبناء حضارة ما زالت قائمة حتى اليوم.

وفي هذا المضممار يقول اللمتوني في أرجوزته¹⁰²³

الحاجيون أصلهم مختلف لكنهم على الزمان ائتلفوا
أما علي أصله من أمتن قني إليه من شديد المحن
ومن بني مخزوم العثمان وابن أخيه عابد الرحمن

وقد ساعد على عمران المدينة أحوازها من القرى التي ذكرنا.

يقول محمد المختار بن أباه "... وانتقل إلى هذه المدينة المباركة بعد تأسيسها كثير من الشرفاء والصلحاء والعلماء ساهموا جميعاً في عمرانها واستمرار إشعاعها فبعد الأحداث التي عرفتھا "تينبكتو" نهاية القرن العاشر الهجري، انتقل سلف الأقيتيون، الذين نجوا من المحنة إلى وادان"¹⁰²⁴.

وبعد خراب تنيكي هاجرت مجموعات من بينها أبناء الصالح سيد أعمر المتغمبر بن سيد محمد الكنتي الصغير، واستقبل وادان الشرفاء الحسينيين أبناء مولاي الذهبي من ذرية العلامة ابن عبد الله الشريف التلمساني وإخوانهم الحسينيين بن الشريف العالم مولاي إبراهيم بن الشريف والعالم مولاي أعمر.

كما شهدت هجرات عربية من بني حسان من أولاد سالم من بني دليم وهم بنو امحمد بن هنون (وآل داهي وآل أماه) ومجموعات من لبرابيش عرفت محلياً باسم (آغزازير) مجموعات

¹⁰²³ - محمد أمبارك اللمتوني، نظم اللمتوني، مصدر سبق ذكره، ص: 14.

¹⁰²⁴ - محمد المختار ولد أباه، حول تاريخ وادان، مرجع سبق ذكره، ص: 6.

من أولاد الناصر (الكدارة) وغير ذلك من المجموعات الصغيرة التي انصهرت في بوتقة واحدة عمادها التضامن والتعاون على البر والتقوى لإصلاح الدين والدنيا¹⁰²⁵.

ثانياً: العادات والتقاليد

لقد كانت مدينة وادان من ضمن المدن الصحراوية التي عاشت بها شعوب مختلفة الأعراق حالها في ذلك حال منطقة آدرار التي تحتضنها جغرافيا وقد تعاقبت عليها أجيال خلال قرون عديدة تمسكت هي الأخرى بعادات وتقاليد راسخة ظلت تتعاقب عبر أجيالها يتوارثها السكان جيلا بعد جيل وقد استمرت كطابع مميز لتلك الشعوب.

1) أنماط المعيشة

ارتبط نمط معيشة المدينة خلال العصر الوسيط بما تجلبه القوافل التجارية من بضاعة وموئن من وإلى شمال إفريقيا والسودان حيث تنتقل هذه القوافل بحاجيات السكان من المأكل والملبس.

وقد دل على ذلك السور القديم الذي يحيط بالمدينة وبواباته التي تدخل منها القوافل القادمة إليها، والتي توفر أنواع الحبوب المستخدمة بالإضافة إلى واحات النخيل التي تنتج التمور ويعتمد عليها سكان المدينة مع الزراعات التي يقوم بها السكان والتي تتجلى في القمح والشعير ... إلخ.

وقد ساهم المحيط الخارجي للمدينة كباقي مدن الصحراء في انتجاع الكثير من سكان الصحراء معتمدين على تربية الماشية التي توفر حاجيات السوق من لحم ولبن ودهون.

ومن الوجبات التي كانت مشهورة في تلك المدينة صناعة الكسكس على الطريقة المحلية للصحراء ككل وكذلك صناعة نوع من الخبز من دقيق القمح والشعير وتسمى لدى سكان

¹⁰²⁵ - محمد المختار ولد اباه، حول تاريخ وادان، مرجع سبق ذكره، ص: 6.

المنطقة بالكسرة ويجعل عليها مرق من لحم و دسم¹⁰²⁶.

(2) الملابس

يعتمد سكان الصحراء في ملابسهم على ما يلائم المناخ الصحراوي وهذا ما يفسر الثياب المفتوحة لديهم نظرا لقسوة المناخ وحرارته طيلة فصول السنة، وكانت الثياب تستجلب في العصر الوسيط من الشمال الإفريقي إضافة إلى ما يجلب من جنوب السودان، ويستخدم سكان مدينة وادان نفس الملابس التي تتميز بها بلاد الصحراء عن باقي البلدان الأخرى، وهي الدراعة كزي مستعمل للرجال وتختلف من حيث جودتها : فمنها ما هو غال وتلبسه الخاصة ومنها ما هو في متناول الجميع وتلبسه العامة وكذلك السروال والقميص، وتتميز المرأة "بالملحفة" التي ظلت هي الأخرى تتوارثها الأجيال إلى اليوم.

(3) مكانة المرأة

لقد تحدثنا سابقا عن مكانة المرأة بشكل عام في المجال الصحراوي وبيننا تلك المكانة وما تميزت به عن غيرها في البلدان الأخرى منذ القدم، وقد انطبقت تلك الميزة على المرأة بمدينة وادان حيث تميزت بحضور إيجابي عبر المراحل التاريخية شمل مستويات الحياة، وكانت تشارك في المجال الاقتصادي ، كالجانب الزراعي حيث تقوم بتصليح التمور وصناعة الأدوات وسقوف المباني من جذوع النخيل وتستخدم السعف لصناعة أفرشة المنازل (الحصير) وبعض الأدوات المنزلية الأخرى، وصناعة بعض أدوات الزينة والحلي التي تستعمله النساء في تلك الفترة (لخرز).

ولم تترك جانب التعليم والتعلم فقد شاركت بعض النساء بوادان بتدريس الطلبة الصغار والمبتدئين.

¹⁰²⁶ - محمد اسحاق سعد الداه، النساء سدى اللحمة الاجتماعية، مجلة شنقيط، ص: 57.

وقد تحدث أحد الباحثين الاجتماعيين عن دور المرأة الوادانية في تقوية الروابط الاجتماعية عن طريق المصاهرة مما نتج عنه تقوية النسيج الاجتماعي لمدينة وادان¹⁰²⁷.

وكانت المرأة بمدينة وادان سيدة بيتها بحرية تامة إلى جانب تربية أبنائها تمارس أنشطتها الإضافية.

وعرفت بنشاطاتها كباقي النساء في منطقة آدرار وتجري عليها عادة "السمنة" شأنها في ذلك شأن محيطها الصحراوي وتعتبر تلك العادة إبرازا لجمال المرأة وإظهارا لثراء الزوج، كلما كان له المال الوافر كانت الزوجة بدينة.

المطلب الثالث: الدور الاقتصادي

عاشت مدينة وادان مكانة متميزة ساهم فيها موقعها الاستراتيجي المتميز الذي يقع ضمن النطاق الصحراوي وبالتحديد في منطقة آدرار على طريق القوافل الصحراوية بين المنطقة السودانية الجنوبية والشمالية المغربية و عليه تتدرج مدينة وادان ضمن الأسواق التجارية العامرة بتلك البضائع، كما ساهم موقعها القريب من معدن الملح بكدية الجل في نشاطها الاقتصادي المتميز.

قد ازدهرت بفعل النشاط التجاري القائم أيضا ضمن النطاق الصحراوي مع مثيلاتها من المدن خاصة تيشيت وولاته وتينبكتو حيث تحولت المدينة إلى محطة تلتقي فيها القوافل التجارية القادمة من الشمال، والمحملة بملح كدية الجل وبالتمر والشعير والقمح والتوابل والمعادن والأقمشة والاعطور لتتجه بها نحو المدن الأخرى¹⁰²⁸.

وتحمل من المدن بضاعة الجنوب المتمثلة في الذهب والحبوب والعاج والقماش المصبوع "بالنيلة" وهي ثياب مفضلة لدى السكان المحليين خاصة البيض، وكان لهذا الموقع المغربي بالصحراء أهمية بالغة لفتت انتباه البرتغاليين إبان تواجدهم على السواحل، حيث تعرضت

¹⁰²⁷ - محمد اسحاق سعد الداه، النساء سدى اللحمة الاجتماعية، مجلة شنقيط، ص: 57.

¹⁰²⁸ - ولد متالي، نبذة عن مدينة وادان، مقالة سبق ذكرها، ص: 135.

المدينة لزيارات الكثير من البرتغاليين الذين ذكروها في كتاباتهم وكذلك الأوروبيون، فقد ذكر القس كادانو سترو (K.Sitro) المنحدر من فينيسيا والذي كان في خدمة أحد أبناء ملك البرتغال فيما كتبه سنة 1475م وادان كانت مركزا للعبيد، والذهب وأنه كان يسكنها العديد من العرب، وقال أحد كتاب الحوليات البرتغاليين في القرن الخامس عشر الميلادي، متحدثا عن مدينة وادان "... خلف الرأس الأبيض يوجد مكان يدعى وادان يقع على بعد ستة أيام للجمل داخل البلاد، إلى هناك تتقاطر القوافل من تنبكتو، ومن المناطق الزنجية الأخرى ...". وكتب الرحالة دارتو با تشيكو بيريرا (Darteau Pa Tchico) في مستهل القرن السادس عشر "... توجد بمدينة وادان تجارة مزدهرة للذهب الذي كان على جانب كبير من الوفرة، حتى قبل اكتشاف معدن غينيا، ونهرها"¹⁰²⁹.

ويرى بعض الباحثين المحليين أن الأهمية التي اكتسبتها مدينة وادان والمتمثلة في موقعها التجاري المغربي هو ما دفع البرتغاليين إلى إقامة مؤسسة تجارية بجوار وادان سنة 1487م على بعد 21 كلم شمالي المدينة وتسمى أكويدير، وقد ذكر فرناندس (Fernandez) أن من البضائع التي كانت تسوق من قبل البرتغاليين أوشحة ذات ألوان عادية زرقاء وحمراء ومختلف أنواع خرق الكتان والسهل والملاحف، وسروج الخيل وأركبتها والأواني والمرجان الأحمر والفضة والقمح، والعسل والزعفران والفلفل والقرنفل.

وقد مرت الجيوش المغربية في القرن السادس عشر إبان الحملات العسكرية للسعديين ضد الصونغاوي بمدينة وادان، دون أن تمكث بها، ولم تحاول هذه الجيوش احتلال المدينة ولا الاستيلاء عليها ولا على معدن الملح (كدية الجل)¹⁰³⁰.

ويرى بعض الباحثين أن هذا الازدهار بدأ من القرن الرابع عشر، وكانت تمثل قطبا اقتصاديا إلى جانب العمران والازدهار.

¹⁰²⁹ - ولد متالي، نبذة عن مدينة وادان، مقالة سبق ذكرها، ص: 137.

¹⁰³⁰ - نفسه.

المطلب الرابع: الدور العلمي والفكري

شكلت مدينة وادان منارة إشعاع علمي كما هو حال نظيراتها من المدن الصحراوية الوسيطة الحية (ولاته، شنقيط، تيشيت) حيث اشتهرت بمحاضرها التي تخرج منها علماء متمكنون من أمثال سيدي محمد بن أحمد بن أبي بكر مؤلف كتاب موهوب الجليل في شرح مختصر خليل) الذي هو ثاني كتاب يتم تأليفه في بلاد شنقيط بعد كتاب (الإشارة في تدبير الإمارة) للإمام الحضرمي وقد استكمل العديد من جهازة العلم الشناقطة تحصيلهم العلمي في محاضر وادان من أمثال سيدي عبد الله بن رازكه والطالب محمد بن الأعمش الشنقيطي وسيد محمد بولوتاد التيشيتي وغيرهم¹⁰³¹.

وقد عرفت مدينة وادان بالعديد من العلماء يضيق المقام عن ذكرهم نذكر منهم على سبيل المثال:

. الفقيه النوازلي سعد بن الحبيب بن محمد الهادي الحاجي اليعقوبي الواداني، حفيد أحمد باب التينبكتي، ابن ابنته من أهل القرن 11هـ وهو العالم المفتي، صاحب مجموع النوازل المتداول.

. الفقيه المحدث عبد الله بن الأمين بن أهنا الحاجي.

. سيدي أحمد الشواف بن حبيب الله الوتيدي، الفقيه المحدث وعليه مدار المصافحة والمشابكة في بلاد شنقيط، بل إن سنده هذا قد انتقل إلى المشرق، إذ عن طريقه أسند محمد علوي مالكي حديث المصافحة والمشابكة، وذلك في كتابه الطابع السعيد.

¹⁰³¹ - محمد الأمين ولد كتاب، مقالة : وادان من تأمل إلى تمثل المستقبل، مجلة شنقيط، تصدر عن المؤسسة الوطنية لحماية المدن القديمة، يونيو 2017م، انواكشوط . موريتانيا ص: 7.

. سيدي حبيب الله بن المختار بن محمد بن سيد أحمد بن سيد عمر المتغمبر بن سيد محمد الكنتي الصغير، (ت 1155هـ) الفقيه النحوي الشاعر الزاهد، صاحب النوازل الفقهية المعروفة ضمن مجاميع الفتوى لا سيما مجمع ابن انبوجه المحجوبي الولاتي¹⁰³².

. الشيخ الطالب أحمد بن أطوير الجنة (ت 1255 هـ) الذي صحب سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم عشرين سنة، وأخذ عنه الآداب والعلوم، ثم قام برحلة شهيرة في مصنف، أسهم إسهاما كبيرا في التعريف بوطنه.

. الفقيه العالم الصوفي السالك بن الإمام، مؤلف قرة العين في العقائد والعبادات والتصوف وهو الذي اختصره العلامة محمد بن حم ختار في كتاب "قلائد اللجين" وشرحه الولي العالم لمرباط محمد فال بن متالي في كتابه الموسوم بفتح الحق وقد ترجمه التجاني بن بابا السالك بن الإمام في كتابه منية المريد¹⁰³³.

. الشريف العالم الإمام المتقي بن إمام الهدى صاحب المؤلفات الجليلة في مختلف العلوم والآداب مثل كتابه "الوافي في علمي العروض والقوافي".

. الفقيه العالم سيد الأمين بن حبيب الله بن الكتاب الحاجي الصيامي

. الشريف العالم مولاي البخاري بن مولاي ابراهيم

. الشريف مولاي امحمد بن أحمد بن أحمد شريف الذي انتقل من وادان إلى شنقيط بمكتبة زاخرة تشهد على غزارة علمه وسعة اطلاعه، وفيها كتب من تأليفه وأخرى بخطه وخط غيره من علماء وادان مثل الطالب أحمد بن اطوير الجنة، واخوته العلماء محمود، ومحمد الأمين

¹⁰³² - محمد المختار ولد اباه، مقالة، حول تاريخ وادان مجلة شنقيط ، مقالة سبق ذكرها، ص: 68.

¹⁰³³ - نفسه، ص: 72 .

والتقي وأخرى بخط أحمد سالم بن الإمام وداهي بن أحمد وبذلك حفظ هذا العالم في شنقيط جوانب هامة من تراث وادان¹⁰³⁴.

ومن مشاهير العلماء الوافدين على وادان في أواخر القرن الثالث عشر الهجري العالم الصالح المربي الشيخ محمد فاضل بن محمد بن ابيدي ومن أشهر من قدم معه من المريدين العالم الصالح ابن عطاء الله بن الطالب محمد بن الشيخ ألمين الجكني¹⁰³⁵.

وتعددت المكتبات بمدينة وادان حيث بلغ عدد المخطوطات بها 882 مخطوط إضافة إلى آلاف الوثائق¹⁰³⁶.

¹⁰³⁴ - محمد المختار ولد اباه، مقالة، حول تاريخ وادان مجلة شنقيط، مقالة سبق ذكرها، ص: 68.

¹⁰³⁵ - الباحث الطالب أحمد، مقالة سبق ذكرها، ص: 17.

¹⁰³⁶ - نفسه.

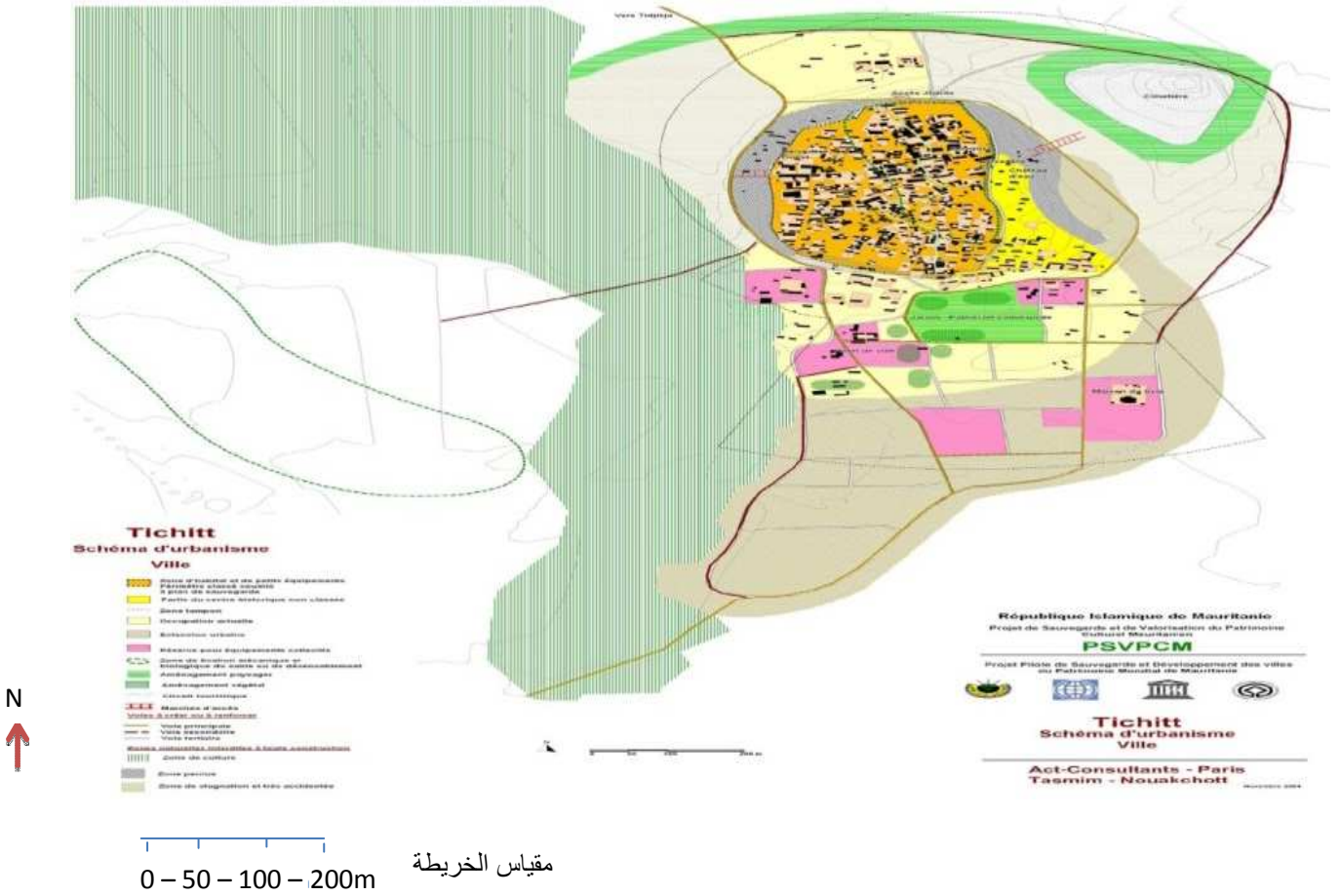
الفصل الثالث: مدينة تيشيت

المبحث الأول: نشأة المدينة وتصميمها

المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي

أولاً: الموقع

تقع مدينة تيشيت ضمن منطقة الصحراء الفاصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وهي جزء من موريتانيا الحالية في ولاية تكانت، تبعد عن عاصمة الولاية (تجكجة) 240 كم إلى الجنوب الشرقي.¹⁰³⁷ وتقع على بعد 840 كلم إلى الشرق من العاصمة نواكشوط.



خريطة رقم 7: خريطة توضح الحي القديم بمدينة تيشيت

مؤسسة المدن القديمة، نواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

¹⁰³⁷ حماد الله مياي، مدينة تيشيت، رسائل...، مرجع سبق ذكره، ص: 8.

ثانياً: نشأة مدينة تيشيت

لقد عرفت منطقة تيشيت وجوداً بشرياً قديماً أثبتته بعض الدراسات الأثرية التي أجريت في المنطقة، حيث حدده علماء الآثار بخمسة آلاف سنة قبل الميلاد، ليتواصل هذا الوجود البشري خلال القرون الوسطى ما بين القرن (2هـ / 8م) (5هـ / 11م).

تنتشر القبائل الصنهاجية في منطقة تيشيت كما هو الحال في جميع أرجاء الصحراء مشكلة تكتلات سياسية وعسكرية، بالإضافة إلى أقليات من بينها زناتة، وعرب الفتح، ومجموعات آسوانك، افلان، والبافور، وبعض من اليهود.

وقد أخذت الدولة المرابطية على اكتافها عملية الفتح الإسلامي الذي شمل الصحراء ليصل إلى منطقة تيشيت بقيادة عبد الرحمن بن الغيث دفين تيشيت، وقد احتضنت هذه المنطقة (مدينة تيشيت) إحدى المدن الوسيطة الحية التي شكلت حلقة وصل بين الشمال والجنوب لتكون فيما بعد ملتقى العلماء ومستودع نواذر المخطوطات.

ونظراً للاختلاف في روايات التأسيس، فإن تحديد تاريخ تشييدها يكون صعباً، وتعزو الرواية المحلية تأسيسها إلى الشريف عبد المؤمن الذي وصل حسب الرواية إلى الموقع سنة 536هـ / 1411م، ويذكر أنه استصحب معه من لهم حرفة البناء وآلاته.

وأمام الجدل القائم حول أسبقية القبائل التي سكنت مدينة تيشيت (الشرفاء، وماسنة)، وبغض النظر عن تلك الصراعات بشأن أسبقية السكان في المنطقة فلم يوجد إلى حد الآن مسجد أقدم من هذا الذي يقال إن مؤسسه الشريف عبد المؤمن¹⁰³⁸.

ويشير ابن امبوجة في معرض حديثه عن الفتح المرابطي لمنطقة تيشيت: "...فلما فتحت المدينة تفرقت السرايا والبعوث تفتح بلاد تيشيت وما حولها شرقاً وغرباً، يميناً وشمالاً (...). ثم فشا الإسلام وأسلمت السودان ولم يبين مسجدا ولا مدينة¹⁰³⁹.

¹⁰³⁸ - أحمد مولود أيدو، مرجع سبق ذكره، ص: 162.

وهذه المدينة التي أشار إليها ولد امبوجه قد تكون مكان الأخصاص التي قدم عليها الشريف عبد المؤمن، وهذا الوصف الذي يصف به ابن امبوجه الفتح المرابطي لهذا الجزء من الربع الصحراوي لم يذكر به أن هناك مسجدا ولا مدينة سابقة دخلها الفتح المرابطي، وإنما ذكر منطقة تيشيت فقط، ويبدو من خلال هذا أن الفتح استهدف السكان بإدخال المذهب السني المالكي لمنطقة تيشيت وكذلك السودان.

تختلف الروايات في تأسيس تيشيت كما هو الحال في نظيراتها من المدن الوسيطة المندثرة والحية، وقد وردت في هذا السياق روايتين محليتين لسكان مدينة تيشيت الحالية.

. رواية الشرفاء: حيث وردت هذه الرواية ضمن نصوص محلية يبدو أن أقدمها على شكل أرجوزة تروي حلقات من تاريخ تيشيت¹⁰⁴⁰ ويتكون هذا النص من 61 بيتاً شعرياً منظوماً، ويرى الباحث محمد ولد مولود أنه ربما كتب خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، وتبين هذه الأرجوزة تفاصيل التأسيس كما تتعرض لصراعات بين الجماعات المحلية بتيشيت:

تيشيت قرية بأقصى المغرب	مخترعوها الشرفاء آل النبي
فأسسوا بنيانها ببر	فهي في القرى كليل القدر
مبدؤها قدوم عبد المؤمن	لهذه الأرض بقصد المسكن
وكان فيها أخصاص ولم	يساعده في الذي له أهم
إذ ما لهم من قدرة على البناء	وهو مستوفٍ للشروط فبنى
وبناء المسجد أولاً بدأ	وداره ثم البناء تعدداً ¹⁰⁴¹

وهذه الرواية المدونة ضمن هذه الأرجوزة السابقة تقول: "...اعلم أنه مما اشتهر أن أول من بدأ في بناء تيشيت الشريف عبد المؤمن بن صالح، ويقال إنه مر بموضعها قبل أن يبني

¹⁰³⁹ - ابن امبوجه، فتح الرب الغفور، مصدر سبق ذكره، ص: 33.

¹⁰⁴⁰ - Ould Maouloud (M), Tichit avant le déclin, op.cit. P : 125.

¹⁰⁴¹ - أحمد مولود أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مصدر سبق ذكره، ص : 127.

فيه، فقدم على البناء فيه وموضعها أكم مرتفع عن الأرض، ومما يقال عن خبر قدوم عبد المؤمن للبناء أنه ارتحل عن شيخه القاضي أبو الفضل عياض حين كان يقرأ عليه، وارتحل معه صاحبه الحاج عثمان إلى بلاد التكرور، فلما حصل فيها تفرقا فارتحل الحاج عثمان إلى بلاد آدرار ونزل بها على جد الوتيدات، وبني يعقوب من إدولحاج، وسار عبد المؤمن إلى بلاد تيشيت، وساكنوها يومئذ أهل الأخصاص على قدر فرسخ جنوب موضع المدينة الحالي، فندب بعضهم إلى البناء، فلم يساعده لعجزهم عن ذلك قائلين: لم يبق من الدهر ما تبنى فيه القرى، فارتحل عنهم إلى الموضع الذي هي به الآن، وكان استصحب حين قدومه من له حرفة البناء وآلاته، فابتدأ بالبناء للمسجد، ثم ابنتى داره حذوه، ثم لما سمع الحاج عثمان بخبره ارتحل إليه فأقام معه...¹⁰⁴².

رواية ماسنه: أما فيما يخص سكان تيشيت المجموعة الثانية وتسمى ماسنه، وملخصها يتحدث عن شيخ ضرير يدعى الأمين بن الحاج حسب تدوين الباحث تيدور مونو (Tudor.Mono)¹⁰⁴³ الذي ذكر اسم الشيخ، أنه وصل ذات يوم لموقع تيشيت قادماً من غانا، وكانت هذه الرحلة شاقة ومضنية، بينما تذكر بعض هذه الرواية أنه قادم من الحج¹⁰⁴⁴، ويرافق هذا الشيخ عدد من أتباعه، وعند انتهاء كل مرحلة من السير يقدمون حفنة من تراب إليه ليتفحصها بحاسة شمه¹⁰⁴⁵ إلى أن وصلوا يوماً إلى موقع تيشيت، شم ثراه وصاح في وجه مرافقيه: "تي شتو" وقرر الاستقرار بالموقع جنوب السبخة¹⁰⁴⁶ ويذكر أنه دعا الله أن يحول مستقراً كان بجواره إلى سبخة، الشيء الذي ذهب بعض الباحثين إلى القول أن إقحام هذا الدعاء في الرواية يبرز أهمية الملح ودوره في معاشهم وحاجتهم إليه في

¹⁰⁴² - أحمد مولود أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مصدر سبق ذكره، 327.

¹⁰⁴³ - Monod, Théodore. op.cit. P :15.

¹⁰⁴⁴ - Puigadeau. op.cit. P :225.

¹⁰⁴⁵ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 132.

¹⁰⁴⁶ - نفسه.

تلك الفترة، وتحدد الرواية هذا القدوم، وهو تاريخ قدوم جدهم إلى تيشيت بالقرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي.

وفي الفترة التي تصادف سقوط مدينة أوداغست ومملكة غانه على يد المرابطين، إذ يرى بعض الباحثين أن قدومه ربما يكون عبر النشاط التجاري الذي كان قائماً، ومهما يكن من أمر فإن روايات التأسيس تبقى مثار جدل إلى أن تحظى المدينة بدراسات أثرية تميّط اللثام عن ما هو مدفون تحت ركام أطلال المدينة.

ثالثاً: إشكالية التسمية

تتباين الروايات المحلية حول أصل اسم هذه المدينة حيث يرجعها أهل اللغة العربية إلى أنها كلمة تكونت من خمسة أحرف من اسم الإشارة (تي) والفعل الماضي (شيت)¹⁰⁴⁷ ويروي سكان المدينة عن مؤسسها الشريف عبد المؤمن أنه قال تيشيت معناها هذه اخترت ، بينما يرى البعض أن أصل التسمية يعود إلى لغة سونكية (البمبارة) وأنهم من سكان المنطقة القدماء..

ويقول البعض اسم مدينة تيشيت يرجع في أصله إلى تسمية صنهاجية مجهولة الدلالة وهؤلاء القبائل كانوا أيضاً من سكان المنطقة¹⁰⁴⁸.

المطلب الثاني: تصميم المدينة

أولاً: العمارة الدينية

1- المسجد

مسجد تيشيت: يتميز مسجد تيشيت عن باقي مساجد المدن الأخرى ببعض الخصائص، من أبرزها حسن صنعته فضلاً عن كونه المسجد الوحيد الذي يزخر بالزخارف الحجرية التي تزين المداخل والواجهات الخارجية لبيت الصلاة، ولعل هذا ما دفع بعض الدارسين¹⁰⁴⁹ إلى اعتبار

¹⁰⁴⁷ - حماد الله ولد ميانى، مقالة، دور تراث مدينة تيشيت في تميمتها، المدن الموريتانية القديمة، مجلة شنقيط، مقالة سبق ذكرها، ص: 34.

¹⁰⁴⁸ - زيارة الموقع: 2020/08/27 <https://mamarefa.org>

¹⁰⁴⁹ أحمد مولود ولد أبيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 801 .

أن هذا المعلم يمنح انطباعاً بتجانس النمط المعماري لهذه المدينة، ويعود ذلك على اعتماد تقنية رص الحجارة بدقة في بنائه.

يتكون هذا المسجد من عدة وحدات: مداخل بارزة وبيت الصلاة، ومصلى متقدم ومئذنة، ويعد هذا المعلم من أكبر مساجد المدينة، ويأخذ شكلاً مستطيلاً غير متساوي الأضلاع، يبلغ طول عرضه الغربي (1،38م) بينما يصل طول الضلع الشرقي (15،39م) والضلع الشمالي (25،24م) وطول الضلع الجنوبي (25،22م)¹⁰⁵⁰.



صورة رقم 52 : منظر جانبي لمسجد تيشيت

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

(أ) مداخل مسجد تيشيت:

تتميز مداخل مسجد مدينة تيشيت عن مثيلاتها من المدن الوسيطة الحية بأنها جميلة وبارزة ولا تخلو طريقة بنائها من عملية بحث في التصور، وعناية في التنفيذ، فيما، ويبدو أن التنافس بين المجموعتين الساكنتين بمدينة تيشيت (الشرفاء وماسنه) انعكس عملها على تلك

¹⁰⁵⁰ أحمد مولود ولد أبيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 801.

المداخل خلال تصميمها وشكلها الفريد، فالمدخل الغربي يؤدي لحي الشرفاء والمدخل الجنوبي يؤدي لحي ماسنه السكني.

ولا نريد الغوص كثيراً في هذه العمارة الدينية بقدر ما نلفت الانتباه إلى أن تأسيس المسجد كان كما تؤكد الرواية الشفهية المحلية على يد الشريف عبد المؤمن، الذي قدم من المغرب بعد سقوط الدولة المرابطية وأقول نجمها وصعود الدولة الموحدية مكانها، وكان لهؤلاء الوافدين في ذلك المكان ملاذاً بالصحراء إذ يرجع لهم الفضل في تأسيس المدن بهذا الربوع الصحراوي، وانتاج عمارة دينية تتميز بالدقة¹⁰⁵¹.



صورة رقم 53 : مدخل من مداخل مسجد تيشيت

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

أما فيما يخص الحديث عن هذه المعلمة التاريخية فلا يمكن أن توصف بما هي عليه إبان هذه الفترة الحديثة، ويعود ذلك لما خضعت له من التحويلات والترميمات التي من شأنها أن تخفي الملامح القديمة التي يمكن أن تستدل بها على شكل العمارة في الفترة الوسيطة.

(ب) الصحن:

¹⁰⁵¹ - أحمد مولود ولد أبيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 801

يرى الباحث أحمد مولود ولد أيده أن الساحة المحيطة ببيت الصلاة تعتبر صحنًا للمسجد رغم ضيقها وعدم اتساعها، ويفيد أن المسجد خضع خلال القرنين الماضيين لجملة من التحويلات الشيء الذي أفقده بعض عناصره الأصلية، إذ يرجح أن صحن مسجد تيشيت لم يكن مبنيا بل كان صحنًا مفتوحًا على شاكلة مسجد شنقيط¹⁰⁵² و كان ولد أيده قد زار مدينة تيشيت سنة: 2003م.

وقد استدل على استنتاجاته بما ذكره الفقيه محمد المختار بن الأعمش ضمن كتاب له في علم الفلك "روض الأفكار في علم الليل والنهار" أن بعضهم يعني سكان أهل تيشيت قد وضع أداة قياس امتداد لقياس الظل لضبط مواقيت الصلاة، غير أن بعض فقهاء الحاضرة ثاروا على هذا الاختراع واعتبروه بدعة، مما يوحي للباحث عدم وجود بيت الصلاة آنذاك أو على الأقل عدم وجوده في مكانه الحالي، ويضيف أن المسجد خضع لترميمات من شأنها أن تخفي الكثير من ملامحه القديمة¹⁰⁵³.

وتتألف النواة حسب اعتقاده من رواق واحد يصل امتداده جدار القبلة (12.50م) بينما لا يتجاوز عرضه (1.83م) وله ثلاثة مداخل أوسطها مرتفع على شكل بوابة مؤطرة بارزة في مستوى البلاطة الوسطى المتعامدة مع المحراب وهو أكثر المداخل علواً، حيث يبلغ ارتفاعه (4.80م) ويرتكز على ثلاث دعائم بارزة، مع احتفاظه بهويته الصحراوية من خلال مواد البناء وخصائص الزخرفة التشيتية، ويبلغ عرض قاعدة المدخل الرئيسي (2.40م) في حين يبلغ عرض قمته (2.15) وهو متوازي مع المحراب¹⁰⁵⁴.

وقد تحدثت الباحثة دومنيك جاك مونييه عن هذا المعلم أيضاً وبينت أن الجزء الذي تروي الروايات الشفهية المحلية أنه قد دفن فيه الشريف مولاي عبد المؤمن مؤسس مدينة تيشيت

¹⁰⁵² -أحمد مولود ولد أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 801

¹⁰⁵³ - نفسه.

¹⁰⁵⁴ - شويرمان جان بول، تقرير حول أعمال ترميم جامعة تيشيت، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، (بدون تاريخ)، ص: 11.

إلى جانب الحاج عثمان مؤسس مدينة وادان وذكر من طرف قبيلة ماسنه أن الاثنين لهما ثالث وهو جد ما سنه الأمين الحاج، أن هذا الجزء من المسجد لم يحدث عليه أي تغيير يذكر بل ظل يحتفظ بحجارته القديمة وبنائه.¹⁰⁵⁵

(ج) بيت الصلاة:

يشكل بيت الصلاة مربعا شبه منتظم تبلغ مقاييسه (17.37م*17.35م) ويصل ارتفاعه (4.30م) بالنسبة لجدار القبلة، يوجد السلم المؤدي إلى غرفة صغيرة علوية (قر) بمؤخرة الزاوية الجنوبية منصوبة على السطح يبلغ طولها (5.55م) وعرضها (2.59م) لها باب يصل طوله (73سم) ووظيفتها جلب الهواء لبيت الصلاة، ولعل هذا البيت عوض المنافذ التي توجد منها واحدة بالجدار الجنوبي على ارتفاع (70سم) من أرضية المسجد الحالية، إضافة إلى كوة أخرى بمؤخرة الجدار الشمالي على ارتفاع أربعة أمتار وربما تكون قد صاحبت إحدى ترميمات المسجد المستحدثة.¹⁰⁵⁶

ودرست الباحثة هيكو بيفيه (Hucot-Buffet) المسجد وأكدت عدم وجود نوافذ وذكرت الأبواب الثلاثة، وأنه يكاد يكون مظلماً عند القيلولة، ويضيف الباحث أحمد مولود أيد أنه تمت إضافة ثمانية نوافذ صغيرة توزعت على يمين ويسار المنبر والمحراب.¹⁰⁵⁷

ويتكون بيت الصلاة من ست أروقة وست بلاطات ويعلو جهة جدار القبلة من الداخل "ظنف" بارز بروزا يسيرا تستخدم جذوع النخيل في فراشه ويشكل عوارض لسقف بيت الصلاة وتعد تيشيت اليوم أحد المعالم القليلة التي ما زالت وفيه لتوظيف جذوع النخيل في السقوف.

¹⁰⁵⁵ - شويرمان جان بول، تقرير حول أعمال ترميم جامعة تيشيت، ص: 15.

¹⁰⁵⁶ - نفسه.

¹⁰⁵⁷ - Paule, Marie et Buffet. Hugot. Tichitt, Mauritanie du Sud-Est, Université de Lyon, Paris, 1977.p: 42.

وظل هذا المسجد يتميز من بين مساجد المدن الصحراوية بوجود زخارف معمارية وإن كانت تقتصر على الواجهات الخارجية لبית الصلاة، إذا لم تستعمل داخل بيت الصلاة الذي ظل خاليا منها.

وكانت هذه الزخارف تقوم على جودة الحجارة واستخدام ألوانها لهذا الغرض وقد برزت من خلال ذلك زركشات سميت محليا ب (الكتاب) (التغريل)¹⁰⁵⁸.

وقد لاحظت الباحثة دومنيك أن الاهتمام بالزخارف ظل مقتصرًا على الجوانب الخارجية أو ما يعرف بالواجهات.

د) المحراب والمنبر:

المحراب: عبارة عن حنية مجوفة، يصل قطرها (2.04م) وهو في وضع شبيه بالمنبر، ولا يتوسطان جدار القبلة وإن كانا قريبين من تلك الوضعية، وهو عبارة عن عقد منحرج مضموم بواسطة سبعة خطوط منكسرة تتازليا (أسراف) تستند على بروزين (تغامش) ويبلغ ارتفاع المحراب (3.36م) وإلى يمينه كوة مربعة الشكل، أما المنبر فهو عبارة عن عقد ذو ثلاثة خطوط منكسرة تتازليا (أسراف) من أعلى إلى أسفل وتستند على بروزين (تغامش) في صواف الإطار مع هبوط طنف الجدار يبلغ ارتفاعه (3.39م) أما الجهاز الداخلي للمنبر فهو بسيط إذ أنه مهياً بواسطة أربع درجات خشبية، داخل التجويف المبني للمنبر الذي يبلغ قطره (2.25م)¹⁰⁵⁹.

ولقد تشابهت هذه العقود المتعرجة بنموذج من العقود الصنهاجية، قد درست من طرف الأثرى الجزائري بورية.

هـ) المئذنة:

¹⁰⁵⁸ - أحمد مولود أيد، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 407.

¹⁰⁵⁹ - نفسه، ص: 409.

تقع المئذنة جنوب شرق الصحن وتمثل برجاً مربع الزوايا يرتكز على قاعدة مربعة يبلغ ارتفاعها (1.75م) ويتراوح طول أضلاعها ما بين جهاتها الجنوبية (5.11م)، والشمالية (5.13م) والشرقية (5.17م) والغربية (5.11م) ويتم الولوج إليها بواسطة باب مرتفع على حجم ارتفاع القاعدة ويبلغ ارتفاع هذه المئذنة 16م وتلقي بظلالها على كامل المدينة ويرى بعض الباحثين المحليين أن برجاً بهذا الطول لا يمكن أن يصمد طويلاً نظراً لبساطة التقنية المأخوذة له، أي أنه لا بد وأن يخضع لبعض الترميمات المتتالية التي تضمن لهذه المئذنة الصمود والبقاء، وهذا ما حصل خلال القرون المتأخرة¹⁰⁶⁰.

وقد أخذت المئذنة صورة متميزة، وترى الباحثة جاك مونييه، أن صورتها لم تبق على حالتها الأصلية فقد كانت الأركان الأربعة للمئذنة في مستوى التاج ذات كتائف معلقة تعلوها دورة عمامة مئذنة أغريجيت الذي يفترض بعض الباحثين أنها اقتبست عمامتها من مئذنة تيشيت الأصلية¹⁰⁶¹.

¹⁰⁶⁰ أحمد مولود ولد أيد، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 412.

¹⁰⁶¹ – Meunié, Jacques...op.cit.p :195.



صورة رقم 54 : مئذنة مسجد تيشيت

الصورة من موقع الأخبار إنفو، تاريخ الزيارة: 2019/03/02

2- الكتاتيب (دور المحاضر)

ظلت مدينة تيشيت تواصل عطاءها العلمي المتميز من قبل علمائها إثر فتراتهما الزمنية الممتدة منذ تأسيسها إلى اليوم، وقد قام أحد أبناء المؤسس عبد المؤمن بن صالح ببناء بيوت بالجانب الشرقي الجنوبي للمسجد العتيق وتسمى هذه البيوت باسم "كانفات" كما تذكر الروايات الشفهية للمدينة أنها كانت لتدريس الطلاب الوافدين إلى المدينة ردحا من الزمن وقد دفن الشريف عبد المؤمن في أحدهما لا حقا، وعرفت المدينة بتدريس مختلف العلوم الشرعية والفنون وخرجت العديد من العلماء وما زالت تواصل عطاءها العلمي حتى اليوم على يد بعض أبنائها حيث توجد محظرة الشريف حماه الله ولد لمام¹⁰⁶²، محظرة الشريف عبد

¹⁰⁶² - محفوظ ولد محمد رئيس المصلحة الإدارية بمؤسسة المدن القديمة، تاريخ الزيارة: 2021/02/22.

المومن والشريف بوي بن حماء الله بن بو عسرية وزين ولد باب وشيخن بوي حمدي ومحمد المختار ولد أمباله ومحظرة أهل أمبوجه وأهل الحاج أعمر (أولاد كابي)¹⁰⁶³.



صورة رقم 55 : دار التلاميذ بمدينة تيشيت

الصورة من موقع الأخبار إنفو، تاريخ الزيارة: 2019/03/02

ثانيا: العمارة السكنية

1- المنازل

من المعلوم أن تصاميم مدينة تيشيت تأثرت بعمارة مدينة كومي صالح، ولذلك أخذت الطابع المعماري لهذه المدينة إذ ورثت عنها على مستوى المساكن القديمة مدخلين وصحنين وطابقين وهذا ما تتقاسمه مع نظيراتها الأخرى، وقد ساعدت عوامل أخرى على هذه التصاميم من أهمها توفر عينات جيدة من الحجارة¹⁰⁶⁴.

¹⁰⁶³ - بوي أحمد ولد حماء الله بن بو عسرية، باحث في مجال التراث مقابلة ، انواكشوط، 2021/02/23.

¹⁰⁶⁴ - حوليات تيشيت، تحقيق محمدو ولد لمرايط، مذكرة ختم دروس جامعية، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، انواكشوط 1992، ص:120.



صورة رقم 56 : نموذج من منازل مدينة تيشيت

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

(أ) عناصر السكن:

مثلت مدينة تيشيت استثناء وحيدا من بين المدن الصحراوية التي لا تزال تحافظ على تصميم المسكن الأصلي بحيث لم تدخل عليه تغييرات كبيرة، يتميز بمداخله المتعددة منها: مدخل رئيسي يسمى (الغندري) ومدخل ثانوي (كانفلي) وهو مدخل خلفي للمسكن يفتح على طريق عام، وقد يقع في الجهة الخلفية أو بأحد أطرافها، وكلا المدخلين يفضيان إلى صحن الدار، والمدخل الرئيسي خاص بسكان المنزل، وتستعمله النساء في الدخول والخروج أما المدخل الثاني فهو للزوار ولإدارة أعمال تجارة القوافل ويؤدي إلى حجرة صغيرة (بيت كانفلي) ثم إلى ممر داخل (الدرب) ومن ثم يتم الولوج داخل المسكن من خلال حجرة (بيت مارندي) المؤدية إلى الصحن الرئيسي¹⁰⁶⁵.

¹⁰⁶⁵ - أحمد مولود أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص : 476.



صورة رقم 57 : مدخل بيت رئيسي (الغندري)

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

ويأخذ باب المدخل مكانا منعرجا مباشرة يمينا او يسارا ويعود ذلك ليحجب سكان الدار عن المارة وهي سمة بارزة لهذه البيوت¹⁰⁶⁶.

ويتميز السكن الأصلي بمدينة تيشيت بوجود عناصر معمارية متعددة إذ تحتوي مساكنها على مدخلين وصحنين ولها طابقين، ويبدو أنها استقت هذه العناصر من العمارة السكنية من موقع كومبي صالح عن طريق تجارة القوافل، كما ساعدت عوامل أخرى من بينها توفر الحجارة المميزة بنفس المدينة بالإضافة إلى التقنيات وحسن الصنعة¹⁰⁶⁷، التي انعكست على تصميم المسكن، وجعلها تتمتع بطرار معماري فريد وإبراز القاسم المشترك بين مدينة تيشيت من جهة ومدينة كومبي صالح المندثرة.

لقد اندثر جل المنازل بالمدينة مع استثناءات قليلة تتمثل في بعض الدور التي شهدت ترميما من قبل ذويها وأخرى شهدت تطورا أو إضافات على مستوى العمارة ومن هذه المنازل التي

¹⁰⁶⁶ - أحمد مولود أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص : 476.

¹⁰⁶⁷ - نفسه، ص : 497.

ما زالت ترمز لأصالتها بالمدينة نذكر منها على سبيل المثال: دار آل فاضل المعروفة بدار أم فرزه ودار بنات بوعسرية ودار الشريف قورة¹⁰⁶⁸، ودار الظليل وهي دار الشريف المختار التي اعتبرت ها هيغو بيفة (Hucot-Buffet)، من أحسن المساكن القديمة صيانة¹⁰⁶⁹.

■ الصحن:

يعتبر الصحن إحدى العناصر الثابتة في العمارة السكنية الصحراوية وذلك لما له من أهمية بالغة تتجسد في ملائمتها مع المناخ الصحراوي المتميز بالحرارة فضلا عن أنه يشكل النواة التي تتوزع بها الحجرات والمرافق¹⁰⁷⁰، بالإضافة إلى وظائف يستخدم فيها من طرف سكان البيت فهو الملجأ لهؤلاء عند اشتداد الحر في الأوقات الخارجة عن القيلولة ووقت النوم حيث يأخذ الكثير من وقتهم، فالنساء يقضون معظم وقتهم لإنجاز بعض الأعمال المتعلقة بالبيت كما يشكل فضاء، خاصة للعب الأطفال ويحمي أصحاب البيوت من الأطلال الموجودة على الشوارع.



صورة رقم 58 : صحن بيت من بيوتات تيشيت

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

¹⁰⁶⁸ – أحمد مولود أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص : 497

¹⁰⁶⁹ – Paule, Marie et Buffet. Hugot. op cit.p :43.

¹⁰⁷⁰ – محفوظ ولد محمد رئيس المصلحة الإدارية بمؤسسة المدن القديمة، تاريخ الزيارة: 2021/02/22.

■ السكفة:

تتشترك المدن الأربعة العتيقة ولاتيه، تيشيت، وادان و شنقيط في مسميات المسكن أو الدار حيث تتفق في الكثير من المسميات خاصة الغرف الأساسية بالبيت وتمثل السكفة إحدى المسميات المتطابقة لدى جميع المدن وتعتبر السكفة من الحجرات الأساسية وهي عبارة عن قاعة استقبال إلا أن هذه الحجرة تتميز لدى السكان بتعدد الوظائف فبالإضافة إلى وظيفة الاستقبال تتضاف وظيفة اجتماع العائلة أحيانا وكذلك للنوم أحيانا أخرى، وتحتوي على أفرشة منصوبة على مصاطب، موضوعة على يمين وشمال أعمدة السكفة والمزخرفة غالبا بكوى مثلثة يوضع فيها قنديل زيتي للإضاءة ليلا ويمكن رصد أحجام متعددة من السكفة إذ أن متوسط طولها يبلغ (5-6م) وقد تكون أصغر حجما من ذلك حيث تبلغ (3-4م) في حين لا يتجاوز العرض (2،5م)¹⁰⁷¹.

ويعتبر أوديت دي بيغادو (Pugaudeau Odette) أن السكفة تشبه بعض القاعات الآشورية باعتبار أن كليهما ذات شكل مستطيل بينما يرى جورج مارسي (George.Marçais) أن بعض الأنماط السكنية الإسلامية تشكل غرفة كبيرة ذات زخارف بها فراش استراحة مبني يشغل طرفي الغرفة لعل هذا الوصف ينطبق على السكفة¹⁰⁷².

وتتكون حجرات السكن بتيشيت من عدد من الغرف يحيط بصحن الطابق الأرضي وتتفاوت في الأحجام مع التقارب الحاصل في الأشكال فتكون دائما مربعة وربما تكون مستطيلة أحيانا مثل :

. حجرة (كتو) وهو عبارة عن غرفة تطل على الصحن وعلى باقي الغرف الأساسية (كنفي) وهي عبارة عن غرفة تستعمل في زمن الشتاء ويطل عليها منفذ يؤدي إلى سلم مخزن (كنفي) و في الطابق العلوي حجرة (الدرب) وهي عبارة عن غرفة مستطيلة تستغل من طرف

¹⁰⁷¹ - حوليات تيشيت، مصدر سبق ذكره، ص: 110.

¹⁰⁷² - نفسه.

سكان البيت عند ارتفاع درجات الحرارة، وتساعد في تحريك الرياح داخل بقية الغرف الأخرى وعلى سطح البيت تبني الغرف العلوية في الطابق العلوي على الغرف السفلى وتأخذ نفس الأسماء التي تطلق على نظيراتها السفلية،¹⁰⁷³ كما تضاف إلى ذلك غرفة صغيرة تطل على صحن المسكن وغالبا ما تكون في الصحن الثاني بالنسبة لمسكن تيشيت وتطل المراحيض على الشوارع لتعريفها وتكون أشكال متراكبة يعلو أحدهما الآخر ويشتركان في وعاء النفايات السفلي.¹⁰⁷⁴

■ حظيرة الحيوان:

منح الإنسان في المجال الصحراوي اهتمامه للحيوانات نظرا لما تمليه البيئة عليه من ملاءمتها معه، وعلى هذا الأساس لم يتخل عنه في حله وترحاله فقد عرفت المدن الصحراوية هامش اهتمامات سكانه بالحيوانات الأليفة والاعتماد على بعضها حتى أصبحت لها مكان في تصميم البيت فقلما يوجد مسكن خال من صحن للدواب وتطلق عليه الحظيرة المنزلية أما في مدينة تيشيت فسميت (بيت الغنم)¹⁰⁷⁵.

■ أشكال الزخرفة:

لقد ورثت تيشيت عن كومبي صالح زخارف تتمثل في الكوى ذات الأشكال الهندسية، وقد تعرضنا لذلك في البحث سابقاً أثناء الحديث عن مدينة كومبي صالح، وتعتمد زخارف تيشيت الحجرية على رص الحجارة والتزييق، وتتميز بتصاميم عمودية تتجسد في عدة أشكال أبرزها ما يعرف محلياً بالكفية، وتحظى واجهات المسجد والمنازل بالتلوين بالحجارة¹⁰⁷⁶.

¹⁰⁷³ - أحمد مولود ولد أيد. مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 485.

¹⁰⁷⁴ - حوليات تيشيت، مصدر سبق ذكره، ص: 125.

¹⁰⁷⁵ - نفسه.

¹⁰⁷⁶ - أحمد مولود / أيدة، مدن القوافل، مرجع سبق ذكره، ص: 528.

وتطلق مسميات محلية على الزخارف بتيشيت وتمثل أشكال زخرفية في بعض المواضع للمنزل، فمثلاً:

. (آزلاق) وتطلق على لوحة بالزخارف الحجرية موظفة بواجهة بعض المنازل

. (أسراف) يشكل خطوط منكسرة محددة لأطراف الكفية

. (تغريل) وتتشكل هذه الزخرفة من مثلث كبير يحتوي على تشابك عدة مثلثات صغيرة.

ويبدو أن هذه المصطلحات تأثرت باللهجات التي كانت في تلك المدن مثل اللغة الأزييرية، والاحتكاك الثقافي بالمجتمعات المجاورة الزنجية، علاوة على التطور الذي شهدته هذه المدن مما ينتج عنه تراكم تاريخي عبر العصور الماضية.

2- الطرق والممرات

ذكرنا سابقاً أن هذه المدن تأثرت في تخطيطها العمراني بالمدن السابقة التي سبقتها وهي المعروفة اليوم بالمدن المندثرة (أوداغست، آزوكي، كومبي صالح)، وتخضع الأحياء القديمة في المدن الوسيطة الحية لنفس النمط العمراني، وتخضع لنفس المخططات ويعود ذلك إلى القواسم المشتركة بين المدن الصحراوية في المجال الجغرافي والاقتصادي والبشري والعمراني، وقد كانت مدينة تيشيت مثلاً لذلك في جميع المستويات، وتوضح الطرق والممرات ذلك، وقد أشار محمد صالح عبد الوهاب¹⁰⁷⁷ المتوفى (1271هـ / 1854م) إلى أن الممر الوحيد والرئيسي يسمى "دبرارة"، ويمتد هذا الطريق أو الممر الرئيسي غرب المسجد على الحافة الشرقية للنسيج الحضري، ويبدو أن شهرة هذا الممر طغت على كل الممرات، مع اشتراك ممر آخر يمتد من حي الشرفاء في اتجاه المسجد¹⁰⁷⁸، وتستعصي معرفة الطرق

¹⁰⁷⁷ - حوليات تيشيت، مصدر سبق ذكره، ص : 25.

¹⁰⁷⁸ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا، مرجع سبق ذكره، ص : 185.

في حي مجموعة ماسنة نتيجة لاندثار الحي، كما يوجد مكان يسمى "الرحبة" تلتقي فيها جميع الممرات، وتتميز هذه الممرات بالضيق إذ لا تتجاوز (1،5م).



صورة رقم 59 : مدخل يوصل إلى مسكن القاضي (الظليلة)

الصورة من موقع الأخبار إنفو، تاريخ الزيارة: 2019/03/02

كما توجد ممرات فرعية تمتد في كل الاتجاهات بالمدينة، إلا أن الخراب حال دون تحديد هذه الممرات في الأحياء القديمة، ولم يعد من السهل معرفة تلك الممرات¹⁰⁷⁹.

ويبدو أن وجود الممرات غير النافذة في المدن كان من مميزات التخطيط العمراني في تلك الفترة الوسيطة، ويوجد هذا الشكل من الممرات بمدينة تيشيت، وهو نموذج للممر المغلق ويقع في حي الشرفاء¹⁰⁸⁰.

3- السوق والسور

¹⁰⁷⁹ - أحمد مولود / أيدة، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 186.

¹⁰⁸⁰ - نفسه، ص: 187.

لقد عرفت مدينة تيشيت بنشاطها التجاري الهام في محيطها الإقليمي وذلك لوجودها على الطرق التجارية ورغم اعتماد أهلها على التجارة فإنه لا يوجد بداخلها سوق للتبادل التجاري ما عدى الساحة التي تعرف بساحة السبخة.

وتروى بعض الروايات الشفهية¹⁰⁸¹ أن مدينة تيشيت كان عليها سور له بابان، أحدهما في الناحية الجنوبية، والآخر في الناحية الشرقية؛ وقد أشار الباحث محمد ولد مولود إلى ذلك حيث ذكر أن المدينة كانت محصنة ولها بابان اسم أحدهما البرني (معناه بلسان أوزير باب الزوار).

وذكرت إحدى الباحثات أن هذا السور يمكن مشاهدة آثاره جنوب المدينة، وأن أحد البابين يسمى السبوري كانت تدخل منه القوافل وأن بابه كان مرتفعاً.

كما يوجد باب آخر بسور مدينة تيشيت يسمى باب الجمالين وهو أكثر الأبواب ارتفاعاً، ويمكن مشاهدة بقايا السور من جنوب المدينة، ويبدو من خلال الطريقة التي شيدت بها مدينة تيشيت والتي تتجلى من خلال ارتفاع المنازل وتلاصق جوانبها وكأنها كانت مسورة¹⁰⁸².

4- مواد البناء:

تشارك المدن العتيقة في مواد البناء الأساسية وهي تختلف عن مواد البناء التي شيدت بها المدن السودانية التي عاصرتها وقد اكتسبت هذه المدن موروثها من المدن الوسيطة المندثرة (آزوكي)، كومي صالح، وأوداغست، التي انتقلت إليها المؤثرات وتقنيات البناء عن طريق التجار، وقد اختار السكان الأوائل المواقع التي تتوفر على مواد البناء خاصة الحجارة والطين، وكانت الحجارة تستخرج من مقالعها ويتم تقطيعها بطرق بدائية دون عناية

¹⁰⁸¹ - محمدو ولد أشريف بوي، تاريخ مدينة تيشيت، ص: 33.

¹⁰⁸² - أحمد مولود أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 188.

كبيرة¹⁰⁸³، وقد تميزت الحجارة بتيشيت عن باقي المدن الأخرى بالجودة حتى قيل في المثل الشعبي "الحجر حجرت تيشيت والطينة طينت ولاته" وتخضع تسميات الحجارة بتيشيت إلى ألوانها نظرا لوفرة عيناتها وإن كانت دلالات مسمياتها على بعض الألوان في اللغة المحلية غير دقيقة و تنقسم الحجارة إلى عدة أنواع من أهمها¹⁰⁸⁴:

(أ) الحجارة الحمراء:

الحجارة الحمراء أقل أنواع الحجارة صلابة توجد بمدينة تيشيت ويقتصر استخدامها في بناء الحواجز الداخلية للجدران ومن خصائصها أنها لا تقاوم التأثيرات المناخية إلا إذا وظفت في الداخل أو في واجهة المنازل لأنها تتأثر بالرطوبة والشمس.

كما يبدو أن الخراب الذي حل بحي ماسنه يرجع إلى عدة عوامل من بينها تشييده بالحجارة الحمراء، بينما جل مساكن الشرفاء كان مشيدا بالحجارة الخضراء، رغم أن أسباب الخراب لا تقتصر على نوعية الحجارة فقط، بل هناك عوامل أخرى من أهمها الهجرة التي شهدتها المدينة نظرا لتحول الطرق التجارية¹⁰⁸⁵.

(ب) الحجارة البيضاء:

يوجد مقلع على بعد كلومترات شمال مدينة تيشيت تستخرج منه هذه الحجارة والتي يميل لونها إلى عيّنات الطين الموظف في الملاط ويعتمد عليها سكان المدينة في بناء الجدران الخارجية، وقد اعتبرت من أجود أنواع الحجارة وهي التي شيدت بها غالب المباني القديمة¹⁰⁸⁶.

¹⁰⁸³ - أحمد مولود ولد أيد، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 332.

¹⁰⁸⁴ - نفسه.

¹⁰⁸⁵ - نفسه، ص: 334.

¹⁰⁸⁶ - أحمد مولود ولد أيد، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 338.

وقد حرصت المجموعتين بكل عناية وإتقان على بناء المدخل الذي يخص بها، ويتحدث الباحث أحمد مولود عن مدخل ثالث بقوله "... بيد أن هناك مدخل ثالث بسيط الشكل بالجهة الشمالية الغربية للمسجد لا يغري لأي أحد...".

ويعد المدخل الذي يقع في الواجهة الغربية من أهم المداخل ويصل ارتفاعه (3.60م) ويبلغ امتداده عرضا (2.25م) هذا المدخل متوازن من خلال زخارف (تغريل) وهي عبارة عن كوى تحتوي على مثلثات متراكمة تدريجيا، من أعلى إلى أسفل بمستوى متقاعس عن جهة الواجهة...¹⁰⁸⁷.

ويقع المدخل الثاني في الجهة الجنوبية وله نفس الارتفاع الذي يتمتع به المدخل الغربي من حيث الطول أما عرضه (3.02م) ويتميز بزخارف أثرية من زجاج المدخل الغربي وهي عبارة عن مثلثات كبيرة تدريجيا من الأعلى نحو الأسفل وتحتوي على مثلثات صغيرة إضافة إلى (كتاب) ينتصب على كتفيه ولا يخفى حسن الصنعة فيه وهو المدخل المطل على قبيلة ماسنة وقد عرف أبناؤها بالمهارة في البناء.

تتضاف إلى هذه الحجارة صفائح التنفيذ التي هي عبارة عن أصناف مسطحة تتوفر بكثرة بالقرب من موقع تيشيت وهي على شكل صفائح ذات لون رمادي، وتعد من أصلب الحجارة الموظفة في بناء مدينة تيشيت، ونظرا لطولها وعرض صفائحها فهي تغطي امتداد سمك الجدران المبنية، وتساعد في تقوية وتماسك الجدران، كما تستخدم أيضا كرابط بين الحجارة المرصوفة أفقيا، كما توظف في الزخارف وتباين الألوان وتستخدم في الأسقف والأعتاب¹⁰⁸⁸.

(ج) الطين:

¹⁰⁸⁷ - أحمد مولود ولد أبيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص : 398.

¹⁰⁸⁸ - نفسه.

تتوفر مدينة تيشيت على عينات من الطين تستعمل في البناء وتستخرج هذه العينات من بين مقالع الحجارة الواقعة شمال شرقي المدينة ومن بين عيناته الطين الأحمر، الطين الأدخن وطين الخنفوس ولونه رمادي، ويتبين من خلال تقنية البناء بتيشيت الحرص على الحد من توظيف الملاط بين الصخور ويعود ذلك إلى تخفيف الربط، بحيث لا يلاحظ أي إثر لمادة الطين وهذا ما يعكس العمارة في تيشيت كأن الحجارة عارية من الطين، ويستعمل الطين الأبيض في البناء، كما يتخذ كملط للطلاء لبناء الآبار¹⁰⁸⁹.

د) الخشب

يدخل الخشب في تقنيات البناء عن طريق الأسقف والأبواب، وعمل الصانع على توظيف كل ما هو متاح من أشجار المنطقة في صناعة الأبواب والنوافذ ومن أشهر الأشجار المستخدمة في هذا المجال شجرة الزقوم المعروفة محليا باسم (تيشط) وشجرة التسلم (التمات)، والقرط (آمور) وتوظف جميع هذه الأشجار في الأسقف وتستخدم في المنازل المتواضعة بينما توظف جذوع النخيل في المساجد والمنازل الفاخرة، وتجدر الإشارة أن مدينة تيشيت من المدن الواحاتية¹⁰⁹⁰.

يشرف على عملية البناء عمال مهرة، من فئات مختلفة، إذ لم تكن المهنة حكرا على فئة معينة، لكن كان هناك أفراد من قبيلة ماسنة يحترفون هذه المهنة حتى وقت متأخر، وقد تميزت تيشيت عن نظيراتها من المدن الصحراوية بجودة البناء والإتقان ولعل ما ساعد على ذلك جودة الحجارة وطريقة توظيفها المحكم في البناء¹⁰⁹¹.

ويتم بناء الأساسات بطريقة فنية خاصة، وهي عبارة عن حاجزين من الحجارة يتم الربط بينهما عن طريق حجارة صغيرة يوضع عليها الملاط وكأنه لم يوضع بالنسبة لمدينة تيشيت

¹⁰⁸⁹ - أحمد مولود ولد أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 338.

¹⁰⁹⁰ - نفسه، ص: 340.

¹⁰⁹¹ - نفسه.

وذلك للتخفيف منه حتى تبقى واجهة الحجارة مصفوفة بشكل جميل وقد تحدث الباحث أحمد مولود أيده عن ذلك بقوله: " وسمك الأسس في البناء بعمارة تيشيت بالنمط الهليني لانتظامه تبعا لطريقة رصف قديمة للحجارة أفقيا متتابعة ومدعمة بواسطة فراش رقيق من صفائح النضيد الرمادية والداكنة وكأنها ترسم من خلال تتابعها بانزواء تصاعدي أشكالا من زخارف تباين ألوان الحجارة المعهودة بتيشيت على واجهة الجدران¹⁰⁹² .

كما تتميز مدينة تيشيت أيضا عن باقي المدن الأخرى بجدرانها العريضة وإن كان هذا التصميم يساعد على امتصاص درجة الحرارة بالصحراء ويحافظ على نوع من الاعتدال داخل المنزل¹⁰⁹³ .

5- المقابر:

كانت الخلافات قائمة بين سكان مدينة تيشيت منذ القدم، لكن هذه الخلافات لم تؤثر على وحدة المقابر بالمدينة بل ظلت المقبرة واحدة مع تخصيص جزء منها للأطفال، وقد عرفت هذه المقبرة باسم مقبرة أهل اشيريف وهي مدفن عام يدفن به الشرفاء وماسنه على حد سواء وتقع هذه المقبرة شرقي المسجد بمحيط الربوة التي تنتصب عليها المدينة ويصل امتدادها إلى ما بين: (200-300م) تقريبا ولا تحمل معظم قبورها شواهد، يقول أحمد مولود ولد أيد "...غير أن حجم هذه المقبرة ينبئ عن ماضي إعمار هذه الحاضرة".

وقد تحدث عن أفضليتها الطالب ب بكر المحجوبي وأفاض في الحديث عن ذلك إلا أنه لم يعرف بالأعلام الذين دفنوا فيها ولا تتسنى للزائر معرفة أضرحتهم من بين بقية القبور وذلك لغياب الشواهد المبينة لذلك.

¹⁰⁹² - محمود ولد أشيريف بوي، تاريخ مدينة تيشيت، مرجع سبق ذكره، ص: 12.

¹⁰⁹³ - نفسه.

المبحث الثاني: أدوار المدينة

المطلب الأول: الدور السياسي

لقد ضعفت السلطة المركزية للدولة المرابطية في الصحراء الجنوبية في فترة من الفترات بسبب انشغال الأمراء بالشطر الشمالي للدولة، مما فرض سلطا بديلة في المنطقة، اعتمدت في الأساس على المجموعات السكانية بالمدينة لتدبير شؤونها، حيث كانت تيشيت بجماعة (الحل والعقد) تدبر شؤون الناس ولها الحق الكامل في تقرير الأمور المتعلقة بالتنظيم الداخلي للمدينة وربط العلاقات الخارجية للمحافظة على مسيرة القوافل وحمايتها، وقد عرفت جماعة الحل والعقد بمدينة تيشيت وشارك معها بعض القبائل التي كانت تسكن المنطقة خارج حيز المدينة كأولاد بله، وماسنه وأولاد بو فايده، وكان لجماعة أهل تيشيت اتصالات مع الشمال واتضح ذلك في المراسلة مع سلطان المغرب المولى إسماعيل (1139 – 1056 هـ) التي يتقدمون فيها بشكوى من قواده بالمنطقة ويذكرونه بظهير قد أرسله إليهم بعض أهل تيشيت من المكوس¹⁰⁹⁴، ويطلبون منه ظهيرا فكان النص في الرسالة كالتالي: "... تبليغ السلام وغاية الإكرام من جماعة أهل تيشيت إلى أمير المؤمنين مولانا إسماعيل فقد جاءتكم الشكوى من خدامك أهل تيشيت شاكين مما فعل بهم قوادك، وقد أرسلت إليهم كتابا أنهم لا يؤخذ منهم قليل ولا كثير، ومع ذلك ترك القواد العمل بما في الكتاب وعملوا بهوى أنفسهم ... أما الآن فقد جئنا واقفين ببابك نطلب منك أن تدبر علينا، وتتهي قوادك عنا

¹⁰⁹⁴ - حوليات تيشيت، مصدر سبق ذكره، ص : 25.

وترسل إلينا كتابا وأمارة تتفعنا وترسل للقواد بمثل ذلك¹⁰⁹⁵، ونص الرسالة يوحى بالاتصالات التي كانت قائمة بين أهل تيشيت والمولى مولاي إسماعيل في شأن المغارم التي تدفعها المدينة للسلطة المغربية آنذاك وقد تداولت بينهم بعض الرسائل الأخرى في هذا الشأن يضيق المقام عن ذكرها، كما تعاطوا رسائل مع السلطات الجنوبية التي لم تكن بها سلطة مركزية حاكمة كما هو الحال في الشمال إلا أنها عبارة عن بعض الإمارات المتعددة في المنطقة الجنوبية إمارة ماسنه بالشمال الشرقي من مالي وعاصمتها "حمد الله" وكتبوا أهل تيشيت نوابه وقواده ومما ورد في بعض رسائلهم ما نصه: "... إنه من كافة أهل تيشيت ومن يحوم حولها إلى القائد نائب الخليفة، أما بعد فقد بلغنا مقدمكم الميمون بأرض باغنه وقد منيت بلمعان سيوفكم القاطعة والطاعة من تجبر الجبابة وتفرعن الفراعنة فسررنا بذلك ... وقد صادف ذلك ورفاقنا على الرحيل قد عزمتم فاتجهت إليكم في حفظ الله تعالى داخله تحت لواء حكمكم واثقة بحسن عهدكم..."¹⁰⁹⁶..

وفي آخر الرسالة طلبوا منه تأمين رفاق المسلمين عموما ورفاق أهل تيشيت خصوصا. وبفيد نص الرسالة الموجه إلى إمارة ماسنه طلب تأمين قوافل تيشيت وباق القوافل الأخرى.

¹⁰⁹⁵ - حماد الله ولد ميايه، دور تراث مدينة تيشيت في تميمتها، مجلة شنقيط، مقالة سبق ذكرها، ص: 26

¹⁰⁹⁶ - حوليات تيشيت، مصدر سبق ذكره، ص: 68.

المطلب الثاني: الدور الاجتماعي

أولاً: سكان المدينة

لقد كشف علماء الآثار عن الحياة البشرية التي شهدتها الهضاب الممتدة بمنطقة تيشيت والمتمثلة في اكتشافات حظائر بشرية قديمة في (فرطومة واخنيق لحنش، والشبكة، واد شيرة).

إضافة إلى النقوش الجبيلة (أكنتور أهل أيده وأكنتور البقرة)، توجد مقابر على سفح الجبل (خناق السدرة، ممرا الخدمية، الدويرة) وأثبتت الحفريات أنها من أقدم المناطق التي مورست بها الزراعة في غرب إفريقيا منذ 3000 سنة قبل م¹⁰⁹⁷.

وقد عرفت نفس المنطقة منذ القرون الوسطى عناصر بشرية كما هو الحال في باقي المجال الصحراوي ولعل أشهرها صنهاجة التي سجلت انتشارا واسعا في المنطقة يضاف إليها العنصر الزنجي والمتمثل في سوننكة وأقليات من الزنوج الأخرى وقد خضعت المنطقة كباقي مجالها الصحراوي إلى الفتوحات الإسلامية بدءا بعقبة بن نافع إلى أن وصل المرابطون إلى المنطقة حيث فتحت منطقة تيشيت على يد أبي بكر بن عمر وجيشه وممن استشهد في عملية الفتح القائد عبد الرحمن بن الغيث ، إذ تذكر الروايات الشفهية أنه دفين المنطقة¹⁰⁹⁸.

وقد ذكر ابن امبوجه على أن الأمر ظل على هذا الحال إلى مطلع القرن السادس الهجري بعد سقوط الدولة المرابطية بالشمال حيث صادفت الفترة مجيئ الشريف عبد المؤمن بن صالح الإدريسي قاصدا الصحراء صعبة صديقه الحاج عثمان الأنصاري وهما تلميذين للقاضي عياض السبتي ليقوم الشريف عبد المؤمن ببناء مدينة تيشيت الحالية¹⁰⁹⁹.

وفي هذا السياق يقول أحدهم:

¹⁰⁹⁷ - محمود ولد أشريف بوي، تاريخ مدينة تيشيت، المدن الموريتانية القديمة دورها و إشعاعها، مجلة علمية فكرية، باحث من أبناء المدينة، مقالة، ص: 32.

¹⁰⁹⁸ - محمود ولد أشريف بوي، تاريخ مدينة تيشيت، المدن الموريتانية القديمة دورها و إشعاعها، ص: 34.

¹⁰⁹⁹ - نفسه.

إن التواريخ لأهل الهمّة لأجل ما تضمنت مهمة
تيشيت قرية بأقصى المغربي مخترعوه الشرفاء آل النبي
فأسسوا بنيانها بالعدل فهي في القرى كليل القدر

إلى أن يقول:

واسم رئيس أهل الاخصاص وري أبناءه أربعة تتشـر
أسماؤهم أعاجم لن تتظما نظمنا الله في سلك الكرما

(1) الشرفاء:

تفيد هذه الأبيات أن مدينة تيشيت تأسست على يد الشرفاء أبناء الشريف عبد المؤمن بن صالح وأنه وجد السكان الأصليين يسكنون أخصاص ولم يكن بها عمراناً وطلب منهم تأسيس مدينة فلم يوافقوه واحتجوا بأن الدنيا لم يبق منها ما يبني القصور¹¹⁰⁰ والذي نحن بصدده أنه بعد تشييد مدينة تيشيت انقسمت إلى منطقتين أساسيتين تتمثلان في حي الشرفاء وهو شمال المسجد العتيق وتسكنه مجموعة من أبناء الشريف عبد المؤمن وبعض الأسر التي ترتبط بهم من ناحية النسب والمصاهرة، والمنطقة الثانية توجد بالحي الجنوبي وتسكنه قبيلة ماسنة.

(2) ماسنه:

وهم سكان الحي الجنوبي للمسجد العتيق والتي يعزو النسابة أصولها إلى قبائل صنهاجة التي كانت تسكن المنطقة إضافة إلى بعض الأسر التي تربط بينها أواصر قرى ومصاهرة. ودام استقرار المجموعتين داخل مدينة تيشيت قروناً عديدة وتواصل حتى اليوم.

¹¹⁰⁰ - محمود ولد أشريف بوي، تاريخ مدينة تيشيت، المدن الموريتانية القديمة دورها وإشعاعها، ص: 34..

ثانيا: العادات والتقاليد

تميزت المدن القديمة عن باقي محيطها الإقليمي والصحراوي بعادات وأعراف تعاطتها الأجيال على مدى قرون عديدة حيث أصبحت جزءا من عقيدتهم وموروثا ثقافيا خالدا بالنسبة لهم.

وقد ترسخت التقاليد هي الأخرى بين أفراد المجتمع وتمثلت في مجموعة القواعد والسلوك التي تنتج عن اتفاق مجموعة من الأشخاص تستمد قوتها من المجتمع، وتدل على الأفعال الممتدة عبر الزمن والحكم التي مر بها المجتمع وتناقلها الخلف عن السلف ولا أدل على ذلك مما هو موجود في تلك المدن وتتعاطاه الأجيال رغم المعوقات والمستحدثات التي تهدد تلك المدن بين اللحظة والأخرى، إلا أنها ما زالت تصارع الزمن صامدة أمام المستجدات.

حرصت مدينة تيشيت على الاهتمام بالأعياد الدينية والاحتفال بها منذ القدم ، و يقيمون احتفالات بعيد الأضحى وعيد الفطر، وعندما يهل شهر رجب تبدأ الناس على مختلف أصنافها سواء الرجال والنساء والصبيان بالتجمع في ساحة بوسط المدينة قرب المسجد وهذه العادة تنفرد بها تيشيت عن باقي المدن القديمة الأخرى و هي عادة الاحتفال باختتان الأولاد الجماعي، بالإضافة إلى ميزة أخرى تتميز بها عن غيرها من المدن الأخرى و هي وجود فرقة موسيقية تدعى فرقة "بمبارة" تنعش هذا الحفل وقد تحدث أحد الباحثين عن هذه الفرقة سنة 2006م وذكر أنها تتكون من ثلاثة رجال وامرأة ويتحدث صاحب الفرقة عن هذا الموروث القديم الذي يتمثل دوره في المساهمة في العديد من المناسبات والاحتفالات التي تقام بالمدينة وخاصة في الأعياد الدينية كالمولد النبوي الشريف مثلا¹¹⁰¹.

يعرف هذا اليوم بعيد "بمبارة" ويقام في نهاية موسم "الكيطنة" أي موسم الخريف وتقوم الفرقة بتحضير دفوفها وتجوب طرقات المدينة وتمر بالشوارع مع وقفات في نقاط معينة، منها بعض المقابر وتجول حول بعض الأضرحة وتتجمع عليها العامة ويتوجهون إلى مكان مقدس لدى الفرقة ويسمى "الشق" وهو عبارة عن شق في الجبل المحاذي للمدينة من الشرق في مغارة

¹¹⁰¹ - السالك ولد محمد المصطفى، مقالة سبق ذكرها، ص: 26.

يضربون الدفوف ويقيمون احتفالا من الرقص والذبائح ووضع اللوائم ويحرصون على عدم العودة بفضلات الأطعمة وتوضع على صفائح من الحجارة لتبقى للطيور والوحوش والأرواح الشريرة على ما يعتقدون.

وفي دار فقيه المدينة تبدأ قراءة كتاب صحيح البخاري في الحديث وتستمر هذه القراءة خلال شهري رجب وشعبان، ثم تلي قراءة صحيح البخاري قراءة كتاب الشفاء من مستهل شهر رمضان إلى نهايته ثم يتم الاحتفال بختم قراءة الكتابين حيث تحضر إلى جانب الرجال النساء والأطفال من مختلف الأجناس ويجتهد كل الحاضرين على أن يضع يده على كتاب البخاري ويحاول حمله على رأسه ليكون أمانا له فلا يناله سوءا طيلة السنة.

ولهم عادة تتمثل في الختان الجماعي للأولاد وهي عادة متوارثة منذ القدم ويتم تعيين موعد لختان مجموعة من الأولاد ويقام عليها فرح كبير في الليلة السابقة لهذه العملية وفيها تضرب الدفوف وتشارك فرق لانعاش السهرة، وتسمع الناس عامة الزغاريد والأغاني والتشجيعات والرقص ويعلم الجميع أن هذا الاحتفال بمناسبة ختان جماعي للأولاد، سيتم في ساحة وسط المدينة وتأتي الجماعات في الوقت المحدد صحبة الأولاد ويأتي الطبيب التقليدي ويقوم بختان الأولاد على إيقاع الطبول والزغاريد وتتردد أمجاد الجماعات¹¹⁰².

وتذكر الروايات الشفهية المتواترة لدى أهل مدينة تيشيت أن لها مهرجانات قديمة ويخص الشباب الذكور الذين سيحلقون رؤوسهم عند انقضاء فترة المراهقة إيذانا بدخولهم لمرحلة الرجولة ويسمى باللغة الشعبية (الدرميز) ويقام المهرجان جماعيا في الأيام السبعة الفاضلة (الأيام الواقعة بين ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه)، وتسمى هذه الأيام عند أهل تيشيت بالأيام الكبرى، وعلى كل أسرة ستشارك في هذا اليوم جمع الملابس والمقتنيات والهدايا وتنقسم المدينة إلى جزأين الجزء الجنوبي والشمالي وكل واحدة من المجموعات تقوم بتجهيز فرقتهما وتجعل على رأسها واحدا من الأولاد وهذا الولد هو الذي يطلق عليه اسم "مقران" وهو

¹¹⁰² - السالك ولد محمد المصطفى، مقالة سبق ذكرها: 27.

الذي يفوز باللقب عندما تتواجه الفرق عند ساحة المسجد بعد أن تم تجهيز كل منها وفي ليلة بلوغ هلال شهر الربيع النبوي اثنتي عشرة ليلة تنطلق الاحتفالات حول مسجد تيشيت بعد خروج المصلين من صلاة العشاء، فتوقد الشموع الزيتية بجدران المسجد بعد تزيين الساحة بمصابيح ويصطف الحاضرون فتضع فرقة الشرفاء طبلها عند الباب الجنوبي له.

ويخرج المعقود عليهما يتقدمان فريقيهما وقد علق عليهما من الذهب والفضة وقلائد الجواهر الكثير ويشترط أن يكون كل منهما قد تعلم الكثير من متون العلم وشرب من الثقافة كالشعر والسير والموسيقى، ولا بد أن يكونا قد أوتيا من الجمال الجسدي نصيبا، ولهما حفظ وتجويد القرآن الكريم، وحفظ المدائح النبوية ومهارة في الغناء وحسن الصوت.

وتبيت الحناجر تصدع بالمدائح والطبول تقرع والزغاريد وفي نهاية الحفل تظهر براعة أحد المعقود عليهما فيدعى على السنة العامة "مقران" تلك السنة.

وفيد كبار السن بمدينة تيشيت أن كلمة مقران تأتي بمعنى البطل أو الشيخ. وقد اختفى هذا الاحتفال من المدينة إثر نقاش دار بين فقهاء حول حكمه الشرعي ، وكان آخر قيام له في القرن 13 هـ¹¹⁰³.

(1) أنماط المعيشة

ظلت مدينة تيشيت تخضع لنمط المعيشية داخل مجالها الذي تعيش فيه، فقد اعتمدت في ذلك على ما تجلبه القوافل التي تجوب الصحراء شمالا وجنوبا حاملة السلع والبضائع. كما اعتمدت أيضا في معيشتها على الزراعة التي كانت إحدى ركائز الاقتصاد لديها، خاصة تمر واحات النخيل التي استغلتها المدينة ربحا من الزمن.

(2) الملابس

لا تختلف الملابس كثيرا بمدينة تيشيت عن إقليمها الصحراوي الذي تنتمي إليه حيث تبقى الدراعة هي الثوب المناسب للرجال والسروال والقميص وكذلك زي اللحاف أو الملحفة

¹¹⁰³ - حوليات تيشيت، مصدر سبق ذكره، ص: 27.

باللهجة الحسانية لدى القوم إلا أن الميزة التي امتازت بها مدينة تيشيت عن باقي المدن الأخرى الصحراوية هي الصناعة في هذه المدينة، حيث تحدث الكاتب أحمد الأمين الشنقيطي عن ذلك بقوله: "وأهلها أدرى من أهل تلك البلاد بالتجارة"¹¹⁰⁴ وقد عرفوا بصناعة الملابس وتطريزها حيث سميت "بتيشيت الملابس" وكذلك التفنن في صناعة حلي النساء وصناعة الأغذية والأحذية والأدوات الأخرى.

(3) مكانة المرأة

تحظى المرأة كما ذكرنا بمكانة متميزة داخل المجال الصحراوي بشقيه البدوي والحضري وقد ورثت هذه المكانة منذ القدم.

كما أهلتها شخصيتها الفريدة لذلك، وتتبع هذه المكانة من مساهمتها إلى جانب الرجال في الكثير فهي دعامة للأسرة.

ولم تكن المرأة التيشيتية بمنأى عن تلك المكانة بل ظلت متمسكة بها عبر العصور، فعلى مستوى الأنشطة الاقتصادية في صنع الملابس وتطريزها إضافة إلى صناعة أثاث المنازل مثل المخدات والأفرشة (الحصير) وبعض آلات المنزل وغزل الصوف والوبر والحلي.

وقد ذكر الحسن الوزان إبان مروره بالمدينة دور نساءها في التعليم للأجيال (البنين والبنات)، مع محافظتهن على أنوثتهن حيث يقول "...والنساء أكثر سمنا على جمالهن"¹¹⁰⁵ وذلك أن المعيار للجمال في تلك الفترة كان تسمين المرأة والعناية بجسدها، أما الرجال فلا يهتمون لذلك نظرا لما تمليه ظروف الحياة في تلك الفترة والاستمرار في الأسفار ومرافقة القوافل التي تجوب الجنوب والشمال (التجارة عبر الصحراء).

المطلب الثالث: الدور الاقتصادي

تعتبر تجارة القوافل عصب الحياة للمدن الصحراوية خلال الفترة الوسيطة ومن نافذة القول إن هذه القوافل أنشأت أو ساهمت في إنشاء المدن الصحراوية الوسيطة بشكل كبير وواكبت

¹¹⁰⁴ - أحمد أمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة، ط 4، 1989، ص: 543.

¹¹⁰⁵ - الحسن الوزاني، وصف إفريقيا، مصدر سبق ذكره.

تطورها وازدهارها كما كان لها نصيب في تراجع دورها وأقول نجمها لما اختفت من هذا المجال، ولا نستثني مدينة تيشيت من هذه القاعدة حيث نشأت وترعرت بين الكثبان الرملية الصحراوية وبين المراكز التجارية مما جعلها محط القوافل المتجهة من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال نحو الجنوب، وقد ساعدها الموقع الجغرافي المتوسط على ذلك، إذ لا توجد بالقرب من أي نقطة عبور تحاذيها أو تقاربها كما أنها كانت على مسافة متساوية بين الطرفين مما سمح لها بالتبادل بسهولة قصر المسافة من كلا الجانبين من المحور الشمالي، وقد وصفها أحد الباحثين الغربيين بأنها محطة هامة للتبادل التجاري منذ نهاية القرن (9 هـ، 15م).

وكانت تتفرع منها خطوط تجارية ثلاثة متجهة إلى الجنوب وتجتمع فيها متجهة إلى الشمال فكان ينطلق منها خط تجاري نحو ولاته وتينبكتو وباغنه وخط آخر متجه إلى زاره، وخط آخر متجه إلى أوداغست وما إلى ناحيتها من المدن وقد ساهم نشاط أهلها وخبرتهم التجارية إلى ازدهار المدينة ازدهارا كبيرا¹¹⁰⁶، وكثرت القوافل المارة بها وتحدث عن عمارتها وضرب بها المثل، فنقل عن سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم: ... "لكل إقليم مدينة ومدينة إقليمنا تيشيت ... وقال أيضا ما نصه: "خرجت يوما من شنحيط رفقة اثنان وثلاثون ألف بعير موقور بالملح، عشرون ألفا لأهله، واثنى عشر ألفا لأهل تيشيت، وباعت الرفقة كلها في زارا فتعجب الناس أي البلدين أعمر ..."¹¹⁰⁷.

يقول أحمد الصغير: "تيشيت قرية لا تصلح إلا بالرفاق وجاء في مراسلات جماعات أهل تيشيت إلى أحد أمراء السودان ... ومدينتهم هي قطب رحي هذه البلاد، وإليها تنتهي غايات من حولها من العباد"¹¹⁰⁸.

¹¹⁰⁶ - محمد المختار امباله، مقالة، لمحمة تاريخية عن مدينة تيشيت، ص:7، 2011. <https://ar.ar.fqcebook.com>

¹¹⁰⁷ - نفسه.

¹¹⁰⁸ - محمد المختار امباله، مقالة، لمحمة تاريخية عن مدينة تيشيت، مقالة سابقة، ص:15.

وقد وردت عليها شهادات متعددة من سكانها حول أعمارها وأهميتها حيث يقول محمد بن انبوي بن عشاى الماسني التيشيتي: " ... فلا توجد في بلد غير بلدنا هذا الذي أعمر بلادنا بأنواع الخير".

ويقول أحمد الصغير بن حماء الله التيشيتي إلى الأمير أحمد لب الماسني " ... لا مقام لأهلها إلا بالضرب في الأرض للابتغاء من فضل الله".

وفي بعض رسائلهم أيضا ما نصه: "... إن أهل تيشيت جعل الله تعالى أسباب رزقهم من قديم الزمان بالاختلاف على رسم التجارة إلى بلاد السودان¹¹⁰⁹".

المطلب الرابع: الدور العلمي والفكري

لقد عرفت مدينة تيشيت بدورها العلمي والثقافي المتميز فقد تبوأ مكانة كبيرة من خلال عطائها الثقافي والحضاري ومكتباتها الغنية بنوادير المخطوطات.

لقد نهل من معين مخطوطاتها الكثير من طلاب العلم وخرجت العلماء والفقهاء وقد اهتم أهلها بجمع الكتب ونسخها وشرائها وامتاز أهلها بحسن الخط، فقد ذكر أن أحد أحفاد الفقيه محمد مسلم نسخ تهذيب المدونة للبرادعي بيده سنة (876هـ) كما نسخ أحد أحفاد الشريف عبد المؤمن بيده شرح حكم ابن عطاء الله لابن عباد سنة (963 هـ) فقد ذكر أحمد الصغير أحد فقهاء تيشيت في فتح القدوس أن أبا بكر بن الأيمن المسلمي (ت 11 هـ) خلف خزانة كبيرة من الكتب، وأن عائشة ابنة أبي بكر المذكور اشترت نسخة مخطوطة من فتح الباري على صحيح البخاري بقيمة سبعين حقا من الإبل ذهباً وأوقفته على المكتبة وما زالت تلك النسخة موجودة وقد ذكر البرتلي: أن الحاج الحسن بن آ عبد الزبيري التيشيتي (ت 1123 هـ) كانت له مكتبة نفيسة كبيرة مشتملة على عدة فنون¹¹¹⁰.

¹¹⁰⁹ - محمد المختار امباله، مقالة، لمحة تاريخية عن مدينة تيشيت، مقالة سابقة، ص: 11.

¹¹¹⁰ - حماء الله ولد ميايه نفس المقالة السابقة، ص: 27.

وهذا ما يفيد اهتمام أبناء المدينة بالاشتغال بالعلم والمحافظة على المخطوطات والكتب وشرائها واغتنائها ونسخها، كما تعددت بيوتات العلم والمكتبات وظلت مدينة تيشيت تحافظ على ثروة هائلة من مخطوطاتها إذ احتلت الرقم الأول مقارنة مع نظيراتها من المدن الأخرى وذلك عندما قام المعهد الموريتاني للبحث العلمي بعملية إحصاء، هذا مع العلم أنها تعرضت للنهب والضياع خاصة إبان الفترة الاستعمارية.

لقد ظل عطاء المدينة العلمي حاضرا في المنطقة الصحراوية وكانت بمشايعها قبلة للدارسين ومنهلا للعلماء فقد درس فيها الفقيه سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم وكذلك الشيخ سيدي الكبير على الشيخ أهمارس بن أحمد بن حماء الله المسلمي، وبعد أن تزلّع في العلوم في مدينة تيشيت وألف كتابه (تحفة الأطفال على لامية الأفعال) أشار عليه شيخه أن يتوجه إلى الشيخ سيد المختار الكنتي ليأخذ عنه الطريقة القادرية، وكذلك الشيخ سيد محمد بن الحاج أبي ردة (ت 1188 هـ) وتتلّمذ على الشيخ المختار الشواف وخرج إلى نواحي ولاته ونشر العلم وتعلم منه الكثير.

ولا يتسع المقام كثيرا لذكر علماء مدينة تيشيت فقد أنجبت المدينة كوكبة من العلماء نشروا علومهم في أنحاء المدينة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد فاضل الشريف (ت 1160 هـ) وأخوه أحمد فاضل الشريف (1153 هـ) وقد اشتهر بمعالى الشرفاء، وابن اختها حمى الله بن أحمد بن الإمام (ت 1169) والحاج الحسن بن أعبد الزيدي (ت 1123 هـ) شيخ الأخوين المذكورين¹¹¹¹.

والشيخ أحمد حماء الله الذي انتشرت زواياه في افريقيا وانقاد له الكثير من العلماء .

¹¹¹¹ - محمد المختار امباله، مقالة، لمحة تاريخية عن مدينة تيشيت، ص: 10.

وكذلك الشيخ محمد المختار امباله وقد تربى بتيشيت وأخذ علومه ودرس العلم في محاضر المناطق المحاذية لتيشيت كمنطقة الحوض وارقية وآفطوط ومالي وأزواد، وتخرج من محضرته العلماء والقضاة وحملة القرآن بالروايات السبع.

وعرفت أسر من أهل تيشيت بالمحاضر خارج محيط المدينة حيث أخذت على أكتافها مهنة التدريس المحظري منها مثلاً: أسرة أهل أحمد بن أداعة الماسنية، وكذلك أسرة أهل الطالب هامة الحنشية.

وتعددت المكتبات بمدينة تيشيت حيث بلغ عدد المخطوطات أكثر من 3462 مخطوط إضافة إلى آلاف الوثائق¹¹¹².

¹¹¹² - الطالب أحمد أطوير الجنة، مقالة سبق ذكرها، ص: 73.

الفصل الرابع: مدينة شنقيط

المبحث الأول: نشأة المدينة وتصميمها

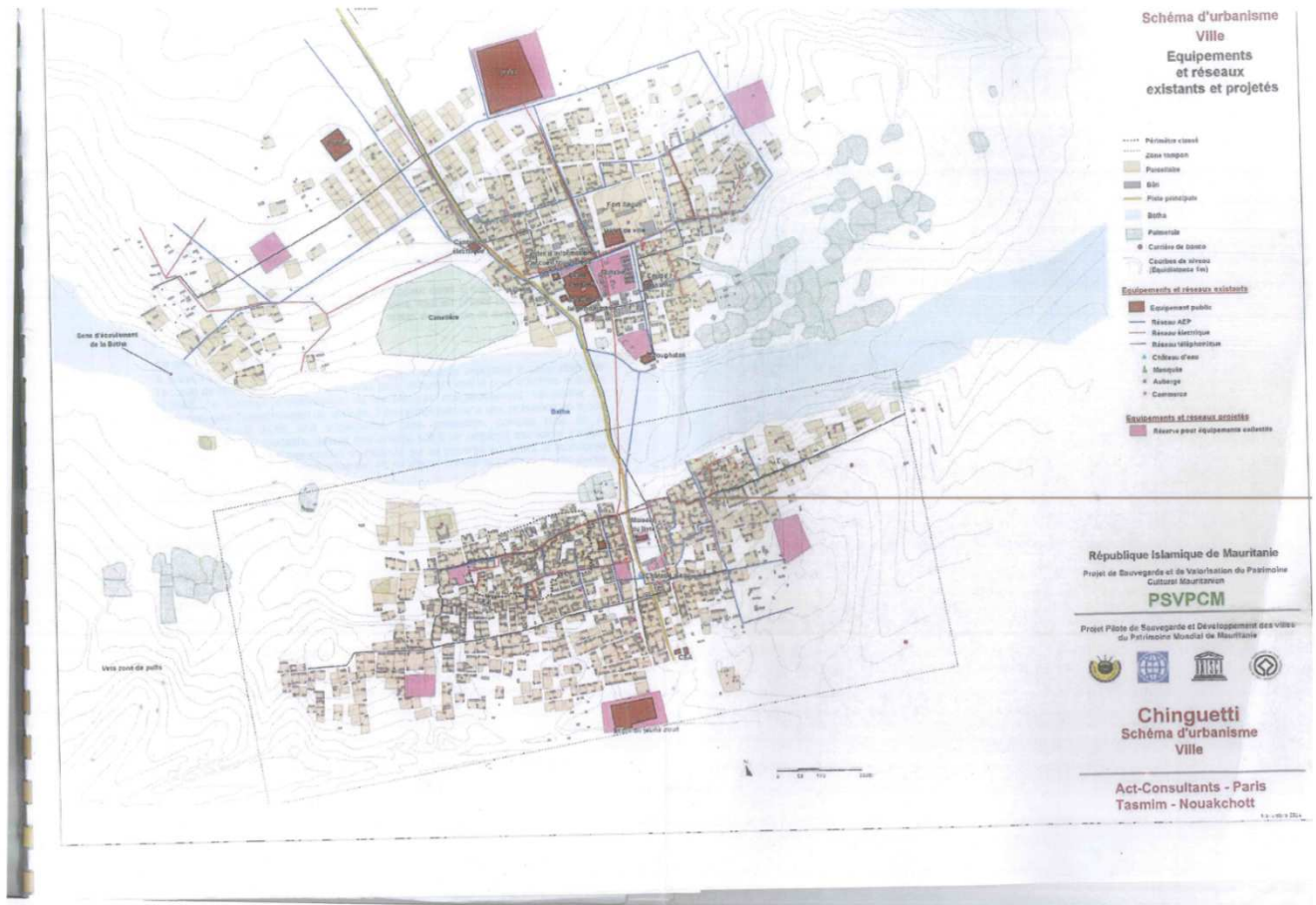
المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي

أولاً: الموقع

تقع مدينة شنقيط على ظهر آدرار (جبل لمتونه) على التخوم الجنوبية من الشمال الموريتاني وتبعد عن العاصمة نواكشوط ب 516 كلم وعن مدينة أطار عاصمة الولاية ب 83 كلم وتقع جغرافيا على خط العرض 20 درجة و 27 دقيقة و 10 ثوان من العروض الشمالية وعلى خط الطول 12 درجة و 21 دقيقة و 45 ثانية غرب خط "كرينتش"¹¹¹³.

تتميز بمناخ صحراوي جاف، بارد في الشتاء، وحار صيفا مع تيارات هوائية نشطة تغلب عليها الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة، وتشهد في أواخر فصل الصيف وبداية فصل الخريف (موسم الأمطار) رياح موسمية جنوبية غربية هي امتداد للرياح الموسمية، تجلب بعض الأمطار التي لا تكاد معدلاتها السنوية تصل إلى 100مم إلا في حالات الرطوبة الاستثنائية.

¹¹¹³ - أحمد ولد الدي، شنقيط بين الماضي والحاضر مقارنة استشرافية لآفاق المستقبل، المدن الموريتانية التاريخية، مجلة شنقيط، ص: 19.



0 - 50 - 100 - 200m

مقياس الخريطة

خريطة رقم 8: خريطة توضح الحي القديم بمدينة شنقيط

مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

ثانيا: نشأة مدينة شنقيط

تعتبر مدينة شنقيط الحالية امتداداً طبيعياً لمدينة شنقيط الأولى (آبير) التي تأسست على يد حبيب بن أبي عبيدة أول من حفر بئراً فيها أثناء حملته في الصحراء سنة 116هـ / 723م، وقد أخضعها المرابطون لسيطرتهم إبان حكمهم المنطقة خلال القرن الـ (5هـ - 11م).

وقد ارتبط اسم المدينة بجملة من المعاني ميزتها عن باقي مدن الصحراء، حيث اعتبرت سابع مدينة مقدسة في العالم الإسلامي، وحتوت كنوز الثقافة العربية الإسلامية حتى عم صيتها العالم، وأصبح يطلق اسمها على سكان الصحراء الجنوبية ونسبتهم إليها "الشناقطة"،

وقد شهدت نهضة علمية وثقافية هامة، كما لعبت دوراً تجارياً رائداً نتيجة لموقعها على طريق اللمتوني الرابط بين جنوب المغرب وبلاد السودان¹¹¹⁴.

لقد نالت هذه المدينة شهرتها من بين المدن الأخرى لما أطلق اسمها على سكان الصحراء الجنوبية أو ما يعرف بموريتانيا حالياً، وقد تجسد اسم الشناقطة إبان الرحلات الحجية حيث عرفت قوافل الحجيج بركب بلاد شنقيط، وقد ذاع صيت هذه المدينة عن طريق الفقهاء في المشرق والمغرب، فاحتلت شنقيط مكانتها في الذاكرة.

إلا أن الشهرة التي تبوأها بها هذه المكانة المتميزة لم تختلف بها عن نظيراتها من المدن التي عاصرتها ولم تزح عنها الغموض في مرحلة التأسيس، بل نالت هي الأخرى نصيبها من ذلك وتضاربت الروايات حول تاريخ التأسيس وعن المؤسسين، ولسنا بصدد الخوض كثيراً في هذه المسألة، إلا أن الحديث عن الروايات الشفهية يقودنا للكشف عن إعمارها في الفترة الوسيطة وعن مدى ارتباطها بالعهد المرابطي.

لقد تعرضت المصادر المحلية لذكر مدينة تسمى "آبير" تأسست قبل مدينة شنقيط الحالية، حيث وردت لدى سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم في معرض حديثه عن شنقيط فيقول: "...ابتدأت عمارة هذا إلى زوال عمارة ذلك، وكان بشنقيط أحد عشر مسجداً بالجامع العامي اليوم وهو العتيق، والناس يقولون إنه من المدائن السبع دون سائر المدائن، فإن كان المراد أنها هي الموجودة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذاك أكثر ويكون المراد آبير لأنه هو القديم، لكنهما كالبلد الواحد..."¹¹¹⁵ ويبدو من خلال ما ذكر أن آبير سبقت شنقيط بالتأسيس إذ يرى بعض الباحثين أنها أسست سنة (160هـ / 776م)، وأن مؤسسها حبيب بن أبي عبيدة، وأنه حفر بها بئراً وأطلق عليها هذا الاسم مصغراً، وأن أصل تسميتها عربي

¹¹¹⁴ - أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط، مصدر سبق ذكره، ص: 73.

¹¹¹⁵ - سيد عبد الله ابن الحاج إبراهيم، صحيحة النقل في علوية إدو علي و بكرية محمد قلي، تأليف في الأنساب، ص: 5.

(آبير).¹¹¹⁶ كما يذكر سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم أن العلويين خرجوا من آبير أربعين أو اثنين وأربعين قبيلة ما بين صميم وحليف. وهذا ما يدل على عمارة آبير (شنقيط الأولى) في الفترة المذكورة آنفاً.

ومن بين الروايات التي تتحدث عن تأسيس المدينة:

1- رواية إدو علي:

تروي الرواية الشفهية التي ذكرها سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم وهو أبرز فقهاء ومؤرخي البلد موضحاً مسار هجرة أسلافه العلويين قبل وصولهم إلى شنقيط بقوله "... وقد كانوا أزماناً قبل توطنهم بآبير وشنجيط بتلبالت¹¹¹⁷، وأخبرني الثقة أنهم كانوا لهم بها مائة ساقية إلى الآن ولم يزل يذكر بتلك الجهة أن بها موالى العلويين ويترجون أحداً منهم يكون أساساً لهم، ولم يزل العلويون وقبائل كثيرة من آبير بلغنا أن كل من اسمه إد بكسر الهمزة وفتح الدال من قبائل الزوايا خرج من آبير، وكان العلويون فيه أربعين أو ستين قبيلة ما بين صميم وحليف وكانوا يقتلون القاتل، حتى قتل جدنا قتيلاً فقال بعضهم نقتله، فلم يقتلوه لشرفه فيهم وعلو منزلهم، بل طردوه فجال في البلاد ثم أثر إلى شنجيط وقد بنيت فيها بيوتات قليلة فيها أعرم يبني وجد إيدير، فأراد النزول معهم فقال بعضهم خلوه ينزل معكم، لكن سيستبد بالأمر دونكم، فسكن معهم..."¹¹¹⁸.

تفيدنا هذه الرواية بقدم أسلاف قبيلة الكاتب (إدو علي) من مدينة تلبالت بالجزائر الحالية ووصولهم إلى مدينة آبير (شنقيط) الصحراوية بموريتانيا الحالية ويشير إلى حجم الكتلة الاجتماعية المنتمية إلى القبيلة التي خرجت آنذاك من آبير، كما كشفت الرواية أيضاً عن

¹¹¹⁶ - أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط، مصدر سبق ذكره، ص: 73.

¹¹¹⁷ - تلبالت: واحة تقع عند التقاء تخوم الصحراء بين المغرب الأقصى والجزائر على بعد 400 كلم جنوب شرقي كلومب بشار، وتحتفظ الذاكرة المحلية بهذا الموقع وعن مؤسسيها اللمتونيين الذين لم يستقروا طويلاً بالموقع وحسب ما جمعته دومنيك شامبوليه، أنهم سرعان ما اقتفوا أثر المرابطين بالشمال، ولد أيد، المدن الموريتانية القديمة ص: 145.

¹¹¹⁸ - سيد عبد الله ابن الحاج إبراهيم، مصدر سبق ذكره، ص: 6.

الأسباب التي خرج بها جدهم يحي من (آبير) شنقيط حيث وصل إلى موقع شنقيط المدينة الحالية التي تبعد من (آبير) بضع كيلومترات وذكر الرجال المتواجدين بنفس الموقع فنزل به يحي لتتواتر الروايات المتداولة لدى قبيلة إدو علي أن جدهم قام بتأسيس المدينة وإعمارها.

2- رواية لقال

تختلف رواية قبيلة لقال مع قبيلة إدو علي وهما سكان المدينة الأصليين وقد دونت هذه الرواية لاحقاً بعد رواية إدو علي، حيث تحدث ابن حبت وهو أحد فقهاء المدينة في ذكر قدوم جده إلى الموقع محمد قلي وهو الجد الجامع لقبيلة لقال "... أول من بنى شنقيط رجل صالح أتى من نحو قرية يقال لها زاراه وهي بين أرض السودان والحوض، واسمه محمد قلي صالح، أتى لزيارة أولياء في آبير فلما قدم إليه وجد الفاحشة فيه لا تغير، فذهب إلى الجبل الذي بينه معه خمسة أميال فسكن على رأسه، وبنى بنية أخصاص من الحشيش فصار كل جمعة يذهب إلى آبير ويزور أمواته ويصلي الجمعة فيه ويرجع إلى بلده، ويأتيه فيه رجلا ن اسم أحدهما أعمر وعمله البناء فلقب بذلك والآخر إد يجر وعمله قطع الأشجار (...) ومعه زوجته من الجن اسمها تعامرت¹¹¹⁹، فولدت له ابنتين وبنات: اسم أحدهما مالك والثاني محمد ولقبه محم، فمكث عليه ست سنين أي على جبل شنقيط، وهو جبل عيون الخيل بلغة أهل ذلك الزمن... فلما انقضت السنون قتل رجل اسمه يحيى رجلا في آبير وكانوا يقتلون القاتل بالقتيل، فامتنع أخوال يحي الذين منهم المقتول عن قتله لشرفه فيهم، فاجتمع رأيهم على جلأته فكان أن أتى محمد قلي فقال له أنا ضعيف لا أقدر لأهل آبير على شيء، فذهب من عنده ومكث سنة يجول بين القبلة وتكانت، ثم قدم إلى محمد قلي بعدها طلب منه السكنى معه ... فقال محمد قلي على شرط، قال فما هو؟ قال أن لا تقول كلمة سوء لأحد،

¹¹¹⁹ - ابن حبت ، مصدر سبق ذكره، ص : 17، 19.

فقال نعم، فتزوج بنت محمد قلي، فقال إن وفيت بالشرط فعلي ضمان لك ألا تكتمل أربعين سنة إلا تحول عليك من في آبير وصرت أنت الرئيس، فاطمأن قلبه وسكن معه¹¹²⁰.

ويذكر ابن حبت تاريخ تأسيس شنقيط فيقول:¹¹²¹ "...أما شنقيط الثاني فقد بناه إدو علي (العلويون) ولقلال عام ستين وستمائة، ومن خلال ما ساقه إلينا سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم من أن هذه القبائل خرجت من آبير فلا يخفى من ذلك أن مدينة "آبير" كانت عامرة بالسكان والمساكن، وهذا الإعمار كان قبل إعمار مدينة شنقيط الثانية، وأن تلك العمارة خلفت إرثاً كبيراً، إلا أن المصادر لم تتحدث عن تلك الجوانب المعمارية التي كانت قائمة خلال الفترة الوسيطة، وبخربائها تم إعمار مدينة شنقيط الثانية التي نقلت ذلك الإرث العمراني بمختلف جوانبه ليساهم في إعمار المدينة الحديثة القائمة اليوم والتي تمخضت عن خراب الأولى، وهذا ما سنلمسه من خلال ما سيتاح لنا أثناء هذه الدراسة.

تتحدث المصادر المحلية عن الفتح المرابطي التي شهدته المدن الصحراوية تحت راية الجهاد التي رفعها الأمير المرابطي أبوبكر بن عمر إذ يقول بن حبت في هذا المضمار ما نصه: "...ولما عزم أبوبكر بن عامر على المسير راود قوماً على الخروج معه من نسل عقبة المستجاب... ونزلوا المالحة وهي مدينة عظيمة فيها آسوانك وافلان وكثير من البربر، وهي مسيرة يومين من وادان فقاتل حتى ملكها عنوة، ثم نزل وادان وفيه تزودة وآسوانك وملكها عنوة، ثم جهز جيشاً إلى آبير وفيه طوائف من الخلق فيها أجناس من السودان فقاتلهم قتالاً شديداً حتى سالموه¹¹²².

وهذا ما يوحى بأن الجيش المرابطي قام بفتح هذه المدن مع مدن الشمال التي توالى فتوحاتها حتى سقطت الواحدة تلو الأخرى على يد المرابطين، وقد قدمت المصادر المحلية بخصوص فتح المرابطين لمدينة شنقيط إشارات واضحة حيث يقول محمد امبارك اللمتوني

¹¹²⁰ - ابن حبت، مصدر سبق ذكره، ص 4.

¹¹²¹ - نفسه، ص : 1 - 19.

¹¹²² - نفسه، ص: 19.

ضمن أرجوزته عن كيفية فتح المدن وجهاد أبي بكر بن عمر، إذ ذكر بعض المدن التي فتحها المرابطون بقيادة أبي بكر بن عمر وكانت آبير من ضمنها، وقد أطلق عليها اسم شنجيط حيث قال:

وقام منهما إلى وادانا	وبعضهم مات وبعض دانا
ثم إلى شنجيط العظيم	ذات الحصون والكفر الصميم
فطلب الدخول فيه ما أمكن	فقفل الحصون كل من سكن
ولم يخرج منهم له مخابر	وقام حولا لهم محاصر
فبعد ذاك سهل الدخول	بسبب الكلب و ذا منقول
فقاسها أبو بكر بالبهنسه	ثم لحكمه عليها أسسه
فقتل الرجال و النساء	و أخذ العبيد و الإماء
وقسم الأموال في الجيوش	فكان في الكثرة كالمنقوش ¹¹²³

تفيد هذه الأبيات التي تحكي قصة الفتح المرابطي والتي نظمها اللمتوني في أرجوزته أن مدينة شنجيط التي هي آبير كانت عامرة بالسكان إبان الفتح، وأنها كانت محصنة مؤمنة وأن ذلك كان الميزة الأساسية للمدن دون غيرها من القرى والأشخاص¹¹²⁴، أما نعتة بالكفر الصميم لسكان المدينة فيدل على أنها كانت عامرة بأقوام لم يدخلهم الإسلام إلا مع مجيء طلائع الفتح المرابطي بقيادة أبي بكر بن عمر وقد اتفقت رواية الفتح هذه مع ما ورد في نص ابن حيت ويبدو هذا الإعمار تقدم على ذكر ما تحدث عنه سيد عبد الله من قدوم أجداد قبيلته من مدينة تلبالت بالجزائر وما رافق ذلك من تحولات وتطورات أدت إلى اندثار شنجيط القديم والمسمى "آبير" وإحلال شنجيط الحديث مكانه.

¹¹²³ - محمد امبارك، اللمتوني، نظم اللمتي، مصدر سبق ذكره، ص : 2.

¹¹²⁴ - نفسه:

وهذا يتفق مع ما ذكره ابن حبت في معرض حديثه عن الفتح المرابطي إذ يقول: "ثم نزل جيشاً إلى آبير وفيه طوائف من الخلق ، فيها أجناس من السودان..."¹¹²⁵ هم المجتمع الذي تنطبق عليه عبارة الكفر الصميم عند اللمتوني، كما نعتها أيضاً بالحصون مما يعبر عن كونها كانت محصنة في تلك الفترة.

وإن دلت هذه الإشارة التي وردت في المصادر المحلية على شيء فإنها تدل على أقدمية هذه المدن التي فتحت من طرف المرابطين عند قدومهم من الشمال إلى المنطقة، بالإضافة إلى سقوط الدولة المرابطية على يد الموحدين في الشمال، ولعل ذلك ساهم في نقل الروايات الشفهية والتي اعتمد عليها على أن الوافدين من المغرب لاقوا مضايقات من الحكم الموحد الجديد.

وساهم ذلك حسب رأي بعض الباحثين المحليين في تأسيس بعض المدن الصحراوية في تلك الفترة، ولا أمتلك وسائل إثبات حول ذلك الرأي إلا ما ساقته بعض الروايات الشفهية حول مرحلة التأسيس التي ورد ذكرها في صفحات سابقة، وأتلمس أثر هذه العمارة التي كانت قائمة في الشق الصحراوي من الدولة المرابطية لتقديم بعض النماذج المعمارية القائمة في المدن المذكورة عليها تعبر عن تلك الحقبة الوسيطة ولو جزئياً، ونظراً لندرة البحوث الأثرية في الكشف عن بعض الغموض تبقى العراقيل كثيرة أمام حصول الباحث على مبتغاه إلى حين تعميق هذه البحوث¹¹²⁶.

ولا نمتلك بعد من هذه الإشارات ما يبين حالة المدينة بعد الفتح المرابطي من قرب عاصمة المرابطين آنذاك أزوكي من مدينتي شنقيط ووادان، لكن يفهم أن النفوذ المرابطي قد بسط على تلك المدن' لكن غياب التدوين في المنطقة في تلك الفترة حال دون معرفة الحقيقة، إلا أن أهداف الدولة المرابطية التي سيطرت على تلك المنطقة في تلك الفترة نالت منها كل

¹¹²⁵ - ابن حبت، مصدر سبق ذكره، ص : 4.

¹¹²⁶ - نفسه.

مدينة قسطها، حيث تجسد ذلك في الأمن والاستقرار الذي نشرته الدولة المرابطية من الشمال إلى الجنوب لتتم من خلاله المبادلات التجارية.

وساعدها على نشر المذهب المالكي السني بفعل الحركة الجهادية القائمة، ولعل الغفلة عن الجانب الصحراوي من الدولة المرابطية واقتصره على متابعة أحداث الفتح المرابطي غيب جل المدن التي كانت قائمة أثناء الفترة المرابطية، ولم يبق إلا ذكر المدن أو المراكز التجارية المزدهرة إبان حكم المرابطين، ويتجلى ذلك من خلال الصمت الذي عم المصادر عن الجانب الصحراوي بعد وفاة أبي بكر بن عمر.

ثالثاً: إشكالية التسمية

لقد وردت تفسيرات متعددة لكلمة (شنقيط) التي أطلقت رداً من الزمن على المدينة التي حملت اسم بلاد الصحراء الجنوبية - موريتانيا الحالية -، وقد ذكر بعض الباحثين أن هذه الكلمة تنتمي إلى اللغة الأزرية التي كانت هي السائدة في المدن الوسيطة بتلك البلاد، وقد ورد تفسيرها لدى سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم¹¹²⁷ باعتبار أنها كلمة صنهاجية ومعناها (عيون الخيل)، وهي العيون المائية التي تشرب منها الخيل.

ويرى بعض الدارسين أن أصل الكلمة (شنقيط) دالة على نوع من الأواني الخزفية كان منتشراً في تلك المنطقة.

ويذكر الناني الحسين أن اسمها تتشكط مأخوذ من اسم شنقيط، ويقول إنها قرب تلبالت التي ذكر سيد عبد الله أن أجدادهم قادمين منها، وتنسب إليها جماعة من الشرفاء العلويين¹¹²⁸.

¹¹²⁷ - سيد عبد الله / الحاج إبراهيم، صحيحة النقل، مصدر سبق ذكره، ص : 5.

¹¹²⁸ - الناني الحسين، مرجع سبق ذكره، 122.

المطلب الثاني: تصميم المدينة

أولاً: العمارة الدينية

1- المسجد

يخضع تاريخ التأسيس إلى نفس التاريخ الذي يؤرخ للمدينة والذي يعتمد على ما دون ضمن المخطوطات المحلية، فقد كتب سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم والذي يعد أقدم مصدر محلي، يعود لسنة (1205م / 1790م) فقد ذكر أن المسجد العتيق بشنقيط مضى على بنائه نيف وأربعمئة سنة¹¹²⁹، مما يعني أن تاريخ تشييده في نهاية القرن (8هـ / 14م) في الوقت الذي يروى أن الحاضرة أسست في القرن (7هـ / 13م)، وتتواتر الروايات الشفهية في المنطقة عن أن المسجد هو أول تأسيس عمراني وضع في موقع المدينة، وقد أكد ريمون موني Mauny (R) عن طريق قرائن أثرية أن هذا المسجد يعود للعهد الوسيط.¹¹³⁰ لكن سيد عبد الله أشار في مخطوطه أن شنقيط بها اثنا عشر مسجداً من ضمنها المسجد الجامع، وهذه المساجد الأحد عشر التي ذكرها لم تحتفظ الذاكرة المحلية بها، ولم يوجد لها أي أثر يذكر، ولم يوجد بشنقيط قديماً إلا هذا المعلم وحده، لكن هذا المعلم لم يحتفظ بشكله القديم نتيجة بعض التحويلات التي خضع لها أثناء عمليات الترميم التي حظي بها في فترات سابقة، إلا أن المئذنة بقيت على حالها حسب رواية السكان المحليين. ويعتمد المسجد على ثلاث وحدات هي: صحن مفتوح، وبيت الصلاة، ومئذنة.

¹¹²⁹ - ابن الحاج إبراهيم، صحيحة النقل، مصدر سبق ذكره، ص:6.

¹¹³⁰ - Mauny. Tableau Géographique, op.cit. P :472.



صورة رقم 60 : منظر من مدينة شنقيط
مؤسسة المدن القديمة، انواكشوط، تاريخ الزيارة: 2020/12/02م

(أ) الصحن

وهو عبارة عن فناء تبلغ مساحته (26،5م×15م)، وتشكل حدود الصحن الغربية امتداداً في المؤخرة، ومن ثلاثة أجزاء الممر الغربي ويبلغ (3،10م×12،10م)، وإلى جنوبه مصلى للنساء في فترة الصيف.¹¹³¹ ويتكون محراب الصحن من مقصورة مربعة لها باب صغير وإلى جانبه جناح صغير مرتفع في مستوى وسط واجهة بيت الصلاة المطلّة على الصحن تقوم مقام المحراب الخارجي، وهي فتحة على هيئة عقد دائري وإلى اليسار سلم يمكن ولوج السطح من خلاله، وبالنسبة لملحقات الصحن تتمثل في وجود ممر ضيق يؤدي إلى الباب الغربي للمسجد وهو الفاصل بين مكان الوضوء ومصلى النساء الصيفي، وهذان المكانان يبدو أنهما ملحقات جديدة، وتظهر شواهد قبور منصوبة شمال المسجد لا تحيل إلى وجود قبور فعلية¹¹³²، لكنها توحى بشواهد لتذكير المصلين بالدعاء لأمواتهم وأموات المسلمين وتساعدهم على عدم الغفلة عن الأمور الدينية في الانشغالات الدنيوية.

¹¹³¹ - أحمد مولود أبيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 417.

¹¹³² - نفسه، ص 418.

ب) بيت الصلاة:

حافظ بيت الصلاة في هذا المعلم على أصالته، لكنه تعرض لعمليات الترميم الجزئي خلال قرون متأخرة، ويبدو أن هذه العمارة متواضعة، الشيء الذي يوحي بقدم عمارتها، ويأخذ بيت الصلاة شكل مستطيل (30م×11م)، ويتكون من اثني عشر بلاطة وأربعة أروقة¹¹³³، يبلغ ارتفاعه (3م)، ويبرز امتداد القبلة بمستوى جهة السقف من الداخل، ويحمل سقف بيت الصلاة أحد عشر عموداً بكل من الرواق الأول والثاني، ويلاحظ أن العمود الشمالي مغروس في الجدار، وقد أجريت عملية ترميم على مستوى سقف المسجد حسب ريمون موني Mauny (R)، حيث إن بيت الصلاة شهد تغيراً على مستوى المواد الموظفة في السقف، فكانت جذوع النخيل، فأجريت عملية انتزاع للنخيل لتحل الأخشاب محلها¹¹³⁴.

ج) المحراب والمنبر:

محراب مسجد شنقيط عبارة عن تجويف يتوسط جدار القبلة تقريباً، ولا يتجاوز قطر المحراب (80 سم)، ويرتفع عقد المحراب أعلى من عقد المنبر ولا توجد أي زخارف بكل منهما، وقد ذكر ريمون موني أنهما تعرضا لعملية ترميم لكنها لم تؤد إلى تغييرهما إلا أنها وضعت عليهما طلاء أبيض¹¹³⁵.

د) المئذنة:

تمثل المئذنة العنصر الأكثر جمالاً لهذا المعلم، وتبدو من أحسن المآذن للمساجد بهذه المدن، وتبرز من خلالها الصبغة التاريخية التي خلفتها هذه المدن.¹¹³⁶ وهذه المئذنة تبدو معزولة بالمؤخرة الجنوبية الغربية لبيت الصلاة، وهي عبارة عن شكل مربع ذي جذع هرمي

¹¹³³ - أحمد مولود أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 422.

¹¹³⁴ Mauny. Notes d'Histoire et d'Archéologie. op.cit. P :151.

¹¹³⁵ Ibid, P : 125.

¹¹³⁶ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 424.

ناقص، ترتكز على قاعدة يقاس ارتفاعها بـ (1،25م) وتبلغ أضلاع القاعدة التي يقوم عليها بناء المئذنة (5م) هذا بالنسبة للضلع الجنوبي، لينقص الضلع الغربي قليلاً عن ذلك ويمثل هذا الجزء مدخل المئذنة الذي لا يتجاوز (4،70م)، ويمثل الضلع الشمالي (4،30م)، وينتفخ الجزء السفلي من المئذنة، ويلاحظ ميل طفيف في اتجاه القبلة لعله ناتج عن بناء المسجد على ربوة¹¹³⁷.



صورة رقم 61 : مئذنة مسجد شنقيط

<https://www.google.com>

2- الكتاتيب (دور المحاضر)

تعتبر مدينة شنقيط قبلة للطلبة الوافدين من كل مكان قصد التحصيل للعلم ويعود ذلك إلى ما عرفت به المدينة من علماء.

وقد فتح هؤلاء العلماء منازلهم لطلاب العلم لتحصيل مختلف العلوم خاصة تدريس القرآن ومجالات الفقه واللغة العربية وقد خصصت دارين قريبتين الموقع من مكان المسجد العتيق لسكن طلاب المحاضر على نفقة أهل المدينة، وكان إمام المسجد عند الصلاة يخبر عن

¹¹³⁷ - أحمد مولود أبيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 417.

حال الطلبة وحاجاتهم اليومية لتحميل سكان المدينة ذلك وظلوا على هذا الحال قرونا عديدة إلى زمن قريب، وكان بناء الدارين من نفس عمارة المدينة¹¹³⁸.

ثانيا: العمارة السكنية

1- المنازل

تعتبر العمارة السكنية لوحة تاريخية أثرية تميز مدينة شنقيط في الفترة الوسيطة، إلا أن الخراب الذي حل بالأحياء القديمة من هذه المدينة جعلها تعاني من اندثار يعيق الباحث عن الكشف عما يخبئه الركام الملبد على أطلال الحي القديم، لكن العمارة السكنية في تلك الحقبة تعتبر امتدادا طبيعيا لحياة تلك المدن و ظلت محتفظة بذلك الإرث المعماري على مستوى سكان المدن خلال العصور المتوالية، وأتلمس ذلك الإرث المعماري لأكشف من خلاله أسرار تلك المدن عن طريق ما توصلت إليه من معلومات، رغم شح المصادر التي تتحدث في تلك الفترة لأصل وتصنيف عناصر البيت الشنقيطي¹¹³⁹.

. عناصر البيت الشنقيطي:

يتكون المنزل الشنقيطي القديم في أغلب الأحيان من ثلاث غرف في الأسفل، وأخرى في الأعلى ومطبخ ومرحاض وفناء في أغلب الأحيان يكون واسعاً، ويبني مرتفعاً قليلاً عن الأرض يسمونه (الدنكة)، وهو للراحة والابتعاد عن هوام الأرض التي تكثر في بعض الأوقات، أما الغرف الثلاثة التي في الأسفل فاثنتان منها مخصصة للسكن وتسمى (السكفة) والثالثة تستعمل كمخزن للمواد الغذائية، إضافة إلى الحطب والفحم كطاقة مستخدمة، وتسمى هذه الغرفة ب (تكدي)، أما الغرف التي في الأعلى فهي للنوم والراحة، وتخصص للرجال

¹¹³⁸ - المصطفى ولد أحمد ولد أنه، باحث من مدينة شنقيط، مقابلة، بتاريخ: 2019/04/22م نواكشوط.

¹¹³⁹ . نفسه.

ويسمونها (الظلال)، وتتميز هذه الغرفة عن باقي الغرف في الأعلى، والمفروض أنها تكون هي الأحسن من حيث التهوية، ويكون شكلها غير مكتمل البناء أو يحمل فتحات كبيرة¹¹⁴⁰.

ولكل هذه الغرف بعض الحلقات، ففي (السكة) يبنى غالباً بعض (الدنكات) حيث يبسطون عليها حصائرهم طلباً للراحة والنوم، وفي كل حائط بعض الفتحات المسدودة كخزائن للكتب ولبعض أغراضهم الأخرى.

وهناك فتحات تستعمل لإدخال النور للمنزل ويستخدم ذلك في فصول ارتفاع الحرارة وتسد هذه المنافذ في الشتاء كما أن سكان هذه المدينة يعانون فترة الشتاء من ارتفاع البرودة الشديدة حتى يضطروا إلى استخدام الفحم للتدفئة في أماكن النوم والجلوس، وتوضع أعواد في الحائط وتسمى (أشكد)، ويستعمل في تعليق بعض الأشياء أهمها المصابيح القديمة، وكانوا يمتلكون أشكالاً عتيقة (الحسكة)¹¹⁴¹.

كما تعلق أوعية لحفظ الزيوت الحيوانية لاستخدامها في نمط المعيشة الذي كان سائداً من قبل، ويسمى هذا الوعاء (العكة)، ويصنع هذا الوعاء من جلد الغنم.

ويقتسم المنزل الشنقيطي الأدوار خلال الفترات المتعاقبة من حرارة وبرودة، وتثبت في الحائط تسمى (طرفة) وهي مكونة من حجارة عريضة وطويلة نسبياً، وقد يستعملونها في بعض الأحيان ويغيرون وظيفتها متى دعت الحاجة إلى ذلك.

كما يؤدي سطح المنزل الشنقيطي الدور المنوط به بحيث يصلح للجلوس خاصة في الليل في فترة الحرارة، كما يستعمل لبعض المنتوجات، أي مثل نشر التمور عند أهل شنقيط، أثناء موسم جمعه (الكيطنه) وتختص هذه العملية بأثرياء المدينة، إذ يحملون غلال نخيلهم

¹¹⁴⁰ - المصطفى ولد أحمد ولد أنه، باحث من مدينة شنقيط، مقابلة، سبق ذكرها.

¹¹⁴¹ - نفسه.

ويحفظونها فوق منازلهم حتى تتم عملية التجفيف والإصلاح، ولذلك يعمل أهل المدينة على إصلاح إنتاجها من التمر لجعلها بضاعة رائجة في المواسم المطلوبة.

ويبدو أن المدينة كانت تحافظ على جانبها الأمني، ويظهر ذلك من خلال عناصر البيت الشنقيطي الذي يخصص مخاباً سرياً لحماية الممتلكات، ويتجلى ذلك في وجود (أكرن) وهو مخاباً أرضي، يشيدونه تحت إحدى غرفهم سواء كانت (السكفة) أو غيرها من الغرف الأخرى، ويجعلون له غطاء سرياً يصعب العثور عليه إلا من طرف أهل المنزل.

وهذا المخزن ترتبط به وظيفة المحاصيل الزراعية كالزراع والشعير والقمح وحتى الفضة، وهو صالح لكل الأشياء المخبأة، ويستخدم الصرف لمياه المطر عن طريق حفر كبيرة في الأرض في وسطها فتحة تستوعب كل المياه، ويغطونها بحجارة كبيرة (صفية)، وتسد الفتحة عندما تنقطع الأمطار وتفتح عند استقبال مياه المطر.

2- الطرق والممرات

إن الحديث عن الممرات بالمدن القديمة يطرح صعوبات كبيرة ويعود ذلك إلى ما آلت إليه الأحياء السكنية القديمة من الخراب، وينطبق هذا الحال على مدينة شنقيط الذي لم تعد معالم الحي العتيق واضحة بفعل الخراب لبعض أجزائه، مما يقف حائلاً دون تصور امتدادها وسط الخرائب. غير أن ما بقي من الطريق الرئيسي بشنقيط أو باللغة الحسانية "تيجيريت" لا يعطي انطباعاً عن امتداده، ويبدو أنه كان الرابط بين خطي المدينة السكنية الممتدة من العوينة في الغرب وطيرزة في الشرق وقد قيست أبعاده من طرف أحد الجغرافيين المحليين فوجد عرض الطريق الرئيسي بشنقيط يبلغ في بدايته (7 أمتار)، يضيق في منتصفه ونهايته ليصل إلى (1.5) كأدنى حجم¹¹⁴².

¹¹⁴² - أحمد ولد تلمود، شنقيط دراسة جغرافية، شهادة الكفاءة في البحث، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1993، ص: 42.



صورة رقم 62 : نموذج من شوارع مدينة شنقيط

<https://www.google.com> تاريخ: الزيارة: 2020/06/05

وقد شكلت الممرات المغلقة غير النافذة أو الزقاق إحدى السمات بالأحياء العتيقة للمدن وهي السمات البارزة لخصائص النسيج الحضري، ويعلل الباحثون المحليون ذلك بغياب الأمن خلال الفترة الوسيطة، وهذا الحال ينطبق على بعض المدن العربية والاسلامية التي عاصرتها في نفس الفترة¹¹⁴³.

وقد تواترت الروايات الشفهية في شأن أسوار المدن العتيقة مع وجود أدلة أثرية تثبت ذلك، ويذكر أن مدينة شنقيط كانت محصنة وقد تحدث ابن حبت عن هذا الموضوع إذ ذكر أن مؤسسي شنقيط "... بنوا على القرية سورا متسعا له بابان مغربا ومشرقا..."¹¹⁴⁴ ولعل هذه الإشارة التي وردت لدى ابن حبت تفيد تسوير المدينة أو تحصينها وإن أطلق عليها قرية فإنها بحكم التحصين أو السور الذي يحيط بها تبقى مدرجة في إطار المدن الوسيطة في تلك الفترة.

3- الأسواق والسور

¹¹⁴³ - أحمد ولد تلمود، شنقيط دراسة جغرافية، مرجع سبق ذكره، ص: 42.

¹¹⁴⁴ - ابن حبت، مصدر سبق ذكره، ص: 19.

السوق هو المكان الذي تتم فيه المبادلات التجارية بين البائع و المشتري، و في العصر الوسيط هو الساحات المفتوحة التي يرتادها التجار وتحط بها القوافل رحالها سواء قادمة من الشمال، أو من الجنوب السوداني، وقد تحدث الباحثون عن هذه التي أطلق عليها "الرحاب أو الرحبة" وتعاقبت عليها قرون عديدة ونسبت في الفترات الحديثة إلى أسماء أسر من سكان المدينة ، وقد خضعت مدينة شنقيط لنفس النظام إذ وجدت بها ساحات أيضا احتفظت الذاكرة المحلية ببعض أسمائها، مثل رحبة أهل حبت، ورحبة أمكاريج التي تقع جنوب شرقي المسجد ورحبة آل المنير، ورحبة آل مامون، ويذكر أن هناك رحبة عند الصخرة، كانت تستخدم لاجتماع أكابر القوم وعليتهم لإجراء بعض النقاشات والاستشارات في الشأن العام¹¹⁴⁵.

4- مواد البناء

لا تختلف مدينة شنقيط في مواد البناء عن نظيراتها من مدن الصحراء الأخرى إلا أن الحجارة تتخذ أوجها مختلفة وتعد الحجارة الحمراء من أكثر أنواع الحجارة توظيفا في المدينة وهي عبارة عن حجارة رملية كبيرة تستخرج على شكل كتلة صخرية تتم تجزئتها وتميل ألوانها إلى الحمرة واللون البني وتتوفر في منطقة آدرار بكميات كبيرة، وتمتاز بضعف مقاومتها لعوامل المناخ كالحرارة والشمس والرطوبة مع مضي الوقت.

وبالإضافة إلى مادة الحجارة تأتي مادة الطين التي تستخدم كملاط للحجارة وتستعمل أيضا كطلاء للحيطان الداخلية للمنازل، وتوجد بمحيط مدينة شنقيط أنواع من الطين (طين آغوجي)، تضاف إليه بعض التحسينات والإضافات لتجعله صالحا للاستعمال كجعل مقدار من الرمل عليه لأنه لا يستعمل بدون إضافة وأحيانا تضاف عليه مادة الصمغ العربي كمثبت للطلاء على الجدران¹¹⁴⁶.

¹¹⁴⁵ - أحمدود ولد تلمود، شنقيط دراسة جغرافية، مرجع سبق ذكره، ص: 43.

¹¹⁴⁶ - أحمد مولود ولد أيده، المدن الموريتانية العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 337.

ويستخدم الطين بعد إجراء تحسينات عليه من طرف أصحاب حرفة البناء، حيث تؤخذ كمية من الطين ويمزج بالرمل أو الصمغ العربي، ويخمر لمدة أسبوع أو أكثر من ذلك ثم يسكب الماء، مما يمنحه القوة ، ويرى كبار البنائين أن هذه العملية معالجة له وتساعد على قوة وتماسك البناء، لأن الطين مخدوم كما ينبغي.

وتستخدم الأخشاب في مواد البناء حسب المتاح في المنطقة وقد كانت النخلة تشكل أولوية رئيسية بالنسبة للبناء¹¹⁴⁷، وكانت منطقة آدرار خزاناً قديماً لوحات النخيل بالإضافة إلى بعض الأشجار الأخرى حيث يقول المثل في هذا الشأن: "إيكنين في التراب، والتشطاية في السماء، والطلحاية في الماء" ويوحى هذا المثل باستخدام هذه العينات الثلاثة من أنواع الشجر في عملية البناء ويوضح استخدامها كل حسب مكانه المناسب لتوظيفه، فجدع شجرة (إيكنين) يقاوم كل الآفات إن غرس في الأرض ، كما تقاوم شجرة الزقوم (تيشط) في الهواء وتصمد كثيراً من الزمن، وتصلح للأسقف والأبواب وغيرها، أما شجرة (الطلح) فإنها تصلح مع الرطوبة وتصمد كثيراً وتوظف في الابواب¹¹⁴⁸.

وفيما يخص مهنة البناء فإننا نجد أن أول من بنى شنقيط المعروفة حالياً بموريتانيا هم المؤسسون الأربعة الذين ورد ذكر أسمائهم سابقاً وقد خصت هذه الرواية أن أعمر يبني هو أول من استغل هذه الحرفة كبداية لتأسيس المدينة ولا توجد روايات تروى أن أحفاد هذا الرجل اختصوا بمهنة البناء التي أكلت إلى جدهم حسب رواية التأسيس، فقد استأثر بهذه المهنة بشنقيط الحمريين وظلوا يزاولونها حتى وقت قريب ولم تقتصر عليهم أيضاً بل زاولها غيرهم بالمدينة مما يؤكد أن المهنة لم تكن حكراً على مجموعة دون أخرى.¹¹⁴⁹

¹¹⁴⁷ - أحمد مولود ولد أيده ،المدن الموريتانية العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص: 342.

¹¹⁴⁸ - أحمد ولد أمبيريك ، بناء مقابلة بتاريخ: 2019/08/13، انواكشوط.

¹¹⁴⁹ - أحمد ولد تلمود، شنقيط دراسة جغرافية، مرجع سبق ذكره، ص: 43.

وقد اشتهر هؤلاء في منطقة الصحراء بحرفة البناء وجودته حتى ذكر في المثل أنفا "البنائي بناي شنقيط".

ويتميز موقع شنقيط بطبيعة رملية متحولة تفرض تعميق أسس البناء إلى أبعد حد ويتراوح عمقها ما بين (50-80 سم).

أما طريقة بناء الجدران فتشترك فيها المدن الأربعة حيث تتألف الحيطان من جدارين خارجيين يفصل بينهما حاجز مبني ويصل متوسط سمك الجدارين إلى (70سم) ويعني بمعالجة لبعض زوايا الجدران الخارجية مما يمنحها شكلا مستديرا (ماريه) ولم يبق من هذه التقنية إلا نماذج قليلة قد أشارت إليها أوديت دي بيفادو، بحي شنقيط العتيق، وحاولت تفسير هذه الظاهرة بأنها تساعد على استدارة الجدران على تصريف الرمال التي تحاصرها¹¹⁵⁰.

كما تشترك المدن في تقنيات الأسقف التي يستخدم فيها خشب النخيل وأنواع الأشجار التي تحدثنا عنها آنفا ويشكل جذع النخيل عنصرا أساسيا في الأسقف حيث يوظف كعوارض خشبية في هذه الحالة ويشترط أن يكون قويا، ويتراوح متوسط عدد الجذوع الموظفة في سقف الحجرة الواحدة ما بين ثلاثة إلى خمسة جذوع على الأكثر بالنسبة للحجرات وتفصل بين هذه العوارض (50سم) وتتوسط أعمدة صغيرة بين تلك العوارض ثم تفرش بسعف النخيل وتوضع عليه (اللقمة) وهي طبقة سميكة من البانكو لتثبيتته قد يصل سمكها إلى (20مس) مما يشكل حائلا دون نفاذ الماء في حالة نزول الأمطار¹¹⁵¹.

ويقاس عرض حجرات المسكن بطول قناطر خشب النخيل أو الأشجار المستخدمة وقد تصل القناطر الخشبية إلى (5م) في المتوسط غير أن توظيفها في الأسقف يكون في الغالب على قياس ثلاثة أمتار ويعود ذلك إلى الحرص على أن لا يكون القنطرة هزيلا، وقد اهتم

¹¹⁵⁰Paule, Marie et Buffet. Hugot. op.cit.p: 35.

¹¹⁵¹ - أحمد مولود / أيده، مدن مويثانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص : 356.

البنائون بالجانب الجمالي في الأسقف الخشبية، وقد وجدت أصناف ونماذج في بعض المدن مرصوفة بفتية عالية¹¹⁵².

5- المقابر

تقع مقبرة شنقيط غربي الحاضرة العتيقة على الجانب الأيسر للبطحاء و تمتد على مسافة تصل إلى (150*300م) تقريبا، وقد لاحظ بعض الدارسين، أن جل شواهد القبور بهذا الفضاء حديثة، وسلطوا الأضواء على بعض شواهد المدفن خلال خمسينيات القرن العشرين، لكنهم ميزوا شواهد مدافن قديمة ، ولفت انتباههم نقيشة باسم امرأة بافورية تدعى بندا البافورية نسبة إلى القبيلة البافورية الذي يرى بعض الباحثين أنهم المعمرون الأوائل لمنطقة آدرار، كما ميزوا ضريح امرأة علوية هي رقية بنت علي بن عبد الله المشهور بالأحمر منقوش على صخرة كبيرة بأحرف عربية بارزة ، و هو من أقدم الأضرحة في مقبرة شنقيط القديمة الواقعة في الجانب الشمالي الغربي للمدينة¹¹⁵³.



صورة رقم 63 : ضريح من أقدم الأضرحة في المقبرة القديمة بشنقيط

نادي علوي شنقيط على الواتساب، تاريخ الزيارة: 2021/03/18

¹¹⁵² - أرميظين ولد الشيخ، بناء، مقابلة، بتاريخ: 2019/01/13.

¹¹⁵³ - نادي علوي شنقيط على الواتساب، تاريخ الزيارة: 2021/03/18.

يذكر أن إحدى القبائل الموريتانية (أسماسيد) كان لها مدفن خاص بها في مدينة شنقيط، لا تزال بقاياها ماثلة للعيان جنوب غربي الحي العتيق¹¹⁵⁴.



صورة رقم 64 : أحد مدافن شنقيط القديم

2021/03/18<https://www.google.com>

كما توجد شواهد قبور في الطرف الشمالي لصحن بيت الصلاة بمسجد شنقيط يعتقد البعض أنها قبور لرجال أهل شنقيط إلا أن أوديت دي بيجادو (PugaudeauOdette)، ذكرت أن هذه الشواهد ليست مدفنا فعليا ، بل مجرد أنصاب تذكارية لأشخاص أصيلي شنقيط، قضوا نحبهم بعيدا عنها، وقد تم وضع النصاب لتذكير المصلين بالدعاء لهم¹¹⁵⁵.

المبحث الثاني: أدوار المدينة

المطلب الأول: الدور السياسي

لقد فرض المرابطون الذين حكموا المجال الصحراوي سلطتهم الدينية ومن مظاهرها الدور الذي قام به الفقهاء المالكيون الذي رافق الحكم المرابطي منذ نشأته وظل الفقيه يمارس العمل السياسي عن طريق الفتوى والمشاورة حتى النهاية، وقد انعكس هذا الدور على المدن الصحراوية الوسيطة مدة قرون من الزمن ' حيث كانت جماعة الحل والعقد " في المدن

¹¹⁵⁴ - أحمد مولود/ أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص : 204.

¹¹⁵⁵ - مقابلة مع الباحث المصطفى ولد أحمدان، بتاريخ: 2021/01/16 بشنقيط.

العتيقة نموذجاً لذلك وقد تحدث عن ذلك الباحث والأستاذ يحيى بن البراء بتعريفه لجماعة الحل والعقد في العرف الدلالي للفقهاء المحليين : بمونها مجموعة الرجال المنتمين إلى القبيلة ممن تمد إليهم الأيدي لدى النوائب، مع اشتراط أن تتوفر فيهم ثلاثة شروط: العدالة والعلم بشروط الإمامة و الخبرة بالرأي، هؤلاء الرجال هم من يمتلكون سلطة القرار والأخذ بالمبادرة في كل الأحوال¹¹⁵⁶.

وينطبق الحال فيما يبدو على المجال الصحراوي بشقيه البدوي والحضري من جهة إلا أن هناك بعض الاختلافات تتعلق بجوانب المدن دون غيرها من المجال الصحراوي ككل.

ويعود ذلك الاختلاف الحاصل بين سكان المدن من جهة والقبائل ومضارب خيامها وما يترتب على ذلك من خصوصية، وقد اتخذت جماعة الحل والعقد في هذه المدن مسؤولية اختيار الرئيس بالإضافة إلى تولي الإمامة والقضاء، ويبدو أن اختيار رئيس المدينة يخضع إلى أقدمية إحدى القبائل التي تسكن المدينة وقد انفرد يحيى جد قبيلة إدو علي برئاسة مدينة شنقيط واستمرت في عقبه، يقول سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم في هذا المضمرة: إن سكان شنقيط¹¹⁵⁷ إذا مات منهم شيخ رأسوا عليهم آخر فبقيت دولتهم بشنقيط دولة دين وعلم ثلاثاً وثمانين سنة مدة حياة الشيخ سيد أحمد الوافي فلما توفي وقعت بينهم الحرب.

وبدل هذا النص على مكانة رئيس المدينة المتمثلة في التنسيق بين جماعة الحل والعقد المكونة من رؤساء الأحياء والقبائل التي تحيط بالمدينة والسعي في حل المشاكل المطروحة ورد المظالم وردع الفساد، وتسيير القوافل.

¹¹⁵⁶ - يحيى ولد البراء، الفقه والسلطة والمجتمع، مرجع سبق ذكره، ص: 67.

¹¹⁵⁷ - سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، صحيحة النقل، مصدر سبق ذكره، ص: 6.

وقد تعاظم نفوذ الفقهاء في هذه المدن مما أدى إلى حصول تداخل في الوظائف حيث جمع بعضهم بين الرئاسة والقضاء والإمامة والأمثلة على ذلك كثيرة من بينها محمد المختار بن الأعمش (العلوي) وهو أبرز فقهاء شنقيط الذين آلت إليهم الرئاسة الدينية والدنيوية¹¹⁵⁸.

ومن أشهر قضاة مدينة شنقيط: القاضي عبد الله بن الطالب بن حبيب العلوي وقد خرج من شنقيط ، إلى أرض القبلة معتزلاً الحرب بين بطون القبيلة¹¹⁵⁹.

وعبد الله بن محمد المعروف بابن رازكة العلوي والطالب جدو بن الشيخ العلوي ،ومن آخر قضاة شنقيط الشيخ بن حامني العلوي وقد خلفه في القضاء ابنه محمد عبد الله وهو آخر قضاتها¹¹⁶⁰.

ومن أشهر أئمة شنقيط: محمد قلي جد قبيلة لقلال وابنه محم ثم شمس الدين (اسماسيد)، وأحمد الوافي والإمام محمد بن الأمين الملقب بإمام الوطية وسيد محمد بن حبت القلاوي ثم ابنه أحمد بن سيد محمد بن حبت وغيرهم¹¹⁶¹.

المطلب الثاني: الدور الاجتماعي

تتضارب الروايات المحلية حول مدينة آبير (شنقيط) القديمة سواء تعلق الأمر برواية التأسيس وما يتعلق بسكانها الأصليين ولم يخضع الموقع لأي بحوث أثرية من شأنها أن تنير طريق الباحث في هذا المجال بل اقتصر الأمر على ما دونه كتاب المنطقة عنها وقد ذكرها محمد أمبارك اللمتوني في معرض حديثه عن الفتح المرابطي أن الفاتحين لاقوا صعوبات في دخول مدينة آبير (شنقيط) القديمة، إذ أشار في أرجوزته السابقة إلى عظمة تحصينها في تلك الفترة وصف الحصار الذي ضربه الفاتحون على المدينة وحدد مدته بعام كامل الشيء الذي كشف عن قوة حصون المدينة في تلك الفترة، كما أخبر أيضا أن الجيش المرابطي

¹¹⁵⁸ - أحمد مولود / أيده، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص : 163.

¹¹⁵⁹ - نفسه.

¹¹⁶⁰ - ابن أحمد المصطفى المحجوبي، منح الرب الغفور، مصدر سبق ذكره، ص : 275.

¹¹⁶¹ - أحمد مولود أيده ، مدن موريتانيا العتيقة، مرجع سبق ذكره، ص : 172.

تغلب على تلك المدينة بعد الحصار وذكر قتل الرجال والنساء وسبي العبيد والإماء وأخذ الأموال وتقسيمها على الجيش، لكن الأبيات لم تذكر إلا عملية الفتح فقط دون الخوض في سكان المدينة وتشكيلتهم الاجتماعية والعرقية، بل اكتفى بوصفهم بالكفر الصميم¹¹⁶²، لكن محيط آبير الجغرافي والاجتماعي كان يعج في تلك الفترة بالقبائل الصنهاجية إضافة إلى قبائل البافور وغيرها وكذلك أقليات زنجية مختلفة الأعراق، مع مزيج من التجار القادمين من الشمال والذي يذكر بعض الباحثين المحليين أن من بينهم تجارا من اليهود.

ولم تسعنا المصادر المحلية عن التشكيلة السكانية لمدينة شنقيط في الفترات اللاحقة إلا ما ذكره الفقيه سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم حيث يتحدث عن مسار قبيلة (إدوعل) فيقول: "... وهم كانوا زمانا قبل آبير (شنقيط)، في تلبالت قرية بالجزائر ... ثم لم يزل العلويون قبائل كثيرة بآبير، وقد بلغنا أن كل من أول اسمه "إد" بكسر الهمزة وفتح الدال المهملة، من قبائل الزوايا خرج من آبير وكان العلويون فيه أربعين أو اثنين وأربعين قبيلة ما بين صميم وحليف¹¹⁶³.

وفيد النص الذي ورد عن سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم أن قبيلة إدوعل قدمت على آبير من قرية تلبالت (الجزائرية) ونزلت بآبير (شنقيط) القديم ويبين أن عددهم بالمدينة يبلغ اثنان وأربعون قبيلة ما بين صميم وحليف مع أن صاحب النص ذكر أن المدينة كانت تسكنها قبائل من الزوايا وقد ذكرت الروايات الشفهية لقبيلة إدوعل أنهم قدموا من تلبالت إلى آبير (شنقيط) القديم حوالي 518 هـ¹¹⁶⁴.

وقد انتقلت هذه القبيلة (إدوعل) لتؤسس شنقيط الثانية والتي تبعد من آبير (شنقيط) القديمة ثلاثة أميال، من طرف المؤسسين الذين وردت أسماؤهم في رواية التأسيس السالفة واطمحت

¹¹⁶² - محمد مبارك، اللمتوني، نظم اللمتوني، مصدر سبق ذكره، ص : 2.

¹¹⁶³ - سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم، صحيحة النقل، مصدر سبق ذكره، ص: 5.

¹¹⁶⁴ - نفسه.

عمارة مدينة آبير (شنقيط) الأولى لصالح عمارة شنقيط الثانية منتصف القرن السابع الهجري وسكنتها قبيلة إدو علي.

أولاً: سكان المدينة

(1) إدو علي

والتي تنحدر حسب النسابة من يحي العلوي الذي ينتهي نسبه إلى محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب.

(2) لقلال

تنحدر قبيلة لقلال من العالم الصالح محمد قلي الذي ينتهي نسبه إلى عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر بن قحافة (أبو بكر الصديق)

وقد ساهمت الروابط الاجتماعية بين القبيلتين في استقرار وازدهار المدينة فوزعوا المهام بينهما فكانت سياسة المدينة من نصيب إدو علي وإمامة المسجد من نصيب لقلال.

ثانياً: العادات والتقاليد

العادات هي عبارة عن قواعد عملت كافة الشعوب على الاعتقاد على القيام بها في المجتمع بالإضافة إلى التقاليد التي هي الأخرى عبارة عن مجموعة من السلوك والأفعال المنتقلة من زمن إلى زمن، وقد دأب الشناقطة على عاداتهم وتقاليدهم كباقي الشعوب الأخرى وتمثل ذلك في سلوكهم وأنماط عيشهم وملابسهم ومعاملاتهم التي ميزتهم عن غيرهم وقد أخذت مدينة شنقيط كغيرها من المدن الصحراوية نصيبها من ذلك.

(1) أنماط المعيشة

كانت مدينة شنقيط إحدى المدن الصحراوية التي عرفت بدورها التجاري داخل إقليمها الصحراوي إبان العصر الوسيط وكان لسوقها انعكاسات على نمطها الغذائي حيث جلبت لها المواد الغذائية من الشمال والجنوب عن طريق القوافل، كما ساعد محيطها الرعوي والمتمثل

في حركة الانتجاع في مراعي محيط المدينة التي تجلب لها الحيوانات التي توفر اللحم للمدينة وكذلك الألبان وغيرها من المنتجات الحيوانية، إضافة إلى نصيب مدينة شنقيط من واحات النخيل التي توجد بشكل كبير في منطقة آدرار وما زالت شنقيط الأولى تحتفظ بالقليل منها، أما شنقيط الثانية فتكثر بها واحات النخيل¹¹⁶⁵ ويزرع القمح والشعير تحت النخيل في فترة الشتاء ويحصدونها في فصل الصيف¹¹⁶⁶.

وقد توارثت الأجيال الشنقيطية منذ القدم أنواعا من الوجبات الغذائية، كانت سائدة في مجال صحراء المثلثين نظرا لسهولة تحضيرها و كثرة إنتاجها:

- الكسرة: وهي عبارة عن خبزة مسطحة مصنوعة من الشعير والقمح ويجعل عليها المرق.
- الكسكس: بالطريقة الشنقيطية، يصنع من الذرة والقمح ويجعل أيضا عليه مرق اللحم.
- بلقمان: وهو دقيق الشعير مصنوع بطريقة خاصة (مقلي) يجعل عليه القديد الذي هو اللحم المجفف (التيشطار).

(2) الملابس

من المعلوم أن الزي (الملابس) في المجال الصحراوي كان موحدا منذ القدم، وكانت مدينة شنقيط إحدى المدن الصحراوية التي عرفت الملابس المتداولة في العصر الوسيط حيث كانت المبادلات التجارية تتم في المدينة بين بعض السلع كالمح والملاص، وكان يأتي إلى سوقها خنط يسمى "لكحال"، أو "الأنصاف" وأردية تسمى دumas وديسينة".¹¹⁶⁷

ولا تخرج مدينة شنقيط في زيها عن باقي إقليمها الصحراوي الذي تنتمي إليه بل ظلت متمسكة بزيها التقليدي حيث الدراعة هي الملابس المعروفة لدى الرجال إضافة إلى السروال

¹¹⁶⁵ - اسلم ولد السبتى، تراث النخيل في مدينة شنقيط، زيارة موقع Info,Naharim يوم 2020/12/15، 18h

¹¹⁶⁶ - أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط، مرجع سبق ذكره، ص:74.

¹¹⁶⁷ - نفسه، ص: 83.

والقميص، وكذلك الملحفة والإزار الذي ترتديه بنات الصحراء منذ القدم، أما الأطفال فكانت لديهم الدراعة بالتساوي (أولاد، بنات) مع اختلاف في الميزة واللون.

ومن زي الملابس للعرائس الشنقيطية الملحفة ذات اللون الأسود!، وهذا ما يميزها عن باقي المجتمعات الأخرى التي ترى أن السواد رمز للحزن لا رمز للفرح.

ويرى الباحثون الاجتماعيون أن هذه العادات المتجذرة في المجتمع الصحراوي ، موروثة عن القبائل البربرية التي كانت تسكن بالصحراء قبل مجيء الإسلام¹¹⁶⁸.

(3) مكانة المرأة

لقد تبوأَت المرأة الشنقيطية المكانة المتميزة ضمن محيطها الصحراوي الذي كان دأبه الاهتمام بها وجعلها في المستوى اللائق، وقد تحدثت الأمثال الحسانية عن تكريمها والرفع من شأنها إذ يقول المثل "هن عمائم الأجواد ونعايل لكلاّب" بمعنى أن المرأة تجعل على الرأس من طرف أكابر الرجال وأفاضلهم وتُداس بالأقدام عند الرجال الذين لا كرامة لديهم "هن عمائم الأجواد ونعال الكلاّب" لا يكرمنهن إلا كريم ولا يهينهن إلا لئيم، وربما تعود المجتمع الشنقيطي على هذه العادة وأصبحت من أسباب دلال المرأة عند الرجال سواء الأب أو الأخ أو الزوج أو الابن كل هؤلاء مطالبون بتكريم المرأة والاهتمام بها.

حافظت المرأة على هذه المكانة لنفسها ، و اعتزت بها وشاركت في جوانب الحياة بكل ما أوتيت من جهد و تفكير، حيث كانت المرأة بمدينة شنقيط و منطقة آدرار عموما تعرف بنشاطها الاقتصادي داخل المدن و في الأرياف والبادي.

وقد عرفت المرأة الشنقيطية بمشاركتها في بناء المدينة من خلال طرق متعددة ، فإلى جانب الرجال كانت تشارك في تدريس الأطفال من بنين وبنات.

¹¹⁶⁸ www.slam.web.net - الزواج في موريتانيا نفس الموقع السابق.

وكان لها الحضور في الجانب الاقتصادي مثل الزراعة وصناعة الأدوات المنزلية من النخيل مثل الحصير وبعض الآلات الأخرى.

كما شاركت في صناعة حلي النساء من (الخرز) والذي يستخدم في تجميل ضفائر النساء على مستوى أعمارهن.

وتشترك مدينة شنقيط مع مجالها الصحراوي سواء الحضري أو البدوي في عادات الزواج التي تميز المرأة الشنقيطية عن المناطق الإفريقية الشمالية والجنوبية السودانية وتتمثل في عادات الزواج التي يتم فيها الاتفاق بين العائلتين بحضور كبار السن من دون حضور العريسین ويشترط على الزوج أن لا سابقة ولا لاحقة وإلا فأمرها بيدها أو بيد وليها¹¹⁶⁹.

كما تتعرض العروسة لديهم "للترواغ"¹¹⁷⁰ وهي عملية إخفاء تقوم بها النساء للعروسة خاصة صديقاتها.

المطلب الثالث: الدور الاقتصادي

لقد تمكنت مدينة شنقيط بموقعها التجاري على الطريق الغربي الصحراوي الهام من اكتساب مكانة جعلت منها سوقا تجارية طيلة قرون عديدة زادت من استقطابها للسكان القادمين من الشمال الإفريقي.

ومما عزز ذلك كونها مدينة واحاتية من مدن آدرار التي تتواجد بها كمية هائلة من النخيل بالمنطقة، ويزرع بها القمح والشعير وفندي في الشتاء ويحصدون في الصيف كما توجد بها

¹¹⁶⁹ - تشترط النساء بصحراء المثلثين عند الزواج عادة، شرطا جوهريا تختصره عبارة "لا سابقة ولا لاحقة" و إن فعل شيئا من ذلك فأمرها بيدها أو بيد وليها" و يعني هذا أن لا تكون على ذمة الزوج زوجة سابقة و لا يحق له أخذ زوجة لاحقة مستقبلا، و ذلك حماية لها من الضرر، وبموجب هذا الشرط فإن حق الطلاق يصبح بيد الزوجة أو بيد وليها في حالة زواجه عليها أو احتفاظه بزواجه القبلي.

¹¹⁷⁰ - الترواغ: عملية إخفاء العروس من طرف صديقاتها عن زوجها بعد إكمال مراسم الزواج، حيث تحرص صديقات العروس على حمايتها والعمل بكل جهد لإخفائها في مكان مستتر ويتخذن لذلك كل الحيل ، فتارة يجلسن مكانها إحدى صديقاتها بنفس مواصفات الملابس لخدعة العرس ورفاقه ، وتارة يذهبن بها لقضاء حاجة ومن ثم يخفينها مع إحدى صديقاتها في إحدى منازل الحي وهذه العادة متجذرة في القدم بين سكان منطقة الصحراء.

أصناف المواشي كالغنم والبقر والإبل¹¹⁷¹ وتوجد المدينة بجانب سبخ الملح كسبخة "اجل" التي تنطلق منها القوافل محملة بالملح متجهة إلى مدينة تيشيت و غيرها من مدن الجنوب السوداني كما يحمل من السبخة إلى سوق شنقيط، ودل هذا على الازدهار التجاري الذي وصلت إليه المدينة بالإضافة إلى سوقها العامر من المواد المتبادلة تجاريا بين الشمال والجنوب في تلك الفترة كزرع السودان والملح والخيل والثياب والعبيد، وسرعان ما استجلبت سكان المجال الصحراوي ككل مكونة محطة يتجمع فيها المسافرون وينطلق منها الحجاج في رحلة الحج إلى الديار المقدسة، الشيء الذي أكسبها الشهرة على باقي المدن الأخرى فسمي الإقليم الصحراوي كله باسمها وعم ذلك الصيت جميع السكان حتى عرفوا في سائر الأمصار باسم "الشناقطة"¹¹⁷².

المطلب الرابع: الدور العلمي و الفكري

لقد وردت أسماء عديدة في بعض المصادر العربية والمحلية عرف بها المجال الصحراوي خلال الفترة الوسيطة منها بلاد التكرور وصحراء الملتمين وصحراء صنهاجة وبلاد انبيه، وسرعان ما انتزعت مدينة شنقيط تلك التسمية وصارت علما على البلاد ومكان تجمع القوافل المتجهة للحج والتي عرفت عند المشاركة باسم القافلة الشنقيطية.

وقد نالت بلاد الصحراء حركة علمية وثقافية في ظل الدولة المرابطية التي كانت قائمة خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، كما ساهم ازدهار الحركة التجارية أثناء الاستقرار الذي نعم به الغرب الاسلامي تحت الحكم المرابطي في تطوير الحركة العلمية و الثقافية ' مما سهل التنقل بين المراكز التجارية ذات الوظائف العلمية والثقافية حيث انطبعت الرحلات والأسفار و سهلت تنقل الشخصيات العلمية ونقل الكتب من الشمال الإفريقي إلى الجنوب السوداني عبر الحركة التجارية¹¹⁷³.

¹¹⁷¹ - أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط، مصدر سبق ذكره، ص: 523.

¹¹⁷² - القدس العربي، مقالة تحت عنوان، شنقيط حاضرة علم ومنازة تمت زيارة الموقع 2020/12/12 - <https://www.wlquds.c.o.uk> 5h

¹¹⁷³ - زيارة الموقع بتاريخ 2020/10/20 - <https://lm,facelook.com>, 4h

ولم تقتصر الحركة العلمية والثقافية التي عرفتها البلاد الصحراوية على المراكز الحضرية فحسب بل انتشر ذلك ليشمل باقي المجال الصحراوي، حيث نشأ النظام المحظري الذي وصفه بعض الباحثين المحليين على أنه اقتفاء لأثر الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي، الذي كون الرباط إبان الحركة المرابطية، كما كان لقُدوم الإمام الحضرمي (المرادي) قاضي مدينة أزوكي عاصمة الدولة المرابطية بالجنوب الأثر البالغ على سكان تلك المنطقة حيث قام بتدريس بعض المتون كمختصر خليل في الفقه المالكي الذي أصبح من ركائز التعليم الشنقيطي فيما بعد¹¹⁷⁴.

وقد تميزت البلاد منذ تلك الفترة بطابعها العلمي الذي ميزها في الأمصار لاحقاً رغم ما عانت من قساوة المناخ الصحراوي وطبيعة الانتجاع فلم يثن ذلك عزائم العلماء عن التدريس والتأليف وانتشار المحاضر.

ويتحدث حماد الله ولد السالم عن نظام المحظرة في بلاد شنقيط فيقول: "فالمحظرة الموريتانية مؤسسة طريفة، فاللوح الخشبي والقلم السيل والحبر مصنوع من مشتقات معدنية محلية كلها أدوات بسيطة، وأصيلة قضت بها عبقرية الموريتاني على دياجير الجهل وحققت بها ما حققته كبريات المدارس الإسلامية بما ملكت من وسائل متطورة حينها¹¹⁷⁵."

وقد عرفها أحد الباحثين المحليين على أنها جامعة شعبية بدوية مستقلة تلقينية مزدوجة التعليم وطوعية الممارسة، فهي من مؤسسات التربية العربية الإسلامية الأصيلة تحمل بعض سمات وخصائص النظام التربوي الذي نشأ وازدهر في أحضان مدن الثغور وحواضر الخلافة¹¹⁷⁶.

¹¹⁷⁴ - تاريخ زيارة الموقع 07/10/2020 <http://s.w.w.walbynae/fiv>

¹¹⁷⁵ - تاريخ زيارة الموقع: 13/06/2020 <http://slwww.shorokne.ws.com>

¹¹⁷⁶ - الخليل النحوي، المنارة والرباط، مرجع سبق ذكره، ص: 28.

ويتكون نظام المحظرة من طاقم تدريسي يعتمد على (شيخ المحظرة) والذي يمثل رئيس جامعة أو عميد كلية وله معاونون أو أساتذة يعلمون الطلاب تحت إشراف الشيخ.

وقد ذاع صيت بلاد شنقيط إبان الرحلات الحجية التي تنقل فيها الكثير من مشاهير العلماء الشناقطة وعرفوا بهذا الاسم ولهم أدوار في التدريس بالجامع الأزهر وبالحجاز والمغرب وباقي الأقطار العربية الأخرى كما عرفت مؤلفات ومصنفات كثيرة صدرت عن هؤلاء لا يتسع المقام لسرد أسمائهم ولا أسماء مؤلفاتهم أيضا ولم يقتصر دورهم على التدريس والتأليف بل واكبوا الرحلات التجارية التي كانت تنتقل بين المراكز التجارية والتي وطدت النهضة الثقافية والعلمية التي عرفتتها مدن الصحراء إبان ازدهارها.

وتعد مدينة شنقيط من بين المدن التي حافظت على الكثير من المخطوطات الذي تم إحصاؤها من طرف مشروع صيانة وتثمين التراث الثقافي الموريتاني .

وتوجد هذه المخطوطات في مكتبات أهلية ، مخفية في الغالب، يخاف عليها من الفساد والضياع، وتوجد من ضمنها مخطوطات كتبت على جلد الغزال وأحييت بأغلفة من جلد الماعز وتتناول الكثير من العلوم والفنون بما في ذلك علوم القرآن¹¹⁷⁷، والحديث وعلم الفلك والرياضيات والهندسة والنحو وعلوم اللغة والشعر والتاريخ والطب والجغرافيا وغيرها، ومن بينها أقدم نصوص قرآنية يعود تاريخ نسخها إلى القرن التاسع الهجري، وكانت مدينة شنقيط حلقة وصل ومعبر تجاري بين مشارق الأرض ومغاربها ومن بين المكتبات التي تم الحفاظ عليها حتى اليوم: مكتبة أهل حامي، ومكتبة أهل عبد الحميد ومكتبة أهل السبت ومكتبة أهل لداعة، ومكتبة أهل الخرشي و مكتبة أهل حبت ومكتبة أهل ملاي أحمد، وكلها مكتبات خاصة تحت رعاية أصحابها من أسر هذه المدينة.

1177-www.noonpost.com h12. 16/01/2020 زيارة الموقع

كما تعددت المكتبات بمدينة شنقيط حيث بلغ عدد المخطوطات أكثر من 4135 إضافة إلى آلاف الوثائق¹¹⁷⁸.

¹¹⁷⁸ - الطالب أحمد أطويز الجنة، مقال، مرجع سبق ذكره، ص: 13.

الخاتمة :

كانت صحراء الملثمين منذ فجر التاريخ محل هجرات سكانية جابت جل مناطق المجال الصحراوي، متخذة منه مسارح للانتجاع جيئة وذهابا، تاركة خلفها إرثا تاريخيا ثميناً، يؤرخ لحضارات إنسانية تعاقبت على أديم أرضها، رسمت نقوشها وأسست لإعمارها ووسطرت في كراسها سيرها التي تخلد وترمز لوقائع أثرت في مجرى الأحداث التي عاشها المجال الممتد من مملكة غانه جنوباً إلى المغرب والأندلس شمالاً. وقد لعب المجال الصحراوي دوراً بارزاً على مدى التاريخ، واكتسب أهمية كبرى، خاصة خلال العصور التاريخية المنصرمة، بفعل الصلات التجارية التي كانت قائمة فيما يعرف آنذاك بالتجارة عبر الصحراء. وقد ظلت تلك الصلات متواصلة إلى أن تحولت المبادلات التجارية في سياق تاريخي معروف "بالتحول التجاري" فيما بعد.

ونظراً للأهمية الاستراتيجية للمجال، تكونت به مراكز تجارية قائمة على أسواق محلية أسست لوجود مراكز نمت وتوسعت لتصبح فيما بعد حواضر أو مدن في المنطقة، تركت صداها في المصادر العربية والأجنبية، كما تحدث عنها الباحثون المحليون وأطلقوا عليها المدن الوسيطة. غير أن تلك الدراسات، كما تمت الإشارة إلى ذلك من قبل، لم تشمل جميع جوانبها ولم تف بالمطلوب، بل ظلت ناقصة ولا تزال، نظراً لما تزخر به المنطقة من تاريخ عجزت الأقلام والبحوث عن الكشف عنه.

وقد سعت هذه الدراسة بدورها إلى التوسع - ما أمكن - في جوانب الموضوع للإجابة عن التساؤلات المتعلقة به. وكان للمجال الصحراوي وما شهدته من أنشطة مختلفة في العهد الوسيط الدور الأبرز فيها، وكذا تأثير دولة المرابطين على ذلك التمدن، وأهم تجليات ذلك التأثير في الجانب التاريخي والعمراني، ومدى قوة المؤثرات العمرانية الوافدة مع الحركة المرابطية إلى مدن الصحراء والتي عرفت في القرن (5هـ - 11م) تحولات تاريخية شملت الجوانب الاقتصادية والثقافية والعمرانية والاجتماعية نتيجة للاستقرار واستتباب الأمن الذي

وفترته الدولة المرابطية أثناء حكمها، إضافة إلى توفير نقاط المياه (الآبار) على الطرق التجارية المسلوكة (الطريق للمتوني) والطريق الشرقي الرابط بين المدن الجنوبية والشرقية الصحراوية.

وقد تم الفتح المرابطي عن طريق السلم، حيث خضعت القبائل الصنهاحية وبعض المدن باستثناء اوداغست والتي وقعت بها اشتباكات أسفرت عن سيطرة المرابطين على المدينة، بالإضافة إلى مدينة آبير (شنقيط) والتي حوصرت لمدة سنة قبل دخولها عنوة.

ومن الناحية العلمية والثقافية، كانت صحراء المثلثين بمثابة حاضنة للرباطات العلمية، حيث انتشرت بها كتابات لتحفيظ القرآن، وكذلك محاضر اعتُبرت بمثابة مراكز إشعاع علمية لنشر المعارف والعلوم الشرعية واللغة العربية في ربوع الصحراء. أما من الناحية الاجتماعية، فقد أصبحت مدن الصحراء مستقرا للوافدين من مختلف الجهات، فتشكلت بها مجتمعات مختلفة الأعراق، وهو ما أسهم في بلورة منظومة قيمية وأخلاقية للتأسيس للتعايش وتدبير الاختلاف. فيما يخص الناحية الاقتصادية، كانت المدن الصحراوية معبرا للقوافل التجارية، مشكلة بذلك منطقة وصل اقتصادية ربطت الشمال الأفريقي بجنوبه.

وأثرت العمارة المغربية والسودانية على المدن الصحراوية الوسيطة في العهد المرابطي عن طريق انتقال الجاليات التجارية واستقرارها في تلك المدن. وقد تجلت مظاهر هذا التأثير بصفة خاصة في العمارة الدينية والسكنية والعسكرية، حيث تمت ملاحظة بعض أوجه التشابه بين "قلعة القصيبة" في أزوكي ونظيراتها بمراكش، كما لاحظ بعض الباحثين ومن ضمنهم هنري توماس، وجود تشابه بين الطلاء الأحمر على جدران بنايات مدينة ولاته وبين طلاء بنايات مدينة مراكش، والذي يعود أصله إلى مدينة أغمات المغربية حسب الباحث، وهناك أيضا تشابه بين "طرحة الكرك" وبعض الزخارف المراكشية. وكذلك الشبه بين العمارة السكنية الصحراوية والسودانية.

ولم تعرف المدن الصحراوية الازدهار في نفس العهد مع أنها فتحت من طرف المرابطين في فترات متقاربة، فبينما ازدهرت ازوكي واوداغست وكومبي صالح مع بلوغ الدولة المرابطية أوج ازدهارها، لم تشهد باقي المدن تغيرا يذكر إلا في قرون لاحقة.

ولم تكن المدن الثلاثة استثناء في التاريخ، فقد كان لابد لسننه أن تسري عليها أيضا، فكان التراجع ثم الاندثار قدرا محتما ساهمت فيه عوامل سياسية واقتصادية وطبيعية وأخرى بشرية. ويمكن إجمال أهم هذه العوامل في ضعف السلطة السياسية للدولة المرابطية ضعفا تدريجيا، أدى إلى انعدام الاستقرار والأمن، وهو ما كان له تأثير مباشر على المسالك التجارية التي اضطرت إلى تغيير مساراتها نحو جهة أخرى. كما تعرضت المنطقة في الفترة الثانية الوسيطة لموجات جفاف تمثلت في تراجع كميات الأمطار واستنزاف مخزون المياه التي أصبحت عاجزة عن تلبية حاجيات السكان ومواشيهم، وكذلك حاجيات القوافل الوافدة إلى المدن. وقد ساهمت هذه الظروف في نزوح بعض السكان، وظهور مؤشرات عداء بين من بقي منهم، وخاصة المنتمين إلى أعراق مختلفة كالعرب والبربر والسودان، فضعف النسيج الاجتماعي وسهل التغلب على أهل المدن من طرف فئات خارجية حتى اندثرت تلك المدن، لكن ذلك الاندثار لم يخلق فراغا يذكر لوجود وريثات (مدن قائمة) في نفس المجال الصحراوي تلقت كل الموروث الصحراوي المرابطي الإسلامي الذي كانت تحويه المدن الصحراوية الوسيطة المندثرة وتعرف المدن الوريثة ب: المدن الصحراوية الوسيطة الحية.

شهدت هذه المدن الحية توسعا معماريا وثقافيا أثناء الحكم المرابطي للصحراء، إلا أنه ظل توسعا محدودا إلى أن تحولت إليها الطرق التجارية بعد اندثار المدن السالفة الذكر. ولعل الشبكة التجارية القائمة بينها من أهم العوامل التي ساهمت في بقائها قائمة إلى يومنا هذا تقدم عطاءات ثقافية ودينية متميزة وهذه المدن هي : ولاته - وادان - تيشيت - شنقيط، وقد ظلت تحافظ على عمرانها منذ العهد الوسيط خاصة المرابطي منه، من حيث التجانس في

التصاميم وأنواع الزخرف والإتقان والتخطيط العمراني للمدن وتسويرها والممرات الآمنة وشكل المنزل ومكوناته.

بالإضافة إلى هذا، هناك العمارة الدينية التي ترمز لها المئذنة والمنبر في العقيدة المرابطية الإسلامية، والتي تعبر عنها الرباطات العلمية التي هي المنطلق الرامي إلى نشر تعاليم الدين الإسلامي وإشاعة المذهب السني في هذا الجزء من الصحراء.

ولعل أهم ما يمكن استخلاصه من هذه الدراسة هو أن العامل الأساسي المتحكم في حفاظ المدن على بقائها هو العامل الاقتصادي، حيث لاحظنا أن المدن جميعها سواء المندثرة منها أو الحية، قد خضعت لنفس النظم السياسية، كما أن ظروفها الطبيعية والبشرية متقاربة باعتبارها مدنا صحراوية تضم ساكنة مختلفة الأعراق، فلم يبق إلا العامل الاقتصادي، حيث ارتبطت الحياة في هذه المدن بنشاط التجارة فيها.

وفي ختام هذا البحث، لا بد من الإشارة إلى أنه وخلافا لحال المدن القديمة الحية، والتي أدرجت ضمن مواقع التراث العالمي مما جعلها تحظى بعناية ووصاية مؤسسة المدن القديمة بنواكشوط، تتعرض أطلال المدن المندثرة للنهب والاستخدام الخاص من طرف سكان المدن المجاورة، وهو ما يلحق ضررا كبيرا بموروث ثقافي قيم يشهد على فترة تاريخية نشيطة عرفت فيها المنطقة. ومن هذا المنطلق، يمكن تقديم مجموعة من التوصيات، قد تساعد، إن تحققت، في إنقاذ ما يمكن إنقاذه واستثمار هذا الكنز المدفون تحت التراب لما فيه خير للبلاد، ومن هذه التوصيات:

- دعوة الأركيولوجيين والباحثين الأكاديميين لجعل تلك المدن موضوعا لدراساتهم الميدانية والتاريخية والأنثروبولوجية، حيث يساهم البحث الأكاديمي في زيادة الاهتمام العالمي بمثل هذه المواقع.

- توجيه نداء للسلطات الموريتانية للاهتمام بالمواقع الأثرية وجعلها قبلة سياحية وتيسير مهمة الباحثين الراغبين في الاشتغال عليها بتجهيز البنى التحتية اللازمة تسهيلا لهم على أداء مهماتهم.
- التوعية بضرورة صيانة وترميم البقايا الأثرية الموجودة في المدن الحية حتى لا تنهار وتتعرض للاندثار بدورها.

قائمة المصادر والمراجع

■ القرآن الكريم

أولاً: المخطوطات المحلية:

- (1) ابن الحاج إبراهيم (سيد عبد الله)، **صحيحة النقل في علوية إدوعل وبكرية محمد قللي**، بحوزتنا صورة منه.
- (2) ابن حبت (سيد أحمد)، **تأليف غير معنون يذكر القبائل التي خرجت من مراكش إلى بلاد التكرور**، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي بنواكشوط، تحت رقم 2766 بحوزتنا صورة منه.
- (3) اللمتوني (محمد امبارك)، **نظم في الدولة اللمتونية**، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي مسجل تحت رقم 2838 بحوزتنا صورة منه.

ثانياً: المصادر

- (1) ابن الأثير عز الدين (أبي الحسن)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق عبد السلام تدمري، (1357هـ - 1938م)، إدارة الطباعة المنيرية، بيروت، ج (3)، 2012.
- (2) ابن الأحمر (إسماعيل)، **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
- (3) أنيس (إبراهيم)، **منتصر عبد الحليم، العوالم عطية، محمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط**، الطبعة الثانية ج (1)، أشرف على الطبع حسن علي عطية، أحمد شرفي أمين، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004.
- (4) الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحمودي)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، الجزء الخاص بالقارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، تحقيق إسماعيل الغربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

- (5) البرتلي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق)، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد الكتاني، محمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1402هـ-1982م،
- (6) ابن بسام الشتريني (أبو الحسن علي)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الطبعة (1)، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1979.
- (7) ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود)، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، 1955.
- (8) ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد إبراهيم اللواتي)، تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، ط 1، الرباط، 2019.
- (9) البكري (أبو عبيد الله) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، المطبعة الحكومية، الجزائر، 1857.
- (10) البكري (أبو عبيد الله) المسالك و الممالك، دار الغرب الإسلامي بيروت. 1992 م ج2
- (11) أبو بكر (بن أحمد المصطفى)، منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور، دراسة وتحقيق محمد الأمين ولد حمادي، موريتانيا خلال القرن التاسع عشر، ط (1) 2011،
- (12) البيزق (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.
- (13) الحموي ياقوت بن عبد الله البغدادي (الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله)، معجم البلدان، ج(4) دار صادر، بيروت، 1977.

- 14) الحميري (محمد بن عبد المنعم): **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، 1971.
- 15) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979.
- 16) حوليات تيشيت، **مذكرة ختم دروس جامعية**، تحقيق محمد ولد لمرايط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، انواكشوط، 1992م.
- 17) حوليات ولاتة، **مذكرة ختم دروس جامعية**، تحقيق سيدي عبد الله ولد البخاري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، انواكشوط 1992م.
- 18) ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله)، **المسالك والممالك**، دار المدينة، مطبعة أبريل، ليون، 1889.
- 19) ابن الخطيب (لسان الدين)، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق عبد الله عنان، دار الطباعة والنشر، القاهرة، 1974م
- 20) ابن خلدون (عبد الرحمن)، **المقدمة**، تحقيق عبد السلام الشدادي الجزء الأول، الطبعة الأصلية، بيت الفنون والآداب الجزائر 2006.
- 21) ابن خلدون (عبد الرحمن)، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، المجلد (6)، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1968.
- 22) ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر)، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، الجزء (8)، دار الثقافة، بيروت، 1971.
- 23) ابن أبي زرع الفاسي (علي)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة، الرباط 1972.

- (24) ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف ابن يحي التادلي)، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي (617هـ - 1220م)**، تحقيق، احمد توفيق منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط ، ط1، 1997.
- (25) السعدي (عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر)، **تاريخ السودان**، تحقيق ونشر هوداس، وتلميذه بنوة، 1981.
- (26) ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى) ، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، الطبعة (2)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.
- (27) السملالي بن إبراهيم العباس ، **الأعلام بمن حل بمراكش وأغامت من الأعلام**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1976.
- (28) الشنقيطي (أحمد الأمين)، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، دار الطباعة والنشر، القاهرة، ط:4، 1989.
- (29) شيخ الربوة (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي)، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، دار إحياء التراث العربي، ط (1)، بيروت، 1988.
- (30) ابن عذاري (المراكشي) ، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج (4) دار الثقافة ط (3) بيروت 1983.
- (31) عماد الدين (أبو الفداء إسماعيل محمد بن عمر صاحب حماه)، **تقويم البلدان**، تحقيق مستشرقين فرنسيين، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1850.
- (32) عياض اليعصبي السبتي (القاضي أبو الفضل عياض بن موسى)، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك**، المجلد (3)، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ودار مكتبة الفكر، طرابلس الغرب، 1967.
- (33) عياض اليعصبي السبتي (القاضي أبو الفضل عياض بن موسى)، **كتاب الغنية**، فهرست القاضي عياض، تحقيق محمد بن عبد الكريم، دار صادر، بيروت 1978..

- (34) ابن فرحون (الامام القاضي إبراهيم نور الدين المالكي)، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.
- (35) الفيروز آبادي (محمد بن يعقوب مجد الدين)، **لسان العرب**، القاموس المحيط، ج 4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005.
- (36) القزويني (زكرياء محمد بن محمود)، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر بيروت، 1969.
- (37) القلقشندي (أبو العباس أحمد)، **نهاية الأرب في أنساب العرب**، تحقيق إبراهيم الأنباري، دار الكتاب لبنان، بيروت، 1980.
- (38) الكنتي (سيدي محمد الخليفة)، **الرسالة القلاوية، من نصوص التاريخ الموريتاني**، تحقيق حماه الله السالم، مؤسسة امرييه رب لإحياء التراث والتبادل الثقافي، مطبعة المعارف، الطبعة الجديدة، الرباط، 2007م.
- (39) مارمول (كريخال)، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد ازنيبرج، دار النشر والمعرفة الرباط، 1989م.
- (40) مجموعة أبحاث تكداودست (أوداغست) ج (2)، **حصيلة قرن من البحث الأثري، أسبار حفريات القرن 20**، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط 1971.
- (41) مجهول (مؤلف أندلسي من أهل القرن 8هـ)، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979.
- (42) مجهول (مؤلف مغربي من أهل القرن 6هـ)، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق د.سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، 1986.

- (43) محمود كعت (النتبكتي)، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس، تحقيق آدم بمبا، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2014.
- (44) المرادي (أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي القيرواني)، الإشارة في تدبير الإمارة، الطبعة (1)، دراسة وتحقيق د.رضوان السيد، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981.
- (45) المقري التلمساني (أحمد بن محمد) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، الجزء (8)، دار صادر بيروت، 1968.
- (46) ابن المنظور الأنصاري (جمال الدين)، لسان العرب، القاموس المحيط، الجزء (4)، دار صادر بيروت، 2010.
- (47) الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي)، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج (2)، دار البيضاء 1954م .
- (48) النويري (أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق د.مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.
- (49) الوزان ليون الإفريقي (الحسن بن محمد)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة (2)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
- (50) الونشوسي (أبو العباس أحمد بن يحيى)، المعيار المغرب والجامع المغرب، خرجه جماعة فقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، ج (1)، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، 1981.
- (51) اليعقوبي، (أحمد بن أحمد أبي يعقوب بن واضح)، كتاب البلدان، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، 1959.

ثالثا: المراجع

- (1) ابيريونت، إمارة أدرار المدينة، الحريم، التنافس في مجتمع قبلي صحراوي، د.محمد بوعليبة بن الغراب، دار النشر جسور، 2010.
- (2) ابن أحمد فال إبراهيم ، التراث الثقافي والمعماري لمدينة ولاته التاريخية، ط1، دار كنوز التراث، الدار البيضاء، 2021.
- (3) الأحمر محمد المصباح ، تاريخ العلاقات العربية الإفريقية، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت 2001.
- (4) الأليسكو، المعجم الموحد للمصطلحات الآثار والتاريخ، تونس، 1993.
- (5) ابن البراء يحيى، الفقه والسلطة والمجتمع، انواكشوط، الناشر المعهد الموريتاني للبحث العلمي. ج (1)، 1994
- (6) جماعة من الباحثين، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية، الصحراء والساحل ، إشراف روبرير فيرنى، ترجمة بوبه محمد نافع، كريات بنواكشوط 1982.
- (7) ابن حامدن المختار، حياة موريتانيا الجزء الجغرافي، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، انواكشوط، 2011.
- (8) ابن حامدن المختار، حياة موريتانيا السياسية، مرقون، محفوظ بقسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط.
- (9) حسن إبراهيم، انتشار الإسلام في القارة، الطبعة (3)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1984.
- (10) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين، الطبعة (1)، مكتبة الخانجي بمصر، 1980.
- (11) ابن الحسين الناني ، صحراء المثلثين دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط، دار المدار الإسلامي بيروت، الطبعة (1)، 2007.
- (12) الخولي محمد بدر الدين، المؤثرات المناخية والعمارة العربية، بيروت، دار المعارف 1975م.

- 13) الدالي الهادي، الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الإسلامية بغرب إفريقيا، دار حنين للطباعة والنشر، بيروت، 1996.
- 14) دندش عصمت عبد اللطيف، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا 430 - 515هـ / 1038 - 1121م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988.
- 15) الدولاتي عبد العزيز، المدن العربية التقليدية بين الأصالة والمعاصرة، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، تونس، 1985م.
- 16) زكي عبد الرحمن، تاريخ الدول الإسلامية بإفريقيا العربية، المؤسسة العربية الحديثة، الطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1980.
- 17) ابن السالم حماد الله، المجتمع الأهلي الموريتاني، مدن القوافل (1591 - 1898م)، الطبعة الأولى، بيروت، آذار مارس 2008م.
- 18) ابن السالم حماد الله، موريتانيا في الذاكرة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005م.
- 19) ابن السالم حماد الله، تاريخ بلاد شنقيطي (موريتانيا) من العصور القديمة الى حرب شريبه الكبرى بين أولاد الناصر ودولة لبدوكل اللمتونية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2010.
- 20) ابن السعد محمد المختار، حرب شريبة وأزمة الجنوب الموريتاني خلال القرن 17م، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، انواكشوط، 2012.
- 21) سعدون عباس نصر عبد الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985.
- 22) ابن سيدي أحمد، موريتانيا الماضي المتحرك والمكان المؤثر والصراع ضد الطرد من الزمن، المطبعة العربية بن عروس تونس، ط1، 1990.
- 23) الشنقيطي محمد ابن أبي مدين، المنحة، مطبعة العهد الجديد الرباط - 1959.

- 24) الصلابي محمد عالي، الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، عالم الكتب للطباعة والنشر، القاهرة، 2007.
- 25) ابن عبد الله عبد العزيز، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة الصحراء، 2013.
- 26) العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، الجزء الأول، المركز العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1984.
- 27) عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، دار النشر الشروق، بيروت، 1990.
- 28) الفيتوري عطيه مخزوم، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء مرحلة انتشار الإسلام، دار الكتب الوطنية، بن غازي ط 1، 1998.
- 29) قداح نعيم، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، مكتبة الاطلس، دمشق، 2019.
- 30) مارتي بول، القبائل البيضاوية في الحوض والساحل وقصة احتلال فرنسا للمنطقة، الناشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بلغازي ليبيا، تعريب محمد محمود ودادي. 2001
- 31) المجذوب عبد العزيز، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985.
- 32) محمد عبد الحي محمد شعبان، الدولة العباسية، الفاطميون (750م / 1055م) (132هـ / 448هـ)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1981.
- 33) محمود أحمد حسن، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، دمشق 2007،
- 34) مرزوق محمد عبد العزيز، الفن الإسلامي، مطبعة اسعد، ببغداد 2015.
- 35) الموسوي مصطفى عباس العوامل التاريخية، النشأة وتطور المدن العربية والإسلامية، دار الرشيد ببغداد 1982م

- (36) ابن ميايى حماء الله، مدينة تيشيت، رسائل وأشعار من القرنين الثاني والثالث عشر الهجريين، جمع وتقويم وتحقيق دار الطبعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2014.
- (37) النجار عبد المجيد عمر، فصول في الفكر الإسلامي في المغرب الإسلامي، دار الفكر الاسلامي بيروت، 1992.
- (38) النحاس أسامة، عمارة الصحراء، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (بدون تاريخ).
- (39) النحوي الخليل، بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض الحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، المطبعة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.
- (40) نصحي إبراهيم، المدينة عبر العصور، أصلها، تطورها، نشأتها، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، 1964.
- (41) الهلالي أحمد مولود ولد أيده ، مدن موريتانيا العتيقة، قصور ولاتة، ودان، وتيشيت وشنقيط، دار أبو الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014.
- (42) الهيبي صبري فارس ، جغرافية المدن، الطبعة الأولى ، دار الصفا للنشر والتوزيع، عمان، 2002.

الأطاريح الجامعية:

- (1) ابن أحمد تلمود احمد، شنقيط، دراسة جغرافية، شهادة الكفاءة في البحث كلية العلوم الاجتماعية، تونس، 1993م.
- (2) أسعد فايزه، العادات الاجتماعية والتقاليد في الوسط الحضري بين التقليدي والحداثة، وهران واندرمه نموذجاً، جامعة وهران، أطروحة دكتوراه، 2013م.
- (3) ابن أيده أحمد مولود، مدن موريتانيا الوسيطة، دبلوم الدراسات المعمقة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2001 - 2002م.

- (4) اليزيد حمدوني علمي، **جغرافية المدن ج(1)** كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز، فاس، 2003-2004.
- (5) حمودي الطيب بلاه، **الاركيولوجيا الموريتانية من خلال أسبار حفريات القرن العشرين** حصيلة قرن من البحث الأثري في موريتانيا، رسالة الماجستير، جامعة نواكشوط، 2017-2018.
- (6) بنت سيدي ميمونة ، **المدن الموريتانية القديمة وسبل انقاذها**، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، سايس، السنة الجامعية (2011-2012م) (1432/1433هـ).
- (7) ابن صالح خلدون محمد خيرى ، **واردات مدينة مراكش من القرن (5 - 6 هـ)**، (11 - 12م) دراسة سياسية وحضارية، رسالة الماجستير، جامعة اليرموك، 1999م.
- (8) قادري سهيله، **انتشار الإسلام في السودان الغربي**، مذكرة لنيل شهادة الاجازة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة مولاي طاهر (سعيدة)، الجزائر، 2016-2017.
- (9) كريمي ماجدة، **العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني** رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط، 1988-1989م.
- (10) ابن محمد الهادي محمد المختار، **النضال السياسي الوطني في موريتانيا**، أطروحة دكتوراه، جامعة الموصل، بغداد، 1997م.
- (11) المستعين عبد الباسط، **المدن والمراكز الحضرية بالسوس بين : (668هـ/1269)** و(1081هـ 1670م)، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، فاس 2009م-1430هـ)
- (12) مولاي محمد ، **القضاء ببلاد السودان الغربي من أواخر القرن التاسع الهجري (15 - 18م)**، أطروحة دكتوراه، تونس السنة الجامعية 2018 . 2019م،

13) ابن يـكـبر المـصـطـفـى، صـحـراء المـلـثـمـين والسـودان الغـربـي مـجـالـات التـواصـل عـلـى عـهـد المـرابـطـين، أطـروحة لـنـيل الدـكـتـورا، جـامـعة سـيـدي مـحـمـد بـن عـبـد الله، كـلـية الآداب والعلوم الإنـسـانـية، سـايس – فاس، كـلـية الزـيـتـونة 2010-2011

المقالات والمجلات والندوات العلمية:

- 1) أباه محمد المختار، "حول تاريخ وادان"، مجلة شنقيط، تصدر المؤسسة الوطنية لحماية المدن القديمة، انواكشوط موريتانيا، ص 8-9، العدد: 2013/07.
- 2) أشرف بوي محمد، "تاريخ مدينة تيشيت"، مجلة شنقيط، محاضرة مطبوعة، الاتحاد الموريتاني للنشر والتوزيع، ص 4-5، العدد 1، 2013.
- 3) أطوير الجنة الطالب أحمد، "المخطوطات في المدن التاريخية الواقع والتحديات"، مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي والتكوين في مجال التراث والثقافة، ص 72-73، العدد 17، 1441هـ - 2019م.
- 4) حسن المحمودي رجاء، العناصر الاقتصادية في السكة الذهبية، ترجمة المختار محمدين، أعمال الندوة الدولية حول الحركة المرابطية 15 إلى 17 أبريل، جامعة نواكشوط، 1996.
- 5) الحسين الناني، "مظاهر ندرة المياه في موريتانيا، العصر الوسيط"، مجلة مختبر الدراسات والبحوث التاريخية، العدد (6)، ص 26-67، كلية الآداب والعلوم الإنسانية انواكشوط موريتانيا، 2017.
- 6) حنن ولد متالي، "نبذة عن مدينة وادان وماضيها الزاهر"، مجلة شنقيط، الاتحاد الموريتاني للنشر والتوزيع، ط1، 2013.
- 7) الداه محمد الأغظف، "ولاته بين المستقبل المشرق وتحديات الواقع والتطلع للمستقبل"، مجلة شنقيط عن الاتحاد الموريطاني للنشر والتوزيع وزارة الثقافة والشباب والرياضة، ص 9-10، الطبعة الأولى، 2013.

- (8) دنيز روبير شالكس، "آزوكي: عرض للأعمال التحضيرية للحفر"، المعهد الوطني للبحث العلمي، باريس، أعمال الندوة الدولية حول الحركة المرابطية جامعة انواكشوط، 1996.
- (9) سيزون برنار، "حصيلة وآفاق البحث الأركيولوجي"، ترجمة بوبة محمد نافع، المعهد الوطني للبحث العلمي، باريس، أعمال الندوة الدولية حول الحركة المرابطية، جامعة انواكشوط، 1996.
- (10) شويرمان جان بول، تقرير حول أعمال ترميم جامعة تيشيت، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، (بدون تاريخ).
- (11) عبد الله عبد الودود، "ديناميكيات تشكل الهوية في فضاء بلاد شنقيط-أزواد"، مجلة مختبر الدراسات والبحوث التاريخية حول موريتانيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 6، الصفحات 220-221، 2017، جامعة انواكشوط، موريتانيا.
- (12) عبداوة السني، "الإمام المجذوب فيلسوف متصوف و مصلح مغمور"، موقع الزمان الإخباري، 2013، ص 3-4، تاريخ الزيارة، 2018/12/02.
- (13) الكتاب محمد الأمين، "واديان من تأمل إلى تمثل المستقبل"، مجلة شنقيط، تصدر المؤسسة الوطنية لحماية المدن القديمة، ص 14-15، انواكشوط موريتانيا
- (14) ولد متالي ولد محمدين، "نبذة عن مدينة واديان"، مجلة شنقيط، تصدر المؤسسة الوطنية لحماية المدن القديمة، ص 9-10، انواكشوط موريتانيا، العدد 2013/07.
- (15) محمد بشير، "ولاته الماضي والحاضر والمستقبل"، ص 2-3، مجلة شنقيط عن الاتحاد الموريتاني للنشر والتوزيع، وزارة الثقافة والشباب والرياضة، 2013.
- (16) المختار السعد محمد، عوائق البحث في التاريخ الموريتاني، مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، العدد 2، 1988، ص: 28-29
- (17) المروان عالي، "الشعر في ولاته من النشأة إلى اليوم"، مجلة شنقيط عن المؤسسة الوطنية لحماية المدن القديمة، ص 16-17، ط 2، 2014، انواكشوط موريتانيا.

- 18) ميايى حماه الله ، "دور تراث مدينة تيشيت في تميمتها"، مجلة شنقيط، عن المؤسسة الوطنية لحماية المدن القديمة، ص 16-17، انواكشوط موريتانيا
- 19) الهلالي أحمد مولود / أيده ، "روايات تأسيس ولاتة وودان وتيشيت وشنقيط بين الأسطورة والتاريخ"، مجلة شنقيط، ص 6-7-8، جامعة شنقيط العصرية، العدد الثاني، 1430هـ - 2009م.

المقابلات:

- (1) ابن أحمدان المصطفى، دور المحاضر، شنقيط، باحث في التراث الشنقيطي تاريخ الميلاد 1940، تاريخ المقابلة: 2018/03/13، بمنزله بمدينة شنقيط.
- (2) ابن اميريك أحمد، بناء، تاريخ الميلاد: 1948 في وادان، تاريخ المقابلة: 2019/05/17.
- (3) ابن أهنّ محمد الشيخ ولد أحمد ، تاريخ الميلاد: 1960، باحث في مجال التراث، وادان، إمام مسجد وادان، تاريخ المقابلة: 2020/02/08 في انواكشوط
- (4) ابن بوعسرية بوي أحمد ولد حماه ، تاريخ الميلاد، 1966 بتيشيت، باحث في مجال التراث، مكان المقابلة: انواكشوط بتاريخ 2020/02/23.
- (5) ابن بيروك عدنان ، تاريخ الميلاد/ 1940 أطار، باحث، الوظيفة: مدير هيئة المدن القديمة، مكان المقابلة: انواكشوط بتاريخ 2020/02/10.
- (6) ابن سيد ابلال لبات، بناء، تاريخ الميلاد: 1950 وادان تاريخ المقابلة: 2019/05/17.
- (7) ابن الشيخ ارمطين، تاريخ الميلاد: 1951 في شنقيط، تاريخ المقابلة: 2019/01/13.
- (8) ابن محمد محفوظ ، تاريخ الميلاد: 1961 في بومديد، تاريخ المقابلة: 2021/02/22، المكتب: رئيس المصلحة الإدارية بمؤسسة المدن القديمة.
- (9) ابن ياي بوي أحمدو ولد عبد الله المولود بشنقيط 1969 (ابن مدينة وادان)، صاحب مكتبة قديمة بمدينة وادان تحوي بعض المخطوطات، مقابلة بتاريخ: 2020/09/29.

المواقع الإلكترونية

- www.slamw.eb.net
- www.shorokne.ws.com
- www.alavaby.Co.uk
- www.Ndependentarabia.com
- www.facebook.com
- <https://mamarefa.org>
- www.facebook.com
- www.walbynae/fiv
- www.noonpost.com
- www.wlquds.com.uk
- www.culture.gov.mr
- www.slamw.eb.net
- www.alquads.com.uk
- www.ahlahdeeth.com.hg
- www.elhourriya.net/2017.html
- <https://ar.wikipedia.org>
- www.alkhbar.info
- www.culture.gov.mr
- www.google.com
- www.tabrenkout.com
- [موقع الزمان إينفو الاخباري](#)
- <https://m.facebook.com/story>
- [. www.alquds.com.uk.du:26l03l2019](http://www.alquds.com.uk.du:26l03l2019)
- <https://ar.ar.fqcebook.com.2011>

المصادر والمراجع الأجنبية:

1. Bonte, Pierre. **L'Emirat de l'Adrar Mauritanien. Harîm, compétition et protection dans une société tribale saharienne**, Paris, Karthala, 2008.
2. Bourdieu, Pierre. **La maison ou le monde renversé, Esquisse d'une théorie de la pratique. Précédé de « Trois études d'ethnologie kabyle »**, sous la direction de Bourdieu Pierre. Librairie Droz, 1972. p : 45-59.
3. Chaleix, Robert. « **Céramiques découvertes à Tegdaoust** » Tegdaoust III, Recherches sur Aoudaghost. 1999. P: 245-294
4. Daveau, Suzanne. « **Itinéraire de Tamadalte à Awdaghost selon Al-Bakri** ». Tegdaoust I, Paris, 1970.
5. Delafosse, Maurice. « **Haut-Sénégal-Niger (Soudan français)** ». Première série. Tome II, L'histoire / préf. de M. le gouverneur Clozel. Paris, 1912.
6. Denise, Robert and Serge Robert. **Douze années de recherches archéologiques en République islamique de Mauritanie**. Annales de la Faculté des Lettres. Dakar, 1972, P: 195-233.
7. Department of the Arts of Africa, Oceania, and the Americas. « **The Empires of the Western Sudan: Ghana Empire** ». In Heilbrunn Timeline of Art History. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2000.
8. Devisse, Jean. « **Histoire Générale de l'Afrique** » – Projet de l'UNESCO. Paideuma, vol. 22, 1976, pp. 1–4.
9. Devisse, Jean. « **La question d'Audagust** », in Tegdaoust I, recherches sur Aoudaghost, Paris, Arts et Métiers graphiques, 1970. p: 56-109.
10. Devisse, Jean. « **Stratigraphie et architecture** » , Tegdaoust III, Paris, 1983, p : 31-244.
11. Devisse, Jean.. « **Recherches sur Aoudaghost** », Tegdaoust III, Enquêtes générales, Paris, 1960.
12. Échallier, Jean-Claude. « **Sur quelques détails d'architecture du Sahara** », Le Saharien, n° 42 et 44, Paris, 1966-1967.
13. EL Alaoui, Abdelaziz. « **Le Maghreb et le Commerce Transsaharien (milieu du X^e- milieu du XIV^e) Contribution à l'histoire économique, sociale et politique du Maroc Médiéval** », Université de Bordeaux III, (Institut Arabes et Islamiques), 1983.

14. Ki-Zerbo, Joseph. « **Histoire de l'Afrique Noire. D'hier à Demain** ». In: Revue française d'histoire d'outre-mer, tome 61, n°222, 1er trimestre 1974. pp. 158-159.
15. Lewicki, Tadeusz. « **L'origine Nord-Africaine de Bafour** », Actes du deuxième, congrès international d'études des cultures de la méditerranée occidentale, Alger, 1978.
16. Marcais, gorges. « **L'architecture Musulmane d'Occident** », paris, 1955.
17. Marty, Paul. **Études sur l'Islam et les tribus du Soudan**, Tome 3, Paris, Hachette Bnf, 1920-1921.
18. Mauny, Raymond. « **Etat actuel de la question de Ghana** ». Bulletin de l'IFAN, série B, tome XIII, Dakar, 1951, p : 293-599.
19. Mauny, Raymond. « **Les siècles obscurs de l'Afrique Noire** », tome 42, fascicule 2.1972.
20. Mauny, Raymond. « **Tableau Géographique de L'ouest Africain au Moyen-Age d'après les Sources Ecrites** », la tradition et l'archéologie, Dakar, IFAN, 1961. Réédition Amsterdam, 1967.
21. Meunié, Jacques. « **Cités caravanières de Mauritanie — Tichite et Oualata** ». In: Journal de la Société des Africanistes, tome 27, fascicule 1. 1957, P : 19-35.
22. Monod, Théodore . « **Sur Quelques construction anciennes au Sahara occidental** », société géo-archéologie, Oran, 1948.
23. Monteil, Charles. **Une cité soudanaise. Djenné, métropole du delta central du Niger**, Paris . Société d'Editions Géographiques, Maritimes et Coloniales - 1932.
24. Mouny, Raymond. « **Notes d'histoire Et d'archéologie sur Azougui, Chinguetti et Ouadane** ». Bull. de l'IFAN, Série B, Tome XVIII, 1956, p.142-162.
25. Ould Cheikh, Abd El Wedoud & Saison, Bernard. « **Le théologien et le somnambule: Un épisode récent de l'histoire Almoravide en Mauritanie** », Canadian Journal of African Studies / Revue canadienne des études africaines, 19:2, 1985. P : 301-317.
26. Ould Cheikh, Abdel Wedoud et LAMARCHE B., « **Deux villes anciennes de Mauritanie : Ouadane et Chinguetti** », Nouakchott, 1995.

27. OULD MAOULOUD. Mohamed. « **Tichitt avant le déclin** », Université de Paris I Panthéon- Sorbonne, 1985.
28. Paule, Marie et Buffet. Hugot. « **Tichitt, Mauritanie du Sud-Est** », Université de Lyon, Paris, 1977.
29. Polet, Jean. « **Fouille d'UN quartier de Tegdaoust urbanisme et architecture** », Tegdagoust IV, Paris, 1984.
30. Puigaudeau. « **Arts et Coutumes des Maures II** », Hespéris-Tamuda, tome IX. 1968.
31. Saison, Bernard. « **Azugi : Archéologie et Histoire en Adrar Mauritanien** », Recherche, Pédagogie et Culture, n° 55. 1981, p. 66-74
32. Sékéné, Mody. **Histoire de l'Afrique occidentale moyen Age et Temps moderne du ville sa présence Africaine**, Paris, 1960.
33. Serge, Robert. « **Archéologie et Bilad Es-sudan, à L'époque almoravide** », Actes du colloque sur le mouvement Almoravide, Nouakchott, 1997.
34. Sophie, Berthier. **Recherches Archéologiques sur la capitale de l'Empire de Ghana. Etude d'un secteur d'habitat à Koumbi Saleh, Mauritanie : campagnes II-III-IV-V (1975-1976)-(1980-1981)**. Archeopress, 1997.
35. Thomassey, Paul et Mauny, Raymond. « **Campagne de fouilles de 1950 à Koumbi Saleh** », Bulletin de l'IFAN, tome 18, 1956.
36. Vanacker, Claudette.: « **Recherches sur Aoudaghost, fouille d'un quartier artisanal** », Tegdaoust II, mémoire de l'imrs N 2, imprimerie sopizet, 1979.
37. Vicent, Monteii. **Essai le Chameau au Sahara, occidental**. Centre IFAN - Mauritanie - Saint-Louis – Paris, 1952.

فهرسة الخرائط

الصفحة	عنوان	رقم
17	خريطة المدن الصحراوية الوسيطة المشمولة بالدراسة	1
61	خريطة توضح طرق الفترة المدروسة القرن 11 الميلادي	2
91	خريطة توضح مسار انطلاق جيش المرابطين من مدينة أزوكي	3
138	خريطة الطريق الرابط بين أوداغست ومراكش وسجلماسة	4
271	خريطة توضح الحي القديم بمدينة ولاتة	5
313	خريطة توضح الحي القديم بوادان	6
342	خريطة توضح الحي القديم بمدينة تيشيت	7
380	خريطة توضح الحي القديم بمدينة شنقيط	8

فهرسة الصور

الصفحة	عنوان الصور	رقم
28	رسوم ونقوش من العصر الحجري الحديث	1
71	صورة توضح سير القافلة في الصحراء	2
86	صور من حفريات أزوكي تظهر سمك الجدران	3
88	جانب من حفريات قلعة لقصيبة بأزوكي	4
90	ضريح الإمام الحضرمي	5
92	لوحة تعريفية لموقع أزوكي	6
96	صور من حفريات أزوكي	7
120	دنانير مرابطية من متحف انواكشوط	8
120	دنانير مرابطية من المعهد العلمي	9
121	ضريح الأمير أبو بكر بن عمر	10
123	صور توضح بعض الأدوات المستعملة في مدينة أزوكي	11
136	لوحة مدينة أوداغست الأثرية	12
140	صورة من أطلال مدينة أوداغست	13
143	بئر محفورة في منزل بأوداغست	14
148	خزفيات ذات قاع محدب	15
149	خزفيات بدون أعناق	16
149	خزفيات ذات أعناق	17
150	خزفيات ذات قاع مسطح	18
151	الخزفيات المميزة	19
152	الخزف المزخرف بالمينا	20
153	قالب لصهر النحاس	21
154	نموذج من الحلي في أوداغست	22

157	أطلال مسجد في أوداغست	23
161	أطلال مدينة أوداغست	24
169	صورة مشتقة مصممة في سكن ملك أوداغست	25
188	نماذج من الحلي المستعملة بمدينة أوداغست	26
209	صورة لعملية حفر في مدينة كومبي صالح	27
216	أطلال مسجد كومبي صالح	28
217	صورة أثرية لمنزل مكشوف في مدينة كومبي صالح	29
218	صورة أثرية لأطلال كومبي صالح	30
221	صورة كوة حجرية بكومبي صالح	31
224	خزفيات من كومبي صالح	32
225	صورة خزفية (قدر ماء) كومبي صالح	33
233	قميص من حفريات كومبي صالح	34
252	سرج مكتشف في كومبي صالح	35
276	مسجد ولاته بعد الترميم	36
277	مسجد ولاته بعد خضوعه لترميمات سابقة	37
279	تصميم البيت الولاتي	38
282	نماذج من مداخل البيوت الولاتية	39
282	صحن البيت الولاتي مفروش بأسرة قديمة (تبريت وخبطة)	40
286	حي اكدنو بولاته	41
289	طرحة من زخارف ولاته	42
290	صورة توضح أشكال الزخارف الولاتية	43
292	نموذج من الطرحات الولاتية	44
302	وجبة المون و دي دي	45
317	مسجد وادان المندثر	46
318	مئذنة مدينة وادان مطابقة لمئذنة مسجد شنقيط	47

323	سور وادان العظيم	48
323	جانب من سور وادان	49
324	أطلال الحي القديم لمدينة وادان	50
327	شارع الأربعين عالما بمدينة وادان الأثرية	51
347	منظر جانبي لمسجد تيشيت	52
348	مدخل من مداخل مسجد تيشيت	53
353	مئذنة مسجد تيشيت	54
354	دار التلاميذ بمدينة تيشيت	55
355	نموذج من منازل مدينة تيشيت	56
356	مدخل بيت رئيسي (الغندري)	57
357	صحن بيت من بيوتات تيشيت	58
361	مدخل يوصل إلى مسكن القاضي (الظليلة)	59
389	منظر من مدينة شنقيط	60
391	مئذنة مسجد شنقيط	61
395	نموذج من شوارع مدينة شنقيط	62
399	ضريح من أقدم الاضرحة في المقبرة القديمة بشنقيط	63
400	أحد مدافن شنقيط القديم	64

فهرس المحتويات

5	مقدمة
14	الباب الأول: المدن الصحراوية الوسيطة المندثرة
14	الفصل الأول: التمدن بالصحراء: المفهوم والنشأة والتطور
14	المبحث الأول: التمدن بصحراء الملثمين
14	المطلب الأول: لمحة تاريخية عن المدن
18	أولا: مفهوم التمدن
21	ثانيا: ظاهرة التمدن بصحراء الملثمين
34	المطلب الثاني: وظائف المدن الصحراوية الوسيطة
35	أولا: المدن الصحراوية الوسيطة المندثرة
36	ثانيا: المدن الصحراوية الوسيطة الحية
42	المبحث الثاني: نبذة عن قيام الدولة المرابطية في الصحراء
42	المطلب الأول: نشأة وتطور الحركة المرابطية
42	أولا: النشأة
47	ثانيا: تطور الحركة المرابطية
49	المطلب الثاني: الحضور المرابطي في الصحراء
53	المطلب الثالث: التوسع المرابطي في المنطقة
55	المبحث الثالث: التجارة عبر الصحراء ودورها في نشأة المدن
56	المطلب الأول: المحاور التجارية
56	أولا: المحور الغربي
64	ثانيا: المحور الشرقي
66	المطلب الثاني: القوافل التجارية و نظامها
66	أولا: نظام القافلة
67	ثانيا: جهاز القافلة
71	المطلب الثالث: وسائل النقل والمقاييس التجارية
71	أولا: وسائل النقل
75	ثانيا: المقاييس التجارية
77	الفصل الثاني: مدينة أزوكي
77	المبحث الأول: النشأة والتطور
77	المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي
77	أولا: الموقع
78	ثانيا: نشأة مدينة أزوكي
80	ثالثا: أزوكي في المصادر التاريخية

82	رابعاً: أزوكي في الذاكرة الشعبية.....
85	المطلب الثاني: أزوكي والأبحاث الأثرية.....
87	أولاً: القلعة (لقصبة) :
89	ثانياً: المقابر:
91	المطلب الثالث: استنتاجات عامة.....
97	المبحث الثاني: أدوار المدينة.....
97	المطلب الأول: الدور السياسي لمدينة أزوكي.....
103	المطلب الثاني: الدور الاجتماعي.....
105	أولاً: الفئات الاجتماعية.....
107	ثانياً: العادات والتقاليد في مدينة أزوكي.....
116	المطلب الثالث: الدور الاقتصادي لمدينة أزوكي.....
123	المطلب الرابع: الدور العلمي والفكري.....
135	الفصل الثالث: مدينة أوداغست.....
135	المبحث الأول: النشأة والتطور.....
135	المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي.....
135	أولاً: الموقع الجغرافي.....
139	ثانياً: نشأة مدينة أوداغست.....
141	ثالثاً: إشكالية التسمية.....
141	المطلب الثاني: أوداغست والبحوث الأثرية.....
144	أولاً: المستويات العمرانية.....
148	ثانياً: الاكتشافات.....
152	ثالثاً: الأدوات المعدنية وصناعة المعادن واستعمال الأفران.....
156	المبحث الثاني: تصميم المدينة.....
156	المطلب الأول: العمارة الدينية.....
156	أولاً: المسجد:.....
157	ثانياً: الكتائب (دور المحاضر):.....
158	المطلب الثاني: العمارة السكنية.....
158	أولاً: المنازل:.....
161	ثانياً: الطرق و الممرات.....
161	ثالثاً: السوق.....
162	رابعاً: مواد البناء:.....
166	خامساً: المقابر.....
166	المبحث الثالث: أدوار المدينة.....
166	المطلب الأول: الدور السياسي.....
172	المطلب الثاني: الدور الاجتماعي.....

172.....	أولاً: سكان المدينة (فئات المجتمع)
176.....	ثانياً: العادات والتقاليد بأوداغست
179.....	المطلب الثالث: الدور الاقتصادي
183.....	أولاً: التجارة
194.....	ثانياً: الزراعة في مدينة أوداغست
196.....	ثالثاً: الثروة الحيوانية في مدينة أوداغست
199.....	المطلب الرابع: الدور العلمي والفكري
202.....	المطلب الخامس: التراجع الاقتصادي واندثار مدينة أوداغست
202.....	أولاً: العامل الطبيعي
204.....	ثانياً: العامل الاقتصادي
204.....	ثالثاً: العامل البشري
206.....	الفصل الرابع: مدينة كومبي صالح (غانه)
206.....	المبحث الأول: النشأة والتطور
206.....	المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي
206.....	أولاً: الموقع
207.....	ثانياً: نشأة مدينة كومبي صالح
208.....	ثالثاً: إشكالية التسمية
214.....	المطلب الثاني: تصميم المدينة
214.....	أولاً: العمارة الدينية
216.....	ثانياً: العمارة السكنية
225.....	ثالثاً: المقابر
226.....	المبحث الثاني: أدوار المدينة
226.....	المطلب الأول: الدور السياسي
228.....	المطلب الثاني: الدور الاجتماعي
228.....	أولاً: سكان المدينة
231.....	ثانياً: العادات والتقاليد
234.....	المطلب الثالث: الدور الاقتصادي
252.....	المطلب الرابع: الدور العلمي والفكري
262.....	المطلب الخامس: التراجع التجاري واندثار كومبي صالح
266.....	الباب الثاني: المدن الصحراوية الوسيطة الحية
270.....	الفصل الأول: مدينة ولاته
270.....	المبحث الأول: نشأة المدينة وتصميمها
270.....	المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي
270.....	أولاً: الموقع

271	ثانيا: نشأة مدينة ولاته
272	ثالثا: إشكالية التسمية
275	المطلب الثاني: تصميم المدينة
275	أولا: العمارة الدينية
278	ثانيا: العمارة السكنية
296	المبحث الثاني: أدوار المدينة
296	المطلب الأول: الدور السياسي
297	المطلب الثاني: الدور الاجتماعي
297	أولا: سكان المدينة
299	ثانيا: العادات والتقاليد
305	المطلب الثالث: الدور الاقتصادي
307	المطلب الرابع:
307	الدور العلمي والفكري
312	الفصل الثاني: مدينة وادان
312	المبحث الأول: نشأة المدينة وتصميمها
312	المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي
312	أولا: الموقع
313	ثانيا: نشأة مدينة وادان
315	ثالثا: إشكالية التسمية
316	المطلب الثاني: تصميم المدينة
316	أولا: العمارة الدينية
322	ثانيا: العمارة السكنية
331	المبحث الثاني: أدوار المدينة
331	المطلب الأول: الدور السياسي
332	المطلب الثاني: الدور الاجتماعي
333	أولا: سكان المدينة
335	ثانيا: العادات والتقاليد
337	المطلب الثالث: الدور الاقتصادي
339	المطلب الرابع: الدور العلمي والفكري
342	الفصل الثالث: مدينة تيشيت
342	المبحث الأول: نشأة المدينة وتصميمها
342	المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي
342	أولاً: الموقع
343	ثانيا: نشأة مدينة تيشيت

346		ثالثا: إشكالية التسمية
346		المطلب الثاني: تصميم المدينة
346		أولا: العمارة الدينية
354		ثانيا: العمارة السكنية
367		المبحث الثاني: أدوار المدينة
367		المطلب الأول: الدور السياسي
369		المطلب الثاني: الدور الاجتماعي
369		أولا: سكان المدينة
371		ثانيا: العادات والتقاليد
374		المطلب الثالث: الدور الاقتصادي
376		المطلب الرابع: الدور العلمي والفكري
379		الفصل الرابع: مدينة شنقيط
379		المبحث الأول: نشأة المدينة وتصميمها
379		المطلب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي
379		أولا: الموقع
380		ثانيا: نشأة مدينة شنقيط
387		ثالثا: إشكالية التسمية
388		المطلب الثاني: تصميم المدينة
388		أولا: العمارة الدينية
392		ثانيا: العمارة السكنية
400		المبحث الثاني: أدوار المدينة
400		المطلب الأول: الدور السياسي
402		المطلب الثاني: الدور الاجتماعي
404		أولا: سكان المدينة
404		ثانيا: العادات والتقاليد
407		المطلب الثالث: الدور الاقتصادي
408		المطلب الرابع: الدور العلمي و الفكري
412		الخاتمة :
417		قائمة المصادر والمراجع
436		فهرسة الخرائط
437		فهرسة الصور
440		فهرس المحتويات